جَوْهَرُ التّعاليم السّرّيّة

ٱلفَلسَفَةُ ٱلخَالِدَةُ

من نحن؟ الجزء الثامن



علاء الحلبي





من نحن؟ الجزء الثامن

جوهر التعاليم السريّة

الفلسفة الخالدة

علاء الحلبي

الطبعة الأولى
2015

الكتاب : جوهر التعاليم السرية - من نحن الجزء الثامن
تأليف : علاء الحلبي
الناشر : دار دمشق للطباعة والنشر والتوزيع
شارع بور سعيد - هاتف : ٢٢٤٨٥٩٩ - جوال : ٠٩٣٢٢٣٦٢٨٩٦
فاكس : ٢٢١١٠٢٢
س.ت : ٧٦٤٣ - ص.ب : ٥٣٧٢
بريد إلكتروني : dardimashq1954@gmail.com

حجاب إيزيس

مقدمة القسم الأول من كتاب:

"كشف الحجاب عن إيزيس"

Isis Unveiled

بقلم هيلينا بلافاتسكي H.P. Blavatsky

[١٨٧٧]

يوجد في مكان ما في هذا العالم كتاب قديم، وهو قديم جداً لدرجة أن خبراءنا الأثريين قد يتفكّروا فوق صفحاته طويلاً ومديداً، ومع ذلك لن يتفقوا حتى على طبيعة قماشة صفحاته التي كُتب عليها. إنه النسخة الأصلية الوحيدة الباقية. الوثيقة العبرية الأكثر قِدماً حول العلوم الخفية، وهي الـ"سيفرا دزينيوتا"، اقتُبِست أصلاً من هذا الكتاب العتيق، والذي حتى في زمن الاقتباس، كان الكتاب يُعتبر عمل أدبي ضارب في القِدم. إحدى الرسوم التي تحويها صفحاته تبيّن الجوهر الإلهي منبعثاً من "آدم" كما القوس المضيء ويسعى إلى تشكيل دائرة. وثم، بعد وصوله أعلى نقطة من محيطها، ينحني الألق المجيد المتعذّر وصفه للخلف، عائداً مرّة أخرى إلى الأرض، جالباً معه نوع بشري أكثر سمواً. خلال اقترابه رويداً رويداً إلى كوكبنا، يصبح الانبعاث أكثر تظليلاً وإبهاماً، إلى أن يصبح حالكاً كالليل عند ملامسة الأرض.

هناك إيمان راسخ، دام أكثر من سبعين ألف سنة كما تدعي المرجعيات، وتداوله الفلاسفة الهرمزيون عبر العصور المختلفة، يقول بأن المادة أصبحت مع مرور الوقت، وبسبب انتشار الخطيئة، أكثر كثافة وصلابة مما كانت عليه في زمن الإنسان الأول. وأنه في البداية، كان جسد الإنسان ذو طبيعة شبه أثيرية. وأنه، قبل السقوط، تواصل الإنسان بحريّة مع العوالم التي نعتبرها خفيّة الآن. لكن منذ ذلك الزمن أصبحت المادة تشكّل حاجزاً منيعاً بيننا وبين عالم الأرواح. أقدم التقاليد الإيزوتيرية تُعلّم أيضاً بأنه، قبل زمن آدم، عاش ومات العديد من الأعراق البشرية، كل عرق يفسح مكانه للعرق الآتي. هل كانت هذه الأعراق الأوّلية تتمتع بالكمال؟ هل انتمى أي منهم إلى العرق المجنّح الذي ذكره أفلاطون في كتابه "فايدروس" Phaedrus؟ إنه من اختصاص العلم أن يجد حلاً لهذه المعضلة. يمكن لكهوف فرنسا واللُّقى الأثرية للعصر الحجري أن تمثّل نقطة بداية مناسبة.

مع تقدّم الدورة الكونية صعوداً، راحت تتفتّح عيون الإنسان أكثر وأكثر إلى أن توصّل إلى معرفة "الخير والشرّ" وكذلك الملائكة ذاتها. بعد الوصول إلى قمّتها، راحت الدورة الكونية تنحدر نزولاً مرّة أخرى. عندما أصبحت الموجة عند نقطة متوازية مع المستوى الأرضي، كان الإنسان في حينها يرتدي جلود حيوانات زوّدته بها الطبيعة. ".. وأقدم الربّ على "كساءهم..".

هذا الاعتقاد بوجود أعراق أوّلية أكثر تطوراً روحياً من عرقنا يمكن ملاحظته في التقاليد القديمة لكل الشعوب تقريباً. في مخطوطة هنود "الكوينشي" Quiche العريق، والمنشور من قبل "براسور دي بوربورغ" Brasseur de Bourbourg، ويُسمى "بوبول فوه" Popol Vuh، ذُكر بأن الرجال الأوائل كانوا من عرق بشري استطاع الحديث والجدال المنطقي، وبصره غير محدود، ويعرف كل شيء بنفس الوقت. وفقاً لـ"فيلو جوداس" Philo Judaeus، الهواء مليء بجمهرة من الأرواح الخفية، بعضها غير شرّير وهو غير مؤذي، بينما البعض الآخر خبيث ومميت. من أبناء "أل" EL انحدرنا، ومثلهم سوف نكون مرة أخرى. والإفادة البيّنة التي وردت في كتاب يوحنا في الأنجيل، والتي تبشّر الذين يلتزمون بالتعاليم الباطنية لسيدنا يسوع سوف *"..يصبحون أبناء الله.."*، تشير إلى ذات الاعتقاد المتعلّق بالأعراق الأولى. *".. ألا تعرفون بأنكم آلهة؟.."*، صاح السيّد. في كتابه "فايدروس" يصف أفلاطون على نحو رائع تلك الحالة التي تمتع بها الإنسان في إحدى المرات، وما سوف يتمتع به مرّة أخرى، قبل وبعد أن فقد جناحيه. عندما عاش بين الآلهة، كان هو نفسه إله أيضاً في ذلك العالم الهوائي. منذ العصور الغابرة، علّمت الفلسفات الدينية بأن الكون بكامله كان مليئاً بكائنات روحية سماوية متعددة الأعراق. من إحدى هذه الأعراق نشأ مع الوقت "آدم" الإنسان الأوّل.

توصف قبيلة الـ"كالموك" Kalmuck وبعض القبائل الأخرى في سيبيريا في أساطيرها مخلوقات سابقة لعرقنا الحالي. يقولون بأن هذه الكائنات حازت على معارف غير محدودة، وتمادت جرأتها إلى حد التهديد بالتمرّد على الروح الرئيسي العظيم. في سبيل إذلالهم ومعاقبتهم على وقاحتهم، قام بسجنهم داخل أجسام، وأقفل منافذ حواسهم. يمكنهم الهروب من هذه السجون، لكن هذا لن يتحقق قبل فترة طويلة من التوبة، وتطهير النفس وتطويرها روحياً. يعتقد أفراد هذه القبائل بأن الشامانيين لديهم (أطباء القبائل، أو سحرتها) يتمتعون مؤقتاً بتلك القوى الإلهية التي كانت في يوم من الأيام ملكاً لكل البشرية.

لقد تم إغناء "مكتبة أستور" Astor Library في نيويورك مؤخراً بنسخة طبق الأصل لمخطوط مصري قديم يتناول بحث طبّي يعود تاريخ كتابته إلى القرن السادس عشر قبل الميلاد (وتحديداً ١٥٥٢ ق.م)، والذي حسب منهج التأريخ السائد عموماً، يعود إلى زمن كان فيه النبي موسى لازال في سن الثاني والعشرين من عمره. المخطوط الأصلي مكتوب على اللحاء الداخلي لنبات السعادى *Cyperus papyrus* (*جنس نبات من النجيليات، وهو نبات عشبي ينمو في المستنقعات*)، وقد صرّح البروفيسور "شينك" Schenk، من جامعة "ليبزيغ" Leipzig بألمانيا، واصفاً هذا المخطوط بأنه ليس أصلياً فحسب، بل هو المخطوط الأكثر كمالاً حتى الآن. هو مؤلّف من صحيفة واحدة من ورق البردى ذي اللون الأصفر ومن أجود الأنواع، عرضها ٣٠ سم وطولها ٢٠ متر، وتشكّل لفّة واحدة كاملة، ومُقسّمة إلى ١١٠ صفحة وجميعها مرقّمة بأناقة. تم شراء هذا المخطوط الأثري في مصر عام ١٨٧٢ من قبل عالم الآثار "أيبرز" Ebers، وكان البائع أحد الأغنياء المحليين من سكان الأقصر. علّقت جريدة "نيويورك تريبيون" على المناسبة قائلة: "..*يحمل هذا المخطوط دلائل ضمنية على أنه يمثّل أحد الكتب الهرمزية الستة حول الطب والتي تحدث عنها كليمنت الاسكندراني Clement of Alexandria*..".

يضيف محرّر الجريدة قائلاً: ".. في زمن إيامبليكوس Iamblichus، ٣٦٣ ميلادي، كشف كهنة مصر عن اثنين وأربعين كتاباً منسوباً إلى "هرمز" (واسمه "تيهوتي" باللغة المصرية القديمة). من بين هذه الكتب، ووفقاً لـ"إيامبليكوس"، ستة وثلاثون تحدثت عن تاريخ كامل المعرفة الإنسانية، والستة الأخيرة تناولت كل من علم التشريح وعلم الأمراض وأمراض العين وأدوات الجراحة والأدوية الطبيّة. ومن المؤكّد أن المخطوط الأثري المذكور سابقاً (مخطوط "أيبرز") يُعد أحد هذه الأعمال الهرمزية القديمة.

إذا استطاع إشعاع صغير من النور، ناتج من صدفة غير محسوبة جمعت بين عالِم آثار ألماني وأحد الأغنياء المحليين من سكان الأقصر، أن يضيء على جانب كبير ومهمّ من العلم المصري القديم، فكم من النور سيضيء على السراديب المظلمة للتاريخ إذا حصل لقاء آخر مشابه بين عالِم أثري متحمّس وأحد جامعي التُحف المحليين من مصر؟

اكتشافات العلم الحديث لا تتناقض مع أعرق التقاليد التي تدعي مدى القِدم السحيق لعرقنا البشري. خلال السنوات القليلة الأخيرة، بدأ علم الجيولوجيا يسلّم بحقيقة وجود آثار بشرية تعود

إلى الحقبة الترتيارية Tertiary period *(فترة جيولوجية بدأت منذ ٦٥ مليون سنة وانتهت منذ ٢٠٥ مليون سنة)*، وقد اكتشف دلائل دامغة على وجود إنساني يسبق الفترة الجليدية الأخيرة في أوروبا، أي منذ حوالي ٢٥٠ ألف سنة! هذه معضلة مستعصية يصعب على اللاهوت الديني حلّها بسهولة، لكنها اعتبرت حقيقة ثابتة لدى الفلاسفة القدماء.

بالإضافة إلى ذلك، تم نبش أدوات متحجّرة مع بقايا إنسانية، مما يشير إلى أن الإنسان كان يمارس الصيد في تلك العصور العتيقة، كما أنه عرف كيف يصنع النار أيضاً. لكن لم يُتخذ خطوات إضافية في هذا البحث عن أصل العرق البشري، حيث توقفت مسيرة العلم تماماً في هذا المضمار، بانتظار المزيد من الدلائل. لسوء الحظ، علم الأنثروبولوجيا وعلم النفس لم يشهدا شخصيات مميّزة مثل "كوفييه" Cuvier *(عالم بالحيوان فرنسي، أول من أوجد علم التشريح المقارن comparative anatomy وعلم الحفريات القديمة paleontology)*، ولا حتى علماء الجيولوجيا وعلماء الآثار استطاعوا تكوين صورة واضحة عن الكيان الإنساني الثلاثي، الجسدي والعقلي والروحي، بالاعتماد على القطع الأثرية القليلة التي اكتُشفت حتى الآن. لأن الأدوات المتحجّرة التي استخدمها الإنسان أظهرت المزيد من الهشاشة والفظاظة كلما اخترق علم الجيولوجيا أعماق الطبقات الصخرية للأرض، وجد العلم بأن هذا دليل واضح على أنه كلما اقتربنا من بدايات أصول الإنسان كلما زاد توحّشه وبهيميته. إنه منطق غريب فعلاً! هل تمثّل الاكتشافات الأثرية الحاصلة في كهف "ديفون" Devon (في إنكلترا) إثباتاً على عدم وجود أي عرق بشري معاصر بحيث يتمتع برقي حضاري متقدم؟ عندما يختفي السكان الحاليين للأرض من الموجود، ويأتي عالِم آثار ينتمي للعرق البشري القادم في المستقبل البعيد ويجري حفريات أثرية في موقع يسكن فيه الآن إحدى قبائل جزيرة "أندامان" (الهند)، هل سيكون صائباً عندما يستنتج بأن كامل العرق البشري الذي عاش في القرن التاسع عشر كان قريباً من العصر الحجري؟

لقد أصبح نهجاً سائداً مؤخراً اعتماد المفاهيم الواهية التي تؤكّد وجود ماضي بربري غير متحضّر. كما لو أنه ممكناً الاختباء وراء كلمة أو عبارة ساخرة يطلقها المثقف، وقد ساهم هذا الأسلوب بالفعل في صناعة الكثير من الفلاسفة العصريين! كما الحال مع "تيندل" Tyndall *(فيزيائي بريطاني)* الذي هو حاضر دائماً للسخرية من الفلاسفة القدماء، وهذا أسلوب اتبعه عدد من العلماء البارزين لنيل المجد والتكريم. والحال نفسه ينطبق على الجيولوجيين الذي يبدون أكثر ميلاً نحو فكرة أن كافة الأعراق البشرية القديمة كانت بشكل متزامن في حالة بربرية غبيّة. لكن

رغم ذلك كله، ليس كل المرجعيات العلمية تتفق مع هذا الرأي. بعض أبرز رجال العلم يؤكدون العكس تماماً. "ماكس مولر" Max Muller مثلاً، يقول: *".. الكثير من الأمور لازالت ملتبسة بالنسبة لنا، واللغة الهيروغليفية للقدماء لم تدوّن سوى نصف نوايا العقل اللاواعي. ومع ذلك تبقى صورة الإنسان، في أي مكان نلتقي به، شامخاً أمامنا، نبيلاً ونقياً منذ البداية.. حتى أخطاءه أصبحنا نفهمها، حتى أحلامه أصبحنا نفسّرها. بقدر ما استطعنا تقفّي أثر أقدامه للوراء، حتى في أعمق الطبقات الأرضية للتاريخ، نرى الهبة الإلهية الممثّلة بالعقل المتّزن ترافقه منذ البداية، وفكرة الصعود التدريجي للإنسانية من أعماق الوحشية الحيوانية لم تعد قادرة على الصمود بعد الآن.."*

مع الزعم بأنه يعتبر أمر غير فلسفي أن تبحث في الأسباب الأولى للأشياء، يشغل العلماء الآن أنفسهم في دراسة التأثيرات الفيزيائية *(أي النتائج وليس المسببات)*. هذا بالتالي يجعل مجال البحث العلمي محدوداً ضمن نطاق الطبيعة المرئية والملموسة. بعد إحراز حدوده القصوى، فلا بدّ من أن ينتهي هذا البحث، وعلى عملهم أن يُستأنف من جديد، لكن بعد العودة إلى نقطة البداية مرّة أخرى. مع احترامي الجزيل لرجال العلم، فإنهم كالسنجاب الذي يجري راكضاً داخل العجلة الدوارة في قفصه. حيث قُدّر لهم أن يكرّروا دراسة "المادة" مرّة بعد مرّة إلى ما لا نهاية. يمثّل العلم قوة جبارة، وليس علينا نحن الأقزام أن نساءله. لكن العلماء بذاتهم لا يجسّدون العلم بشموليته كما لو أن سكان الأرض يمثلون الكوكب بذاته. ليس لدينا الحق بطلب من، ولا القدرة على إجبار الفيلسوف العصري على تقبّل وصف جغرافي للجهة المظلمة من القمر. لكن إذا صادف وسقط أحد سكان القمر هرباً من كارثة أصابته، ووصل إلى الأرض سالماً معافى، وتحديداً عند باب منزل الدكتور "كاربنتر" Carpenter، فسوف يُدان بالتقصير عن واجبه الأكاديمي إذا فشل في إيجاد حلّ مناسب لهذه المسألة الفيزيائية. عندما يرفض رجل العلم فرصة في التحقيق بأي ظاهرة جديدة، إن كانت على شكل زيارة لأحد سكان القمر أو شبح من جوار المنزل، فإنه يستحق التوبيخ.

إن كنا توصلنا إلى الحقيقة عبر طريقة الفيلسوف "أرسطو" أو طريقة الفيلسوف "أفلاطون" فالأمر سيّان، وجب أن لا نتوقف عن البحث والتحقّق. لكنها حقيقة ثابتة أن طبيعتي الإنسان، الداخلية والخارجية، قد فُهمتا جيداً من قبل العلماء القدامى. على الرغم من الفرضيات السطحية لعلماء الجيولوجيا العصريين، بدأنا نحوز على دلائل يومية تدعم تأكيدات الفلاسفة القدماء. لقد قسّموا

العصور الطويلة للوجود الإنساني على هذا الكوكب إلى دورات زمنية، وخلال كل منها توصل الإنسان تدريجياً إلى ذروة الحضارة المتطوّرة ثم بدأ بعدها ينحدر تدريجياً نحو البربرية الوضيعة. يمكن تخمين مدى الرقي الذي أحرزه العرق البشري عدة مرات في العصور السابقة من خلال الصروح الأثرية القديمة التي لازالت قائمة اليوم، وكذلك الأوصاف التي قدمها "هيرودوتس" Herodotus للكثير من الصروح الأخرى التي كانت قائمة في أيامه لكنها مندثرة الآن دون أن تترك أثراً. حتى في زمانه كانت الهياكل العملاقة للكثير من الأهرامات والمعابد المشهورة عالمياً مجرّد كُتل من الركام والخرائب. رغم كونها مُبعثرة بفعل اليد القاسية للزمن، وصفها والد علمَ التاريخ (هيرودوتس) بأنها ".. شواهد موقّرة على زمن عتيق تألّقت فيه أمجاد الأسلاف القدامى..". لقد جفل في الحديث عن الأشياء المقدسة، لكنه رغم ذلك قدّم للأجيال القادمة وصف بسيط وغير مكتمل عن الحجرات الرائعة لمتاهة تحت أرضية كانت، ولازالت حتى الآن، تقبع مخفية داخلها البقايا المقدسة للملوك الأعضاء (المنتسبين إلى المدارس السريّة).

يمكننا كذلك تكوين صورة عن الحضارة الرفيعة التي أُحرزت في أحد العصور العتيقة من خلال الأوصاف التي تناولت فترة حكم البطالمة في مصر (بعد الاسكندر المقدوني)، رغم أن العلوم والفنون في تلك الفترة كانت تُعتبر في حالة تدهور وانحطاط، حيث كان معروفاً حتى في حينها أن أسرار تلك العلوم القديمة أصبحت ضائعة إلى الأبد. خلال التنقيب الأثري الذي أجري مؤخراً بالقرب من الأهرامات، تم نبش تماثيل خشبية وتُحف أثرية أخرى تدلّ على أنه قبل بزمن طويل من فترة السلالات الحاكمة الأولى، أحرز المصريين مستوى من الكمال الفنّي بحيث يُذهل حتى المعجبين المتحمسين للفنون الإغريقية. وصف "بايارد تايلور" Bayard Taylor هذه التماثيل في إحدى محاضراته، قائلاً لنا بأن جمال الرؤوس وزينتها، والعيون المكونة من أحجار كريمة والجفون المصنوعة من النحاس، لا تُضاهى بأي عمل فني آخر. عميقاً في الطبقات الرملية للموقع الذي حصل فيه هذا الاكتشاف، نُبشت بقايا أخرى تم جمعها من قبل الباحث الأثري "لبسيوس" Lepsius ومجموعة "أبوت" Abbott للمصريات في نيويورك وكذلك المتحف البريطاني، وتمثّل دلائل ثابتة على المبدأ الهرمزي حول الدورات الزمنية المذكورة سابقاً.

الدكتور "شليمان" Schliemann، الباحث المتحمّس للحضارة الهيلينية، اكتشف مؤخراً خلال تنقيبه الأثري في طروادة دلائل وفيرة على الحالة ذاتها، أي التغيير التدريجي من البربرية إلى الحضارة، ثم العودة من الحضارة إلى البربرية مرّة أخرى. لماذا إذاً نمتنع عن الاعتراف بإمكانية

أنه، إذا كانت حضارات ما قبل الطوفان متقدمة عنا في بعض العلوم والفنون، والتي نعتبرها ضائعة الآن، فلا بد من أنهم تفوّقوا أيضاً في العلوم الروحية؟ وجب اعتبار هذه الفرضية منطقية كغيرها إلى أن يظهر دلائل جازمة تساهم في إلغاء هذه الفرضية.

إن كل عالِم حقيقي يعترف بأن نواحي كثيرة من المعرفة الإنسانية لازالت في مرحلة طفولتها. هل من الممكن أن تكون دورة حضارتنا حديثة نسبياً؟ وفقاً للفلسفة الكلدانية، هذه الدورات الزمنية التي تشهد صعود الحضارات لا تشمل كامل الإنسانية مرّة واحدة. يؤكد البروفيسور "درابر" هذه النظرة جزئياً من خلال القول بأن العصور الزمنية التي وجدها علم الجيولوجيا مناسباً لتقسيم تطور الإنسان نحو الحضارة ليست فترات زمنية تساوى فيها تقدم العرق البشري بالكامل، وقدم مثال الهنود الحمر المتجولين في براري أمريكا والذين يُعتبرون حالياً بانهم بالكاد تطوروا من العصر الحجري. وهكذا يكون رجال العلم قد صادقوا مرة أخرى، دون قصد، على أقوال القدماء.

أي ضليع في تعاليم القبالة ومطلع على منظومة فيثاغورث الرقمية والهندسية يستطيع إثبات حقيقة أن أفكار افلاطون الميتافيزيقية استندت على أدق القوانين الرياضية. يقول "ماجيكون" Magicon: "*..الرياضيات الحقيقية هي تلك التي تتصل بها كل العلوم الرفيعة، بينما الرياضيات العامة هي مجرّد تخيّلات مخادعة والتي عصمتها المحمودة جاءت من سبب واحد هو أن المواد والظروف والعلاقات مثّلت أساسها..*". العلماء الذين يعتقدون بأنهم تبنوا طريقة أرسطو فقط لأنهم يدبدبون بدلاً من الجري من البراهين الجزئية نحو تلك الكونية، يمجدون هذه الطريقة من الفلسفة الاستدلالية ويرفضون تلك العائدة لأفلاطون والتي يعتبرونها بأنها مجرّدة من أي أساس واقعي. يعبر البروفيسور "درابر" عن امتعاضه من عدم اخذ فلاسفة تأملين وصوفيين مثل "أمونيوس ساتشاس" Ammonius Saccas و"أفلاطونين" Plotinus مكان "الهندسيين الكبار" (مثل أفلاطون) في المتحف القديم. نسي أن علم الهندسة هو الوحيد من بين كل العلوم الذي يبدأ من الكونيات وينتهي عند الجزئيات، وهذه هي الطريقة ذاتها التي اتبعها أفلاطون في فلسفته. طالما بقي العلم الدقيق يُسند ملاحظاته على الشروط المادية ويتبع طريقة أرسطو فإنه لن يفشل بكل تأكيد. لكن رغم أن العالم المادي غير محدود بالنسبة لنا لكنه مع ذلك يبقى محدوداً في النهاية، وبالتالي سوف يبقى المنهج العلمي المادي يدور إلى الأبد في دائرة باطلة، عاجزاً عن الارتقاء أعلى مما تسمح به حدودها.

الصيغة الرقمية لنظرية نشوء الكون التي تعلمها فيثاغورث من الكهنة المصريين قادرة وحدها أن تجمع بين العنصرين، المادة والروح، وتجعل كل منهما يشرح الآخر رياضياتياً. الأرقام المقدسة للكون، تعمل بتركيبها الباطني على حلّ أكبر المسائل وتشرح نظرية الإشعاع ودورة الانبعاثات. قبل أن تتطور المستويات الدنيا إلى مستويات عليا عليها أولاً الانبعاث من مستويات روحية سامية، وعند وصولها نقطة التحول تعود وتندمج مع المطلق مجدداً.

كما كل شيء آخر في هذا العالم، الفيزيولوجيا أيضاً (علم وظائف الأعضاء) تخضع لقانون الإيقاع الدوري. هذا العلم الذي بالكاد خرج اليوم من ظلال التخلف، سوف يأتي اليوم الذي يثبت حقيقة أنه كان في ذروة تقدمه حتى قبل أيام فيثاغورث. "موكوس" Mochus الصيداوي، الطبيب الذي درّس علم التشريح، ازدهر قبل حكيم "ساموس" (فيثاغورث) بزمن طويل، وهذا الأخير تلقى التعليمات المقدسة من تلاميذ مدرسته وأحفاده. فيثاغورث، الفيلسوف الخالص، الضليع المتعمّق بظواهر الطبيعة العميقة، الوريث النبيل للمعارف القديمة والذي كان هدفه الأعظم تحرير النفس من أغلال الحواس وإجبارها على إدراك قواها، من المفروض أن يعيش خالداً في ذاكرة البشر.

كل العلوم التي دُرّست في حرم المعبد كانت مغمورة بالحجاب المنيع للأسرار الخفية. هذا هو السبب الوحيد وراء عدم تقدير العلم العصري للفلسفات القديمة. حتى أفلاطون و"فيلو جودايـاس" Philo Judaeus تم إتهامهما من قبل النقّاد العصريين بالتناقض في تعاليمهما، حيث من الواضح أن الصيغة التي تستند عليها متاهة التناقضات الميتافيزيقية هي معقدة بالنسبة لقارئ كتاب "التيمايوس" لأفلاطون. لكن هل أحداً من قراء الفلسفة الكلاسيكية عرف كيف يقرأ كتب أفلاطون بشكل صحيح؟ هذا السؤال موجه إلى كل المراجع الكبار مثل "ستالباوم" و"شليرماخر" و"فيسينوس" (الترجمة اللاتينية)، و"هندورف" و"سيدنهام" و"بوتمان" و"تايلور" و"بورغز"، هذا ولم نقل شيئاً عن المرجعيات الأقل شأناً. التلميحات المخفية للأمور التجاوزية من قبل الفلاسفة الإغريق حيّرت هؤلاء النقاد بدرجة كبيرة. لم يكتفوا بالاقتراح، بكل وقاحة، بأن بعض الفقرات الصعبة ينقصها الأسلوب الصحيح في التعبير، بل قاموا بتحريفها لكي تصبح أكثر قابلية للفهم!

بكل تأكيد، يُنظر إلى الفلاسفة القُدامى، حتى من قبل أقلّ النقاد تعصباً، بأنهم يفتقدون للمعرفة بالعلوم الدقيقة التي يتباهى بها عصرنا الحالي. حتى انهم يتسائلون إذا كان أولئك الفلاسفة فهموا المبدأ العلمي الأساسي القائل بأنه ".. لا شيء يأتي من العدم.."، ويعلق النقاد

ساخرين: *".. إذا توقعوا عدم قابلية فناء المادة، فهذا الاستنتاج لم يأتي من معادلات علمية ثابتة بل عن طريق الاستدلال البديهي وعبر التشبيه المجازي.."*

لكننا نتمسك بالرأي المعاكس. كانت تأملات هؤلاء الفلاسفة بخصوص المادة مفتوحة أمام انتقادات العامة، لكن تعاليمهم بخصوص الأمور الروحية كانت باطنية عميقة. بسبب قسمهم بأن يحافظوا على سريّة التعاليم السريّة بالإضافة إلى التحريم الديني للمواضيع الغامضة المتعلقة بالمادة والروح، ما كان عليهم سوى المنافسة فيما بينهم حول من كان أكثر دهاءً في حجب آراءه الحقيقية ما بين سطور كتاباته.

لطالما تعرضت العقيدة المتعلقة بتناسخ الأرواح Metempsychosis للسخرية من قبل رجال العلم والرفض من قبل رجال اللاهوت، لكن لو تم فهمها بشكل جيّد وخصوصاً بعد إسقاطها على فكرة عدم إمكانية فناء المادة وخلود الروح حينها يمكن اعتبارها تمثّل مفهوم سامي وعظيم. أليس علينا أولاً النظر إلى الموضوع من زاوية سكان العالم القديم قبل ذمّ حكماءهم؟ إن حل المسألة الكبرى المتعلقة بالأبدية لا ينتمي للخرافات الدينية ولا المادية الدنيوية. إن التناغم والتناسق الرياضياتي للتطور المزدوج: الروحي والمادي، هو موضّح فقط في منظومة فيثاغورث الرقمية، والتي بناها بالاستناد على ما يُسمى "حديث المقاييس" المذكور في تعاليم الفيدا Vedas الهندوسية. فقط مؤخراً تم ترجمتها من قبل أحد أبرز الفقهاء في اللغة الساسنكريتية وهو "مارتن هوغ" Martin Haug الذي تولى ترجمة مقطع "أيتاريا براهمانا" من مجموعة الـ"ريغ فيدا" Rig-Veda. قبل ترجمتها كانت مجهولة تماماً. هذه الشروحات تبيّن دون أدنى شكّ التطابق بين منظومة فيثاغورث والمنظومة البراهمية. في كلا المنظومتين، اشتُقت المعاني الباطنية من الأرقام. في منظومة فيثاغورث اشتُقت المعاني من العلاقة الباطنية بين الأرقام وكل شيء مُدرك للعقل البشري. بينما في المنظومة البراهمية، اشتُقت المعاني من عدد المقاطع اللفظية التي يحتويها كل بيت شعر في المانتراس (الترنيمة).

أفلاطون، تلميذ فيثاغورث المتحمس، ادرك كلياً السبب الذي يبرهن ضرورة جعل المجسم الهندسي ذو الاثنا عشر سطحاً Dodecahedron يمثل الصيغة الهندسية التي استخدمها الدميورغ لبناء الكون. بعض هذه المجسمات الهندسية له دلالات عميقة وجليلة. مثلاً، الرقم أربعة الذي يمثّل عددياً ثلث المجسم الهندسي ذو الاثنا عشر سطحاً كان يُعتبر مقدساً لدى الفيثاغورثيين. هو

يمثّل المربّع الكامل، أي كافة خطوطه متساوية تماماً. هو رمز هندسي للعدالة الأخلاقية والإلهية معاً. كافة القوى والسمفونيات العظمى للطبيعة الروحية والمادية تكمن في شكل المربع الكامل. أما اسم ذلك الذي يتعذر وصفه، والذي لايمكن التلفظ به، تم استبداله بالرقم [٤] الذي يمثّل القسم الجليل الأكثر إلزاماً بالنسبة للصوفيين القدامى: هو الـ"تيتراكتيس" Tetractys. وجب على مفهوم فيثاغورث حول تناسخ الأرواح أن يُفسّر بشكل كامل وسليم ويتم مقارنته مع النظرية العصرية حول التطور، سوف يجدون بعدها أنه يوفر كل حلقة مفقودة في سلسلة هذه النظرية الأخيرة. لكن من من هؤلاء العلماء مستعد لأن يستنزف وقته الثمين على خزعبلات القدماء؟!

بالرغم من البراهين التي تثبت عكس ادعاءاتهم لازالوا يصرون على إنكار حقيقة أن أمم العصور الغابرة وحتى الفلاسفة القدماء الذين نألفهم حازوا على معرفة صحيحة حول مركزية الشمس في النظام الشمسي. يبدو أن رجال اللاهوت الأوائل وبدافع من جهلهم المتعصّب أخمدوا كل المعتقدات العائدة إلى العصور القديمة بحيث لم يتركوا أثر. لكن الآن بعد الترجمة الحثيثة للمخطوطات السنسكريتية العريقة تمكنا جزئياً من تبرئة الحكماء القدامى المظلومين من الاتهامات التي لا يستحقونها. في نصوص الـ"فيدا" مثلاً، نجد إثباتات دامغة تعود إلى قبل ٢٠٠٠ سنة ق.م وتكشف عن حقيقة أن الحكماء الهندوس وفقهاءهم كانوا يألفون الشكل الكروي لكوكب الأرض وكذلك مركزية الشمس في المنظومة الشمسية. بالتالي لا بد من أن فيثاغورث وأفلاطون كانا على علم بهذه الحقيقة الفلكية حيث تلقى فيثاغورث علمه من الهند أو من أشخاص كانوا هناك، وأفلاطون نقل تعاليم فيثاغورث بكل أمانة. سوف أقتبس فقرتين من نصوص الـ"أيتاريا براهمانا" Aitareya Brahmana:

في "ترتيلة الأفعى" Serpent-Mantra، أعلن البراهمانا ما يلي: أن هذه الترتيلة هي تلك التي رأتها ملكة الأفاعي "ساربا راجنا"، لأن الأرض (iyam) تمثّل ملكة الأفاعي، حيث هي أم وملكة كل ما يتحرك. في البداية كانت (الأرض) مجرّد رأس (دائري) دون شعر (جرداء من النباتات مثلاً). بعدها رأت هذه الترتيلة التي تمنح كل من عرفها قدرة الظهور بأي شكل يرغبه. قامت بتلاوة الترتيلة، ومباشرة بعدها اتخذت شكل متعدد الألوان. أصبحت مرقّشة وقادرة على إنتاج أي شكل ترغبه، وتغيير أي شكل إلى شكل آخر. تبدأ هذه الترتيلة بالكلمات التالية: [..أيام غاوه بريسنير أكرميت..]

إن وصف الأرض بأنها تتخذ شكل الرأس المستدير الأصلع وكانت في البداية طرية وتصلّبت بعد أن نفخ عليها الإله "فايو" Vayu سيّد الهواء يفترض بقوة أن كُتاب مخطوطات الـ"فيدا" المقدسة عرفوا بأن الأرض كروية الشكل، وأنها كانت كتلة هلامية في البداية لكنها بردت تدريجياً مع الزمن وبتأثير الهواء. هذا كثير بالنسبة لمعرفتهم بكروية كوكبنا. والآن سوف نقدم البرهان الذي أسندنا عليه ادعائنا بأن الهندوس القدامى كانوا على إلمام تام بمركزية الشمس في المجموعة الشمسية وذلك قبل ٢٠٠٠ سنة ق.م.

في المخطوط ذاته، ورد كيف أن الكهنة (الهوتار Hotar) يتعلمون كيف تتكرر الشاسترا، وكيف وجب تفسير ظاهرة شروق الشمس وغروبها، فتقول النصوص: *".. الأغنيشتوما هو ذلك (الإله) الذي يحترق. الشمس لا تغرب ولا تشرق. عندما يظن الناس بأن الشمس تغرب فهي ليست كذلك. إنهم مخطؤون. إذ بعد وصولها إلى نهاية النهار تنتج تأثيرين متعاكسين، جاعلة الليل يمثل ما هو تحت والنهار يمثل ما هو على الجانب الآخر. عندما يظن الناس بأنها تشرق في الصباح تكون الشمس قد فعلت التالي: بعد وصولها نهاية الليل تنتج تأثيرين متعاكسين، جاعلى النهار يمثل ما هو تحت والليل يمثل ما هو على الجانب الآخر. في الحقيقة الشمس لا تغرب أبداً، ولا تغرب بالنسبة لكل من يحوز على هكذا معرفة..."*

هذا الوصف السابق هو واضح جداً لدرجة أن مترجم نصوص الـ"ريغ فيدا" وهو الدكتور "هوغ" Haug أُجبر على التلميح إليها في ملاحظاتها. قال بأن هذا المقطع يحتوي على "نفي وجود ظاهرة الغروب والشروق"، ويفترض مؤلف هذه النصوص بأن الشمس تبقى في موقعها العالي، وهذا وصف دقيق للواقع الفعلي.

في أحد أقدم مخطوطات الـ"نيفيد" Nivids يشرح الحكيم الهندي "ريشي كوتسا" (عاش في زمن قديم جداً) الاستعارات المجازية للقوانين الأولى الممنوحة للأجرام السماوية. تحدث عن "أناهيت" التي تمثّل كوكب الأرض في الأسطورة، فقال معلقاً، جزاءاً على فعل ما وجب عدم فعله حُكم على "أناهيت" أن تدور حول الشمس. يثبت مفهوم الـ"ساتراس" Sattras (وهي دورة زمنية) دون أدنى شكّ بأن الهندوس قد أحرزوا تقدماً كبيراً في علم الفلك في الألفية الثانية قبل الميلاد. الـ"ساتراس" هي دورة زمنية تدوم سنة واحدة، وهي تحاكي المسيرة السنوية للشمس. يقول الدكتور "هوغ" بأنهم قسموا الـ"ساتراس" إلى قسمين منفصلين وكل منهما مؤلف من ستة شهور

وكل شهر مؤلف من ثلاثين يوماً، وفي وسط هذين القسمين الرئيسيين يقبع الـ"فيشوفان" *Vishuvan* أي اليوم الاستوائي الذي يقطع الـ"ساتراس" إلى نصفين. رغم أنه ينسب تأليف مجموعة نصوص البراهمانا إلى تاريخ ١٤٠٠ إلى ١٢٠٠ ق.م، إلا أن الدكتور "هوغ" يعتقد بأن التراتيل القديمة قد تعود إلى زمن الأدبيات الفيدية أي إلى مابين ٢٤٠٠ و٢٠٠٠ ق.م، إذ هو لا يجد أي مبرر يجعل نصوص الفيدا أقلّ قدماً من الكتب المقدسة الصينية. كما أن كتاب "شو كينغ" Shu-King (أو كتاب التاريخ) وأغاني الـ"شي كينغ" Shi-King (أو كتاب الشعر الغنائي) قد أثبتت عراقتهما التاريخية بحيث يعودا إلى حوالي ٢٢٠٠ ق.م، يمكن أيضاً أن يتفاجأ فقهاء اللغة بمعرفة أن الهندوس الذين عاشوا قبل الطوفان هم أسياد علم الفلك الذي نألفه اليوم.

في جميع الأحوال، هناك حقائق تثبت أن حسابات فلكية معيّنة كانت دقيقة لدى الكلدانيين في أيام "يوليوس قيصر" كما هي الآن. عندما تم تعديل الروزنامة بأمر من الفاتح المنتصر (يوليوس قيصر) وجدوا أن السنة المدنية لم تتوافق سوى بدرجة قليلة مع الفصول بحيث أن الصيف تداخل مع شهور الخريف وشهور الخريف تداخلت مع شهور الشتاء. يعود الفضل إلى "سوسيجينز" Sosigenes الفلكي الكلداني الشهير الذي أعاد إصلاح هذا الإرباك، وذلك من خلال استرجاع تاريخ [٢٥ آذار (مارس)] تسعين يوماً لكي يتوافق مع الاعتدال الربيعي. مع العلم أن هذا الفلكي أيضاً هو الذي أحدث تغييرات في مدة الشهور والتي لازالت على حالها حتى اليوم.

في أمريكا الجنوبية، وجدوا بأن روزنامة الأزتك منحت عدد متساوي من الأيام والأسابيع لكل شهر. الدقة الفائقة لحساباتهم الفلكية كانت عظيمة جداً لدرجة أنه لم يُكتشف أي خطأ خلال إخضاعها للفحوص المتعددة. بينما الأوروبيون الفاتحون الذين هبطوا في المكسيك عام ١٥١٩م كانت روزانمتهم (التي تعود إلى أيام يوليوس قيصر) تسبق الزمن الحقيقي بإحدى عشر يوماً.

يعود الفضل إلى الترجمات الدقيقة لمخطوطات الـ"فيدا"، وكذلك للأبحاث الشخصية للدكتور "هوغ"، أننا نستطيع الآن تأكيد مزاعم الفلاسفة الهرمزيين. وأنه يمكن بسهولة إثبات حقيقة أن الفترة التي عاش فيها "زردشت" (زارادوسترا سبيتاما) تعود إلى عصور غابرة. البراهميين الذين أعاد الدكتور "هوغ" تاريخهم إلى أكثر من أربعة آلاف سنة يوصفون المباراة الدينية بين الهندوس القدامى الذين عاشوا ما قبل الفترة الفيدية وبين الإيرانيين. وصفت كتبهم المقدسة المعارك التي نشبت بين الـ"ديفاس" والـ"أشوراس"، الفريق الأول يمثل الهندوس والفريق الثاني يمثّل

الإيرانيين. النبي الإيراني كان أوّل من وقف يواجه ما سماه وثنية البرهميين، وقد لقّبهم بالـ"ديفاس" أي الشياطين. طالما أن الكتب التي تحدثت عن هذه المواجهة تعود إلى آلاف السنين، فما مدى قِدم تلك المواجهة إذاً؟ يقول الدكتور "هوغ": *"... لا بد من أن هذه المواجهة كانت بالنسبة لمؤلفي الكتب البرهمية قديمة بنفس قِدم بطولات الملك آرثر بالنسبة للكتاب الإنكليز في القرن التاسع عشر..."*

ليس هناك أي فيلسوف مهما كانت شهرته لم يأخذ بتلك العقيدة المتعلقة بتناسخ الأرواح بمعناها الباطني كما علّمها البرهميين والبوذيين ولاحقاً الفيثاغورثيين، مهما تفاوتت درجة الوضوح في تعبيره عنها وشرحها. "أوريجن" Origen و"كلمنت الاسكندراني" Clemens Alexandrinus و"سينيسيوس" Synesius و"تشالسيديوس" Chalcidius، جميعهم آمنوا بها، وكذلك الغنوصيين (العرفانيين) الذين لم يتردد التاريخ في اعتبارهم المجموعة الأكثر تهذيباً وتعليماً وتنوّر آمنوا بتناسخ الأرواح. تناول "سقراط" آراء متشابهة مع تلك التي لفيثاغورث، وكلاهما واجها العقوبة المعهودة لفلسفتهما السماوية إذ حُكم عليهما بالموت العنيف. لازال غوغاء الرعاع قائماً كما هو عبر العصور.

كانت العقيدة المادية Materialism وسوف تبقى أبداً عمياء للحقائق الروحية. اعتبر هؤلاء الفلاسفة، كما فعل الهندوس، بأن الله نفخ في المادة قسطاً من روحه المقدسة مما أدى إلى إحياء وتحريك كل ذرّة فيها. علّموا بأن الإنسان يملك نفسين اثنين ولكل منهما طبيعة مختلفة: أحدهما فانية وهي النفس النجمية أو الجسم السيولي الداخلي، والثانية هي خالدة وغير قابلة للفساد وتعتبر امتداد للروح المقدسة. النفس الفانية أو النجميّة تتلاشى عند كل تغيير تدريجي في عتبة كل دائرة جديدة، فتصبح عند كل تجسيد جديد (تناسخ) أكثر نقاء. الجسم النجمي الذي يبدو خفياً وغير ملموس بالنسبة لحواسنا الأرضية الفانية يبقى في الواقع مؤلفاً من مادة رغم أنها مرهفة بطبيعتها.

بالرغم من الأسباب السياسية التي فرضت عليه الصمت الحذِر بخصوص مسائل تجاوزية معيّنة، إلا أن الفيلسوف "أرسطو" عبّر بوضوح عن رأيه بخصوص الموضوع. كان يؤمن بأن نفوس البشر هي انبعاثات من الله، وسوف تعود إليه في النهاية. وكذلك الفيلسوف "زينو" Zeno مؤسس المدرسة "الرواقية" Stoics علّم بأنه يوجد خاصيتين أبديتين في الطبيعة: الأولى فاعلة وذات طبيعة ذكرية، والثانية منفعلة وذات طبيعة أنثوية، وأن الأولى تتألف من أثير نقي ومرهف أو

تمثّل الروح الإلهية، بينما الثانية تمثّل محتوى خامل بذاته قبل أن يجتمع مع المبدأ الفاعل. أن الروح الإلهية الفاعلة في المادة تنتج النار والماء والتراب والهواء، هو المبدأ الجوهري الذي تتحرّك وفقه الطبيعة. لقد آمن الفلاسفة "الرواقيون"، كما الحكماء الهندوس، بالاندماج النهائي مع الخالق والتي تحصل في نهاية المطاف. آمن الفيلسوف المسيحي "سنت جوستن" St. Justin بانبعاث النفوس من الإله الأعلى، وتلميذه "تاتيان" Tatian الآشوري صرّح بأن الإنسان خالداً كما الله. تلك الآية المهمة ذات الدلالة العميقة والتي وردت في سفر التكوين، والقائلة: ".. ولكل وحش في الأرض ولكل طير في الهواء ولكل شيء يدبدب على الأرض منحت نفساً حيّة.."، وجب على هذه الآية أن تلفت انتباه كل فقيه عبري يستطيع قراءة النصوص المقدسة بلغتها الأصلية، بدلاً من اتباع الترجمة الخاطئة التي جعلت الآية تنتهي بعبارة: ".. حيث فيها حياة..".

من الفصول الأولى حتى الأخيرة للنصوص المقدسة العبرية، أساء المترجمون العبريون تفسير هذا المعنى. حتى أنهم غيّروا صيغة إملاء اسم الله، كما أثبت السير "و. دروموند" W. Drummond. حيث كلمة "أل" El إذا كُتبت بشكل صحيح سوف يتم تهجئتها بـ"آل" Al، إذ أن التهجئة الأصلية في اللغة العبرية هي "آل" [אל]، ووفقاً لـ"هيغنز" Higgins هذه الكلمة تعني الإله "ميثرا" Mithra أي الشمس، أي الحافظ أو المخلّص. يبيّن السير "و. دروموند" بأن "بيت أل" Beth-El يعني "بيت الشمس" بترجمته الحرفية، وليس الله. الاسم "أل" El لا يعني الإله الأعلى بل الشمس. هذا يعني بالتالي أن علم اللاهوت قد شوّه منذ البداية كل من الدين والعلم والفلسفة القديمة.

بسبب القصور في استيعاب هذا المبدأ الفلسفي العظيم، لا بد للعلم الحديث، مهما كان دقيقاً، أن يكون باطلاً. لم يستطع في أي من فروعه المعرفية أن يشرح أصل الأشياء أو نهايتها. بدلاً من تتبع الوقائع من مصدرها الأساسي، نجد أن توجهه هو بالعكس تماماً. يعلّم بأن الأنواع الأرقى قد تطورت من أنواع سابقة أكثر وضاعة. هذا المنهج العلمي يبدأ من قاعدة الدورة ويدخل خطوة خطوة إلى متاهة الطبيعة متبعاً المذهب المادي. مجرّد أن ينقطع سيره ضمن هذا الطريق بعد فقدان مفتاح اللغز، يعود مرة أخرى مذعوراً مما هو مجهول وغير قابل للاستيعاب ويعترف أخيراً بعجزه. ليس هذا ما فعله أفلاطون وتلاميذه. بالنسبة له كانت الأنواع الوضيعة عبارة عن صور محسوسة لأنواع راقية مجرّدة. بالنسبة له كان للنفس، التي هي خالدة، أساس رياضياتي

كما للجسد أساس هندسي. هذا الأساس، بصفته انعكاس للـ"أرشيوس" ARCHÆUS أي الجوهر الحيوي الكوني، هو ذاتي الحركة وينتشر إلى كامل أنحاء الجسم انطلاقاً من المركز.

إنه الإدراك المحزن لهذه الحقيقة الذي دفع "تيندال" Tyndall إلى الاعتراف بمدى عجز العلم حتى على عالم المادة. إن القوة الكامنة وراء اصطفاف الذرّات والذي تعتمد عليه كافة المظاهر اللاحقة، هي أكثر قدرة ومثيرة للإرباك من تلك التي يظهرها المجهر. هذا الإفراط في التعقيد الذي هو قائم قبل بزمن بعيد من ظهور المراقبة المخبرية قد أعجز العقول الأكثر تدريباً والخيال الأكثر تهذيباً وانضباطاً والتي تأمّلت في هذه المسألة. لازلنا نقف كالأغبياء الأباكم بفعل الذهول من ظاهرة عجز المجهر عن كشفها، وليس هذا فحسب، إذ حتى لو استطاع المجهر كشف تفاصيلها هل نحن نحوز على عناصر الذكاء المناسبة التي تمكننا من استيعاب البنية الطاقية المرهفة للطبيعة؟

الشكل الهندس الأساسي لتعاليم القبالة (شجرة الحياة)، ذلك النموذج الذي تقول التقاليد والتعاليم الباطنية بأن الإله الأعلى منحها لموسى في جبل سيناء، يحتوي في هيكله الفخم، بتركيبته البسيطة، المفتاح الرئيسي لهذه المسألة الكونية. هذا الهيكل الهندسي يحتوي في نفسه على كافة النماذج الأخرى. بالنسبة لؤلئك الذي يستطيعون استيعابه لم يعد هناك حاجة لاستخدام الخيال للتأمل بالمسألة. لا يمكن مقارنة أي مجهر دنيوي بحدّة الإدراك الروحي. وحتى بالنسبة لؤلئك الذين لم يتعرفوا على "العلم العظيم"، فإن الشرح الذي يقدمه طبيب متمرّس في علم نفس الأطفال لعملية خلق البذرة أو قطعة بلور أو أي شيء آخر، هو أكثر جدارة من كل التلسكوبات والميكروسكوبات التي يستخدمها العلم العصري الدقيق.

قد يوجد بعض الحقيقة في نظرية "عمومية التوالد" pangenesis لـ"داروين" أكثر من تلك الفرضية الحذرة لـ"تيندال" الذي كما مفكري زمانه يحيط خياله بالحدود الثابتة للمنطق العقلاني، إذ تقول فرضيته بأن ".. البذرة المجهرية التي تحتوي في نفسها على عالم من البذور الأصغر.." تحلّق بمعنى معيّن على الأقلّ إلى لانهاية. هي تتعدى عالم المادة وتبدأ لاإرادياً بإشغال نفسها في عالم الروح.

إذا قبلنا نظرية "داروين" حول تطور الفصائل سوف نجد بأنه وضع نقطة البداية أمام باب مفتوح، ونحن أحرار معه إما أن نبقى داخل الباب أو نجتاز العتبة إلى ماوراءه حيث يكمن الامحدود والمتعذر فهمه، أو ربما المتعذر وصفه. إذا كانت لغتنا الفانية غير مجدية للتعبير عن ما تستشرفه روحنا في "المتجاوز" العظيم بينما نحن نقبع في العالم الدنيوي، فلا بد أن تدركه عند نقطة معيّنة في الأبدية اللازمنية.

الأمر مختلف مع نظرية البروفيسور "هوكسلي" Huxley حول الأساس المادي للحياة. بالرغم من رفضها من قبل أغلبية إخوانه العلماء الألمان فقد ابتكر فكرة "بروتوبلازما" كونية ووكّل خلاياها بأن تلعب دور الينابيع الرئيسية لمبدأ الحياة الكلية. من خلال جعل هذه الخلايا متشابهة لدى الإنسان الحيّ ولحم الغزال الميّت ونبات القرّاص والسرطان البحري، وذلك من خلال حبس مبدأ الحياة ضمن حدود الخلية الذريّة للبروتوبلازما، وعزلها تماماً عن الفيض الإلهي الذي يترافق مع تطور هذه الخلية، يكون قد أغلق كل باب أمام أي إمكانية للهروب. كما أي تكتيكي حربي محترف، نجح في تحويل "القوانين والحقائق" إلى حراس على كل مسألة يتناولها. الحجة النموذجية التي تتمحور حولها كافة تنظيراته تتمثّل بكلمة واحدة: "الضرورة". لكن سريعاً ما تفقد تنظيراتها واقعيتها عندما يسخر منها بنفسه قائلاً بأنها مجرّد ضلال فارغة لمخيّلته. يزعم بأن المبادئ الأساسية لمذهب "الأرواحية" spiritualism تقبع خارج حدود البحث الفلسفي. لكن سوف نتجرأ ونناقض هذا الادعاء ونقول بأنها تقبع داخل الحدود بدرجة أكبر من فكرة السيّد "هوكسلي" حول البروتوبلازما. إذ تلك المبادئ تقدم إثباتات وحقائق ثابتة وواضحة حول وجود "الروح"، بينما فكرة خلايا البروتوبلازما عندما تموت لا تقدم أي دليل حول مسببات الحياة أو أسسها كما يرغب أبرز مفكري هذا العصر أن نصدق.

الفقيه في تعاليم القبالة لا يعتمد على أي فرضية قبل أن يسندها على صخرة صلبة من التجارب الموثّقة. لكن الاعتماد المفرط على الحقائق الملموسة أدى إلى نمو العقلية المادية على حساب الروحانية والإيمان. هكذا كان الميل الفكري السائد في زمن أرسطو. ورغم أن الوصايا النبوئية لمعبد "دلفي" لم تتلاشى كلياً من الفكر الإغريقي إلا أن بعض الفلاسفة استمروا في الأخذ بفكرة أنه *".. من أجل معرفة ما هو الإنسان وجب معرفة ماذا كان.."*، لكن مع ذلك كان الفكر المادي قد بدأ ينخر في جذور الإيمان. حتى المدارس السريّة بذاتها بدأت منذ حينها تتراجع بدرجة كبيرة إلى مستوى التنظيرات الكهنوتية والخدع الدينية. القليلون فقط كانوا أعضاء ضليعين حقيقيين، إذ

كانوا الأحفاد الأصليين لأولئك الذين تعرّضوا للتنكيل والتشتيت من قبل السيوف القاهرة للغزوات التي توالت على مصر القديمة.

الفترة التي تنبأ بها "هرمز" العظيم قد حصلت فعلاً. الفترة التي تتعرّض فيها مصر للاتهام من قبل الكفار الغرباء بأنها تعبد الوحوش والمسوخ، ولن ينجو فيها سوى الكتابات المحفورة على حجارة صروحها ونصبها التذكارية، والتي ستبدو مجرّد ألغاز محيّرة للأجيال القادمة. فقهاءها وكتابها المقدسين سوف يتحولون إلى متجولين تائهين في أصقاع الأرض. خوفاً على استباحة وتدنيس التعاليم السريّة لجؤوا إلى تشكيل جمعيات وأخويات سرية مما أدى إلى دفن معرفتهم الباطنية في أعماق يستحيل وصولها. التلميذ النموذجي لأرسطو (الاسكندر المقدوني) كسح كل ما جاء في طريق غزواته وفتوحاته من آثار باقية لما كان يوماً دين أصيل. وحتى أرسطو بذاته، الشخصية النموذجية لعصره، رغم تتلمذه في العلوم السريّة للمصريين القدامى، لم يعرف سوى القليل مما توصلت إليه الدراسات الباطنية المصرية التي تعود ممارستها وخبرتها إلى آلاف السنين.

كما حالة أولئك الذين عاشوا في الماضي الذي تلى انحطاط الحضارة الذهبية، نجد فلاسفة اليوم يرفعون حجاب "إيزيس" (حيث "إيزيس" ترمز للطبيعة) لكنهم لا يرون شيئاً سوى هيئتها المادية. النفس بداخلها تتوانى عن أنظارهم، والأم المقدسة غير مستعدة للإجابة على أي من تساؤلاتهم. الأطباء التشريحيين الذين لم يجدوا أي روح تحت طبقات العضل وشبكات الأعصاب والمادة السنجابية التي يرفعونها برأس المشرط، ما كان عليهم سوى التصريح بكل ثقة أن الإنسان لا يملك نفساً. يمكن تشبيه هذه السفسطة العمياء للتلميذ الذي يسند أبحاثه للأحرف الباردة لتعاليم القبالة ويتجرأ بالقول أن هذه الأحرف لا تحييها أرواحاً. من أجل رؤية الإنسان الذي سكن يوماً الجسد الملقاة هامدة أمامه على طاولة التشريح على الطبيب أن يستخدم عيون مختلفة تماماً عن تلك التي يملكها جسده المادي. لذلك فإن الحقيقة المجيدة المبطنة في الكتابات الهيروغليفية على أوراق البردى القديمة لا يمكن أن تنكشف سوى لمن يحوز على ملكة الحدس التي يمكننا اعتبارها عيون النفس إذا اعتبرنا أن التفكير المنطقي عيون العقل.

يسلّم علمنا العصري بوجود قوة عليا على شكل مبدأ خفي يقبع وراء الوجود، لكنه بنفس الوقت ينكر وجود كائن أعلى أو إله شخصي. يمكن منطقياً الشكّ بوجود اختلاف بين القوتين، حيث في

هذه حالة لا بد من أن القوة والكائن يمثلان الشيء ذاته. يصعب على التفكير البشري تصوّر وجود قوة عليا ذكية دون ربطها بفكرة وجود كائن ذكي. لا يمكن التوقع من الحشود أن يكون لديهم صورة واضحة عن إله أعلى كليّ المقدرة وكليّ المعرفة دون الإضافة إلى هذه الخصائص إسقاط قسم كبير من سماتهم الشخصية. لكن الفقيه في علم القبالة لم ينظر إلى [أين صوف] الخفي سوى على أنه قوة وليس كائن. هذا يعني أن المفكرين العصريين من أنصار الفلسفة الوضعية (لا يؤمنون سوى بما هو ملموس) مسبوقين بآلاف الأجيال المتشابهة معهم في فلسفتهم الواقعية. ما يزعم الفقيه الهرمزي إثباته هو أن أدنى درجة من المنطق العقلاني تستبعد فرضية أن الكون نشأ نتيجة صدفة. هذه الفكرة بالنسبة له هي أكثر سخافة من اعتبار المسائل الهندسية الإقليدية قد تشكّلت على يد قرد يلعب بمجسمات الهندسية.

القليل من المسيحيين يفهمون، إذا كانوا يعرفون أصلاً، شيئاً عن اللاهوت اليهودي. يُعتبر التلمود أعتم الألغاز حتى بالنسبة لمعظم اليهود، بينما الفقهاء اليهود الذين يستوعبوه لا يتباهون بمعرفتهم هذه. حتى كتبهم المتعلقة بتعاليم القبالة لازالت غير مفهومة لديهم، حيث في يومنا الحالي نجد أن عدد الطلاب المسيحيين المنغمسين بدراسة حقائقه العظمى أكبر بكثير من عدد الطلاب اليهود. كم هو قليل الذي نعرفه عن تعاليم القبالة الشرقية، أو الكونية إذا صحّ التعبير! فقهاءها قلائل، لكن أولئك الورثة المختارين من الحكماء كانوا أوّل من اكتشف "الحقائق المتألقة التي سطعت على الشيمايا العظيمة للمعرفة الكلدانية"، لقد حلّوا ألغاز "المطلق" ونجدهم الآن في حالة راحة بعد إنجاز هذا العمل العظيم. لم يستطيعوا تجاوز حدود المعرفة التي سُمحت للفانين على هذه الأرض، وبالتالي لا أحد، ولا حتى هذه النخبة، يستطيع تجاوز الخط الذي رسمه أصبع المقدس بذاته. لقد التقى المسافرون بهؤلاء الفقهاء على ضفاف نهر الغانج (الهند)، وتلمسوهم بين الأطلال الصامتة في طيبة والصالات الصحراوية الغامضة في الأقصر (مصر). داخل صالات تلك الأقبية تحت الأرضية الملونة بالأزرق والذهب يوجد نقوش ومخطوطات ملفتة للنظر لكن معانيها السريّة لا يمكن اختراقها من قبل الناظرين التافهين، لقد شوهد أولئك الفقهاء هناك لكن لم يتم تمييزهم. لقد سجّلت المذكرات التاريخية حضورهم في الصالونات الأرستقراطية الأوروبية المضاءة بألق. لقد تم لقاءهم أيضاً في السهول المهجورة الجرداء للصحراء الكبرى مثل كهوف "ألفنتا". يمكن إيجادهم في كل مكان، لكن لا يجعلون انفسهم معروفين سوى للذين كرسوا حياتهم للبحث غير الأناني وغير مستعدين للعودة عن توجههم.

اللاهوتي والمؤرخ اليهودي موسى بن ميمون، الذي تم تأليهه من قبل أبناء بلده لكنه عومل لاحقاً ككافر مرتدّ، علّق قائلاً بأنه كلما بدى التلمود سخيفاً وفاقد للعقلانية كلما زاد سمو معانيه الباطنية. هذا الرجل المثقف برهن بنجاح حقيقة أن السحر الكلداني، وهو ذاته العلم الذي اطلع عليه موسى وغيره من صانعي المعجزات، يستند على معرفة واسعة بفروع متنوعة من علم الطبيعة والتي أصبحت منسية. كانوا على إلمام كامل بجميع موارد مملكة النبات والحيوان والمعدن، خبراء في مجال الكيمياء والفيزياء التجاوزية، بالإضافة إلى كونهم فقهاء في مجال علم النفس والطب، لماذا إذاً نتعجّب من حقيقة أن الخبراء المتخرّجين من المدارس السرية للمعابد كانوا يصنعون المعجزات التي تبدو حتى في يومنا المتنوّر خارقة للطبيعة؟

إنها إهانة للطبيعة البشرية أن ننسب السحر والعلوم التجاوزية إلى كلمة "دجال". إن القول بأن نصف عدد البشرية مارس الخداع على النصف الآخر لمدة آلاف السنين هو كما القول بأن العرق البشري مؤلف فقط من مخادعين ومعتوهين. أين هو البلد الذي لم يُمارس فيه السحر؟ في أي عصر تم نسيانه كلياً من قبل الإنسان؟

في أقدم المخطوطات التي هي بحوزتنا، أي "الفيدا" وقوانين "المانو" الأكثر قدماً، نجد الكثير من الشعائر الدينية التي مورست وسُمح بممارستها من قبل البراهميين. حتى في عصرنا الحالي يعلمون في التبت واليابان والصين ما كان يُعلّم في الماضي من قبل الكلدانيين القدامى. الكهنة في هذه البلاد خصوصاً يعلمون بأن ممارسة الطهارة الأخلاقية والجسدية، وبعض الممارسات الصارمة الأخرى، تساهم في تطوير القوة النفسية الحيوية للتنوّر الذاتي. إن تحكّم الإنسان بروحه الخالدة يمنحه قدرات سحرية حقيقية تمكنه من السيطرة على العناصر الروحية الأقل منه شأناً. نجد في الغرب أيضاً علوم سحرية بنفس عراقة تلك التي في الشرق. الـ"درويد" في بريطانيا العظمى مارسوها في السراديب الصامتة لكهوفهم العميقة. وقد كرّس "بليني" Pliny الكثير من الفصول في كتبه للحديث عن حكمة الزعماء السلتيين. كان الـ"سيموثيين" Semothees وهم كهنة الدرويد في بلاد الـ"غال" (فرنسا) متعمقين في العلوم المادية الروحية معاً. لقد علّموا أسرار الكون، المسيرة المتناغمة للأجرام السماوية، تشكّل الأرض، وقبل كل شيء آخر: خلود النفس. في بساتينهم وأحراشهم المقدسة التي شيّدتها يد المهندس الخفي اجتمع المنتسبون في الساعة الساكنة من منتصف الليل ليتعلموا عن الإنسان، كيف كان يوماً وماذا سيكون لاحقاً. لم يكونوا بحاجة لأي إنارة صناعية ولا استجرار اصطناعي للهواء المنعش في معابدهم حيث أن إلهة الليل

العفيفة أشرقت أشعّتها الفضيّة فوق رؤوسهم المتوّجة بأغصان البلـوط، وشـعراءهم المقدسـين بعياءاتهم البيضاء عرفوا كيف يتحدثون مع الملكة المنفردة في قبة السماء المرصّعة بالنجوم.

على التربة الميتة لذلك الماضي السحيق تقف الآن أشجار البلوط اليابسة والمجرّدة مـن معانيهـا الروحية بسبب سطوة المذهب المادي ونَفَسه السام. لكن بالنسبة لطالب العلـم التجـاوزي فـإن خصوبتها وخضرتها لازالت قائمة، ومفعمة بالأسرار المقدسة كما كانت تماماً في تلـك الـساعة التي مارس فيها الكاهن الأعلى علاجاته السحرية ملوحاً بغصن الهدال الذي قلعه بمنجله الـذهبي من شجرة البلوط. السحر هو عريق بعراقة الإنسان. يستحيل تحديد الزمن الذي ظهر فيـه إلـى الوجود كما يستحيل تحديد اليوم الذي وُجد فيه الإنسان. كلما ربط احد الكتاب البدايات الأولى لهذا العلم مع أحد البلدان وعلى يد أحد الشخصيات التاريخية تظهر دراسة أخرى تثبت عـدم صـحة ادعاءه. كان الكاهن والملك الأسكنديناڤي "أودين" Odin يُعتبر من قبل الكثيرين أنه أوّل من ابتكر ممارسة السحر حوالي عام ٧٠ قبل الميلاد لكن تم بسهولة إثبات حقيقة أن الشعائر الغامضة التي مارستها الكاهنة المسماة "فويلر" أو "فالاس" تسبق عصره بكثير. بعض الكتاب العصريين قـدموا إثباتات تؤكّد أن "زردشت" هو المؤسس الأوّل للسحر لأنه هو الذي أوجد ديـن الـــ"مـاجوس" Magus (التي منها اشتُقت كلمة سحر Magic باللغة اللاتينية)، لكـن مـؤرخين قـدماء مثـل "أميانوس مارسيلينوس" و"أرنوبيوس" و"بليني" وغيرهم أثبتوا بوضوح أنه لم يكن المؤسـس بـل مُصلح المنهج السحري الذي مورس سابقاً من قبل الكلدانيين والمصريين القدامى.

أعظم معلمي اللاهوت يتفقون حول حقيقة أن جميع الكتب القديمة تقريباً كُتبت بطريقـة رمزيـة وبلغة لا يفهمها سوى الأعضاء المنتسبين إلى المدارس السرية التي صدرت منها تلـك الكتـب. مخطوط السيرة الذاتية العائد لـ"أبولونيوس التياني" Apollonius of Tyana هو مثـال علـى ذلك. كما يعرف كل فقيه في علم القبالة، هذا المخطوط يشمل كامل الفلسفة الهرمزية والتي تشبه إلى حد كبير التقليد الذي تركه لنا الملك سليمان. يبدو ظاهرياً بأنه يروي قصة خرافية، وفي هذه الحالة الأخيرة تُقدم أحياناً بعض الحقائق والأحداث التاريخية للعـالم بـصيغة خرافيـة. رحلـة "أبولونيوس" على الهند تمثّل رمزياً الاختبارات التي يخضع لها المنتسب الجديد. حواراته الطويلة مع الكهنة البرهميين ونصائح حكمائهم والمحادثات مـع "مـانيبوس الكـورنيثي" Corinthian Menippus جميعها لها معاني باطنية تشمل مبادئ دينية عميقة. زيارته إلى امبراطورية الرجال الحكماء ومقابلته مع الملك "هيارشاس" Hiarchas ومهبط الوحي في "أمفياروس" Amphiaraus

جميعها تمثّل معاني رمزية تشرح المبادئ الهرمزية. إذا فُهمت جيداً سوف تكشف عن بعض أهم أسرار الطبيعة. يشير "أليفاس ليفي" Eliphas Lèvi إلى التشابه الكبير بين شخصية الملك "هيارشاس" و"حيرام" Hiram الأسطوري الذي جلب منه الملك سليمان خشب الأرز اللبناني وذهب بلاد أوفير. نود معرفة إن كان الماسونيون العصريون، حتى فقهاءهم الكبار وكذلك ألمع المحترفين المنتسبين إلى أهم المحافل، يفهمون من كان "حيرام" والذي لازالوا يجتمعون معاً بهدف الثأر له.

بعد أخذ التعاليم التجاوزية الصافية للقبالة، إذا كرّس الفرد نفسه للممارسة التجاوزية الهادفة لغاية مادية مثل فن العلاج قد تكون النتائج مفيدة لبعض علومنا العصرية مثل الكيمياء والطب. هذا ما قاله البروفيسور "درابر"، والذي أضاف: *".. أحياناً، دون أي مفاجأة، خلال الاطلاع على هذه النصوص القديمة نلتقي مع أفكار لطالما تباهينا بأننا نحن الذين أوجدناها في زماننا الحالي.."*. هذا التصريح الذي جاء تعليقاً على النصوص العلمية للعرب المسلمين يمكن إسقاطه أيضاً على النصوص السرية الأكثر قدماً. بالرغم من أن الطب الحديث تقدم كثيراً في علم التشريح والوظائف الجسدية وعلم الأمراض وحتى العلاج، لكنه خسر كثيراً بسبب القصور الروحي وصلابة العقلية المادية والتعصب المذهبي. إحدى المدارس الطبية تجاهلت بسبب تعصبها الأعمى كل ما طورته مدارس طبية أخرى من وسائل علاج، وجميع هذه المدارس المتنافسة تجتمع في النهاية ضد أي فكرة جديدة تتعلق بالإنسان أو الطبيعة، كتلك التي أوجدتها المدرسة "المسمرية" (التنويم المغناطيسي) أو الاختبارات الأمريكية التي تناولت الدماغ البشري. هكذا يكون مصير كل مبدأ لم يتوافق مع الفكر المادي البليد. لقد تطلب الأمر اجتماع وتوافق مجموعة من الأطباء العدوانيين ينتمون إلى عدد من المدارس الطبية المختلفة لتشكيل ما نعرفه اليوم بالعلم الطبي، لكن غالباً ما يحصل أنه بعد إنهاك أبرع الأطباء أنفسهم في محاولة علاج أحد المرضى لكن دون جدوى يضطر المريض أخيراً إلى اللجوء لمعالج روحاني أو منوم مغناطيسي فيشفيه تماماً! الباحثون في الأدبيات الطبية القديمة، منذ أيام "أبوقراط" حتى زمن "باراسيلسيوس" و"فون هلمونت"، يجدون عدد هائل من الحقائق والمعايير والعلاجات الطبية الجسدية والنفسية والتي يرفض الأطباء العصريين تطبيقها. حتى في مجال الجراحة، فقد اعترف الجراحين العصريين عجزهم الكامل عن مضاهاة الدقة والاحترافية التي تمتع بها أطباء مصر القديمة في عملية تحنيط ولفّ المومياءات. لقد درست مجموعة الجراحين البارزين الفرنسيين في باريس رباطات القماش

التي طولها عدة مئات من الأمتار التي لفّت المومياء من أذنيها نزولاً إلى أصابع الرجل وبطريقة فنيّة متقنة، ورغم أن العملية ماثلة أمام عيونهم لكنهم عجزوا عن تقليدها.

في متحف "أبوت" Abbott للآثار المصرية في مدينة نيويورك يمكننا رؤية عدد كبير من الأدلة على مهارة القدماء في حرف متنوعة، من بينها نجد فن صناعة الرباطات، ونجد ما لا نتوقعه في مساواة خيلاء المرأة مع قوة الرجل في اهتمامها بمظهرها الجذاب من خلال أدوات الزينة كما يهتم الرجل بمظهره القوي من خلال أدوات الحرب، إذ هناك آثار لما يُعرف بالشعر المستعار والحلى الذهبية المرصعّة من كافة الأنواع والأشكال. لقد استعرضت جريدة "نيويورك تربيون" محتوى مخطوط "أيرز" Ebers Papyrus وعلقت قائلة: *".. حقاً ما من شيء جديد تحت نور الشمس.. الفصول ٦٥ و٦٦ و٧٩ و٨٩ من هذا المخطوط تتحدث عن أدوية لإنعاش الشعر وأصباغ الشعر ومزيلات الألم ومساحيق لقتل البراغيث وغيرها من أشياء كانت مألوفة قبل ٣٤٠٠ سنة.."*

كم من اكتشافاتنا العصرية هي جديدة فعلاً وكم منها تعود أصلاً إلى القدماء. تم تناول هذه الحقيقة بإنصاف وعلى نحو فصيح ولو جزئياً من قبل كاتبنا الفلسفي البارز، البروفيسور "جون.و. درابر" John W. Draper في كتابه الذي بعنوان "الخلاف بين العلم والدين" Conflict between Religion and Science، هذا الكتاب العظيم، رغم عنوانه السيّء، مليء بالحقائق المتعلقة بالفكرة السابقة. في الصفحة ١٣ من هذا الكتاب يذكر الكاتب بعض إنجازات الفلاسفة القدامى التي أثارت إعجاب الإغريق. كان يوجد في بابل سلسلة من المشاهدات الفلكية الكلدانية تعود إلى ألف وتسع مئة وثلاث سنوات إلى الماضي، والتي أرسلها "كاليسثينز" Callisthenes إلى الفيلسوف أرسطو. كان الفلكي المصري بطليموس Ptolemy يحوز على سجلّ بابلي يحتوي على جدول مواعيد الكسوف والذي يعود إلى الماضي سبع مئة وسبعة وأربعين سنة. كما يعلّق البروفيسور "درابر" قائلاً: *".. كانت المراقبات المديدة والدقيقة ضرورية قبل التأكّد من بعض هذه النتائج الفلكية التي وصلت زماننا. فقد تمكن البابليون من التوصل إلى المدة الحقيقية للسنة المادرية مع فارق بسيط مع الواقع يبلغ خمسة وعشرين ثانية، بينما مدة السنة الفلكية فالفارق بينها وبين المدة الحقيقية بالكاد يبلغ دقيقتين. كما انهم اكتشفوا الاعتدالين الفصليين في كل سنة. وقد عرفوا مسببات الكسوفات واستطاعوا التنبؤ بحدوثها بمساعدة الدورة الزمنية التي وضعوها لهذا الغرض*

والتي اسمها دورة "ساروس" saros. كان تقديرهم لمدة هذه الدورة الزمنية، التي تبلغ أكثر من ٦,٥٨٥ يوماً، قريباً إلى الحقيقة بفارق تسعة عشر دقيقة ونصف الدقيقة.."

".. هكذا حقائق توفر دلائل لا جدال فيها على مدى الخبرة والتأني اللذان استنزفا في سبيل صقل وتأسيس علم الفلك في بلاد ما بين النهرين وكل ذلك بوسائل وأدوات بسيطة إذ تم التوصل بهذا العلم إلى حد الكمال. لقد استطاع أولئك المراقبون القدامى ان يضعوا جداولاً للنجوم، وتقسيم الدائرة النجمية إلى اثني عشر برجاً، وقسموا اليوم الواحد إلى اثني عشر ساعة نهارية وأخرى ليلية. وكما قال أرسطو، كرّسوا أنفسهم لوقت طويل من مراقبة احتجاب النجوم من قبل القمر. كان لديهم وجهات نظر صحيحة عن بنية النظام الشمسي، كما عرفوا الترتيب الصحيح لمواقع الكواكب. لقد ابتكروا أدوات مثل المزولة (الساعة الشمسية) والساعة المائية والاسطرلاب وعقرب الساعة الشمسية.."

بالحديث عن الحقاق الكونية الأبدية الكامنة ضمن عالم الأوهام والزيف الزائلة يقول البروفيسور "درابر" معلقاً: *".. لا يمكن استكشاف ذلك العالم من خلال التقاليد التافهة التي حملت إلينا آراء رجال عاشوا في بدايات الحضارة، ولا من خلال أحلام الصوفين الذين ظنوا بأنهم ملهمين.. بل وجب استكشافه عبر البحوث الهندسية وعبر الدراسة العملية للطبيعة.."*

لا يمكن التعبير عن المسألة أوضح من ذلك. يكشف لنا هذا الكاتب البليغ عن حقيقة عميقة. هو لا يقول لنا كل الحقيقة طبعاً، لأنه لا يعرفها. هو لم يوصف مدى عظمة المعرفة التي تحوزها المدارس السريّة. لم يوجد أي شعب أكثر احترافاً في علم الهندسة من بنائي الاهرامات والصروح العملاقة المنتشرة حول العالم، إن كانت سابقة للطوفان أو لاحقة له. وعلى الجانب الآخر، لم يضاهيهم أحد في الدراسة العملية للطبيعة.

الدليل الثابت على هذه الحقيقة يكمن في معاني رموزهم العديدة. كل من هذه الرموز يمثّل تجسيداً لفكرة معينة، تجمع مفهوم الخفي السماوي مع المرئي الدنيوي. يمكن استنباط معاني الأولى من خلال معاني الأخيرة وذلك عبر التشبيه وفقاً للمبدأ الهرمزي العام: ".. كما في الأسفل كذلك في الأعلى..". تُظهر رموزهم معرفة عظيمة في العلوم الطبيعية والدراسة العملية للقوى الكونية.

أما من ناحية النتائج العملية المستخلصة من دراسة الهندسة، إنه من حسن حظ الطلاب المتخرجين إلى مسرح الحياة العملية، لم نعد مدفوعين إلى الاكتفاء بالتخمينات الغيبية. في زمننا الحالي، هناك أشخاص مثل السيد "جورج.هـ. فلت" George H. Felt من نيويورك والذي إذا استمرّ في العمل الذي بدأه قد يُعتبر يوماً أحد أعظم مهندسي عصره، إذ استطاع بمساعدة الأرضية التي أسسها المصريون القدامى أن يتوصّل إلى نتائج سنعبر عنها بلغته الخاصة كما يلي: *".. أولاً، المخطط الأساسي الذي يرجع إليه كامل علم الهندسة الأولية، إن كان مسطح أو مكعّب، لإنتاج أنظمة تناسب رياضية بطريقة هندسية.. بعد إجراء تطابق بين هذا المخطط الأساسي وكل الآثار الهندسية والفنية التي تمثّل نمط عام اتبعه القدماء يمكننا استنتاج حقيقة أن المصريين القدامى استخدموه كأساس لكل حساباتهم الفلكية التي تأسست عليها رموزهم الدينية. ويمكن تتبع أثر هذا المخطط الأساسي بين بقايا فنون وهندسة الحضارة الإغريقية، كما نجد له دلائل قوية في السجلات المقدسة العبرية، ومن المؤكّد أن المصريين هم أوّل من اكتشف هذا المخطط الأوّلي بعد أبحاث تناولت قوانين الطبيعة ودامت عشرات ألوف السنين، والتي يمكن أن تمثّل فعلياً علم الكون الحقيقي.."*

بالإضافة إلى أن هذه الأبحاث مكنت السيد "جورج.هـ. فلت" من تحديد بدقة كبيرة المسائل المذكورة سابقاً حول علم الوظائف الجسدية مما جعل هكذا فلسفة ماسونية تتطور حتى تثبت نفسها كأوّل علم وديانة كما أنها ستكون آخرها. ويمكننا أن نضيف أخيراً لإثبات من خلال الشواهد العينية حقيقة أن النحاتين والمهندسين المصريين حققوا نماذج للتماثيل الغريبة التي زينوا بها واجهات وردهات معابدهم، ليس من وحي خيالهم غير المنتظم بل بمساعدة الكيانات الخفية التي تسكن الهواء وممالك أخرى في الطبيعة والتي يزعمون أنها تجعل نفسها مرئية لهم بعد اللجوء إلى معادلات وإجراءات خيميائية وقبلانية خاصة بها.

يثبت "شويغر" Schweigger بأن رموز كافة الأساطير الخرافية لها أساس وجوهر علمي. إنه فقط عبر الاكتشافات الأخيرة للقوى الكهرومغناطيسية للطبيعة تمكن خبراء في المسمرية Mesmerism مثل "أناموزر" و"شويغر" و"بارت" في ألمانيا، وبارون "دو بوتيه" و"ريغازوني" في كل من فرنسا وإيطاليا، من التحديد بدقة كبيرة العلاقة الحقيقية التي تربط بين الأساطير الدينية وهذه القوى الطبيعية المختلفة. "الإصبع السحرية" التي كان لها أهمية كبيرة في الفن العلاج السحري تعني في الحقيقة "الإصبع الحديدية" التي تجذب وتنفر بفعل قوى مغناطيسية طبيعية. وقد

جسّدت في جزيرة "ساموثريس" الإغريقية عجائب علاجية من خلال استعادة الأعضاء المُصابة إلى حالتها الطبيعية.

يذهب "بارت" Bart أبعد من "شويغر" في تفسير المعاني الخفية للأساطير القديمة، ودرس الموضوع من جانبيه الروحي والمادي. يتناول بإسهاب "الأصابع" الفريغية (من فريغيا وهي منطقة في تركيا حالياً) وقد مثل مصطلح "أصبع" Dactyl السحرة والأطباء الذين يطردون الأرواح الشريرة ويعالجون الأمراض، وصانعي المعجزات. كتب يقول: *".. بينما نعالج العلاقة الوثيقة بين الأصابع التي استخدمها أولئك السحرة والقوى المغناطيسية، ليس بالضرورة أن نقصد الحجر المغناطيسي، بل مفهوم المغناطيسية بمعناها العام. وبالتالي يصبح واضحاً كيف كان ممارسوا هذا الفن والذين سموا أنفسهم "الدكتيل" Dactyls يدهشون الناس بفنونهم السحرية، إذ كانوا يجسدون معجزات ذات طبيعة علاجية. بهذا يكونوا قد تشابهوا مع كهنة العصور القديمة الذين برعوا بهذه الممارسة واستخدموها لرعاية البلاد والعباد، كما لعبت هذه الممارسة دوراً كبيراً في تقدم العلوم والفنون، ومثلت محور المدارس السرية وكذلك الجمعيات السرية المختلفة. كل هذا وأكثر كان من إنجاز الكهنة "الكابيريين" Cabeirians والذين كانوا يُرشدون ويُدعمون من قبل الأرواح الخفية للطبيعة.."*. يأخذ "شويغر" بنفس الرأي ويشرح كيف كانت ظاهرة صناعة المعجزات تتجلّى بفعل قوى مغناطيسية وبإرشاد من الأرواح الخفية.

رغم الإيمان الظاهر بتعدد الآلهة، كان القدماء من الطبقات المثقفة يؤمنون بإله واحد، وهذه الحالة كانت قائمة قبل أيام موسى بعصور مديدة. بدت هذه الحقيقة واضحة جداً في مخطوط "أيبرز" *Ebers Papyrus* إذ ورد فيه الكلمات التالية المُترجمة من السطور الأربعة الأولى من الصفيحة رقم [١]: *".. جئت من هيلوبوليس مع الكبار من "هت أت" Het-aat، أولياء الحماية، أسياد الأبدية والخلاص. جئت من "سايس" Sais مع الآلهة الأم اللواتي مددن إليّ الحماية. علمني سيّد الكون كيف أحرر الأولياء من كافة الأمراض المميتة.."* (كان الرجال النافذين يُعتبرون أولياء بالنسبة للقدماء). إن تأليه الرجال الفانين والآلهة الوهمية لا يُعتبر دليلاً على الإشراك وعبادة الآلهة المتعددة، إذ يمكننا تشبيه الأمر بالصروح التي شيدها المسيحيون العصريون الذين وضعوا فيها تماثيل لأبطالهم ومع ذلك لا نتهمهم بالإشراك. الأمريكيون في القرن الحالي سوف يعتبرون اتهامهم بالإشراك سخيفاً بعد تشييد تماثيل عملاقة لإلههم جورج واشنطن. كانت الفلسفة الهرمزية مكسوة بطبقة كثيفة من الغموض لدرجة أن "فولني" Volney أكّد بأن الشعوب القديمة عبدت

الرموز المادية (الأصنام) كآلهة مقدسة، مع أنها في الحقيقة كانت مجرّد رموز تمثّل مبادئ فلسفية باطنية. كذلك "دوبيوس" Dupuis الذي كرس سنوات عديدة من حياته في دراسة هذه المسألة أساء تفسير رمزية الدائرة الفلكية وأسند ديانة القدماء على اسس فلكية بحتة. "أبرهارت" Eberhart والكثيرون غيره من الكتاب الألمان في القرن الأخير والحالي استبعدوا موضوع السحر بطريقة غير لائقة وأنسبوا معتقدات القدماء إلى الخرافات الأفلاطونية التي وردت في كتاب "التيمايوس" لأفلاطون. لكن كيف يمكن لهؤلاء الرجال، الجاهلين تماماً للتعاليم السريّة والمحرومين من البديهة المرهفة التي تمتع بها "شامبليون" Champollion، أن يكتشفوا النصف الباطني لما هو مخفي وراء حجاب إيزيس، ما عدا الفقهاء في المعرفة السريّة؟

لا يستطيع أحد التشكيك بجدارة "شامبليون" كخبير في الآثار المصرية. لقد صرّح بأن كل شيء يشير إلى أن المصريين القدامى كانوا موحدين للإله وليس مشركين به. لقد أكّد من خلال أعماله صحّة كتابات هرمز ثلاثي العظمة الذي تعود عراقته إلى بدايات الزمن وبأدقّ التفاصيل. يقول "أنموزر" Ennemoser أيضاً: *".. إلى مصر وبلاد الشرق ذهب كل من "هيرودوتس" Herodotus و"ثايلز" Thales و"برمنيدز" Parmenides و"أمبيدوكلز" Empedocles و"أورفيوس" Orpheus وفيثاغورث ليتعلموا الفلسفة الطبيعية وعلم اللاهوت.."*، وهناك ايضاً حاز موسى على حكمته، ويسوع مرّ هناك في بدايات حياته.

هناك اجتمع طلاب العلم من كافة البلاد قبل فترة بناء مدينة الاسكندرية. يتسائل "أنموزر" قائلاً: *".. كيف يمكن أن القليل فقط معروف عن المدارس السرية؟.. عبر كل تلك العصور عبر فترات مختلفة وأناس مختلفين؟.. الجواب هو السريّة التي يلتزم بها المنتسبون إلى تلك المدارس. قد نجد سبب آخر في التدمير والفقدان الكامل للمخطوطات المكتوبة لتلك المعرفة السرية التي تعود إلى أزمنة سحيقة.."* . كتب "نوما" Numa التي وصفها "ليفي" Livy والتي تحتوي على أبحاث تتناول الفلسفة الطبيعية والتي نُبشت من قبره، لكنه لم يُسمح إشهارها للعلن لأنها ستكشف أعمق أسرار دين الدولة. أصرّ مجلس الشيوخ ومنبر العموم الروماني على ضرورة حرق الكتب وهكذا حصل أمام الجماهير.

كان السحر يُعتبر علم مقدس إذ علّم كيف يتقمص الفرد خواص الإله الأعلى بذاته. يقول "فيلو جودايأس" Philo Judaeus: *".. إنه يكشف عن الإجراءات الخفية للطبيعة.. ويقود إلى التفكر*

في *القوى السماوية..*". بعد انحطاط هذا العلم الجليل في فترات لاحقة نتيجة سوء استخدامه وتحوله إلى شعوذة أصبح محط اشمئزاز العامة. وجب علينا بالتالي التعامل معه وكأنه لازال كما هو في الماضي البعيد، أي خلال تلك العصور التي كان فيها الدين الحقيقي يستند على معرفة صحيحة بالقوى الخفية للطبيعة. لم تكن الطبقة الكهنوتية في بلاد فارس التي اوجدت السحر كما هو معتقد عموماً، بل "الماجي" Magi الذين اشتُقّ اسم "السحر" magic منهم. كهنة الـ"موباد" الفارسيين (الزردشتيين) لا زال يُشار إليهم اليوم باسم "الماجوي" Magoi في اللغة البهلوية. لقد ظهر السحر في العالم منذ أوائل الأعراق البشرية. يذكر "كاسيان" Cassien مخطوط سحري كان معروف جيداً في القرن الرابع والخامس ميلادي والذي هو منسوب إلى حام ابن نوح الذي بدوره تلقاه من "جارد"، الذرية الرابعة من "ست" ابن آدم.

يعود فضل المعرفة التي حازها موسى إلى "ترموثيس" Thermuthis أم الأميرات المصرية، التي أنقذته من مياه النيل. و"باتريا" Batria زوجة الفرعون، كانت هي أيضاً مطلعة على التعاليم السرية، واليهود يعيدون إليها فضل ما حازه نبيهم الذي كما قالوا: "*..تعلم كل حكمة المصريين، وكان قوياً بالكلمات والمآثر..*". تكلم "جوستن مارتاير" Justin Martyr عن تلقي يوسف معرفة عظيمة في الفنون السحرية من كهنة مصر الكبار.

كان القدماء مطلعون في علوم معيّنة أكثر مما اكتشفه علمائنا العصريين حتى الآن. رغم كبرياءهم الذي يمنعهم من الاعتراف لكن هذه الحقيقة أصبح مسلّم بها. يقول البدكتور "أ. تود تومسون" A. Todd Thomson، وهو محرّر مجلة "العلوم الخفية" Occult Sciences: "*..إن مستوى المعرفة العلمية التي سادت يوماً في إحدى الفترات القديمة أعظم بكثير مما يرغب العصريون في الاعتراف به..*". ويضيف قائلاً: "*..كانت هذه المعرفة مقتصرة ضمن حدود المعابد، محجوبة بعناية عن عيون الناس ومكشوفة فقط للكهنة..*". خلال حديثه عن القبالة، يعلق المثقف "فرانز فون بادر" Franz von Baader قائلاً: "*..ليس فقط خلاصنا وحكمتنا جاءتنا من اليهود بل علومنا أيضاً..*"، لكن لماذا لم يُكمل هذه العبارة ويقول للقارئ من أين جاء اليهود بحكمتهم؟

صرّح "أوريجن" Origen، الذي كان ينتمي إلى المدرسة الأفلاطونية في الاسكندرية، بأنه إلى جانب تعليم موسى حول الميثاق كشف بعض الأسرار المهمة "من أعماق القانون الخفية" إلى سبعين حكيم. وقد أوصاهم أن لا يكشفو هذه الأسرار سوى لأشخاص يجدونهم مؤهلين لذلك.

يوصف "سنت جيروم" St. Jerome يهود "تيبيريوس" و"ليدا" بأنهم المعلمون الوحيدون للترجمة الباطنية للنصوص المقدسة. ويعبر "أنموزر" Ennemoser عن رأيه القوي بأن كتابات "دايونيسيوس أروباغيتا" Dionysius Areopagita تستند بوضوح على تعاليم القبالة اليهودية. عندما نأخذ بعين الاعتبار حقيقة أن العرفانيين والمسيحيين الأوائل كانوا أتباع مذهب "إيسين" Essenes لكن باسم مختلف لم يعد هناك أي داعي للاستغراب. يمنح البروفيسور "موليتور" Molitor تعاليم القبالة مستحقها العادل من خلال القول:

".. إن عصر السطحية وعدم المنطقية في اللاهوت وكذلك العلم قد ولّى، وطالما أن تلك العقلانية الثورية لم تترك وراءها سوى الفراغ، بعد تدمير كل شيء إيجابي، يبدو أن الوقت قد حان لتوجيه الانتباه مجدداً لذلك الكشف الذي يمثّل الينبوع الحيّ الذي يأتي منه خلاصنا... التعاليم السرية لإسرائيل القديمة، التي تحتوي أسرار إسرائيل الحديثة، من شأنها أن تؤسّس الخامة الأولية للاهوت بمبادئه الدينية العميقة وتمثّل قاعدة ثابتة لكافة العلوم النموذجية. سوف تفتح طريق جديدة إلى المتاهة الغامضة التي تشكلها الأساطير والتعاليم السرية والمؤسسات التابعة للأمم القديمة.. في هذه التقاليد وجدها توجد أنظمة مدارس الأنبياء، التي لم يؤسسها النبي صاموئيل بل قام بإصلاحها، والتي كان هدفها إرشاد العلماء إلى الحكمة وأرقى المعارف، وبعد التأكد من أهليتهم يتم توجيههم إلى الأسرار الأكثر عمقاً. بين هذه الأسرار العميقة يُصنّف السحر الذي له طبيعتين: السحر السماوي والسحر الشرير، أو السحر الأسود. كل من هذين القسمين مؤلف أيضاً من نوعين: العملي والنظري. النوع الثاني يساعد الإنسان على التواصل مع العالم للتعرف على الأشياء الخفية، والأول يعلمه كيف يكتسب السلطة على الأرواح. السحر السماوي يشمل ممارسة الأعمال الخيّرة والمفيدة، بينما السحر الشرير يشمل كافة أنواع الممارسات الشيطانية والغير مستقيمة.."

بعيداً عنا كلّ البعد الاستهانة أو حتى التجديف تجاه القوة الإلهية التي خلقت كل الأشياء الخفية والمرئية. لا نتجرّأ حتى التشكيك بمدى جلالتها وكمالها. يكفي أن نعلم بأنها موجودة وأنها كليّة

الحكمة. ونعلم أيضاً بأننا نشارك المخلوقات الأخرى بحيازة كل منا على شرارة من جوهرها. القوة العليا التي نبجّلها هي ذلك الشيء اللامحدود واللانهائي، هو ***الشمس الروحية المركزية*** التي نحن مغمورون بتأثيراته وخصائصه وإرادته. هو إله الحكماء القدامى والمعاصرين. يمكن دراسة طبيعته فقط في العوالم التي انبعثت من جوهره. كشف عن نفسه من خلال النماذج والاشكال المتناغمة التي رسمتها أصبعه فوق وجه الكون. هذا العمل يمثّل الإنجيل المعصوم الوحيد الذي نسلّم به.

خلال حديثه عن علماء الجيوغرافيا القدامى، علّق "بلوتارش" في كتاب "ثيسيوس" Theseus بأنهم كانوا يكظّون على حواف الخرائط تلك المناطق التي لازالت مجهولة، مضيفين ملاحظات كتابية على الهوامش تقول بأنه وراء هذه الحدود لا يوجد شيء سوى الصحارى الرملية المليئة بالوحوش الضارية ومستنقعات منيعة. أليس هكذا يفعل اللاهوتيين والفلاسفة اليوم؟ يصوّر اللاهوتيون العالم الخفي بأنه مسكون من قبل الملائكة أو الشياطين، والفلاسفة العصريين يحاولون إقناع تلامذتهم بأنه حيث لا توجد المادة لا يوجد شيء.

".. يوجد إله شخصي، ويوجد شيطان شخصي.."، يصيح رجل الدين، *".. من يرفض هذه الحقيقة هو ملعون.."*! بينما على الجانب الآخر نجد العلماني المادي يقول ساخراً: *".. ليس هناك إله شخصي بل مجرّد مادة رمادية في الدماغ.. كما أنه لا يوجد شيطان، وكل من يصدق هذا الكلام يُعتبر أحمق.."*. بينما نجد الفلاسفة والتجاوزيين الحقيقيين ينأون بأنفسهم عن هذه المعركة الغير مجدية ويتابعون أعمالهم بصمت. هؤلاء لا يؤمنون بالإله الغضوب والحقود والمتقلّب الذي يتكلم عنه رجال الدين، لكنهم يؤمنون بوجود الخير والشرّ. لا يستطيع تفكيرنا، الذي هو انبعاث من عقلنا المحدود، أن يستوعب الوعي المقدّس الذي هو كيان لامحدود ولانهائي. ووفقاً للمنطق، كل ما يتجاوز مستوى فهمنا ويبقى غير قابل للاستيعاب من قبل حواسنا لا يمكن أن يكون موجوداً بالنسبة لنا، وبالتالي، فهو غير موجود. لهذا السبب يتوافق تفكيرنا المحدود مع المنطق العلمي الذي يقول بأنه "ليس هناك إله"، لكن على الجانب الآخر نجد أن "الذات" لدينا والتي تعيش وتفكّر وتشعر باستقلالية عنا وعن جسمنا المادي لا تتوقف عن حدود الإيمان بوجود إله، بل تعلم بوجوده في الطبيعة ونحن نعيش في رحابه. لا يستطيع أي إيمان جازم أو علم دقيق أن يستأصل ذلك الشعور البديهي المتأصل في الإنسان، خصوصاً بعد أن أدرك هذه الحقيقة بنفسه.

الطبيعة البشرية هي كما الطبيعة الكونية في كرهما للفراغ. إنها تشعر بتوق بديهي إلى قوة عليا. دون حضور إله سوف يبدو الكون مثل الجثّة الخالية من روح. بسبب منعه من البحث عن هذا الإله الحقيقي، ملأ الإنسان الفراغ بفكرة وجود إله شخصي يتصف بمجوعة من السمات التي ابتكرها معلموه الروحيين بالاعتماد على بقايا الخرافات الوثنية والفلسفات القديمة. وإلا كيف يمكننا تفسير كثرة ظهور المذاهب الجديدة بين الحين والأخرى، وبعضها سخيف لدرجة تتجاوز المعقول؟

منذ العصور الأولى من تاريخ الإنسان، لازالت الحقائق الأساسية التي سُمح للإنسان معرفتها على هذه الأرض محفوظة بأمان في أيدي المعلّمين الكبار، حرّاس الحرم. الاختلافات بين المذاهب والممارسات الدينية هي اختلافات خارجية فقط. هؤلاء الحرّاس الأمناء للكشف المقدّس، والذين أوجدوا حلولاً لكل المسائل التي يمكن أن يواجهها الذكاء البشري، أوجدوا رابط يجمعهم من خلال جمعية سريّة علمية/فلسفية تمثّل سلسلة غير منقطعة تلتفّ حول الكوكب. أصبح الوقت مناسباً أكثر من أي زمن آخر لإعادة النظر في الفلسفات القديمة. علماء الآثار، فقهاء اللغة، علماء الفلك، علماء الكيمياء والفيزياء.. جميعهم يقتربون رويداً رويداً نحو النقطة التي يُدفعون فيها لإعادة النظر في تلك الفلسفات. لقد اقترب العلم المادي من الحدود النهائية لاستكشافاته، ومنابع إلهام الأديان الجازمة أصبحت جافة. لقد اقترب اليوم الذي يكشف فيه العالم عن دلائل تثبت حقيقة أن الأديان القديمة هي الوحيدة التي كانت على تناغم وانسجام مع الطبيعة، والعلوم القديمة شملت كل ما يمكن معرفته. يمكن لأسرار محجوبة أن تتكشف للعلن. كتب منسية أو فنون مفقودة منذ زمن بعيد قد تظهر إلى النور مرّة أخرى. مخطوطات ولفائف من البردى مهمة قد تظهر في أيدي رجال يزعموا بأنهم نبشوها من أقبية أو حجرات مدفونة تحت الأرض، أو الكشف عن معلومات محفورة على عواميد أو ألواح قد تذهل اللاهوتيين أو تربك العلماء. من يعلم ما يخفيه المستقبل من إمكانيات؟ سوقد يبدأ عصر جديد من البناء والتحرر من الأوهام.. لا، فإنه قد بدأ الآن. الدورة الزمنية كادت أن تكتمل، ودورة جديدة على وشك الانطلاق، الصفحات المستقبلية للتاريخ قد تحتوي على إثباتات وبراهين تقول: *".. إذا صدقنا أقوال القدماء، فإن الأرواح الهابطة تحدثت مع الإنسان وكشفت له عن أسرار العالم المجهول.."*.

انتهى الاقتباس من مقدمة القسم الأوّل من كتاب

"كشف الحجاب عن إيزيس"

مدخل

الصفحات الثلاثين السابقة مقتبسة من مقدمة كتاب "كشف الحجاب عن إيـزيس" Isis Unveiled للكاتبة "هيلينا بلافاتسكي" H. P. Blavatsky (١٨٣١ـ١٨٩١م) التي ألفته فـي العـام ١٨٧٧م وأصبح المرجع المحوري لأعضاء الجمعية الثيوسوفية Theosophical Society التي أسـستها عام ١٨٧٥م وتتمحور حول فلسفة تجمع بين أفكار هندوسية ومصرية قديمة تزعم "بلافاتـسكي" بأنها نهلتها من معلمين في التبت.

كما أي جمعية أخرى، انطلقت جمعية بلافاتسكي واضعة أهداف سامية غايتها الرئيسية التنـوير ونشر الحقيقة الأصيلة التي تقبع عند جذور كل الأديان الكبرى.. لكن هل كانت تنـشر الحقـائق الأصيلة فعلاً؟ في الفترة التي شهدت نشوء الحركة الثيوسوفية العصرية كان هناك توجّه فكـري سائد بقوة في عالم المعرفة ويتعلّق بمفهوم الأعراق ونظرية التطوّر وبالتالي تأثيرها طال أفكـار الحركة الثيوسوفية بشكل كبير، فراحت تدمج بين المنطق العلمي السائد في حينها مـع المنطـق القديم وتخرج بخلطة هجينة. فمثلاً، بعد دمج نظرية العصور الجيولوجية العصرية مـع المبـدأ السباعي القديم خرجت بنظرية تقسيم العصور إلى سبعة حقب مختلفة، وكذلك الحال مع نظريـة الأعراق البشرية التي جعلتها سبعة اقسام وجعلت بعضها متطوراً أكثر من البعض الآخر (بسبب سواد فكرة التفوق العرقي في زمانها) وهكذا.. هذا ولم نتحدث عن أقسام الكينونة البشرية التـي جعلتها سبعة وثلاثة وبطريقة مناسبة مع مفاهيم علم النفس السائدة في حينها وليس المفاهيم القديمة التي استند عليها هذا التقسيم الثلاثي والسباعي. وجب أن لا ننسى الحركة الأرواحية التي كانـت في ذروتها في تلك الفترة مما تركت أثر كبير في نظرة بلافاتـسكي تجـاه الكينونـة البـشرية. بالإضافة إلى التعقيد غير الضروري الذي اتسمت به الشروحات المتناولة لمبادئ العقيدة الـسرية والتي غالباً ما كانت موبوئة بسوء التفسير والخلط في الأفكار أو تحريفها المقصود بهدف تقريبها من وجهة نظر الجمعية أو مؤسسيها، أو توفيقها مع المنطق العلمي السائد في تلك الفترة. وكمـا أي جمعية أخرى، تحولت هذه الجمعية مع الوقت إلى منظمة بيروقراطية متشددة لا تتساهل مـع الآراء والأفكار المناقضة لمفاهيمها الخاصة، مهما أبدته تلك الآراء والأفكار من مصداقية.

لكن هذا لا يمنعنا من الاعتراف بفضل الجمعية الثيوسوفية في إظهار الكثير من الحقائق الباطنية من ظلمات السريّة إلى نور المعرفة، خصوصاً تلك التي تتعلّق بالتعاليم التي تمثّل عامل مـشترك

انطلقت منه كل الأديان، بحيث تبيّن أن الاختلافات الكبرى بين الأديان تكمن في اختلاف تفسير المبادئ التي تجمع بين هذه الأديان أصلاً. لقد ساهمت الجمعية الثيوسوفية في إغناء الباحث بالكثير من المعلومات الثمينة حول المعتقدات القديمة، خصوصاً الهندية والمصرية.

المصطلح "ثيوسوفيا" ليس من ابتكار "بلافاتسكي" بل يعود استخدامه إلى زمن قديم جداً. هذا الاسم الذي هو ترجمة حرفية للكلمة الإغريقية "ثيوسوفيا" Theo-Sophia يعني "المعرفة بالأمور الإلهية"، أو "المعرفة المقدسة"، وغالباً ما توصف بأنه لا يمكن حوزتها إلا عبر الخبرة المباشرة، وذلك بعد أن يصبح الفرد واعياً للجانب الإلهي في جوهر طبيعته، ومن خلال التماهي مع هذا الإله الداخلي في كيانه يحصل تواصل متناغم ومباشر مع الكيان الإلهي الكوني فتتجلى حالة التنوّر أو المعرفة المطلقة أو الحكمة الإلهية (العرفانية). يُزعم بأن هذه "الحكمة الإلهية"، أو "الثيوسوفيا"، تشكّل البنية التحتية لكافة الأديان والفلسفات العالمية، وهي تُعلّم وتُمارس من قبل أقليات مختارة منذ الزمن الأول، أي منذ أصبح الإنسان كائن مفكّر. أُشير إليها أيضاً بأسماء مثل "العقيدة السريّة" أو "التقليد الباطني" (الإيزوتيري)، وقد حُفظت تعاليمها عبر العصور المتعاقبة، وكانت تخضع للتدقيق والتصحيح والتجريب من قبل الأجيال المتعاقبة من حراسها وفقهاءها.

بدأت كلمة "ثيوسوفيا" تُستخدم وتصبح مألوفة للإغريق في القرن الثالث الميلادي وذلك من قبل "أمونيوس ساتشاس" Ammonius Saccas وغيره من أتباع الأفلاطونية المستجدثة neoplatonism في الإسكندرية، الذين علّموا حول التجليات المقدسة، حيث يشرحون كيف أن الكون والإنسان وكافة الكائنات هي سلالات منحدرة من أصل إلهي واحد. وقد نُسبت كلمة "ثيوسوفي" لاحقاً في أوروبا إلى فلاسفة متصوفين جدد مثل الألمانيان "مايستر أكهارت" Meister Eckhart (١٢٦٠ ــ ١٣٢٨م)، و"جاكوب بويهمي" Jacob Boehme (١٥٧٥ ــ ١٦٢٤م) والخيميائي السويسري الشهير "باراسلسوس" Paracelsus (١٤٩٣ ــ ١٥٤١م). وأخيراً رأينا الاسم يبرز للعلن وعلى نطاق واسع في أواخر القرن التاسع عشر، وذلك بعد أن تم تبنيه من قبل "هيلينا بلافاتسكي" خلال تأسيسها لـ"جمعية الثيوسوفيا" في العام ١٨٧٥م، وقد زعمت بأن هذه الحركة تمثّل امتداد عصري لتعاليم الحكمة الدينية العريقة التي بدأت تروّج لها على طريقتها الخاصة.

في الحقيقة، هذه الحكمة الدينية طالما كانت تمثّل المعرفة الواحدة والأخيرة التي يمكن للإنسان حوزتها، ولهذا السبب تم الاحتفاظ بها عبر العصور. إنها تسبق زمن الثيوسوفيين العصريين وكذلك الأفلاطونيين الإسكندرانيين بعصور مديدة. هذه العقيدة السريّة هي الحكمة المتراكمة عبر أجيال لا متناهية، وتعاليمها حول نشأة الكون تمثّل منظومة مُتقنة ومفصّلة بحيث يمكن اعتبارها الأكثر روعة وإذهالاً. صحيح أنها خضعت للتشفير والترميز ضمن النصوص المقدسة لمعظم ديانات العالم مما أفقدها جزء كبير من ألقها في عيون الأغلبية، لكن تبقى رغم ذلك محافظة على روعتها في نصوص كثيرة مثل الـ"بورانا" Puranas الهندوسية، وهي مجموعة أساطير خرافية تُمثّل نصوص ظاهرية لتعاليم باطنية. هكذا هي الحال مع القوّة الغامضة للتشفير، حيث يمكن تفسير كل الحقائق الكونية التي جمعتها أجيال لا تُحصى من الحكماء المطلعين، وهي معلومات يمكن أن تملأ عشرات المجلدات الضخمة، في مجموعة من الصور والرموز والرسومات الهندسية المصحوبة بشروحات مقتضبة بالكاد تملأ صفحات معدودة. أي بمعنى آخر، كافة أسرار الكون يمكن جمعها في كتاب واحد، الاختصار المركّب. هذا الإنجاز وحده يمثّل أعجوبة بحد ذاتها. النظرة الخارقة لهؤلاء المستبصرين تغلغلت إلى لبّ المادة، وبحثوا في جوهر الأشياء التي مهما ارتقى الدنيويون في علومهم ومعارفهم لن يستطيعوا رؤية سوى القشرة الظاهرية لعمل الخالق. لكن العلم العصري لا يؤمن بـ"جوهر الأشياء"، وبالتالي من المنطقي أن يرفض كامل منظومة تعاليم القدماء حول بنية الكون ونشأته. لا يمكننا الأخذ بادعاء العلمانيين الماديين (وكذلك نقيضهم المعاكس الممثّل بالدينيين المنحرفين) القائل بأن هذه التعاليم هي مجرّد أوهام انتابت مجموعة منعزلة من الأشخاص المنغلقين على أنفسهم. لكن في الحقيقة، هذه التعاليم هي نتيجة تدوين غير منقطع لملاحظات متعلقة بظواهر الطبيعة واستمرّ عبر آلاف الأجيال من المستبصرين الذين خضعت خبراتهم واستنتاجاتهم للتجربة والاختبار، وذلك بعد مقارنتها مع التقليد الأساسي الذي تم تناقله شفهياً جيلاً بعد جيل منذ الزمن الأول، منذ أن مُنِح للبشرية من قبل الكائنات السامية التي رعت الإنسانية في مرحلة طفولتها.

تم المحافظة على هذا التقليد الأساسي بعد لملمته وإنقاذه من تبعات الكارثة الكونية التي ضربت الأرض في أحد العصور الغابرة. ومنذ حينها أمضى الحكماء الكبار، الحائزين على هذا التقليد، سنوات أعمارهم ليس في تعليمه بل محاولة تعلّمه واستيعابه بشموليته. كيف فعلوا ذلك؟ يُزعم بأن الجواب هو التحقّق من مدى صحّته عبر التجربة والاختبار، وتفحّص كل ظاهرة من ظواهر الطبيعة مستخدمين بصيرتهم الخارقة. هؤلاء الأسياد الكبار هم رجال ونساء نجحوا في تطوير

أنظمتهم الجسدية والعقلية والروحية إلى حد الكمال. لم تُقبل أي رؤية يتقدم بها أحدهم سوى بعد فحصها والتحقق منها عبر مقارنتها مع رؤية أخرى (أو مجموعة رؤى) تقدم بها غيره من الأسياد، إما المعاصرين له أو أسلافه الذين عاشوا في زمن سابق.

إذاً، يمكن التوصل إلى استنتاج أولي يقول بأنه طوال العصور المديدة من عمر وجود الإنسان على كوكب الأرض، يوجد نظام شامل ومتكامل من الفلسفة الدينية، أو الدين العلمي الفلسفي، محجوباً عن الأكثرية، لكن يتم تسريب بعضاً من تعاليمه بين وقت وآخر حين تتطلّب الضرورة ذلك، أي عندما يحتاج العالم إلى كشف بعض من الحقائق الروحية لتعزيز استمرارية بقاءه في الفترات الحرجة الشديدة الظلام. الحقيقة الأخرى التي يمكن استنتاجها هي أن هذه المنظومة المعرفية الرائعة تقبع بأمان في حوزة أشخاص أكفّاء، يشيرون إليهم في الهند مثلاً باسم "ماهاتماس"، يحرسونها بعناية، دون كلل أو ملل، جيلاً بعد جيل، انتظاراً للزمن الموعود حيث تسمح الظروف الكونية لنشره من جديد في العالم أجمع. كتب أحد هؤلاء الحكماء "الماهاتماس" بخصوص حراسة وصون هذه الحكمة المقدسة قائلاً: *".. عبر أجيال لا تُحصى، شيّد المعلمون معبداً مؤلفاً من الصخور المخلّدة، برج جبّار مؤلف من الفكر اللامحدود، ويقبع فيه العملاق وحيداً، لكنه يخرج منه مجدداً عند نهاية كل دورة كونية لدعوة المختارين من البشرية للتعاون معه خلال سعيه في تنوير الإنسان الموهوم بالخرافات. وسوف نستمرّ في مهمّتنا الدورية هذه دون أن نسمح لأنفسنا بأن تُصاب بالإرباك أو الانحراف خلال محاولاتنا الخيّرة حتى يحين موعد ذلك اليوم الذي يكتمل فيه تشكيل أرضية فكرية جديدة في العالم، وتكون متينة لدرجة لا تتأثر مهما كانت درجة مقاومة ونقمة الحشود الجاهلة التي ترعاها المحافل الظلامية ذات القطبية السلبية.."*

لكن يبدو أن هذه المعرفة المقدسة لا يقتصر وجودها في الهند بل منتشرة في كافة أنحاء العالم. هذا ما يشير إليه انتشار الجمعيات أو المدارس السريّة التي يمكن تتبع أثرها في كل مكان. صحيح أن معظمها لم يعد يحوز على تلك المعرفة بشموليتها بل مجرّد فتات واجزاء مبعثرة وغير مفهومة، لكنها موجودة على أي حال، وكان لها دور فاعل (سلبي أو إيجابي) عبر العصور التاريخية المتعاقبة. كانت تظهر للعلن في بعض الفترات وتلعب دورها التنويري الإيجابي، على شكل مدارس فلسفية مثلاً كما كان الحال في مصر واليونان، لكنها في فترات أخرى كانت تختفي من الوجود دون أن تترك أثر، خصوصاً في تلك الفترات التي تتصف بـ"القحل الروحي" كما

سماها أفلاطون، فتبرز مكانها محافل سرّية تستثمر تلك التعاليم لاستغلال الإنسان وتجهيله وتحويل حياته إلى جحيم.

الأهداف الرئيسية لهذه الجمعيات السرّية، إن وجدت في مكان وزمان ما، هي ذات طابع ديني/فلسفي/علمي، بالإضافة إلى كونها خيرية وإنسانية في المقام الأوّل. غايتها الرئيسية هي الاستعادة للإنسانية إرثها القديم الذي يُعتبر من حقّها الطبيعي، والممثّل بمعرفة الحقائق المتعلقة بوجوده ومكانته في الكون، والسعي إلى زرع المبادئ الأخلاقية المتناغمة مع هذه الحقائق في قلوب وعقول البشر. الأمر المُحزن هو أن هذه الأهداف بالذات هي تلك التي تتغنى بها جمعيات سرّية مثل الماسونية والصليب الوردي وغيرها من الجمعيات التي نألفها اليوم في كتب المؤامرات الدولية والتي تضم بين صفوفها أقوى رجال العالم وأكثرهم نفوذاً. السؤال هو: هل هذه الجمعيات تسعى فعلاً إلى تحقيق تلك الأهداف السامية؟ أنظر إلى الجحيم الذي تعيشه شعوب العالم اليوم وسوف تستنتج الجواب بنفسك.

رأينا في الجزء السابق كيف أن أصول "التقليد الأساسي" أو "الحكمة المقدسة" ليست محصورة في الهند وحدها، ولا حتى في التبت، وهي لم تنطلق من هناك أساساً، إذ نجد تعاليم مشابهة لتلك التي بحوزة "الماهاتماس" في الهند، إن لم تكن متطابقة معها، وقد تأصّلت في الشرق الأوسط، ويشيرون إليها بالتعاليم الهرمزية. رغم التشويه الذي تعرّضت له عبر العصور إلا أنها بقيت صامدة بفضل المدارس السرّية الإيجابية التي تقبع في الخفاء. الجمعيات النافذة اليوم في العالم (كالماسونية) تمثّل الجانب السلبي من تطبيق التعاليم الهرمزية.

لقد ذكرت لمحة مختصرة عن الفلسفة الهرمزية في الجزء السابق (القيبلان)، إذ لا يمكن فهم تعاليم شجرة الحياة دون الاطلاع على هذه الفلسفة، وقد لمحت أيضاً إلى مبدأ الثالوث الذي تثبت الآثار بأنه كان منتشراً بين حضارات العالم القديم. إن ذكر هذه المواضيع المختلفة ليس عملاً اعتباطياً بل له سبب وجيه. لا يمكن استيعاب منظومة تعاليم "شجرة الحياة" دون المرور على المبادئ الهرمزية أولاً، ومن ثم استيعاب المعنى الفعلي للثالوث المقدّس. صحيح أنها بدت في الجزء السابق مواضيع مختلفة وبعيدة الصلة لكن في هذا الكتاب ستكتشف بأنها تمثّل أجزاء مختلفة لجسم معرفي واحد.

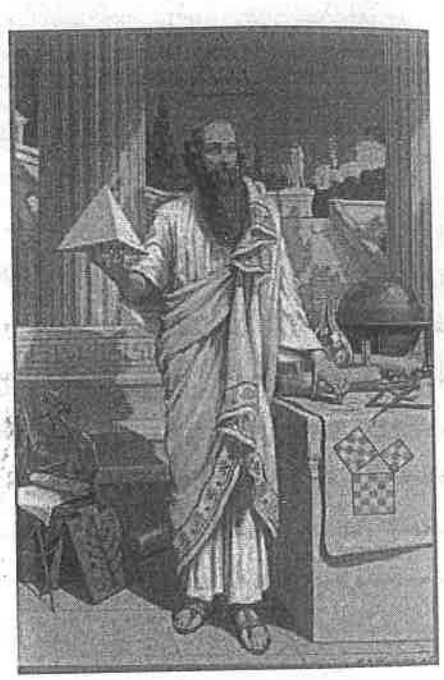
المعرفة التي سأشرحها في هذا الكتاب لا تلتزم بأي مدرسة بعينها، ليس لها هوية، لا هرمزية ولا أفلاطونية ولا ثيوسوفية ولا قبلانية ولا يوغية ولا برهمية ولا غيرها. لكن رغم ذلك، فهي تمثّل الأساس الذي انطلقت منه كافة هذه المدارس الفلسفية القديمة. هناك أمر مهم وجوهري يتعلق بكافة المدارس الفلسفية التي جاءتنا من حضارات العالم القديم، جميعها تعتمد على منطق واحد، منهج معرفي واحد، والفرق بين هذه الفلسفات المختلفة هو في التوجّه والغاية التي كرّس من أجله هذا المنطق المشترك. فمثلاً، الفرق بين الهرمزية والأفلاطونية والعرفانية يكمن في الأهداف التي كرست نفسها لأجلها، بينما المنطق الذي استندت عليه هو ذاته، نظرتهم للكون هي ذاتها، معتقداتهم بخصوص المبادئ التي يستند عليها الوجود عموماً هي متطابقة. لكن الفرق هو في طريقة استخدام تلك المبادئ. الهرمزية استخدمت المبادئ لأغراض علمية تطبيقية (خيمياء، طب، فلك،..)، والأفلاطونية استخدمت ذات المبادئ لكن لأغراض فلسفية، والعرفانية استخدمت ذات المبادئ لأغراض دينية... الحال ذاته مع المدارس الفلسفية والدينية المصرية والهندية القديمة. كان القدماء يتجادلون حول مذاهبهم الفلسفية والعلمية والدينية لكن لا أحد يجادل حول المبادئ الأساسية التي انطلقت منها تلك المذاهب لأنها تمثّل مسلّمات ثابتة غير قابلة للنقاش.

لهذا السبب، سوف أجرّد هذا الجسم المعرفي الجليل من أي هوية أو اسم وساكتفي بالإشارة إليه باسم العقيدة السرية، أو الحكمة المقدّسة، أو التعاليم السرية. سوف أشرحها بطريقة مجرّدة، أي خالية من أي لون ديني أو مذهبي محدد. تذكر أننا لسنا بصدد تسويق عقيدة معيّنة، بل إعادة إظهار المبادئ الأساسية التي بُنيت عليها كافة العقائد المختلفة حول العالم، وهذا ما سوف تلمسه بنفسك. مُعظم المفكرين المتنورين (العلمانية التجاوزية) أجمعوا على أن هذه الفلسفة تمثّل الأساس الذي بنت عليه كافة الأديان والمدارس الروحية حول العالم. بعد الاطلاع عليها سوف تشارك هؤلاء المفكرين قناعتهم.

الفكرة الأولية التي كوناها بخصوص التعاليم السرية هي أنها عبارة عن قوانين ومسلمات لاهوتية صارمة تتمحور حولها طقوس عبادية معيّنة، وغالباً ما يكون انطباعنا الأوّل بخصوص المدارس السرية هو أنها سوداء ومظلمة وتضم مجموعة من السحرة والماورائيين الشاذين، لكننا سنكتشف في هذا الكتاب بأنها بعيدة كل البعد عن التصورات السلبية التي طالما حكمت عقول الكثيرين. بعد التعرّف على مبادئها بصيغتها النقية والصافية والخالية من كل شائبة فكرية أو اعتقادية مظللة

سوف تكتشف بأن التعاليم السرية، بصيغتها الأصيلة، تمثّل منهج علمي يتميّز برقي فلسفي وجدوى كبيرة من الناحية الروحية (تنوّر) والدنيوية (استخدامات عملية).

لطالما خُلطت هذه المبادئ مع ممارسات وشعائر ليس لها أي علاقة مثل عبادة الأصنام وتحضير الكائنات الخفية وغيرها من ممارسات تتعامل مع سكان العالم الماورائي، رغم أن تلك الممارسات كانت تجسّد تأثيرات ملموسة فعلاً، لكن الفرد يجهل حقيقة أن هذه الممارسات تنتمي إلى مفهوم آخر يختلف تماماً ويمكننا الإشارة إليه بعملية "خلق كينونة فكرية" وتستند على ظاهرة عجيبة تتعلّق بقدرة الإنسان على تجسيد تأثيرات ملموسة بالاعتماد على قدرات خاصة يتمتع بها العقل (القدرة على خلق وعي ديناميكي، PK .. إلى آخره).



الهرمزية استفادت من المبادئ الأساسية للتعاليم السرية لأغراض علمية تطبيقية



الأفلاطونية استفادت من المبادئ الأساسية للتعاليم السرية لأغراض فلسفية



العرفانية (الغنوصية) استفادت من المبادئ الأساسية للتعاليم السرية لأغراض دينية

إن كل ما تعرفنا عليه حتى الآن عبر الأجزاء السابقة هي ظواهر تتعلّق بالإنسان والمتجلية على كافة المستويات. تلك المعلومات ليس لها علاقة بالحكمة السرية التي حرص القدماء على إخفاءها عبر العصور. التعاليم السرية لم توجد لكي تمنح الإنسان قدرات خارقة وسلطة مطلقة على الآخرين بل من أجل جعله الكائن الأقرب من الله [جلّ جلاله] والفرق بين الحالتين كبير جداً. أي إنسان يستطيع تعلّم واختبار ظواهر خارقة مثل الخروج عن الجسد او الاستبصار أو تحضير الأرواح (كينونات فكرية) أو غيرها من قدرات، بينما الحكمة السرية تشمل القوانين الأساسية التي بني على أساسها الكون، هي تضع الإنسان وجهاً لوجه أمام الحقيقة الجليّة، تزيده حكمة وتبصّر وتجعله أقرب إلى الإنسان المثالي الكامل.

إذاً، الأمر مختلف تماماً بين الحالتين. وبكل تأكيد، فإن ما نعرفه عن الحكمة السرية حالياً هو خاطئ وموبوء بالأفكار الشاذة والسطحية التي أوجدها الجهلة والحمقى والمغرضين. معظم التفسيرات التي جاءتنا من الماضي هي عبارة عن اجتهادات مفكرين ليس لديهم الأهلية أو المعرفة الواسعة أو المعلومات الصحيحة التي تمكنهم من التعامل مع الحقيقة الأصيلة. ربما استقوا معلوماتهم من مصادر محرفة، أو ربما فُرضت عليهم من قبل الحمقى المتسلّطين، لكن ما

نعرفه هو أن هذه التعاليم مرّت عبر عصور طويلة من الانحطاط الأخلاقي والفكري والحضاري.. زمن متوحش بكل ما تحمله الكلمة من معنى. زمن الغزوات والاحتلال والقتل والظلم والاستبداد والسيطرة المطلقة والامبراطوريات التيوقراطية الشمولية وغيرها من عوامل لا توفر جو مناسب للتفكير السليم.

المعرفة التي سوف تطلع عليها في هذا الكتاب تمثّل جوهر كل العلوم التي سادت في العالم القديم، ليس فقط علم تحضير الأرواح الذي نحن مهووسون به ونسعى إلى معرفته بل أيضاً علم الفلك والطب والخيمياء والهندسة والفن والقانون والفلسفة وغيرها من علوم ومعارف كانت سائدة في ذلك الزمن المجيد. هذا يجعلنا نستنتج بأن تعاليم القبالة أو البيتريس الهندية (التي ذكرتها في الجزء السابق) ليست مجرّد تعاليم تتعلق بتحضير الأرواح أو الجن أو الملائكة أو غيرها من كائنات خفية كما كان كهنة عصور الانحطاط يخدعون رعاياهم على اعتقاده. نحن نتكلم عن منظومة جوهرية توصف بشكل دقيق أساس بنية الكون وطريقة تكوينه، وهذا يجعلها أساس وجوهر كلّ المعارف الإنسانية، الماضية والحاضرة.

من الطبيعي أن العقل البشري يتناول موضوع ***الحقيقة*** ويجادل حولها. خلال إجراءاته المتواصلة يسعى هذا العقل دائماً، عن قصد أو غير قصد، في البحث عن الحقيقة. لكي تجد الحقيقة عليك رؤية الحقيقة، وبالتالي كلما زادت قدرة العقل على إدراك وتمييز ما هو حقيقي وغير حقيقي زادت فرصته في إيجاد الحقيقة أو على الأقلّ مظهر من مظاهرها.

كافة الأشياء تمثّل أو تعبّر عن مظهر من مظاهر الحقيقة. وفي الواقع فإن الحقيقة تمثّل السبب الرئيسي لوجود هذه الاشياء أصلاً. إذاً، طالما أن العقل لا يستطيع إدراك أي شيء عديم الوجود فهذا يعني أن ما يتناوله العقل البشري في تفكيره يمثّل بهذا المعنى مظهراً على الأقلّ من مظاهر الحقيقة، مهما كان هذا الشيء بعيداً عن الحقيقة النهائية أو المطلقة. لكن المعنى الكامل لأي مظهر من مظاهر الحقيقة لا يمكن فهمه واستيعابه إلا إذا تم تناوله من الزاوية الصحيحة ووفق علاقته المناسبة مع كافة المظاهر الأخرى للحقيقة.

لذلك، فإن الوعي بالحقيقة يعتمد على تكامل وشمولية التفكير. وكذلك، فإن المظاهر المتكاملة والجامعة للحقيقة هي أسهل تمييزاً وقبولاً بالمقارنة مع السمات الجزئية والتفصيلية. لكن في جميع

الأحوال، تعتمد صفاوة إدراك الحقيقة على مدى تأثير الأحكام والقناعات الراسخة مسبقاً في ذهن الفرد، بالإضافة إلى ماهية الأهداف والدوافع التي تجعله يسعى إلى الحقيقة. فمثلاً، يمكن أن يكون الهدف جمع وتصنيف السمات المتعددة للحقيقة اللانهائية لكي يصيغ قوانين عامة وذلك لغايات تطبيقية، شخصية أو غير شخصية. يمكن تصنيف هذا المسعى الأخير بأنه *علمي* بالمعنى العام. على الجانب الآخر، يمكن أن يكون الهدف من أجل الحقيقة بعينها، أي من أجل أن يحرز الفرد من خلالها حالة وعي فعلي بالواقع النهائي. يمكن تصنيف هذا المسعى بأنه *فلسفي* بمعناه العام.

يتعامل المنهج *الفلسفي*، بعكس المنهج *العلمي*، مع الطبيعة الجوهرية والجامعة والمجرّدة للأشياء، أكثر من تعامله مع خصائصها الظاهرية والجزئية والمادية. الفلسفة تعني *الحكمة* بدلاً من *المعرفة*، وتتبع منهج توحيدي وتجميعي بالمقارنة مع العلم الذي يتبع منهج تحليلي وتجزيئي. علاوة على ذلك، بين الأنظمة الفلسفية المختلفة في العالم نجد أن تلك التي تكون نظرتها أكثر شمولية للكون وأكثر كفاءة في التعبير هي الأكثر وضوحاً وتناغماً، إن كان في ذاتها أو في علاقتها مع الأنظمة الأخرى.

الفلسفة السرّية والحقيقة

يمكن تعريف النظام الفلسفي للتعاليم السرية بأنه الحكمة المتعلقة بالخالق [عزّ وجلّ] والكون والإنسان. بصفتها الحكمة المتعلقة بالخالق [جلّ جلاله] فهي تقدّم المفهوم الأكثر تمجيداً للإله الأعلى وبالأسلوب القداسي الأعمق. بصفتها الحكمة المتعلقة بالكون أو "العالم الكبير" Macrocosm، فهي تقرّب العالم المحسوس إلى نور العالم الفكري، وتكشف عن الوحدة الشاملة القابعة تحت وماوراء كل ما هو مزدوج ومتعدد. بصفتها الحكمة المتعلقة بالإنسان أو "العالم الصغير" Microcosm، فهي تتسم بمبدأ الوحدة والشمولية، كاشفة إلى حد كبير كافة مبادئ الإنسان وقدراته وأدواته وعلاقاته، ومشيرة بشكل مكثّف إلى تماثله (وطريقة اندماجه) مع نمط ونوعية الإنسان المثالي الكامل. يمكن اختصار مفاهيم التعاليم السريّة الرئيسية المتضمنة للأفكار السابقة على الشكل التالي:

[١]

المطلق

[جلّ جلاله]

ماذا يمكن أن يمثل أبسط وبنفس الوقت أعمق من ذلك الاسم الذي يتردد ذكره عبر كـل أعمـال المدرسة الأفلاطونية والأفلطونية المستحدثة؟ لقد أشاروا إلى ذلك الشيء الذي عرفوا بأنه يتعـذّر وصفه باسم "الواحد"، وأحياناً عزّزوا ذلك الاسم باسم آخر وكأنهم يمنحونه لقب يناسبه: "الواحـد الخيّر". حيث أن هذا الشيء الذي يشيرون إليه لا يمثّل *الواحد* السابق للكل فحسب بل هو أيـضاً *الواحد* الذي يحيا في رحابه الكل بحيث لا يستطيع أي شيء أن يكون خارجه أو من دونه. لكـن إلى جانب كونه بالمعنى التجاوزي ".. غير قابل للاستيعاب.." أو ".. يتعـذّر وصـفه.."، لقبـوه بـ"الخيّر" لأن الوجود بكامله يتعطّش إلى مشاطرته هذا الخيّر المثالي اللامحدود. كم هـو هـذا اللقب الجميل الذي منحوه للعليّ العظيم بسيط ومبجّل وباطني لدرجة تفوق الوصف. هـو الـذي وجب في الحقيقة أن يكون دائماً متجاوزاً لأعلى حدود استيعاب أرقى الفلسفات.. لأنه بكل بساطة ".. يفوق الإدراك وبالتالي يتعذّر وصفه..". كل من المواضيع التالية (الوحدة الإلهيـة والثـالوث الإلهي والتعدد الإلهي) لا تمثّل المطلق [جلّ وعلا] بل هي عبارة عن تجليات لإرادته.

الوحدة الإلهية

تحدثت التعاليم السرية عن الروح العالمية، الحياة الواحدة، مبدأ الحيـــاة، العقــل الأول Logos، الدميورغ Demiurge (صانع الكون المادي وفق أفلاطون)، أو أي شيء يشير إليه الناس بأسماء مختلفة لكنه في النهاية يصب في معنى واحد هو: الإرادة الكونية (أو الإلهية) التي انبعثت منهـــا كل الحياة، كل الأفعال، كل الأشكال والهيئات، وكل التغييرات، والمظاهر والتنوعات والتجليات.. وكل شيء آخر في هذا الكون.

ورد في أحد فصول التعاليم السرية ما يلي:

من لبّ اللامتجلّي، تجلّى ما يسميه الناس الروح العالمية، الحياة الواحدة، مبـــدأ الحيـــاة، العقــل الأول، خالق الكون، لكنه يمثّل في الحقيقة "الإرادة الإلهية" التي انبعثت منها كل الحياة والأفعـــال والأشكال والهيئات والصيغ والتغيرات والمظاهر والتنوعات والتجليات. "الإرادة الإلهيـــة" هـــي "الواحد" الذي صار الكثير، "الوحدة" التي صارت متعددة، المولود الأول من رحـــم اللامحـــدود، البيضة الكونية التي فقس منها الكون المتجلّي. لكن كل هذا يخضع أيضاً للـــ"قانون".

استخدمت التعاليم السرية مصطلح "الإرادة الإلهية" للإشارة إلى "المبدأ الإحيائي الكـــوني الواحـــد الخلاق" والذي تم التسليم بوجوده من قبل كل الفلسفات العظمى التي نشأت في كل زمان ومكان. منذ فجر ظهور التفكير الفلسفي، سلّم المفكرون الكبار بوجود "مبدأ إحيائي كوني واحـــد خـــلاق" والذي منه انبعث الكثير. في بعض الأحيان كان هذا الواحد يُعتبر "كائن كوني"، وهناك من تمادى في ذلك بحيث منحه شخصية خاصة قريبة للشخصية البشرية. بينما من ناحية أخرى، هناك مـــن اعتبره بكل بساطة بأنه يمثّل "مبدأ" وليس "كائن". لكن في جميع الأحوال، يبقى المفهوم الجوهري واحداً، حيث الجميع اعتبره شيء حيّ خلاق واحد أحد انبعث منه الكثير والمتعدد. وحدة واحـــدة انبعث منها التعدد والتنوّع. غالباً ما تم الخلط بين هذا المبدأ الإحيائي الكوني الخلاق الواحد مـــع <<[المطلق]>> [جلّ جلاله]، بينما آخرون جعلوه محكوماً من قبله، أو أدنى منزلة منه أو يـــأتي بدرجة ثانية بعده. وهذا بالضبط ما أخذ به حكماء الحضارات الذهبية (أطلنطس وراما) حيث مثّل جوهر معتقداتهم. المصريون أيضاً أخذوا بفكرة وجود مبدأ حيـــاة كـــوني، وكـــذلك الكلـــدانيين. والهندوس أيضاً، الذين اعتنقوا فكرة وجود مبدأ "برهمان"، أو الكيـــان الكـــوني الحـــيّ. وكـــذلك الفلاسفة الإغريق القدامى تمسّكوا بفكرة وجود مبدأ حياة كوني واحد.

كل من الأطلنطيين والمصريين والكلدانيين سلّموا بأن هذا المبدأ الكوني الحيّ الواحد قسّم نفسه إلى أشكال كثيرة من الحيوات والأشياء، وذلك إذعاناً لقانون باطني متأصّل في كينونته (وهو أعلى منزلة منه). الهندوس القدامى أيضاً تحدثوا عن الواحد الأحد الذي تجلّى بهيئات وأشكال كثيرة، لكن مدارسهم المتعددة تحدثت عن أسباب مختلفة دفعته لذلك. فمثلاً، إحدى المدارس زعمت بأن "براهمان" تجلّى بهيئة متعددة لكي يتمتع بحالة الوجود المتجلّي. ومدرسة أخرى زعمت بأن "براكريتي" (المبدأ المادي الأوّل في الكون، وهو أنثى) تزاوجت مع "بوروشا" (المبدأ العقلي الأوّل في الكون، وهو ذكر) الذي جذبته إليها بالإغواء، ونتيجة هذا التزاوج وُلد الكون المتجلّي. وهناك مدرسة أخرى تزعم بأن "براهمان" هو مجرّد "مبدأ حياة" مرؤوس، والذي قام بخلق الكون إذعاناً لأمر من "بارابراهمان". ومدرسة أخرى تزعم بأن الكون المتجلّي هو مجرّد "حلم وهمي" للمبدأ الخلاق الذي يسمونه "مايا"، والقابع أصلاً في عقل الكائن الأسمى. أما البوذيين، فقد اعتبروا أن التجلّي حصل بفعل "تانها" أو "التعطّش" للحياة الذي تملّك "الإرادة الكونية" فبرزت متجليّة من فراغ اللاشيء. هناك مدارس كثيرة أخرى تأخذ بأفكار مشابهة لهذه المذكورة سابقاً، أو قريبة الصلة بها أو مشتقّة منها، أو حتى جامعة لها جميعاً في رواية واحدة، لكن جميعها تتمحور حول ذات الفكرة: المبدأ الخالق الأوّل تجلّى بأمر من إرادة عليا.

كان الإغريق دائماً يعبرون عن تسليمهم بفكرة وجود "مبدأ الحياة الكوني"، وقد أشاروا إليه بأسماء كثيرة حسب اختلاف المدرسة الفلسفية. الاسم "كوزموس" Cosmos الذي استخدمه "الرواقيون" Stoics *(مدرسة فلسفية تعلّم كيف وجب على الحكيم أن يتحرر من عواطفه)* كانوا يقصدون به "الروح الكونية" وليس إشارة إلى "الكون المادي" كما يُستخدم اليوم. وقد تحدث الفيلسوف "هيراقليطوس" عن "الروح الكونية" مشيراً إليها برمز "الشعلة". أما "فيثاغورث" ففي تعاليمه الظاهرية (العمومية) تحدث عن "المبدأ الإحيائي" والذي أشار إليه برمز "النور" أو "الشعلة". مدارس كثيرة أخرى اعترفت أيضاً بوجود هذا المبدأ الحيوي الواحد لكنهم اعتبروه كائناً قائماً بذاته، وهذا مفهوم لازال سائداً حتى في الفلسفات العصرية.

لقد سمي هذا "المبدأ الإحيائي الكوني" من قبل بعض المدارس، خصوصاً الأفلاطونية منها، باسم "دميورغ" Demiurge، ويعني حرفياً "الصانع الكوني" (أو "خالق الكون المادي" عموماً). اعتبروا هذا "الدميورغ" بأنه عامل غامض لكنه جليل، والذي من خلاله وبواسطته قام <<"المطلق">> [جلّ جلاله] بخلق الكون. وصفوا كيف تدفقت حياة "الدميورغ" خارجاً لتتجلى

بأشكال عديدة وأصبح الواحد متعدداً. كانت هذه الفكرة مُعتنقة لدى العرفانيين المسيحيين الأوائل (الغنوصيين Gnostics).

لقد استُخدم أيضاً الاسم "لوغوس" Logos لدى بعض تلك المدارس القديمة للإشارة إلى هذا "المبدأ الإحيائي الكوني". اعتُبر "اللوغوس" بأنه المبدأ الإحيائي للطبيعة، وهو محسوس في العالم المادي لكنه غير ذاتي. رغم أنه مفعولاً وليس فاعلاً، إلا أنه مسؤول عن النظام والتوازن في عالم الأشكال والهيئات التي جسّدها. هذه الفكرة عن "اللوغوس" متأصّلة في الكثير من الديانات القديمة، وحتى أنها متغلغلة في المسيحية. البعض يعتبره "العقل الأول"، والبعض الآخر يعتبره "جوهر العقل"، ويُعتبر لدى الآخرين بأنه "كلمة الله" [جلّ جلاله].. إلى آخره، لكن في النهاية يجمع الكل على أنه يمثّل الوسيط بين <<"المطلق">> [عزّ وجلّ] والعالم المتجلّي. "اللوغوس" ليس موجوداً منذ الأزل كما حالة <<"المطلق">> [عزّ وجلّ]، لكن رغم ذلك فإن تكوينه ليس كتكويننا وتكوين باقي الأشياء المخلوقة الأخرى. يُعتبر عموماً بأنه الابن الأول للـ<<"مطلق">> [جلّ جلاله]، وبالتالي فهو بالنسبة لنا نحن القاصرين يُعتبر إله. عبر وبواسطة "اللوغوس"، خلق الله [جلّ جلاله] العالم وكشف عن نفسه له.

أثناء الفترات المُبكرة للكنيسة المسيحية حصل الكثير من الجدال حول موضوع "اللوغوس"، لكن الانقلاب الكبير الذي قاده الإمبراطور "قسطنطين" على التعاليم الأولى أدى إلى إخراج هذا الموضوع كلياً من دائرة الأهمية في اللاهوت المسيحي. لكن مع ذلك كله، بقيت الفكرة صامدة عبر العصور، وهذا ما أثبتته كتابات اللاهوتي والفيلسوف الإنكليزي البارز "رالف كودوارث" Ralph Cudworth (١٦١٧-١٦٨٨م) الذي تحدث عن وجود "طبيعة طيّعة"، حيث كتب قائلاً: *".. يمكن استنتاج وجود طبيعة طيّعة تحت أمرة الله، ويمكن اعتبارها أداة تابعة له، حيث تنفّذ ذلك الجزء من إرادته الذي يشمل عملية تنظيم وضبط حركة المادة.."*. سلّم "كودوارث" بأن هذه الفكرة عن "الطبيعة الطيّعة" تمثّل نظرة منطقية بناء على حقيقة أن الإجراء التدريجي والبطيء في توالد الأشياء سيُعتبر آلية معطّلة أو عمل كسول لو كانت القوة المحرّكة للطبيعة هي "كليّة المقدرة" فعلاً. بالإضافة، يمكن ملاحظة تلك الهفوات والمطبات التي تحصل هنا وهناك والتي تنم عن عمل أخرق وناشز. هذا كله يثبت أن القوة المحرّكة للطبيعة ليست عصية عن المقاومة، وأن الطبيعة مخيّبة للأمل أحياناً، خصوصاً عند إصابة المادة بالتوعّك أو الانحراف. بينما على الجانب الآخر، القوة المحرّكة "كليّة المقدرة"، والتي هي قادرة على إنجاز عملها خلال لحظات، تتصرّف

دائماً بشكل كامل ومنيع ومعصوم عن الخطأ، بحيث لا تستطيع أي حالة عناد أو توعّك أو نشاز في المادة أن تعيق عملها أو تربك مسارها. فكرة "الطبيعة الطيّعة" للفيلسوف "كلودوارث" وأتباعه تمثّل هي ذاتها فكرة "الدميورغ" القديمة، أو فكرة "اللوغوس" للعرفانيين القدامى. إنه اسم جديد أضيف إلى قائمة الأسماء الطويلة التي تشير إلى ذات الشيء: المبدأ الكوني الحيّ والخلاق، والتابع المُذعن لإرادة الإله الأعلى وقانونه.

لقد أخذ عدد من الفلاسفة والمفكرين العصريين بفكرة هذا المبدأ الكوني الخلاق، لكنهم مع ذلك فضلّوا اعتباره مبدأ إحيائي بدلاً من كائن حيّ. الفيلسوف الإيطالي "جيوردانو برونو" Giordano Bruno مثلاً سلّم بفكرة وجود مبدأ "روح عالمية". بينما آخرون سلموا بوجود مبدأ "طبيعة". تحدث الفيلسوف الألماني "آرثر شوبنهاور" Arthur Schopenhauer عن وجود "إرادة حياة كونية" تجسّد نفسها في عالم الأشكال والهيئات والتنوّع. أما "فون هارتمان" von Hartman فقد تحدث عن وجود "لاوعي" أو "مبدأ خلاق" مشابه للإرادة التي تحدث عنها "شوبنهاور". تحدث "ولهايم وندت" Wilhelm Wundt عن "إرادة كونية". وسلم "كروسيوس" Crusius بوجود "إرادة كونية طاغية". وتكلم الفرنسي "بالزاك" Balzac عن شيء كوني يشبه "الإرادة". و"نيتشه" Nietsche تحدث عن "إرادة عالمية"، و"مايترلينك" Maeterlinck سلم بوجود "مبدأ إحيائي"، و"برنارد شو" Bernard Shaw افترض وجود طاقة كونية خلاقة سماها "قوة إحيائية".

افترضت مدرسة الفلسفة الطبيعية وجود شيء مركّب سمته "الطبيعة"، ويتصرّف بصيغة "طاقة كونية خلاقة". مفكرون آخرون يتحدثون عن "الطبيعة" بمفهومها المجازي، أي بصفتها منتجة أو خالقة للأشياء، أو بصفتها مجموعة قوى تدير مجريات الخلق، أو القوى المعنية بإنتاج الظواهر المتجسّدة، إن كان بشكل عام أو بالتفصيل. يفترض "سبنسر" Spencer وجود طاقة أزلية وغير محدودة ينبعث منها كل شيء، وهي متجاوزة لمستوى منطقنا وحتى خيالنا. باختصار، يمكن إيجاد هذا المبدأ الإحيائي الكوني الخلاق، مُشاراً إليه باسم أو بآخر، في كافة المدارس الفلسفية تقريباً، القديمة منها والعصرية. هذا ما سوف يتوصّل إليه ويتوافق معه أي تفكير عقلاني راقي وصحيح، مهما كان نوعه أو توجهه الفكري والفلسفي.

لكن وجب عدم خلط هذا الفهم الفلسفي الصحيح مع مذهب فلسفي قريب الشبه يُسمى "الحلولية" Pantheism، وهو مذهب يزعم بأن الكون هو الله بذاته وليس منفصلاً عنه أو مخلوقاً من قبله.

يدعي المذهب "الحلولي" بأن "المبدأ الكوني الخلاق" هو ذاته الإله الأعلى، أو "المطلق"، أو الله [جلّ جلاله]. أي أنه يزعم بأن الإله الأعلى والطبيعة يمثلان الشيء ذاته، أي أن الكون هو الله [عزّ وجلّ]، والله هو الكون. هنا يُكمن الخطأ الكبير الذي طالما عارضه بشدّة الفلاسفة والعلماء التجاوزيين الحقيقيين. إن هذه الفكرة القائلة بأن <<"المطلق">>، الكلّي المعرفة وكلّيّ المقدرة، مضطراً لأن يشقّ طريقه نحو الكمال تدريجياً وببطء وبمسيرة مليئة بالعقبات والأخطاء، هي فكرة سخيفة ومبتذلة. مقولة "كودوارث" المذكورة سابقاً توضّح الأمر جيداً بهذا الخصوص. والادعاء بأن الكيان المطلق يحاول اكتساب خبرة جديدة بهذه الطريقة هو ادعاء مضحك ومثير للسخرية. والفكرة القائلة بأن "المطلق" يحاول إنجاز شيئاً عبر تجسيد الكون هي فكرة غير منطقية، حيث إذا لم يستطيع تحقيق هدفه في الماضي الأزلي فسوف لن يحققه في المستقبل الأزلي. من المنطقي والضروري أن يكون <<"المطلق">> كامل متكامل بحيث لا يحتاج إلى أي شيء لإكمال نفسه. باختصار، أي محاولة لافتراض بأن "المطلق" أو "الإله الأعلى" أو الله"، أو أي اسم يشير إلى الكيان الأسمى [عزّ وجلّ]، هو عبارة عن كائن لازال يكافح في مرحلة التطوّر نحو الكمال، سوف يتوصّل في النهاية إلى استنتاجات خاطئة وغير منطقية، وبالتالي يفشل في إدراك الحقيقة.

ملاحظة: لقد ختمت الجزء السابق بفكرة لا بد من أنها لفتت نظر القارئ الكريم، حيث تقول بأن "الخالق يكمّل نفسه عبر خلقه". أرجو أن لا تُفهم بشكل خاطئ ويستنتج بأنها تناقض الكلام الحالي. سوف يكتشف في الفصول التالية القصد الحقيقي من هذه المقولة وكيف أنها فُهمت خطأً من قبل بعض المدارس الفلسفية مما أدى إلى نشوء المذهب الحلولي.

لا يمكن أن تستقيم المسألة وتتوضّح الأمور إلا بعد اعتبار هذا المبدأ الإحيائي الكوني الخلاق بأنه محكوم من قبل "قوة عليا" ومطلقة. حينها فقط تصبح الفكرة منطقية وقابلة للاستيعاب. "الحلولية" تمثّل فكرة غير منطقية. حتى فكرة وجود كائن كوني شخصاني أقرب إلى المنطق من فكرة "الحلولية". لا يمكن للـ"مطلق" و"الطبيعة" أن يمثلان الشيء ذاته، مهما حاول المنظرون في جعل الأمر يبدو كذلك. لا يمكن للطبيعة سوى أن تكون "نسبية" دائماً، وخاضعة لسيطرة قوة عليا أو قانون أعلى، ولا يمكن لهذا الأخير سوى أن يكون "مطلقاً".

هناك تفسيرين ممكنين لهذه العلاقة بين "الكيان الأسمى" (الله [عزّ وجلّ]) و"المبدأ الإحيائي الخلاق" (الطبيعة الكونية)، أي بين المطلق والنسبي. التفسير الأوّل يقول بأنه لا وجود للكون سوى في خيال "الكيان الأسمى"، إما على شكل منام أو تأمّل أو حلم يقظة أو تمثيل مسرحي، مما يجعل الكون مجرّد من أي واقعية فعلية. أما التفسير الثاني، فيقول بأن المبدأ الإحيائي الكوني الخلاق أو الطاقة الكونية الخلاقة لا تمثّل "الكيان الأسمى" بذاته لكنها تخضع لقانونه السامي. التفسير الأوّل هو الذي تأخذ به بعض المدارس الفلسفية المثالية. بينما التفسير الثاني هو الذي أخذ به حكماء العصور منذ زمن أطلنطس مروراً على الكلدانيين والمصريين واليونان القديمة. الخيار في النهاية يعود لك. لكن إذا اخترت التفسير الأوّل، فهذا يعني أنك تسلّم بفكرة أن <<"المطلق">> [جلّ جلاله] خلق "عالم وهمي" بشكل مقصود ولا لشيء سوى لإشباع متعته الذاتية (حيث ليس هناك مكسب أو نتيجة مجدية من ذلك)، إنه لأمر سخيف أن نسلّم بفكرة أن <<"المطلق">> [جلّ جلاله] معرّضاً للوهم أو الجهل أو "مايا" كما يسمونه في الشرق. وإذا كان الأمر كذلك فعلاً فسوف لن يكون "المطلق" مطلقاً. رغم الأفكار المبهجة التي يتحدث عنها المذهب "الحلولي" إلا أنه لا يمثّل سوى نصف الحقيقة في أحسن الأحوال. أما النصف الآخر من الحقيقة فيكمن في إدراك "القانون الأعلى"، "الكيان الأسمى"، <<"المطلق">> [جلّ جلاله].

تقول التعاليم السرية بأن الإرادة الكونية، وهي المولود الأوّل من رحم اللامحدود، البيضة الكونية التي فقس منها الكون، تمثّل في تحليلها النهائي "الجوهر". "الجوهر" هنا يعني الكينونة الكونية. والجوهر هو المولود الأوّل من لانهائية اللاشيء. هو أوّل شيء "يكون". ومن هذا "الجوهر" انبعث الكون. والكون هو في النهاية "الجوهر" بذاته. ما وراء هذا "الجوهر" لا يوجد شيء سوى "اللا شيء". "الجوهر" هو الكينونة الأولى، مؤلفة من ثنائية "القانون" و"الإرادة".

تستخدم التعاليم السرية مصطلح "الإرادة الكونية" للإشارة إلى النشاطات الخلاقة لهذا "الجوهر". فالإرادة الكونية تمثّل النشاط الظاهري "للجوهر". لكن في النهاية "الجوهر" و"الإرادة الكونية" يمثلان الشيء ذاته، بمظهريه الخارجي والداخلي. "الإرادة" التي نتحدث عنها هنا ليس لها علاقة بتلك الميزة المنسوبة للإنسان والتي نسميها إرادة أيضاً. هناك فرق كبير بين الإرادة الكونية (الإلهية) والإرادة الإنسانية. فالإرادة الإنسانية هي ليست إرادة فعلية بل مجرّد ميزة عقلية تستحضر الإرادة. الإرادة في الحقيقة هي مبدأ كل النشاطات، بل هي النشاط بذاته. الحياة هي

إحدى تجليات "الإرادة الكونية". "الإرادة" هي حيوية الحياة. الإرادة هي المظهر الخارجي "للجوهر".

من هذا الثالوث الأولّي، أي "الجوهر" بمظهريه "الإرادة" و"القانون"، تأصّلت المبادئ الثلاثة: العقل والمحتوى والحركة. في التجليات اللانهائية لهذا الثالوث الأساسي يكمن التفسير النهائي للكون. في التفاعل المتبادل بين عناصر هذا الثالوث يمكننا اكتشاف سرّ أشكال وهيئات وتنوّعات وتدرّجات كل من ثالوث العقل والوعي والكينونة. ومن هذه الثواليث بعناصرها الثلاثة تنبعث الحياة (سوف أوضّح هذه الفكرة لاحقاً). وبالتالي، خلال النظر إلى الكون بنشاطاته وتجلياته دعونا نتخلّى لبعض الوقت عن تناول المصطلحات الميتافيزيقية والفلسفات الباطنية العميقة التي طالما شغلتنا بعيداً عن جوهر الموضوع، وننظر بدلاً من ذلك في الإجراءات والتجليات الكونية التي يصنعها هذا المبدأ الإحيائي الكوني، الذي هو في حالة دائمة من الحركة والتغيّر والجريان والتطوّر والتقدم والرغبة والإحراز والسعي والإنجاز. هذه هي "الإرادة الكونية" التي تحدثت عنها التعاليم السرية، والتي تتمتع بكل ميزات وخصائص وأوصاف "الكائن الكوني" الذي تحدث عنه المذهب "الحلولي" باستثناء الميزة التي تجعله "مطلق".

فيما يتعلق بموضوع "الإرادة الكونية"، توفر التعاليم السرية تفسير موضوعي وشامل وواضح لتلك الفكرة المحيّرة المتعلقة بـ"الحياة الواحدة"، أو "الحياة الكونية"، والتي ظهرت بهيئات ومظاهر مختلفة وتحت مسميات متنوعة في فلسفات كل الشعوب والأزمنة. فكرة أن كل الحياة هي في النهاية واحدة، وأن الحيوات الفردية هي مجرّد تجليات مختلفة للحياة الكونية الواحدة، هي الحقيقة التي شدّد عليها أعظم معلّمي العرق البشري.. متنوّرو كل العصور. لكن الخطأ الفادح الذي اقترفته معظم المدارس هو إنساب طبيعة "المطلق" إلى هذه "الحياة الكونية الواحدة". مجرّد أن حصل هذا سوف يقع المفكّر في حالة إرباك كبيرة، حيث كيف يمكن للمطلق أن يصبح نسبي؟ هذه استحالة منطقية.

قبل دخول الطالب إلى رحاب هذا المجال المعرفي البهيج وجب إعادة تصحيح ذلك الخطأ أولاً، والعودة إلى التعاليم السرية الأصلية التي تشدّد بأن "الحياة الكونية" لا تمثّل "المطلق" بذاته. فهي ليست مستقلّة وذاتية التحكم، هي لا تمثّل السلطة العليا، هي ليست الله [جلّ جلاله]، بل هي نسبية وتخضع للـ"قانون". هذه التعاليم، التي تصرّ على أن "الحياة الكونية" لا تمثّل "القانون" بل تخضع

له ومحكومة بمبادئه المتفرعة، تقدم التفسير الأكثر توافقاً مع المنطق العقلاني. حتى أنه يمثّل التفسير العلمي الصحيح لأنه يستند على حقائق مُختبرة وملموسة.

إحدى أكبر المغالطات التي وُبثت بها "الحلولية" والأنظمة الفكرية المتفرعة منها هي افتراضها بأن "الإله الأعلى" يحاول إنجاز شيئاً، إما سعياً منه لاكتساب خبرة أو سعياً إلى بناء الكون متقدماً ببطء عبر مراحل تدريجية. إن الفكرة القائلة بأن <<"المطلق">> [جلّ وعلا]، الذي هو كامل متكامل، يرغب في حيازة أو تحقيق شيء يفتقده هي فكرة غير منطقية وغير عقلانية. والفكرة القائلة بأن <<"المطلق">> [عزّ وجلّ]، الذي هو كليّ الحكمة والمعرفة، يسعى إلى اكتساب الخبرة أو تعلّم شيئاً من خلال لعب أدوار متعددة هي فكرة طفولية وسخيفة. من المؤكّد أن هذا الدور الذي أنسبوه للإله الأعلى، كليّ المعرفة والحكمة، هو دور باطل وغير عقلاني. إن الفكرة القائلة بأن <<"المطلق">> [جلّ جلاله]، الذي هو كليّ المقدرة، يحاول أو يسعى إلى بناء الكون بطريقة مجهدة وبطيئة هي فكرة واهية لا تتناسب حتى مع عقلية الطفل. إن التفكير بهكذا كيان يقوم بهكذا عمل مجهد هو تفكير سخيف بكل تأكيد. ماذا سيجني هذا الكائن الكامل المتكامل من هكذا عمل؟ وإن كان قد مضى كل هذا الوقت قبل أن ينجز عمله كاملاً، فلا بد من أن كل المستقبل لا يكفي لذلك. فكما أنه ليس للمستقبل نهاية، فالماضي أيضاً ليس له بداية، فالزمن معدوم في ذلك المستوى التجاوزي. والسؤال هو، طالما أنه تم تحديد موعد زمني لعملية الخلق، ماذا كان يفعل ذلك الكائن الخلاق طوال كل هذا الوقت قبل أن يفطن لأن يخلق الكون؟

في النهاية، لا يمكننا سوى التسليم بأن تعاليم المتنورين الأوائل تتوافق مع المنطق العقلاني السليم، والتي تؤكّد بأن "الحياة الكونية" لا يمكن أن تكون سوى نسبية، وتخضع لقانون سامي ومطلق. رأي التعاليم هو قاطع ونهائي بخصوص هذه المسألة، لأنها تستند على حقيقة كونية ثابتة.

الثالوث الإلهي

رغم أن الخالق [جلّ جلاله] هو واحد أحد في جوهره ويمثّل وحدة كل الوحدات، إلا أنه لا يمكن استيعابه دون تقديم فكرة الثالوث. من الناحية الفلسفية يتم شرح هذه الطبيعة الثالوثية على الشكل التالي، يوصف الإله الأعلى بأنه:

ــ المحتوى المقدس الذي يكمن راسخاً في الكل، وهو سبب كل التجسيدات في الوجود.
ــ الحياة المقدسة التي تنبعث من وعبر الكل، وهي سبب كل النشاطات في الوجود.
ــ العقل المقدس الذي يهدي تجاوزياً الكل إليه، هو سبب كل الوعي في الوجود.

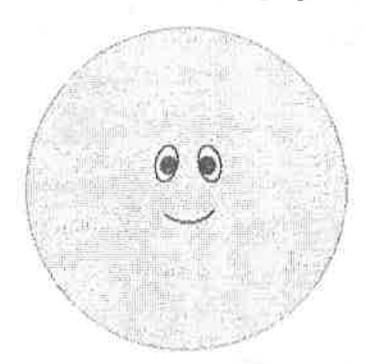
إذا أردنا توضيح المسألة بطريقة أكثر علمية، سوف نتناول ذلك الشيء الذي سميناه "الطبيعة الكونية" أو "المبدأ الإحيائي الكوني" أو الـ"دميورغ" Demiurge، وهو الشيء الذي تستطيع عقولنا استيعابه على الأقلّ، فنجد أن هذا الثالوث الإلهي مؤلف من [١] عنصر عقلي (وعي، ذكاء،.. إلى آخره)، [٢] عنصر مادي (جوهر، محتوى،.. إلى آخره)، [٣] عنصر نشط (حيوية، حركة،.. إلى آخره). هذه العناصر بالذات، باختلاف تسمياتها أو أوصافها، هي التي تمثّل أساس الثالوث المقدس الذي تحدثت عنه كافة الفلسفات والأديان حول العالم وعبر العصور. فيما يلي شرح مختصر وسريع لما أقصده:

دعونا نتصوّر وجود عقل صافي ونقي. هذا العقل خالي من أي مكوّن أو محتوى، وبالتالي ليس لديه وسيط يعبّر بواسطته عن نفسه أو كينونته. في غياب المحتوى لا يمكن لهذا العقل أن يُبدي أي نشاط من أي نوع وبالتالي لا يمكنه إحداث تأثير أو ترك أي أثر ملموس. (الشكل التالي):



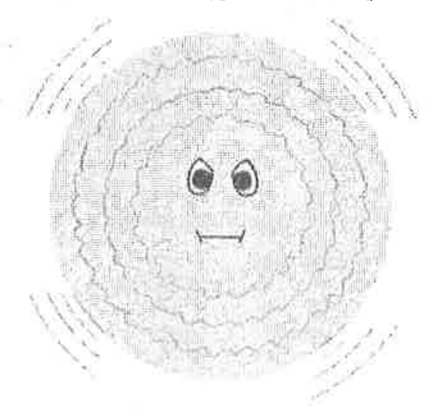
عقل مجرّد، خالي من المحتوى وبالتالي عديم النشاط أو الحركة

لا يمكن لهذا العقل أن يبقى مجرّداً، حيث هو بحاجة إلى محتوى أو وسيط، أي مادة أوليّة يتكوّن منها، وذلك لكي يعبّر عن نفسه بواسطتها. إذاً، من الضروري وجود هذه المادة الأولية، وبالتالي، نجد أن "المحتوى" يمثّل العنصر الثاني في مكوناته الأساسية. (الشكل التالي):



محتوى العقل (المنطقة المظلّلة ضمن دائرة) مُحدداً لذاته ومعبراً عن كينونته

إذاً، بالإضافة إلى "عقل" الكيان، يوجد "محتوى" لهذا الكيان. معروف جيداً في علم الفيزياء بأن أي مجال طاقة، مهما كان نوعه، مغناطيسي أو كهربائي أو غيره، إذا بقي خاملاً ولم ينشط أو ساكناً ولم يتحرك، فسوف لن يكون له أي تأثير مرئي وملموس. وبنفس الطريقة، فإن هذا "المحتوى العقلي" لن يجدي نفعاً إذا بقي ساكناً دون أي حراك. وبما أنه قد فعل شيئاً (خلق الكون المرئي والملموس) فلا بد من أنه تحرّك في سبيل تحقيق ذلك. بالتالي فالحركة تمثّل عنصر أساسي في تجلّي هذا الكيان العقلي. (الشكل التالي):



محتوى العقل يتذبذب أو يهتزّ محدثاً نشاط أو حركة

هذا المفهوم الثلاثي يكشف بطريقة رائعة عن الوحدة المتعذّر استيعابها للواحد الأحد، مبيناً المبادئ الأقنومية التي تستند عليها كافة التجسيدات والتجليات في الكون، من أدنى مستوى حتى أعلى مستوى، ومن أبسطها حتى أكثرها تعقيداً، في العوالم الداخلية والخارجية، التجاوزية والدنيوية، في العالم الكبير والعالم الصغير. أينما وجدت تجسيداً في الكون لا بد من أن تجد حضوراً لهذه المبادئ الثلاثة لكن مع تفاوت في درجة النشاط والتطوّر. بالإضافة إلى أنها توفر للذكاء الإنساني مفتاح ثمين لفهم الطبيعة الحقيقية لكل الأشياء. لهذا نرى أنه يتم ذكرها دائماً في كافة المجالات الفكرية، في العلم والدين والفلسفة والصوفية وغيرها. دعونا نلقي نظرة إلى كل من هذه المبادئ الثلاثة بالتفصيل، وعلى ضوء تعريفاتها التي وردت في التعاليم السرية:

١ــ مبدأ المحتوى:

تستخدم التعاليم السريّة كلمة "محتوى" للإشارة إلى المادة التي تتألف منها الأشياء، أي بمعنى الطبيعة المادية للجسم الذي تتكوّن منه. كل شيء متجسّد في الكون له كيانه الخاص وطبيعته المادية. تشمل كلمة "محتوى" كل ما نعتبره مادة بكل درجات صلابتها أو رقتها. يمكن أن تكون حديد صلب أو حجر غرانيت، أو يمكن أن تمثّل أرق أنواع الغاز أو البخار. بسبب محدودية علومنا، نعتبر أن أقصى حالات الصلابة تقف عند حد معيّن، أي عند الحديد الصلب مثلاً أو الحجر (الألماس)، وأقصى درجات الرهافة المادية تقف عند حد الغازات والأبخرة الأثيرية. لكن في الحقيقة هناك أشكال من المادة تكون أكثر صلابة وكثافة من الحديد والحجر، وأكثر رهافة من الغازات والأبخرة الأثيرية لدرجة أنه لا يمكن وصفها أو تعريفها لأنها غير ملموسة وبالتالي يصعب استكشافها. بين هذين القطبين الأقصيين نجد عدد لا محدود من التدرّجات المادية. إن ما يسميها العلم "كهرباء" أو "مغناطيسية" أو "ضوء" أو غيرها من أشكال الطاقة، هي ليست سوى أشكال مرهفة من المادة لكنها في حالة حركة (اهتزاز). ومع ذلك، لازال هناك أشكال من المادة تكون أكثر رهافة من المادة المتحركة التي نسميها كهرباء أو مغناطيسية أو الضوء.

تلك الأشكال المادية المرهفة جداً هي حقيقية بنفس حقيقة قطعة الحديد، لكننا لا نستطيع لمسها أو رؤيتها بسبب محدودية إدراكنا. تستطيع هذه المادة المرهفة أن تمرّ عبر الحجر أو الحديد بسهولة ودون أي عائق، كما تفعل الأشعّة السينية تماماً. حتى "الأثير" الذي يعتبره العلم بأنه الحد الأقصى لرهافة المادة، سوف يبدو صلباً وكثيفاً إذا قورن بتلك الأشكال المادية ذات الدرجة العالية من الرهافة. لكن رغم ارتقائها بدرجات عالية فوق مستوى المادي الملموس إلا أن هذه الأشكال

المرهفة تبقى تُعتبر مادة متجسّدة فعلياً. تُعتبر متجسّدة فعلياً لأنها محتوى متحرك. عندما يتحـرّك "محتوى" الفراغ لا بد من أن تتشكّل هيئة معيّنة، ومهما كانت درجة رهافة هذه الهيئة فـي سـلّم التجسيد المادي فهذا لا يمنعها من أن تكون موجودة ولها حيّز فراغي معيّن.

لكن السؤال هو، إذا كان ممكناً للمحتوى أن يبدو بهذه الدرجة من الرهافة عندما يكون في حالـة حركة، فكيف إذاً تكون حالة هذا المحتوى إذا بقي ساكناً؟ إلى أي حد تكون درجة رهافته؟

ينظر الحكماء الأوائل إلى المحتوى الساكن على أنه يمثّل الفضاء الصافي أو الفراغ. جميعنا نعلم بأن الفراغ يُعتبر خاوياً، أي يمثّل "لا شيء"، لكن الحكماء الأوائل لم ينظروا إليه بهذه الطريقـة، حيث اعتبروا بأن الفراغ أو اللا شيء يمثّل أقصى درجات رهافة المادة. لا يوجد فراغ في الكون بل محتوى، أي خامة أولية تمثّل جوهر الكون. هذا ما يشددون عليه. إذاً، الفراغ لـيس مجـرّد فكرة بل محتوى مادي فعليّ، لكنه يحتل أقصى درجات الرهافة المادية. وهذا المحتوى في حالته الساكنة يمثّل الكون غير المتجسّد مادياً لأنه مجرّد من عنصر الحركة الذي هو ضروري لعمليـة التجسيد المادي الملموس، وهذا ما يجعل الحركة أحد العناصر الأساسية في الثالوث.

٢ـ مبدأ الحركة:

تستخدم التعاليم السريّة كلمة "حركة" للإشارة إلى الطاقة أو القوة المحركة الكامنة ما وراء، أو في جوهر، الأشياء. أي أنها تمثّل نوعية نشاط المادة. يشمل مبدأ الحركة بالنسبة للتعاليم السرية كـل النشاطات الممكنة للمادة، مثل الطاقة الذبذبية، القوة المغناطيسية/الكهربائية، ظاهرة الجذب/ النفر، الإشعاع، الدوران، الطرد المركزي،.. وغيرها من أشكال ودرجات الحركة. في غياب عنـصر الحركة لا يمكن أن نجد أي نشاط أو طاقة من أي نوع. حتى أنه لا يحصل أي تجـسيد مـادي أصلاً. كما أنه لا يمكننا رؤية أي ضوء ولا حرارة ولا موجات أو مجالات طاقة من أي نـوع. هذا ولم نتحدث عن الطاقات العليا التي تقبع في أرقى مستويات الوجود والتي لم نحلم بها أصلاً.

إذاً، كما عنصر المحتوى، الحركة موجودة في كل تجسيد من تجسيدات الكون، مهما كان صـلباً أو مرهفاً. أينما وجد المحتوى وجدت معه الحركة. في أقصى درجات تجسيدها، نـرى الحركـة على شكل ذبذبات عالية الوتيرة بحيث نظن بأننا نرى حالة سكون تام. إذاً، في الكـون المتجـسّد مادياً لا يوجد سكون من أي نوع، بل حركة دائمة ومستمرة، وعلى كافة المستويات.

٣ـ مبدأ العقل:

تستخدم التعاليم السريّة كلمة "العقل" للإشارة إلى ما يمكن اعتباره "صحوة الأشـياء" أو الـسلوك العاقل للأشياء أو استعراض سمة الذكاء من قبل الأشياء. أي أن هذا المبدأ يمثّل نوعية الوعي أو المستوى العقلي للأشياء أو مدى صحوتها ودرجة إدراكها للأشياء الأخرى. نحن طبعاً نألف هذا الموضوع عندما يتعلّق بالكائن البشري وبدرجات معيّنة عند بعض الحيوانات، لكن الحقيقة التـي يجهلها معظمنا والتي كشفها عدد كبير من الأبحاث والدراسات العلمية التي أجريت خلال القرنين الماضيين هي أن كافة الأشياء أظهرت درجة معيّنة من الوعي وحتى الذكاء. عندما أقول كافـة الأشياء فهذا لا يقف عند حد الكائنات الحيّة مثل الحيوانات والنباتات بل يشمل الكائنات الجامـدة أيضاً، مثل الحجارة والمعادن والماء وحتى الذرات التي تتألف منها المادة. (هذا ما سنتعرف عليه في فصول لاحقة).

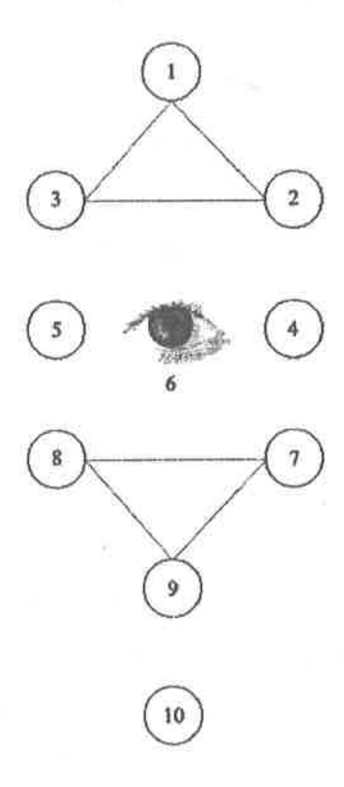
كل شيء في الكون المتجسّد يتمتع بدرجة معيّنة من الوعي، أي يحتلّ مستوى معيّن من التـدرّج العقلي الهائل الممتد بين العقل المطلق وأدنى درجات العقل البسيط. إن ما نعتبرهما قسمي العقل: الواعي واللاواعي لا يمثلان أقسام أصلاً بل تدرّج عقلي ممتدّ بين المدرك واللامدرك، ويحـتلان حيّز صغير من ذلك التدرّج العقلي الكوني الهائل. بالتالي هناك كم هائل من الهيئات العقلية التـي تقبع في مستويات أعلى وأدنى من تلك التي يمكن إدراكها أو وصفها.

إذاً، عندما أراد اللامتجلّي (جلّ جلاله) أن يتجلّى، انتفضت المبـادئ الثلاثـة مجتمعـة، العقـل والحركة والمحتوى، وراحت تنشط وتصيغ كافة إمكانيات التجسيد الكوني. استيقض العقـل مـن سباته السرمدي وراح يسعى إلى استكشاف نفسه وإدراك كينونته. ترافق هذا النشاط العقلي مـع الحركة، وراحت هذه الأخيرة تخفض وتيرة ذبذبتها سعياً للتجسيد. هذه الحركة استثارت المحتوى الذي بدأ يتخذ أنواع ودرجات وأشكال مختلفة من الهيئات والتجليات استجابةً للأنماط المختلفة من الحركة. لهذا السبب نرى كل هذا التنوّع اللامحدود من التجليات المختلفة في الكون المتجسّد. هي في الحقيقة تمثّل أنماط لامحدودة من تفاعلات العناصر الثلاثة: العقل والحركة والمحتوى. وهـذه الفكرة بالذات سوف تتوضّح جيداً في الفصول اللاحقة.

التعدّد الإلهي

الثالوث يصبح المتعدد، وهذا التعدد يكمن موضوعياً في الثالوث.. حيث من وخلال وعبر كل من عناصر هذا الثالوث ينبعث عدد من القوى والمبادئ والنماذج الإلهية.

وفق المصطلحات الأفلاطونية، يُشاد بهذه الانبعاثات الإلهية من خلال الإشارة إليها باسم "..الآلهة السامية الخالدة.."، هي خالدة لأنها راسخة وأبدية من حيث الجوهر والطاقة، وهي آلهة لأنها تمثّل ذرية مباشرة للإله الواحد العليّ العظيم.



من الضروري أن تكون انبعاثات الإله الأعلى مشابهة له، لهذا السبب هي تُعتبر مقدسة فعلاً وبالتالي يُشار إليها بلقب "الآلهة". يمكن رمزياً اعتبارها بالنسبة للإله كما الإشعاعات بالنسبة للشمس، إذ وجب أن لا نخلطها مع تلك الشخوص الأسطورية المجيدة التي تطورت وارتقت

تدريجياً عبر العصور حتى أصبحت آلهة، بل هي فعلاً انبعاثات سرمدية من الواحد الأحد، أي وُجدت معه منذ البداية. *(سوف أشرح التسلسل المنطقي لنشوءها لاحقاً)*

رغم أنها تمثّل عدد من الوحدات المتكاملة ذاتياً، إلا أنها لا تشكّل فعلياً مجموعة من الآلهة المنفردة بذاتها، بل من خلال تعظيم لغز الإله الواحد الأحد تعمل على إرقاء مفهومنا للمطلق [جلّ جلاله] إلى أسمى مرتبة ممكنة من المجد والعزّة.

إن نكران وجود هذه الآلهة العليا يعني نكران وجود الكون أصلاً، حيث هي تمثّل كل تلك القوى والمبادئ والنماذج التي يتألف منها الكون. وكذلك الحال، فإن نكران قدرة العلي العظيم على توليد هذه الآلهة يعني الشكّ في قدرته الكليّة وبالتالي وضع حدود لخصوبته وانتاجيته اللامحدودة.

في غياب تعدديته وانبعاثاته المقدسة سوف يبدو العلي العظيم كالشمس المجرّدة من الإشعاعات. لكن هذه الآلهة، التي تمثّل أصلاً الواحد الأحد في تجلياته المتعددة، تقرّبه من الإنسان أكثر، حيث أنها تنبعث منه وتعود إليه دائماً وأبداً كما الوحدات التي تنبعث وتعود إلى ميحاد رئيسي واحد. هذه الانبعاثات الإلهية المتعددة تعمل على توزيع وتنظيم وضبط وتجسيد الجوهر الإلهي وحياته، وكما الوزراء الأبديين للإله الواحد الأحد، فهي تعزّز وترشد وترقي كل ما هو موجود وكان موجوداً وسوف يوجد.

آلية تشكّل الطبيعة الإلهية المتعددة

لقد تشكّلت طبيعة الإلهية المتعددة خلال عملية التجسيد المادي. ما تفترضه الفلسفة التجاوزية هو أن المادة الصلبة والعقل يمثلان الشيء ذاته، لكنهما يختلفان من حيث درجة الكثافة والتركيز.



وفقاً لما تعرفنا عليه سابقاً هو أن ما نعرفه بالمادة الصلبة والمحتوى العقلي يمثلان الشيء ذاته، والاختلاف بينهما يكمن في اختلاف موقعهما في سلّم التجسيد (أي الامتداد بين قطبي الطاقة/المادة)، وبالتالي فالمادة الصلبة هي عبارة عن عقل متكاثف بدرجة كبيرة مما يجعله متصلباً وبالتالي مقيّداً جداً مما يسمح بسلوكه (البطيء جداً لدرجة الجمود) لأن يكون قابلاً للوصف عبر قوانين فيزيائية بسيطة وثابتة.

المحتوى العقلي متدرّج بين قطبي الطاقة والمادة، وهو ذاته يمثّل [الطاقة] في الدرجات العليا، بينما يمثّل [المادة] في الدرجات السُفلى.

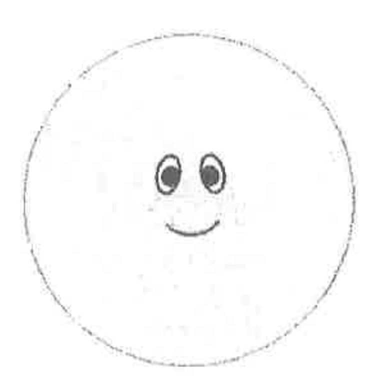
هناك وسائل مختلفة اتبعها الحكماء القدامى لشرح آلية تشكّل المادة الصلبة، لكنني اخترت طريقة سهلة وبسيطة وقابلة للاستيعاب. تحدثت سابقاً عن الطبيعة الإلهية الثلاثية، وأحد هذه العناصر الثلاثة تمثّل الحركة، وهذا يعني أن المسألة لم تنتهي عند حدود شرح الطبيعة الثلاثية بل هناك المزيد. سوف نستخدم موضوع الحركة هنا لكي نشرح آلية تشكّل الطبيعة الإلهية المتعددة خلال مراحل التجسيد المادي.

من خلال الاطلاع على الموضوع السابق الذي يتحدث عن تجلّي العقل في كل مكان في الطبيعة، لا بد من أن يراودنا السؤال المهم: طالما أن كل شيء في الطبيعة هو عبارة عن "محتوي عقلي متحرّك" (أي يتألف من ثالوث العقل والحركة والمحتوى) ما هو ذلك الشيء الذي يحرّك هذا المحتوى العقلي؟ وكيف تتم العملية؟

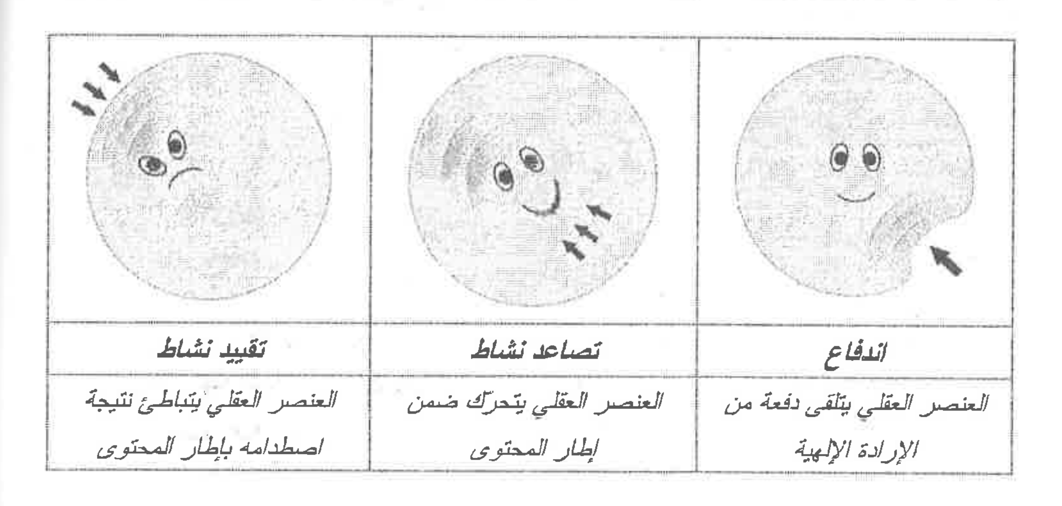
لا بد من وجود دافع أو محفّز خفي يقبع خلف كل هذا النشاط الجاري في الكون. وبما أن هذا النشاط هو منظّم وليس عشوائياً فلا بد من أن هذا الدافع الخفي الذي يحفّز على الحركة يمتثل لقوّة مبصرة وحكيمة وليست عشوائية أو عمياء. تشير التعاليم السرية إلى هذه القوة المحفّزة الحكيمة باسم "الإرادة الإلهية".

إذاً، لا يمكن للمحتوى العقلي أن يتحرك دون أن يتلقى دفعة من هذه القوة التي يسمونها "الإرادة الإلهية". لهذا السبب تضع التعاليم السرية عنصر "الإرادة" قبل العناصر المألوفة للطبيعة الثلاثية حيث أصبح هناك سبب وجيه لذلك. دعونا إذاً نبدأ بالشرح انطلاقاً من هذه الفكرة الجديدة.

عندما [أراد] "الكلّ" العظيم أن يخلق الكون، لا بدّ من أن توفّرت ثلاثة عوامل أساسية لذلك، وهي: [١] العقل، [٢] الحركة، [٣] المحتوى. لكن لا يستطيع المحتوى العقلي أن يتحرك إلا بعد أن يتلقى دفعة من الإرادة الإلهية، وها قد أصبح هناك استهلالية للحركة. بالإضافة إلى أن هذه الحركة مقيّدة ضمن إطار محدد يفرضه عنصر المحتوى، وها قد أصبح هناك نهاية لهذه الحركة بسبب وجود عنصر كابح لها. يمكن التعبير عن هذه الحالة من خلال الشرح المصوّر التالي:

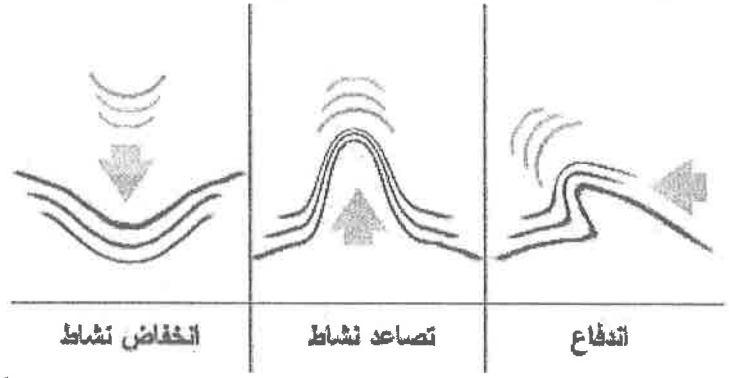


العنصر العقلي داخل إطار المحتوى



اندفاع	تصاعد نشاط	تقييد نشاط
العنصر العقلي يتلقى دفعة من الإرادة الإلهية	العنصر العقلي يتحرّك ضمن إطار المحتوى	العنصر العقلي يتباطئ نتيجة اصطدامه بإطار المحتوى

مثال آخر: إذا افتراضنا بأن المحتوى العقلي يمثّل جسم مائي ساكن، سنتصوّر الآن بأنــه تلقــى دفعة من الإرادة الإلهية، فتحرّك (اهتزّ، نبض، ارتجّ، تذبذب.. إلى آخره، المهم أنه تحرّك) ثم ما لبث أن عاد إلى سكونه من جديد. مهما كان نوع الحركة التي قام بها المحتوى العقليّ إلا أنها في جميع الأحوال مقسومة إلى ثلاثة مراحل رئيسية: [١] اندفاع، [٢] تصاعد نشاط، [٢] انخفــاض نشاط. يمكن التعبير عن هذه الفكرة من خلال الشكل التالي:

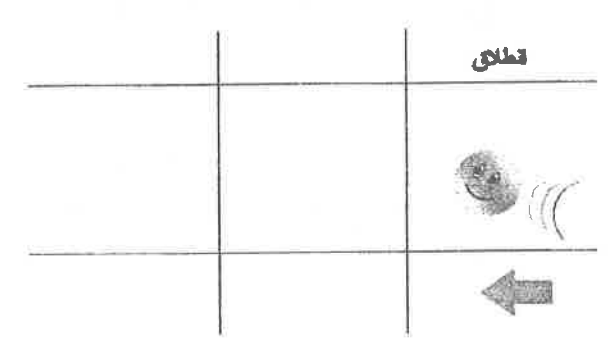


الحالات الثلاثة لنشاط الجسم المائي (المحتوى العقلي)، وهي: الاندفاع أو انطلاق، تشكّل موجة متصاعدة (تصاعد نشاط)، ثم هبوط الموجة (انخفاض نشاط)

هذه المرحلة الثلاثية لحركة المحتوى العقلي تتوافق مع قانون الحركة المتجلي في كل مكان فــي الطبيعة، ويسمونه في علم الفيزياء بـــ"ثالوث الحركة"، أي: [١] المحرّك الأول prime mover، [٢] الحركة motion (الزخم)، [٣] العطالة inertia. يمكن توضيح ثالوث الحركة عبــر مثــال

يفضّله علم الفيزياء العصري، وهو مثال العجلة الدوّارة حول محور. إذا دفعت العجلة بيدك فسوف تبدأ بالدوران، ستستمرّ بحالة دوران تلقائي لفترة من الوقت (زخم)، ثم تبدأ بالتباطؤ التدريجي (عطالة)، إلى أن تتوقف تماماً.

مثال آخر: إذا ركلت كرة قدم، سوف تنطلق مدفوعة باتجاه معيّن.. ثم تسير متسارعة لمسافة معيّنة محافظة على توجهها.. ثم ما تلبث أن تبدأ بالتباطؤ تدريجياً بفعل قانون العطالة، إلى أن تتوقف تماماً. إذاً، يمكن استخلاص الحالات الثلاثة التي مرّت بها الكرة على الشكل التالي: [١] الركلة تمثّل قوة الدفع أو المحرّك الأوّل، وهذا وضع الكرة في [حالة انطلاق]. [٢] سير الكرة متسارعة لمسافة معيّنة بفعل قوة الزخم وضعها في [حالة حركة]. [٣] تباطؤ الكرة بفعل قوة العطالة وضعها في [حالة كبح] أو تباطؤ أو تقييد نشاط. هذه الحالات الثلاثة هي ذاتها التي يمرّ بها المحتوى العقلي بعد تلقّيه دفعة من الإرادة الإلهية، ويمكن التعبير عن هذه الفكرة من خلال الصور التالية، مع بعض المرادفات المختلفة لكل حالة:



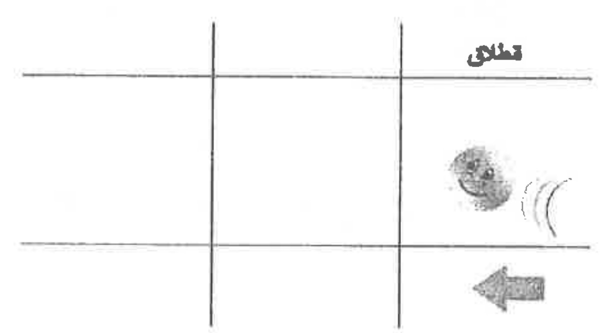
انطلاق ــ بدء ــ دفع ــ تحريك ــ استهلالية ــ خلق ــ ولادة

حركة

تصاعد ــ تغيير ــ شطح ــ استقلالية ــ حركة ــ بقاء ــ نمو

بفضله علم الفيزياء العصري، وهو مثال العجلة الدوّارة حول محور. إذا دفعت العجلة بيدك فسوف تبدأ بالدوران، ستستمرّ بحالة دوران تلقائي لفترة من الوقت (زخم)، ثم تبدأ بالتباطؤ التدريجي (عطالة)، إلى أن تتوقف تماماً.

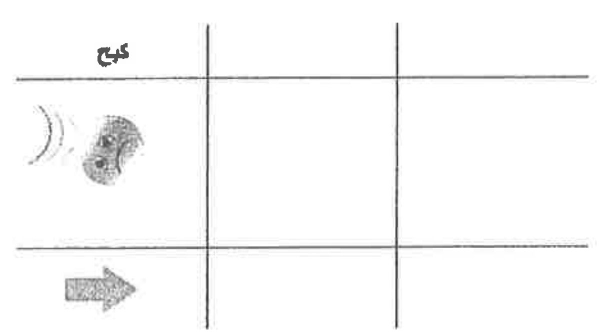
مثال آخر: إذا ركلت كرة قدم، سوف تنطلق مدفوعة باتجاه معيّن.. ثم تسير متسارعة لمسافة معيّنة محافظة على توجهها.. ثم ما تلبث أن تبدأ بالتباطؤ تدريجياً بفعل قانون العطالة، إلى أن تتوقف تماماً. إذاً، يمكن استخلاص الحالات الثلاثة التي مرّت بها الكرة على الشكل التالي: [١] الركلة تمثّل قوة الدفع أو المحرّك الأوّل، وهذا وضع الكرة في [حالة انطلاق]. [٢] سير الكرة متسارعة لمسافة معيّنة بفعل قوة الزخم وضعها في [حالة حركة]. [٣] تباطؤ الكرة بفعل قوة العطالة وضعها في [حالة كبح] أو تباطؤ أو تقييد نشاط. هذه الحالات الثلاثة هي ذاتها التي يمرّ بها المحتوى العقلي بعد تلقّيه دفعة من الإرادة الإلهية، ويمكن التعبير عن هذه الفكرة من خلال الصور التالية، مع بعض المرادفات المختلفة لكل حالة:



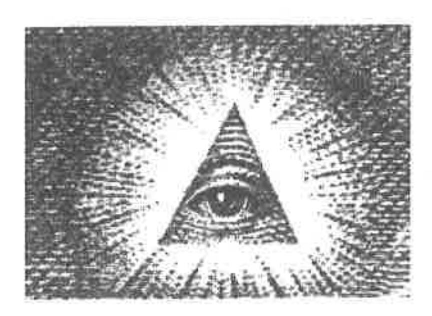
انطلاق ــ بدء ــ دفع ــ تحريك ــ استهلالية ــ خلق ــ ولادة

حركة

تصاعد ــ تغيير ــ شطح ــ استقلالية ــ حركة ــ بقاء ــ نمو

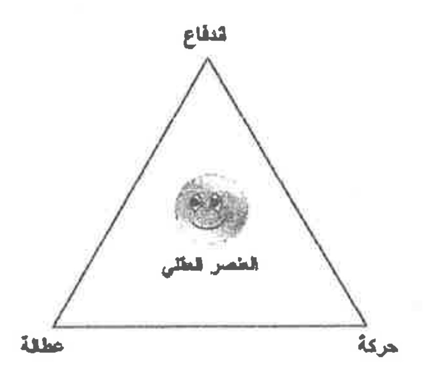


هبوط ـ نهاية ـ كبح ـ تقييد ـ تباطؤ ـ ذبول ـ تلاشي



خلال بحثك في الأدبيات الفلسفية أو الباطنية القديمة، قد تصادف صورة مثلث تقبع في وسطه عين (كما في الشكل المقابل) فتعجز عن تفسيرها أو معرفة معناها الباطني. لكن الآن اصبح لديك فكرة واضحة عن القصد الحقيقي منها.

العين القابعة وسط المثلث تمثّل العنصر العقلي، ويحتل زاويته العليا عنصر الإرادة [الاندفاع]، ويحتل زوايا قاعدته عنصري النشاط [الحركة] والمحتوى [العطالة]. هذا الرمز يمثّل الكثير من الأمور التي وجب أن تكون بديهية بالنسبة للمطلعين على الحكمة السرية. الشكل التالي يوضح الفكرة أكثر:



العنصر العقلي معلقاً بين الأطوار الثلاثة التي يمرّ عبرها قبل مرحلة التجسيد المادي (التوقف)

والآن، من أجل استيعاب الأمر جيداً، ضع نفسك مكان العنصر العقلي المعلّق في الوسط بين عناصر المثلّث (كما في الشكل السابق) وتصوّر نفسك متأثراً بكل من هذه العناصر على حداه، سوف تستشعر الحالات التالية:

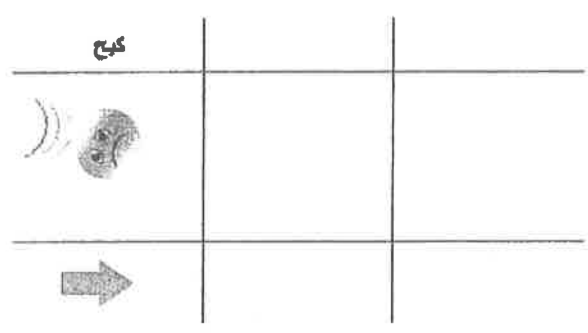
١ـ الإرادة: تمثّل السبب الأوّل، أو المحرّك الأوّل، أو الخالق الأوّل، تعني في النهاية "الاستهلالية" أو الولادة أو الدافع الأوّل، وبالتالي عندما يقع عليك هذا التأثير فيتملكك نزعة "الانطلاق" أو "البدء" أو "الاندفاع".

٢ـ الحركة: كما رأينا سابقاً، يمثّل النشاط أوالتحرّك أو السير أو تغيير الحالة، أو التصاعد أو الانتفاضة، وبالتالي يعني بكل بساطة "النشاط" أو "الحيوية" أو"الحركة".

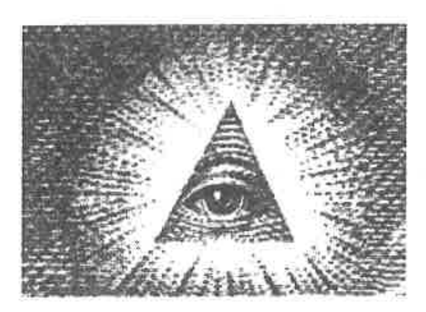
٣ـ الإطار: كما رأينا أيضاً يمثّل الحاجز، الكابح، المقيّد، المحدّد، وبالتالي يعني هنا "الكبح" أو "التقييد".

نجد دائماً في الطبيعة ثلاثة عناصر: عنصر دافع، عنصر متحرّك، وعنصر كابح يؤطّر الحركة. يمكن ملاحظة هذا المبدأ الثالوثي في كل مكان في الوجود. فمثلاً، يمكنك تقسيم مسيرة حياة كل شيء إلى ثلاثة مراحل رئيسية: الولادة، النمو إلى القمّة، ثم التلاشي نزولاً نحو الزوال. بين فجر الصباح وغروب المساء نجد دائماً شمس الظهيرة بأوجّ قوتها. حتى في مجال الكهرباء نجد بين الكمون العالي والكمون المنخفض وجود حركة متسارعة نسميها "القوة المحرّكة الكهربائية" Electromotive Force. وفي مجال العلوم الجويّة نجد الضغط المرتفع والضغط المنخفض ويتحرّك بينهما تيار هوائي. والظاهرة ذاتها تحصل عند تشكّل التيارات المائية، حيث هذه الأخيرة تتولّد في الوسيط المائي بين منطقة ذات كثافة زائدة وأخرى ذات كثافة منخفضة.

أما عن دور "العقل" في كل هذه الأطوار السابقة، فهو يمثّل الوسيط الذي يختبر كل هذه الحالات. ففي مثال الفجر والغروب يمثّل "الشمس". وفي المراحل الثلاثية لمسيرة حياة الأشياء يمثّل "الأشياء" ذاتها. وفي مثال الكهرباء يمثّل الوسيط الأثيري، وفي مثال التيارات الهوائية يمثّل الوسيط الهوائي، وفي مثال التيارات المائية يمثّل الوسيط المائي.

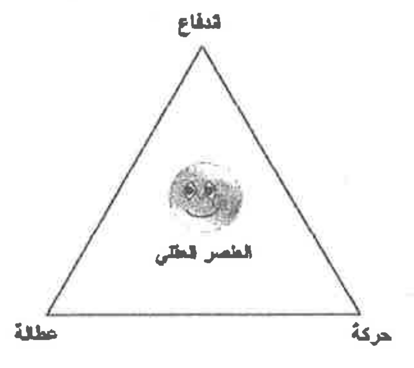


هبوط ــ نهاية ــ كبح ــ تقييد ــ تباطؤ ــ ذبول ــ تلاشي



خلال بحثك في الأدبيات الفلسفية أو الباطنية القديمة، قد تصادف صورة مثلث تقبع في وسطع عين (كما في الشكل المقابل) فتعجز عن تفسيرها أو معرفة معناها الباطني. لكن الآن اصبح لديك فكرة واضحة عن القصد الحقيقي منها.

العين القابعة وسط المثلث تمثّل العنصر العقلي، ويحتل زاويته العليا عنصر الإرادة [الاندفاع]، ويحتل زوايا قاعدته عنصري النشاط [الحركة] والمحتوى [العطالة]. هذا الرمز يمثّل الكثير من الأمور التي وجب أن تكون بديهية بالنسبة للمطلعين على الحكمة السرية. الشكل التالي يوضّح الفكرة أكثر:



العنصر العقلي معلقاً بين الأطوار الثلاثة التي يمرّ عبرها قبل مرحلة التجسيد المادي (التوقف)

والآن، من أجل استيعاب الأمر جيداً، ضع نفسك مكان العنصر العقلي المعلّق في الوسط بين عناصر المثلّث (كما في الشكل السابق) وتصوّر نفسك متأثراً بكل من هذه العناصر على حداه، سوف تستشعر الحالات التالية:

١ـ الإرادة: تمثّل السبب الأوّل، أو المحرك الأوّل، أو الخالق الأوّل، تعني في النهاية "الاستهلالية" أو الولادة أو الدافع الأوّل، وبالتالي عندما يقع عليك هذا التأثير فيتملكك نزعة "الانطلاق" أو "البدء" أو "الاندفاع".

٢ـ الحركة: كما رأينا سابقاً، يمثّل النشاط أوالتحرّك أو السير أو تغيير الحالة، أو التصاعد أو الانتفاضة، وبالتالي يعني بكل بساطة "النشاط" أو "الحيوية" أو"الحركة".

٣ـ الإطار: كما رأينا أيضاً يمثّل الحاجز، الكابح، المقيّد، المحدّد، وبالتالي يعني هنا "الكبح" أو "التقييد".

نجد دائماً في الطبيعة ثلاثة عناصر: عنصر دافع، عنصر متحرّك، وعنصر كابح يؤطّر الحركة. يمكن ملاحظة هذا المبدأ الثالوثي في كل مكان في الوجود. فمثلاً، يمكنك تقسيم مسيرة حياة كل شيء إلى ثلاثة مراحل رئيسية: الولادة، النمو إلى القمّة، ثم التلاشي نزولاً نحو الزوال. بين فجر الصباح وغروب المساء نجد دائماً شمس الظهيرة بأوجّ قوتها. حتى في مجال الكهرباء نجد بين الكمون العالي والكمون المنخفض وجود حركة متسارعة نسميها "القوة المحرّكة الكهربائية" Electromotive Force. وفي مجال العلوم الجويّة نجد الضغط المرتفع والضغط المنخفض ويتحرّك بينهما تيار هوائي. والظاهرة ذاتها تحصل عند تشكّل التيارات المائية، حيث هذه الأخيرة تتولّد في الوسيط المائي بين منطقة ذات كثافة زائدة وأخرى ذات كثافة منخفضة.

أما عن دور "العقل" في كل هذه الأطوار السابقة، فهو يمثّل الوسيط الذي يختبر كل هذه الحالات. ففي مثال الفجر والغروب يمثّل "الشمس". وفي المراحل الثلاثية لمسيرة حياة الأشياء يمثّل "الأشياء" ذاتها. وفي مثال الكهرباء يمثّل الوسيط الأثيري، وفي مثال التيارات الهوائية يمثّل الوسيط الهوائي، وفي مثال التيارات المائية يمثّل الوسيط المائي.

الآنَ أصبحنا نعرف الأساس الذي استند عليه حكماء الهند عندما أوجدوا الآلهة الثلاثة والذين يشكّلون الـ"تريمورتي" Trimurti، أو الثالوث المقدّس، كما أصبحنا نعرف أصل الأدوار التي تلعبها هذه الآلهة في الأساطير: [١] الإله "براهما" Brahma يمثّل الخالق (البادئ، الوالد، المُطلِق). [٢] الإله "فيشنو" Vishnu يمثّل المؤازر (المساعد، المحافظ على التوجّه، النشيط، المتحرّك). [٣] الإله "شيفا" يمثّل المدمّر (الناهي، النازل، الكابح).

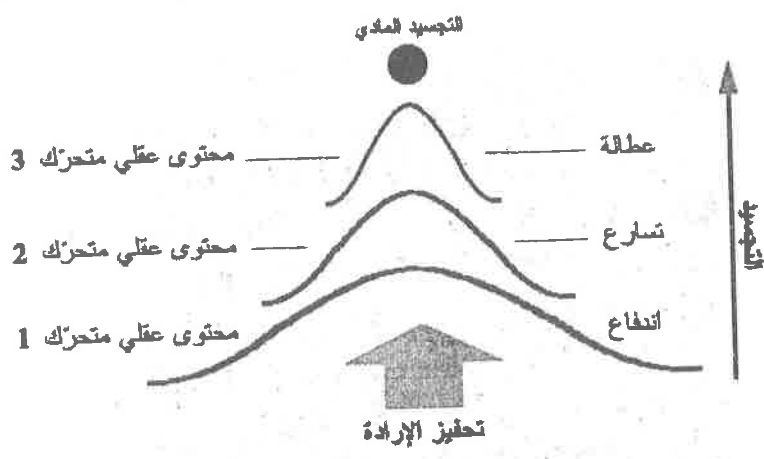


الـ"تريمورتي" Trimurti أو الثالوث المقدّس الهندوسي

لكن هذا الثالوث لا يقتصر وجوده في الهند بل في كافة المدارس الباطنية حول العالم. أنظر في موضوع "مبدأ الثالوث" في ملحق الكتاب صفحة ٣٠٠

الأطوار الثلاثة لحركة المحتوى العقلي

بعد التعرّف على الأطوار الثلاثية للحركة (اندفاع، تسارع، عطالة) وأسقطنا هذا المفهوم على موضوع حركة المحتوى العقلي، نستنتج بأنه يمرّ عبر ثلاثة مراحل خلال نشاطه نتيجة تحفيز الإرادة الإلهية. أي بالإضافة إلى طبيعته الثلاثية [عقل، حركة، محتوى] فإن لـه ثلاثة أطوار متسلسلة خلال حركته.

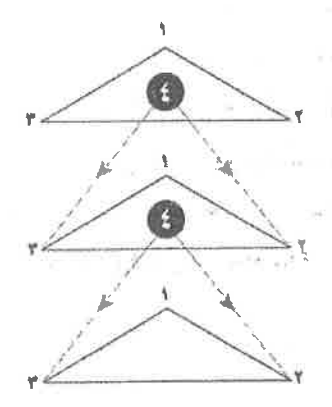


بعد تحفيزه من قبل الإرادة الإلهية، ينشط المحتوى العقلي ويتحرك ضمن ثلاثة أطوار، أي يصبح لدينا ثلاثة أنواع مختلفة من المحتوى العقلي المتحرّك: [١] محتوى عقلي متحرّك في طور الاندفاع، [٢] محتوى عقلي متحرّك في طور التسارع، [٣] محتوى عقلي متحرّك في طور العطالة. وتنتهي مسيرة التجسيد عند توقف المحتوى العقلي فيصبح مادة صلبة.

كل من هذه الاطوار الثلاثة تمثّل حالة عقلية قائمة بذاتها. أي أن المنظومة العقلية لكل كائن مخلوق مؤلفة من ثالوث قائم بذاته. وقد أشارت إليها بعض المدارس الفلسفية بالعقل الأول، العقل الثاني، والعقل الثالث. لكن اعتقد بأنه من الأسهل استخدام اسم مختلف لكل من هذه الأطوار العقلية (العقل، الوعي، الكينونة) وذلك لتجنب التعقيد. (سوف أتناولها لاحقاً بالتفصيل).

ملاحظة: لكي يتوضح الأمر أكثر بخصوص موضوع المستويات العقلية الثلاثة (العقل، الوعي، الكينونة) والتسلسل الفلسفي لنشوئها، انظر في موضوع الجدلية الفلسفية لتشكّل ثالوث التجسيد، صفحة ٢٠٨

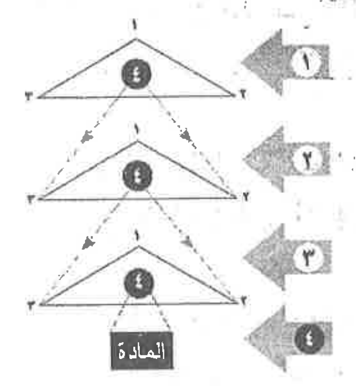
خلال الشرح المفصّل الوارد لاحقاً في هذا الكتاب سوف نتعرف على حقيقة أن كل ثالوث (محتوى عقلي متحرّك) هو عبارة عن منتوج تفاعل عناصر الثالوث الذي يسبقه. أي أن كل ثالوث يُنتج مرحلة رابعة وهذه المرحلة الرابعة تمثّل ثالوث قائم بذاته (الشكل التالي). وكلما ولد ثالوث جديد كلما اقتربت مسيرة التجسيد إلى مرحلة المادة الصلبة والذي يصبح المحتوى العقلي فيها أكثر كثافة وصلابة.



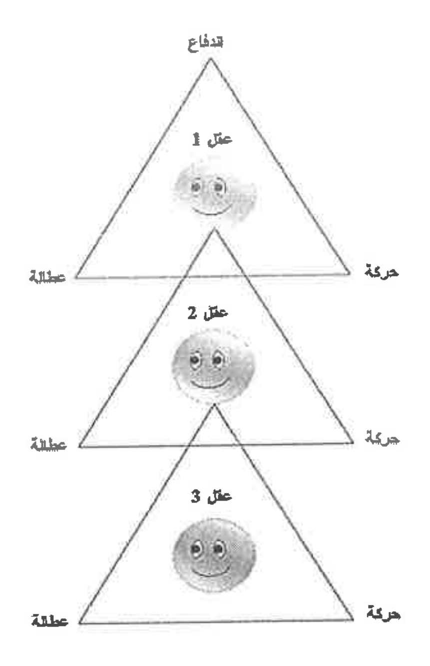
كل ثالوث هو عبارة عن منتوج تفاعل عناصر الثالوث الذي يسبقه، أي يمثّل المرحلة الرابعة للمراحل الحركية في الثالوث السابق

ملاحظة: سوف نتعرف لاحقاً على هذا الشكل خلال دراسة مخطط شجرة الحياة، وللتعرف على المزيد بخصوص هذه الفكرة انظر في موضوع "الجدلية الفلسفية لتشكّل ثالوث التجسيد"، صفحة ٢٠٨

هذا يعني أنه وفقاً لمبدأ الحركة ثلاثية الأطوار، يتألف سلّم التجسيد من ثلاثة ثواليث رئيسية، بعد اعتبار كل مثلّث بأنه يشكّل مرحلة حركية قائمة بذاتها، وهذه المراحل الثلاثة متبوعة بمرحلة رابعة هي مرحلة التوقف ونسميها المادة (كما في الشكل التالي):



الثالوث الأول يمثّل حالة الانطلاق، الثالوث الثاني يمثّل حالة التحرك، والثالوث الثالث يمثل حالة التقييد، والمادة تمثّل الحالة الرابعة، أي التوقف.



هذا الشكل يمثّل نموذج آخر لشرح أطوار العقل خلال مسيرة التجسيد المادي. كل ثالوث هو عبارة عن منتوج تفاعل عناصر الثالوث الذي يسبقه، أي لا يستطيع العقل الثاني أن يولد إلا بعد حركة العقل الاوّل ودخوله في طور العطالة، والأمر ذاته ينطبق على العقل الثالث الذي ينتج من حركة وعطالة العقل الثاني. وتنتهي مسيرة التجسيد عند طور توقف المحتوى العقلي فيصبح مادة صلبة.

ولادة الآلهة المتعددة

أعتقد بأن الشروحات المختصرة السابقة كافية لأن تمهّد الطريق أمامنا لكي نستوعب فكرة التعدد الإلهي بشكل جيّد. بالاعتماد على كل ما سبق، يمكننا الخروج باستنتاج نهائي يقول أنه بالإضافة إلى ثالوث التجلّي يوجد ثالوث آخر يُسمى ثالوث التجسيد. أي أن [مبدأ العقل] و[مبدأ النشاط] و[المبدأ المقيّد] هي عناصر متجلّية أصلاً منذ البداية لكنها مرّت بثلاثة مراحل مختلفة خلال مسيرة التجسيد، أي أن هناك تسع [٩] أطوار عاشها الجوهر الإلهي قبل تجسيده المادي، ووفقاً للتعاليم السرية فإن كل من هذه الأطوار يمثّل كيان قائم بذاته.

لكي تتوضّح الفكرة بشكل جيّد دعونا نقاربها بالطريقة التالية. الجدول التالي مؤلف من تسع وجوه مختلفة وتحتل خلايا مرقّمة من [١] إلى [٩] (الخلية رقم [١٠] تمثّل التجسيد المادي).

والآن ضع نفسك مكان كل وجه من هذه الوجوه المختلفة وتصوّر نفسك متأثراً بالحالة التي يفرضها موقع الخلية في الجدول. سوف تشعر بحالة مختلفة بين خلية وأخرى وذلك بسبب اختلاف التأثير الذي يفرضه موقع الخلية في الجدول.

مثلاً، إذا تقمصت الوجه في الخلية رقم [١] فسوف تمثّل العقل في حالة الاندفاع. وبالتالي سوف تتملكك نزعة "الانطلاق" أو "البدء" أو "الاستهلالية" أو الولادة أو الدافع الأول.. إلى آخره.

	نشاط	عقل	تقييد
اندفاع	2	1	3
تسارع	4	6	5
عطالة	7	9	8
توقف		10	

ـ لكن إذا تقمّصت الوجه في الخلية رقم [٦] فسوف تمثّل العقل في حالة التسارع. وبالتالي سوف تتملكك نزعة النشاط أوالتحرّك أو السير أو تغيير الحالة أو التصاعد أو الانتفاضة، وبالتالي يعني بكل بساطة "النشاط" أو "الحيوية" أو"الحركة".

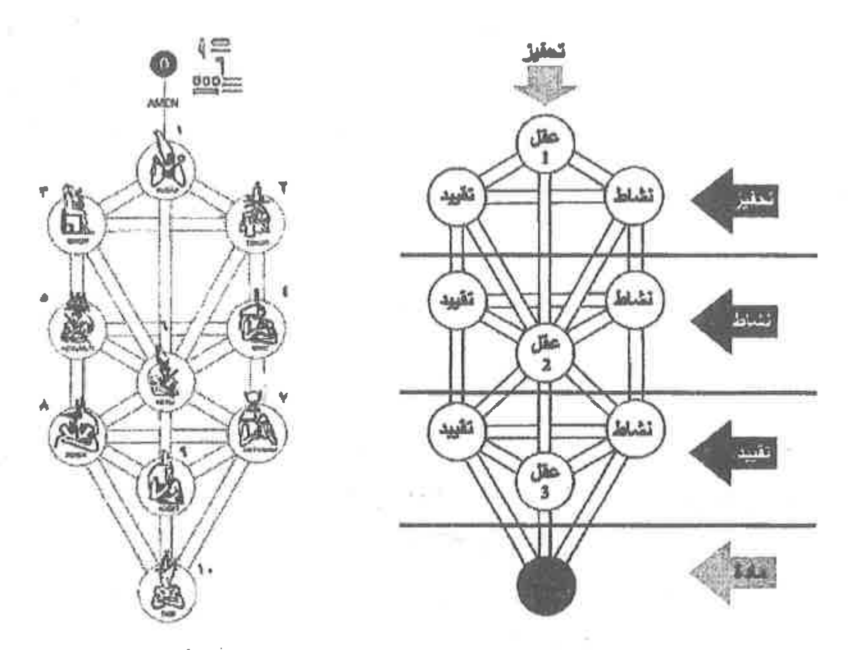
ـ وإذا تقمّصت الوجه في الخلية رقم [٩] فسوف تمثّل العقل في حالة العطالة. وبالتالي سوف تتملكك نزعة الكبح أو التقييد أو الحجز أو التحديد أو التأطير.

ـ وإذا تقمصت الوجه في الخلية رقم [٤] فسوف تمثّل حالة النشاط في طور التسارع، وبالتالي سوف تتملكك نزعة التوسع والانفلات والحرية والشمولية.. إلى آخره.

لقد اخترت أمثلة سهلة لشرح الوجوه في الجدول بينما الباقية تتطلب المزيد من الشرح الفلسفي وبالتالي سوف نأجلها إلى مكان آخر. لكن أعتقد بأن الفكرة أصبحت واضحة عموماً. هذه الحالات المختلفة التي تملأ الخانات في الجدول هي ذاتها الشخوص أو القوى الأساسية أو الآلهة أو النماذج الأولية Archetypes التي تحدث عنها أفلاطون وهي متأصلة في كل شيء في الطبيعة. لكن قبل أن نفهم هذا الموضوع جيداً علينا أولاً المرور على الكثير من الحقائق المهمة الأخرى.

قد يتسائل الفرد كيف يمكن لجوانب مختلفة للشيء ذاته أن تمثل أشياء مختلفة؟ الجواب هو سهل وبسيط: إن كل مراحل التجلي والتجسيد التي تحدثت عنها حصلت في مستويات تجاوزية ينعدم فيها عاملا المكان والزمان، وبالتالي فإن كل ما يحصل في اللامكان واللازمان سوف يحصل في كل مكان وكل زمان. إن أي حركة او تصرف أو غيرها من أمور حصلت في ذلك المستوى التجاوزي، مهما كانت دقيقة، لا بد من أن تتجلى على شكل مبدأ أو قانون أو مظهر معيّن في المستوى المادي. على هذه الفكرة تحديداً استند أفلاطون (والتعاليم السرية) عندما أوجد مفهوم الأنماط الأولية Archetypes والتي هي عبارة عن نماذج أولية حصلت أو تجلت في العالم التجاوزي (معدوم فيه المكان والزمان) وبالتالي لا بد من أن يكون لها نُسخ متطابقة في العالم المادي (يخضع لسيطرة المكان والزمان)، هذه الفكرة ستتوضّح جيداً في فصول لاحقة. أنظر في موضوع الأنماط الأولية صفحة ٨٤

لقد أوجد الحكماء القدامى ما نسميه الآن مخطط شجرة الحياة. وهو يمثّل فكرة مطابقة تماماً مع الأفكار السابقة. مخطط شجرة الحياة هو عبارة عن ثلاثة مثلثات وهي تمثّل ثلاث حالات مختلفة، إذ تتخذ كل من هذه الحالات دوراً متوافقاً مع أحد عناصر الثالوث: عنصر محفّز، عنصر نشط، وعنصر مقيّد. وكل من هذه المثلثات الثلاثة تتألف أصلاً من المكونات الرئيسية الثلاثة. ويقبع في الأسفل، في نهاية هذا التدرّج الثلاثي، دائرة واحدة تمثّل التجسيد المادي. بالإضافة إلى أن الشجرة مقسومة عمودياً إلى ثلاثة أقسام: [١] المبدأ النشط، [٢] المبدأ العقلي، و[٣] المبدأ المقيّد. وسوف أشرح هذه الجوانب والكثير غيرها لاحقاً. (أنظر في الشكل التالي).



بناءً على التقسيم الطولي والعرضي للشجرة، استنبط الحكماء القدامى أوصاف ومزايا وخصائص القوى (الآلهة) التي تحتل مقامات الشجرة بالاعتماد على مواقعها المختلفة، وهذا ما سوف نتعرف عليه بالتفصيل في موضوع شجرة الحياة.

---

[٢]

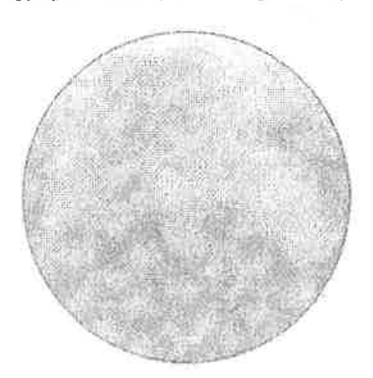
الكــون المتجلّي

(العالم الأكبر)

من المألوف في مجال الفلسفة الباطنية النظر إلى الكون على أنه مؤلف من عدة أقسام وعدد مــن المستويات الوجودية، وكذلك عدد من مستويات الوعي والمجريات المختلفة الأخرى. يــشرحون كيف أن هذه المستويات تتخلل بعضها وتتداخل مع بعضها البعض وبالتالي يصعب استيعابها من زاوية دنيوية محدودة، إذ لا يمكن إدراك كامل المشهد سوى من ناحية تجاوزية. لهــذا الــسبب، ومن أجل استيعاب الموضوع بشكل سليم، علينا أولاً معرفة الطريقة التي تجلّى فيها الخلق، عندها فقط يمكننا تكوين صورة واضحة وشاملة.

قصة الخلق

في معظم المدارس الروحية حول العالم، تسود فكرة أن الكون بدأ من حالة الوحـدة، الانفـراد، الواحد الأحد الذي يلفه الغموض الكبير. هو بكل تأكيد متجـاوز لحـدود الاسـتيعاب البـشري، وبالتالي يعجز وصفه أو شرحه. لكن اعتُبر بأن هذا الكيان العظيم اختار مـسرحاً لعملـه وهـذا المسرح اتخذ شكل كرة، وسوف نشير إليه بـ"الكرة الكونية"، وقد أشار إليها القدماء باسم "البيضة الكونية". من الناحية الرياضية يمكن اعتبار هذه الكرة بأنها نقطة صافية (صـفر) والتـي هـي مجرّدة من عاملي "الزمان" أو "المكان" كما نفهمهما. نعجز عن التنظير بخصوص محتويات هذه الكرة الكونية، لأنها مجرّدة من الحركة داخلها، وبدون حركة لا يمكن أن يكون هناك تغييـر ولا مسافة ولا زمن ولا طاقة كما نعرفها عموماً، لذلك يصعب استيعابها ووصفها.



يُرمز إلى هذه الكرة الكونية في علم الرموز بشكل "الدائرة"، ويُعتبر هذا الشكل أول الرموز فـي رواية تشكّل الكون. ترمز الدائرة إلى الأبدية، والطبيعة الكونية، والفضاء المجرّد لهرمية الكون. يمكن استخدام الدائرة لترمز إلى التجسيد الأول، الصفيحة البيضاء التي لم تُلطّخ بعـد والممثّلـة للفضاء المجرّد الذي لا تحده حدود. الدائرة في الحقيقة هي غيـر محـدودة حيـث أن محيطهـا نموذجي ويمثّل حدود إدراكاتنا للفضاء الداخلي أو المرئي والملموس، ويمكن أن يكون محيطهـا نموذجي من زاوية علاقته بما نتصوره بأنه لانهائي.

هناك رمز آخر مرادف للدائرة أو الكرة وهو رمز البيضة. وكذلك رمز العجلة التي تُستخدم فـي الهند. عندما يُستخدم رمز الدائرة خلال الحديث عن مراحل الخلق وتكون خالية من نقطـة فـي مركزها فهذا يعني أن محتويات الكرة الكونية لم تتجلى بعد، حيث لازال المحتوى روحي بحـت وفي حالة عشوائية غير منتظمة.

البيضة الكونية

تُعتبر البيضة من بين أكثر الرموز الجامعة حيث لها معاني إيحائية في كافة المستويات: الروحية والجسدية والكونية. من بين معانيها العديدة نجدها ترمز إلى الفوضى الأوّلية التي تسبق عملية الخلق، وكذلك ترمز إلى الرحم الكوني، العمق العظيم، الأم العذراء.. إلى آخره، لكن هذه المعاني تصلح عندما تسبق البيضة عملية الخلق، فبعدها تصبح تمثّل الكون المتجسّد الذي نشأ في رحم هذه البيضة.

خلال وجودها في حالتها الفوضوية الأولى تُسمى البيضة العذراء التي لم تُخصّب بعد. لكن بعد أن يتم تلقيحها من قبل القوة الروحية (التي يُحفّزها المسبّب الأوّل) تتحوّل إلى البيضة الكونية التي تُثمر أو تولد أو تُنتج ما يُسمى العالم المادي. وصفت إحدى التعاليم الباطنية هذه العملية من خلال القول: "*.. تنطلق القوة الإشعاعية متغلغلة داخل محتوى البيضة العذراء فتهتز وترتعد فتتشكّل في مركزها البذرة المادية التي تتكاثف لتصبح البيضة الكونية..*"

بصفتها رمزاً للتناسل والولادة وإعادة الولادة من جديد، إذ انها تمثّل النمط الأكثر شيوعاً لعملية التلقيح والنمو الجنيني لكل كائن حيّ، فقد استُخدمت أيضاً كرمز للأبدية والفضاء الشمولي، وذلك بسبب شكلها الدائري.

البجعة المقدسة

لا بد من مسبّب أوّل لوضع البيضة وتلقيحها. هذا السبب الأوّل ليس له اسم لانه يتعذر وصفه، لكن تم تصويره لاحقاً على شكل طير غامض جميل أسقط البيضة في الوسط الأثيري الفوضوي، وهذه البيضة أصبحت لاحقاً الكون المتجلّي. وصفت التعاليم السنسكريتية هذا الطير بأنه من البجع وسمته "كالاهامسا" أو "كالاهانسا" أي "بجع الخلود"، لكن الاسم المفرد "هانسا" أو "هامسا" والذي يشير إلى طير البجع فيرمز إلى الحكمة الإلهية المتجاوزة للإدراك البشري. وقد ورد أيضاً في المخطوطات المصطلح "هانسا فاهانا" ومعناه "هو الذي استخدم الهانسا كوسيلة نقل".



البجعة أو الإوزّة المقدسة التي وضعت البيضة الكونية

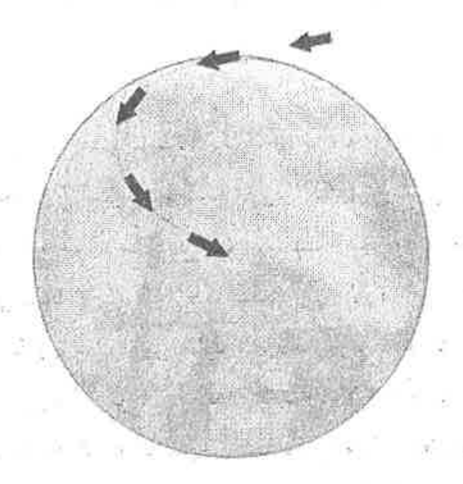
أما في مصر القديمة فقد تحدثت الأسطورة عن "سيب" وهو الإوزّة المقدسة. تروي الأسطورة كيف ظهر "سب" في البداية محلقاً في الجو بهيئة إوزّة. كان "سيب" يرمز إلى المبدأ الإحيائي الذي بعث النشاط في الفضاء الكوني، وهذا الفضاء الكوني مثلته الإلهة "نوت" التي لعبت في الأسطورة دور زوجة "سيب" وحاضنة البيضة العظيمة التي صنعها، ومن هذه البيضة انبعث إله الشمس بهيئة عنقاء (بينو).

في افتتاحية الملحمة الشعرية الفنلندية (الـ"كاليفالا" Kalevala) يُصوّر كيف نشأ العالم إلى الوجود عن طريق البطة، وفي أساطير فنلندية أخرى يذكرون النسر. تصنع البطة عشّها في احضان "إلماتار" أم المياه العظيمة، ثم تضع ستة بيضات ذهبية وبيضة من الحديد. عندما تفقس البيضات تشتعل النار في أحضان "إلماتار" مما يدفعها إلى الارتجاف والارتجاج ثم تبعثر البيوض في المياه العظيمة. هذه الفكرة عن الطير الأوّلي هي منتشرة بشكل كبير في أساطير كافة شعوب العالم القديم. نرى مثلاً الإوزّة الأولى في أساطير الهند، والإوزة أو طير الوقواق ("سيب") في مصر وهكذا إلى آخره. هذه الملحمة الفنلندية،، كما باقي الملاحم الأسطورية حول العالم القديم، تتحدث عن البيضة الكونية التي تجلت وسط البحر الأثيري العظيم (المحتوى الإلهي)، وبعد أن تم تلقيحها فقست وانبعث منها النور (الشمس المركزية) الذي عكّر صفو السكون المائي الذي تمثله

الإلهة "إلماتار". أما عدد البيضات، وهو سبعة، فيرمز إلى التعاليم المتعلقة بالكواكب السبعة أي بمعنى آخر: كل ما يمثّله المبدأ السباعي.

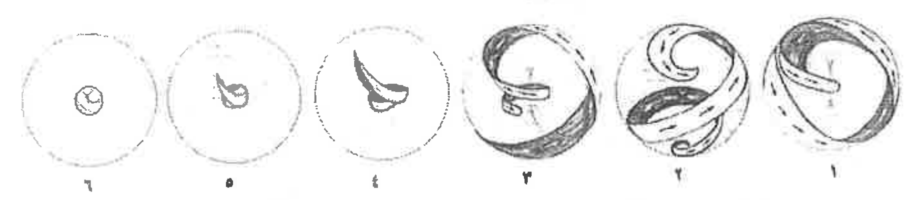
استهلالية الخلق

بأمر من الخالق [جلّ جلاله]، قام المحتوى الكوني المنتشر في "الكرة الكونية" بالانزياح من المحيط ليتكاثف عند المركز مشكّلاً كتلة دائرية تمثّل بدورها المتجسّد الأول. توصف بعض النصوص هذه العملية الممثلة بتلقيح "البيضة الكونية" بأن الإله نفخ في المحتوى الكوني مما دفعه إلى الحركة. الأمر المهم هو أنه خلال انزياح المحتوى من حدود الدائرة نحو المركز تحرّك بشكل دائري منحني إلى الداخل. أي بمعنى آخر، كانت حركته لولبية. وهذه الحركة بالذات هي التي وردت في معظم النصوص الباطنية خلال وصفها عملية الخلق. الحركة اللولبية هي التي خلقت الكون. جميع الحركات في الوجود هي دائرية ولولبية. هي تتماثل تماماً مع النفَس الإلهي (براهما) الذي تحدثت عنه التعاليم الباطنية الهندية والذي يتخذ شكل دوامة كونية دفعت بدورها كل جزيئات المحتوى الكوني إلى التحرّك على شكل دوامات أيضاً. بعض التعاليم تحدثت عن تحوّل "براهما" ذاته إلى دوامة. حتى مراحل تشكّل الكون التي يوصفها العلم المنهجي تشمل مرحلة الدوامة الكونية التي مثّلت مرحلة أولى لتشكّل السديم والتي تؤدي أخيراً إلى تشكّل الأنظمة الشمسية ثم تشكّل الكواكب.



مسار النفس الإلهي بعد نفخه في محتوى البيضة الكونية

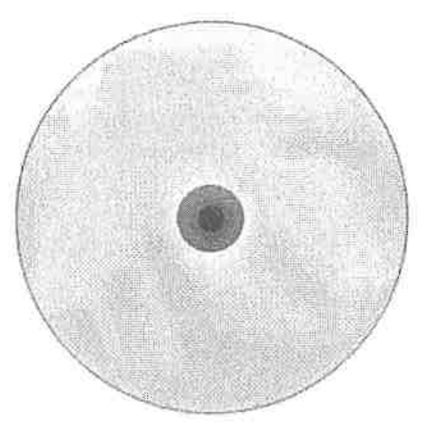
لقد أدت هذه العملية إلى استثارة محتوى البيضة الكونية مما جعلها تتحرّك بالتوافق مع مسار النفس الإلهي لولبي الشكل، ويمكننا تصوّر الحركة اللولبية للمحتوى الكوني نحو مركز الكرة بأنها تمت على الشكل التالي:



مراحل المسار اللولبي نحو تكاثف المحتوى الكوني عند المركز

الحركة اللولبية هي مبدأ كوني أساسي، ويمكن رؤيته بوضوح في كل مكان في الوجود ابتداءً من حركة الأجرام الكونية وصولاً إلى الذرّة. جميع الكائنات تنمو وفق حركة لولبية (حلزونية). هذه الطريقة في النمو موجودة عند النباتات، الحشرات، الحيوانات ومجموعات الميكروبات وكذلك البشر. هذه الحركة ذاتها يمكن إيجادها عند الجنين خلال تشكّله (وكذلك في كافة الكائنات الأخرى، خصوصاً تلك التي تتشكّل في البيوض). سوف أتناول هذا الموضوع بالتفصيل لاحقاً.

بعد تكاثف المحتوي الكوني عند مركز الكرة الكونية اتخذ الشكل الافتراضي التالي، وبهذا تكون قد تمت المرحلة الأخيرة من عملية الخلق:



المحتوي الإلهي متكاثفاً عند المركز

هذه هي البيضة الكونية المُلقّحة التي تحدثت عنها معظم التعاليم الباطنية حول العالم، والتي تُعتبر إحدى أكثر الرموز الجامعة حيث لها معاني إيحائية في كافة المستويات: الروحية والجسدية والكونية. تحوي هذه البيضة في داخلها "..القدرة الموعودة.." لخلق الكون بكامله. هذه هي الحالة التي يُرمز لها بالدائرة التي في مركزها نقطة، حيث تكون الكرة الكونية قد انقسمت إلى قسمين، علوي ودنيوي، وأصبحت تمثّل "اللوغوس" الأول لأي تسلسل هرمي في مجال التجسيد، الوحدة الباطنية التي يُسمونها "الميحاد"، المصدر الموحّد الذي ستنبعث منه إشعاعات الخلق أو التجسيد السباعي للعقل الأول. النقطة في مركز الدائرة ترمز إلى بذرة الخلق الكونية التي ستنبعث منها لاحقاً كافة الكائنات، وبالتالي تُعتبر التجسيد الأول.

العودة إلى إشكالية الخالق والمخلوق

هنا بالذات تكمن الإشكالية حول تعريف الخالق [عزّ وجلّ] بين تعاليم المدارس الباطنية المختلفة حول العالم. بعض التعاليم تصرّ بأن الخالق هو بذاته الذي تحرّك خلال عملية الخلق (الانزياح نحو مركز الكرة) لكن هذه الفكرة بالذات لا تتطلب الكثير من الشرح لإثبات خطأها. هناك فرق كبير بين الخالق والمخلوق، بين النسبي والمطلق، بين المتحرّك والمُحرّك، بين الواحد الأحد والميحاد،.. إلى آخره. هو الكلّ في الكل، وبالتالي لا يمكنه أن يمثّل جزئية في الكل بل يشمله كلياً. إذا كان هو المتحرّك فمن الذي حركه؟! هذا السؤال وحده يكفي لإلغاء الفرضية السابقة تماماً. من هنا أدرك الحكماء القدامى بأن الكرة الكونية هي "الدميورغ" الذي يأتي بعد الخالق [عزّ وجلّ] ولا يمثله هو كما يزعم المذهب الحلولي.

لهذا السبب نرى أن التعريفات الفلسفية المختلفة كانت متنبهة لهذه النقطة تماماً وراحت توصف الخالق بطريقة تميّزه عن المخلوق الأول (الدميورغ) الذي يخطئ الحلوليون في اعتباره الخالق ذاته. أطلق عليه الهرمزيون في كتاباتهم اسماء وأوصاف كثيرة مثل: الواحد، المطلق، العظيم، الخالق، العقل الأسمى، الخير الأسمى،.. هو كل ما كان وسيكون، هو الكلّ في الكلّ، والكل في الكلّ.

وصفه الفيلسوف أرسطو بأنه المحرّك الأول الذي أطلق عملية الخلق. وقد أوجد أرسطو المصطلح الفلسفي الذي وصف الخالق بأنه "المحرّك الذي لا يتحرك"، أي هو الذي تسبب بكل

التحركات في الكون لكنه يبقى ثابتاً لا يُحرّكه شيء. وفي الجزء ١٢ من مجموعته التي بعنوان "الميتافيزيقيا" وصف أرسطو هذا "المحرّك الذي لا يتحرّك" بأنه كامل التناغم والجمال وغير قابل للتجزئة ولا يتفكّر سوى بالكمال، وبالتالي فهو يمثّل الكمال بعينه.

سماه الثيوسوفيون بـ"المُسبِّب غير المُسبَّب"، وهو رديف لمصطلح "السبب الأوّل"، وقصدوا بذلك أنه يمثّل المبدأ الأبدي الغير محدود وبالتالي هو راسخ وكليّ الوجود. وقد حدّد كل من الثيوسوفيين والهندوس الفرق بين الخالق والمخلوق الأوّل من خلال إيجاد مصطلح "بارابرهمان" الذي يسبق وجود "براهمان"، أي أن هذا الأخير الذي يعبده الهندوس لا يمثّل الإله الأعلى بل هناك من يسبقه في تراتبية الوجود.

أطلق الفيثاغورثيون على المخلوق الأوّل مصطلح "الميحاد" Monad والذي كان بالنسبة لهم مصطلح ذو قدسية، إذ هو يشكّل مجموع المخلوقات الأخرى. هذا المخلوق الأوّل هو مصدر المخلوقات الأخرى، ومع ذلك فهو يبقى واحداً لا يتجزأ. من الواضح أن ما قصده الفيثاغورثيون هو الدميورغ وليس الخالق [عزّ وجلّ]. وقد استخدم فيثاغورث هذا المصطلح أصلاً من أجل شرح عملية الخلق بطريقة رياضياتية (رقمية وهندسية) حيث كان يقول مثلاً: من الميحاد نشأ الاثنين، ومنها نشأت الأرقام، ومن الأرقام جائت النقاط ثم الخطوط ثم كيانات ثنائية الأبعاد ثم كيانات ثلاثية الأبعاد.. وهكذا.

لقد استعار العرفانيون المسيحيون الأوائل مصطلح "الميحاد" من المدرسة الفيثاغورثية لكنهم أخطؤوا (أو فُهموا خطأ) باعتباره يمثّل المطلق [جلّ جلاله]. وقد وصفه بعضهم بأنه الإله الأعلى الذي خلق الآلهة الأصغر. لكن هناك مدارس عرفانية مسيحية أخرى (خصوصاً الذين اتبعوا تعاليم فالنتينوس Valentinius) تنبهت إلى أن الميحاد هو ذاته الدميورغ وليس الخالق [جلّ جلاله]. الميحاد هو المصدر الروحي لكل شيء منبعث من النور الإلهي و يغرق في النهاية بظلام المادة الملموسة.

لا يمكننا وصف الخالق لأنه، بكل بساطة، يتعذّر وصفه لأن المسألة تتجاوز مستوى إدراكنا المحدود، وبالتالي فإن ما نوصفه هنا هو المخلوق الأوّل وليس الخالق الاول [عزّ وجلّ].

بهذه الحركة البسيطة، الانزياح نحوى المركز، تكون قد اكتملت عملية الخلق. لقد تمت عملية الخلق مرة واحدة فحسب ووفق إرادة الخالق [جلّ جلاله]. أي أن المحتوى الكوني تحرّك وتكاثف في مركز الكرة الكونية مرّة واحدة فقط وليس مرتين أو ثلاثة أو أربعة. لكن السؤال هو: كيف يمكننا تفسير عملية خلق الكون بكل ما فيه من تجسيدات وتجليات انطلاقاً من حركة لولبية واحدة فقط؟! الجواب هو سهل وبسيط: هذه العملية حصلت خارج نطاق الزمكان، أي في اللامكان واللازمان. بالتالي فإن ***ما يحصل في اللامكان واللازمان لا بد من أنه يحصل في كل زمان وكل مكان***. أي بمعنى آخر، بما أنه لا يوجد تسلسل زمني وامتدادا مسافي في ذلك البعد اللامكاني واللازماني الذي حصلت فيه عملية التكاثف في المركز، هذا يعني أنه حتى الآن في هذه اللحظة رغم مرور مليارات السنين على نشوء الكون المتجلّي لازالت عملية التكاثف هذه تحصل وسوف تحصل دائماً وأبداً! وليس هذا فحسب بل يتكرر حصولها في أي نقطة في الفضاء الكوني، وعلى جميع المستويات وبكل الأبعاد والأحجام والسرعات ودرجات الكثافة.

في هذا الكون الهولوغرافي حيث الكل يمثل الجزء والجزء يمثل الكل، حيث "..كما في الأعلى كذلك في الأسفل، وكما هنا كذلك هناك، وكما الآن كذلك في كل أوان.."، مجرّد أن حصل حركة أو حدث من أي نوع في العالم التجاوزي (خارج المكان والزمان) سوف تتكرر هذه الحركة أو الحدث في كل المستويات وجميع الأبعاد في العالم المتجلّي. سوف تتوضح هذه الفكرة جيداً لاحقاً.

إذاً، كل ما يحصل في اللامكان واللازمان يحصل في كل مكان وكل زمان. بعد إسقاط هذه الفكرة على أرض الواقع يتبيّن أن كل الدوامات في الكون المتجلّي جاءت من حركة انزياح المحتوى العقلي نحو المركز والتي جرت بشكل لولبي.

أما بخصوص السبب الذي جعل سيّد الكون يقوم بهذه الإجراءات تحديداً وجعلها تتخذ هذه الصيغة تحديداً، فالبحث فيها هو مضيعة للوقت، إذ وكأنك تسأل لماذا الحجر يتألف من مادة صلبة، ولماذا السماء زرقاء، ولماذا الكواكب دائرية الشكل.. إلى آخره. هناك أمور كثيرة غامضة يتعذر الإجابة عليها لكنها موجودة على أي حال وتتخذ الشكل التي وجدت فيه. لكن ما يهمنا هو معرفة الجوهر المتأصّل في عملية تجلّي كافة الظواهر التي نراها في الطبيعة ومصدر القوى التي تحرّك مجريات الكون وإحداثياته. هذا هو المهم. ومجرّد أن شككت بهذه الشروحات السابقة وحكمت عليها بعدم العقلانية والمنطق ما عليك سوى النظر إلى الطبيعة من حولك أو العودة إلى

العلوم القديمة التي استندت على هذا المفهوم السابق (الفلك والهندسة والطب والخيمياء.. إلى آخره) والنظر في مدى جدارتها من الناحية العملية والفلسفية وسوف تقتنع في النهاية بمدى صحة هذا المنهج العلمي القديم وواقعيته. كافة العلوم القديمة تستند على منطق علمي واحد، وهذا المنطق العلمي مؤلف من مجموعة قوانين ومبادئ أساسية تحكم مجريات الخلق، وقد نجح الحكماء الأوائل في استنباطها جميعاً من هذه العملية البسيطة التي شرحتها سابقاً (تكاثف المحتوى الكوني في مركز البيضة الكونية) والتي تقبع هناك في العالم التجاوزي.

إن أي حركة أو تصرف أو غيرها من أمور حصلت في ذلك المستوى التجاوزي، مهما كانت دقيقة، لا بد من أن تتجلى على شكل مبدأ أو قانون أو مظهر معيّن في المستوى المادي الملموس. على هذه الفكرة تحديداً استند أفلاطون (التعاليم السرية) عندما أوجد مفهوم ***الأنماط الأولية*** Archetypes والتي هي عبارة عن نماذج أولية حصلت أو تجلت في العالم التجاوزي (معدوم فيه المكان والزمان) وبالتالي لا بد من أن يكون لها نُسخ متطابقة في العالم المادي (محكوم من قبل المكان والزمان). سوف تتوضّح هذه الفكرة جيداً في الموضوع التالي:

نظرية أفلاطون حول

الأنماط الأولية

Archetype

النمط الأوّلي هو رمز أو فكرة أو مفهوم أو سلوك منتشر ومألوف عموماً، أي أنه نموذج أوّلي يتم استنساخه أو التماثل به أو محاكاته على نطاق واسع. غالباً ما تُستخدم الأنماط الأولية في الأساطير والحكايا في جميع الثقافات، حيث نموذج البطل يكون هو ذاته في كل الأساطير لكن الاسماء تختلف حسب اختلاف الثقافة والحضارة. يُعتبر النمط الأوّلي في مجال علم النفس (من قبل كارل جونغ خصوصاً) بأنه نموذج أوّلي لشخصية أو شخص أو سلوك. أما في مجال الفلسفة، فقد تناولت الأنماط الأولية (من قبل أفلاطون خصوصاً) موضوع النماذج المثالية للأشياء أو الأنواع المُدركة أو المحسوسة.

أول ما ظهر موضوع الأنماط الأولية كان في بقايا أعمال الفيلسوف أفلاطون والذي استخدم هـذا المفهوم خلال حديثه عن وجود نماذج أولية (مثالية إلى حد الكمال) لكل شيء متجسّد بـصيغته المادية. لكن الفرق بين الأشياء المادية القابعة في العالم المتجلّي وبين نمطها الأولي الكامن فـي العالم التجاوزي هو أن الأولى ليست كاملة تماماً بل يشوبها عيوب وتشوهات، بينما الثانية تكون كاملة ومثالية. قبل أن نتمكن من استيعاب هذا الموضوع جيداً علينا أولاً التعرف على النظريـة التي استند عليها أفلاطون قبل الخروج بهذا المصطلح أو هذا المفهوم، وهـي نظريـة الأفكـار theory of Ideas أو نظرية الأشكال theory of Forms.

يصر أفلاطون بأن الأنماط (أو الأفكار) المجرّدة (أي ليس لها أساس مادي) هي التي تمثّل الواقع الأصلي وليس الأشياء التي نراها من حولنا في العالم المادي والمتغيّر علـى الـدوام. قبـل أن نستوعب هذه الفكرة علينا أولاً فهم المعنى الفعلي لما يسميها أفلاطون "الأنماط المجرّدة". الـشيء المجرّد هو الذي ليس له أي مكان أو زمانٍ بل بدلاً من ذلك له وجود كنموذج أو فكـرة متعلقـة بهذا الشيء تحديداً. كافة الأشياء في الوجود المادي هي مجرّد تعبيرات للـــ"أنمـاط" الأصـلية المتعلقة بها. النمط هو شيء مجرّد لكن الكائن المادي هو تعبير مرئي وملموس لـذلك الـنمط. يمكن توضيح المسألة من خلال الأمثلة التالية:

أمثلة على أنماط مجرّدة وتعبيراتها المادية	
المجرّد	***المادي***
لعبة كرة القدم عموماً	مباريات كرة قدم بين إيطاليا والبرازيل
لون الأحمر عموماً	اللون الأحمر للتفاحة
العدد خمسة عموماً	خمسة كلاب
العدالة عموماً	تصرّف عادل
الإنسان عموماً	سقراط

نلاحظ من خلال الأمثلة السابقة بأن الأنماط أو الأفكار المجرّدة هي عامة بينما وجدت تعبيراً لها بصيغة محدّدة في أحد التجسيدات المادية. بهذه الطريقة حاول أفلاطون شـرح نظريتـه حـول الأنماط أو الأفكار الأولية. يصرّ على أن الأشياء التي نراها من حولنا هي ليست حقيقيـة لكنهـا تحاكي الأنماط الحقيقية. من خلال مثاله الشهير عن الكهف والذي ذكره في كتاب "الجمهوريـة"

وضّح حقيقة أن الأشياء التي ندركها بشكل عادي من حولنا هي مجرّد ضلال للأشياء الحقيقية التي لا ندركها مباشرة. تلك التي يستوعبها الفرد في العالم المادي هي عبارة عن مستنسخات عن الأنماط الأوليّة التي تقبع في العالم التجاوزي.

في هذا الكون الهولوغرافي حيث الكل يمثل الجزء والجزء يمثل الكل، حيث "... كما في الأعلى كذلك في الأسفل، وكما هنا كذلك هناك، وكما الآن كذلك في كل أوان.."، مجرّد أن حصل حركة أو حدث من أي نوع في المستوى التجاوزي سوف تتكرر هذه الحركة أو الحدث في كل المستويات وجميع الأبعاد. لهذا السبب نرى حولنا في الطبيعة نُسخ مطابقة لكل الإحداثيات التي حصلت خلال عملية التكاثف في مركز الدائرة (والتي حصلت في العالم التجاوزي)، وقد تحوّلت هذه النسخ إلى مبادئ وقوانين تضبط كافة المجريات الحاصلة في العالم المتجلّي.

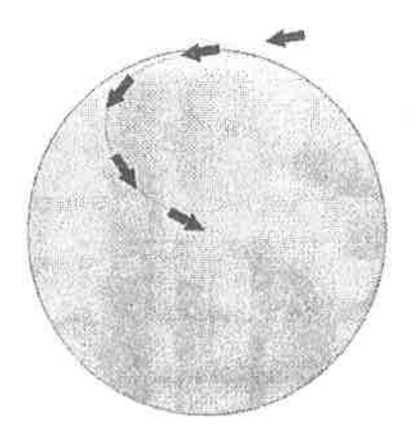
لهذا السبب نرى حولنا في الطبيعة نُسخ مطابقة لكل الإحداثيات التي حصلت خلال عملية الخلق (التكاثف في المركز) التي جرت في العالم التجاوزي. في ما يلي بعض المبادئ التي يمكن استنباطها من هذه العملية، سوف نتعرف على طريقة نشأتها خلال عملية الخلق في العالم التجاوزي وكيف تتجلى بأشكال مختلفة في العالم المتجلّي:

للتعرف على هذه المبادئ بالتفصيل أنظر في الجزء التالي

[١]

مبدأ الجندر

كما حصل في أوّل مرحلة للخلق، أي تلقيح البيضة الكونية من قبل الإرادة الإلهية (نفخ النفس الإلهي) مما أدى إلى انطلاق المحتوى من المحيط للتكاثف عند المركز لتتكوّن بذرة مؤلفة من روح الإرادة الذكرية ومادة المحتوى الأنثوية، أصبح الدور الذي يلعبه مبدأ "الذكر" في الطبيعة هو توجيه طاقة فطرية معيّنة نحو مبدأ "الأنثى" مما يؤدي بالتالي إلى إطلاق العنان لعملية خلق معيّنة. مبدأ "الأنثى" هو الوحيد الذي يقوم بالعمل الخلاق وهذه الحال تنطبق على كافة المستويات في الوجود.



تلقيح البيضة الكونية من قبل الإرادة الإلهية (نفخ النفس الإلهي)

مبدأ "الجندر" متجلي في كل شيء، ومبادئ "الذكر" و"الأنثى" حاضرة وفاعلة دائماً في كافة جوانب ووجوه الظواهر الطبيعية وفي كل مستوى من مستويات الحياة. الكلمة "جندر" Gender مُشتقة من الأصل اللاتيني بمعنى "أن يُنجِب"، أو "أن يُنسِل"، أو "يولّد"، أو "يخلق"، أو "يُنتِج".

وظيفة "الجندر" تتعلّق جوهرياً بالخلق، الإنتاج، التوليد.. إلى آخره، وتجلياته موجودة في كافة مستويات العالم الظواهري. ميل المبدأ "الأنثوي" يكون دائماً باتجاه تلقّي الانطباعات والإيحاءات، بينما ميل المبدأ "الذكري" يكون دائماً باتجاه منح الانطباعات والإيحاءات. إن للمبدأ "الأنثوي" مجال عمل أوسع وأكثر تنوعاً من مجال المبدأ "الذكري".

المبدأ الأنثوي يلعب دور البوتقة التي فيها يجري الإبداع والخلق والتوالد (كما حالة البيضة الكونية التي جرت فيها كافة مراحل عملية الخلق)، بينما يقتصر دور المبدأ الذكري على طرح الإرادة في البوتقة الأنثوية فيُطلق بعدها العنان لسلسلة طويلة من الإجراءات حتى بلوغ مرحلة الولادة.

هذا المبدأ يجسّد حقيقة وجود الجندر في كل شيء، حيث أن تفاعل الذكر والأنثى يجري في كل مكان وفي كافة المستويات. هذا صحيح ليس فقط على المستوى المادي، بل على المستويات العقلية والروحية أيضاً. على المستوى المادي، يتجلى هذا المبدأ بصيغة الجنس الذي نعرفه، بينما تتخذ على المستويات العُليا شكل أرقى، لكن المبدأ هو ذاته دائماً. في غياب هذا المبدأ، لا يمكن لعملية الخلق أن تكتمل على كل المستويات، المادية والعقلية والروحية.

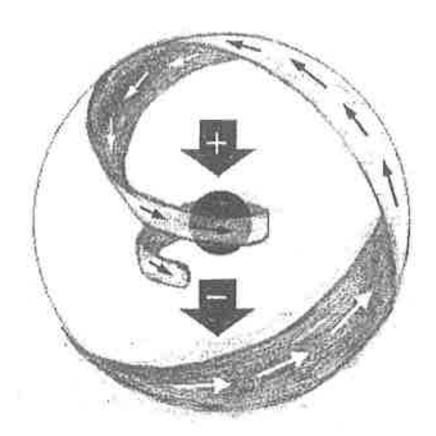
ملاحظة: أنظر في موضوع مبدأ الجندر الهرمزي في الجزء السابق، وكذلك موضوع الجندر العقلي.

---

[٢]

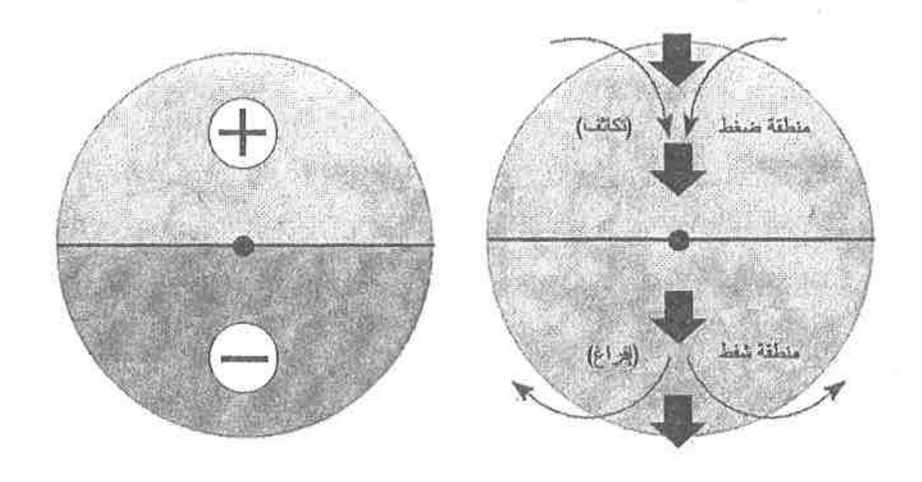
مبدأ القطبية

تحدثت معظم التقاليد الروحية عن الواحد الذي اختار أن يقسم نفسه إلى اثنين، وورد في النصوص المختلفة عبارات مثل: ".. الواحد انقسم على نفسه.."، أو ".. الواحد انقسم إلى اثنين.." مألوفة جيداً لدى جميع التعاليم الباطنية. كل هذا يحصل ضمن نطاق "الكرة الكونية"، أي أن هذه الكرة لا تغيّر شكلها أو تخلق توأماً نظيراً لها كما نرى خلال انقسام الخلية مثلاً. وقد حصل هذا الانقسام خلال عملية الخلق عندما أمر الخالق [جلّ جلاله] بانزياح الكينونة المنتشرة في "الكرة الكونية" من المحيط لتتكاثف عند المركز مشكّلة نقطة والتي بدورها تمثّل المتجسّد الأول. لا بدّ من أن هذه العملية خلقت منطقتين مختلفتين: منطقة انعدام محتوى يمكن اعتبارها سالبة [-] (وقد سماها المعلمون الأوائل "العدم العظيم" Great Privation)، ومنطقة تكاثف محتوى ويمكن اعتبارها موجبة [+]. (يمكن التعبير عن هذه الحالة بالشكل التالي)



انزياح المحتوى بشكل لولبي من الأسفل ليتراكم في الأعلى قبل انعطافه نحو المركز

انزياح المحتوي العقلي من محيط الكرة والتوجّه لولبياً إلى المركز اتخذ مساراً صاعداً ثم نـزولاً من الأعلى باتجاه المركز. هذه العملية خلقت منطقة إفراغ في الأسفل ومنطقة تكاثف في الأعلى. أي قوة شفط في الأسفل وقوة ضغط في الأعلى. هذا جعل الكرة في النهاية مقسومة إلى قسمين، القسم العلوي الموجب [+]، والقسم السفلي السالب [−]. (كما في الشكل التالي):



جميع التعاليم الباطنية حول العالم تحدثت عن القطبية الثنائية التي تشكلت بعد انقسام الواحد إلـى قسمين، وقد أشاروا إليها بأسماء كثيرة ورمزوا إليها بطرق مختلفة. يمكننا ملاحظة هاتين القوتين في كل مكان في الطبيعة وفي كافة مجرياتها.

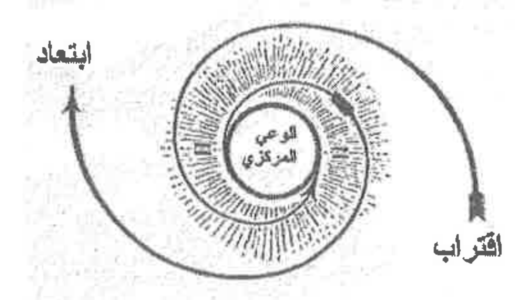
في قوانين "مانو" مثلاً، وهي تعاليم دينية هندوسية، ذُكر كيف أن الإله الذي أوجد نفسه بنفسه خلق الماء وحدها (الماء هنا ترمز للمحتوى الكوني)، وفي تلك الماء أسقط البذرة التي أصبحت فيما بعد البيضة الذهبية (هيرانياغاربها hiranyagarbha)، وبعد أن مكث في القسم العلوي من تلك البيضة لمدة سنة مقدسة، قام براهما بفصلها إلى قسمين أصبحا يمثلان السماء والأرض (قسم تجاوزي وقسم متجلّي). بعدها أخصب براهما البيضة فأثمرت الباعث الأنثوي الذي اتخذ في البداية هيئة البذرة ثم مضغة طرية ثم لؤلؤة ثم تحولت إلى بيضة أخرى والتي ولدت العناصر الأربعة مع العنصر الخامس الذي هو "أكاشا"، بعد أن تفقس يصبح قشرها السماء والجنين الأرض والزلال يمثّل مياه الفضاء والأرض معاً (أي الاثير).



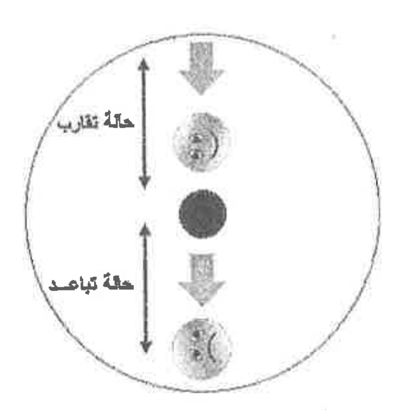
بعض الرموز المستخدمة للإشارة إلى القطبية الثنائية

ملاحظة: أنظر في مبدأ "القطبية" الوارد في كتاب القيبلان في الجزء السابق. وكذلك موضوع الين/يانغ في الجزء التالي.

الأمر الذي قد لا نفطن له هو أن هذه العملية الاستقطابية خلقت حالتين مختلفتين: حالة اقتراب من المركز، وحالة ابتعاد من المركز. أي إذا تخيلنا أنفسنا نمثّل الوعي المركزي القابع في الوسط نجد أنفسنا واقعين بين قوتين متناقضتين: قوة تدفع نحونا وقوة تنسحب بعيداً عنا. (الشكل التالي)



حالة اقتراب من المركز، وحالة ابتعاد من المركز



الدائرة السوداء في الوسط تمثّل الوعي المركزي، وهي تتوسّط حالتين متناقضتين:
[١] حالة تقارب و[٢] حالة تباعد.

في هذه الحالة نجد أن الصورة أفضل من آلاف الكلمات، إذ يبدو واضحاً الفرق بين الحالتين المتعاكستين والذي يمكن توضيحما أكثر من خلال الشكل التالي:



حالة تقارب، تودد

حالة تباعد، نفور

هذه الحالة الازدواجية خلقت طيف واسع من النماذج والصيغ والقوانين القطبية التي تزخر بها النصوص والأدبيات الفلسفية والأخلاقية والنفسية والفيزيائية والكيميائية وغيرها من علوم ومجالات فكرية مختلفة.

إذا أسقطنا هتين الحالتين في مجال علم النفس مثلاً نجد صفات مثل: حب/كره، وداد/ نفور، انفتاح/انطواء، إقدام/تردد، جرأة/خجل.. إلى آخره، وهي تناسب تماماً حالتي التباعد/التقارب من النقطة المركزية. الأمر ذاته ينطبق على باقي المجالات العلمية والمعرفية. ففي مجال الفيزياء

والكيمياء والبيولوجيا يمكننا إيجاد أمثلة كثيرة على هذه الحالات القطبية، كتلك المدرجة في الجدول التالي:

[+] Positive **الموجب**	*[−] Negative* **السالب**
Transmissive باعث	Attractive جاذب
Assimilative تجانسي	Individualizing تمايزي
Radiating الإشعاعي	Focalizing البؤري
Dispersing المُتمدّد	Polarizing المُستقطب
attraction انجذاب	repulsion نفور
Pressor ضاغط (دفع)	Tractor جرّار (سحب)
centrifugal نبذ من المركز	centripetal دفع نحو المركز
composing تشكّل	decomposing تفسّخ
Integrating اندماج	disintegrating تفكّك
generation توالد	degeneration تدهور

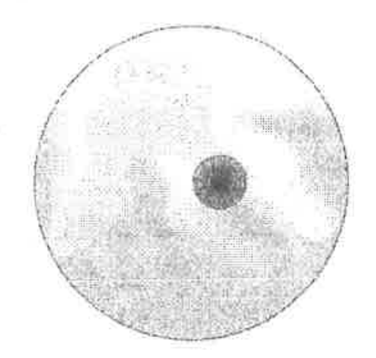
هذا المبدأ يُفسّر كيف أن كل شيء له قطبين، أو مظهرين متناقضين، وأن "المتناقضات" هي في الحقيقة نهايات متعاكسة للشيء ذاته، مع درجات كثيرة ومختلفة بينهما.

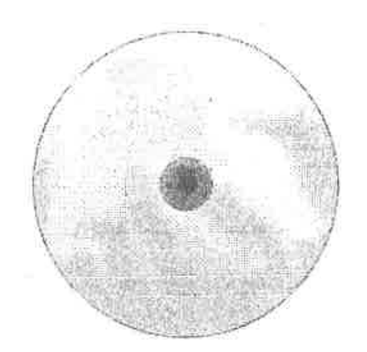
---

[٣]

مبدأ التناظر

عندما تكاثف المحتوى الإلهي في وسط الكرة الكونية، توقف عند النقطة المركزية التي جعلت مسافتها متساوية مع المحيط من جميع الاتجاهات. هذه الحالة الهندسية المتناظرة الشاملة أدت إلى نشوء مبدأ الكمال المتناغم، أي التناظر بين كافة جوانب الشيء وبالتالي حصول حالة توافق فيما بينها. مثلاً، إذا نظرت إلى نقطة مركزية داخل دائرة وقارنتها مع نقطة غير مركزية في دائرة أخرى سوف تميل مباشرة إلى استحباب الدائرة التي تقع نقطتها في المركز تماماً. ما هو هذا الشيء الذي يجعلنا نميل إلى الكمال في المظهر وتمام الخلقة؟





الصورة على اليمين تمثل دائرة مركزها منحرف. الصورة على اليسار تمثل دائرة مركزها يقع في الوسط تماماً.

كل شيء متناسق ومتوازن في الطبيعة يستند على هذا المبدأ الكوني الرئيسي، وهذا يشمل الحالة النفسية المتوازنة، الجسم المتناسق، الفكر المتوازن،.. المظهر الخارجي المتوازن.. إلى آخره. أي خلل في الخلقة أو المظهر أو الحالة أو العقلية يعني وجود خلل في تكوين الشيء وأنه انحرف بعيداً عن النمط الأولي لمبدأ التناظر. الخلل هو شيء غير طبيعي، بينما التناسق والتناظر هو طبيعي ويمثل مبدأ كوني أساسي، أي أنه بمعنى ما يمثل الإرادة الإلهية. وجب أن يكون التوازن كما حالة النقطة في موقعها الصحيح في مركز الدائرة.

يمكننا رؤية هذا المبدأ في جميع مجالات الحياة الفردية. ففي مجال علم النفس مثلاً، إذا تناولنا صفة الجرأة في الشخص وكانت معتدلة فتشير إلى نفسية متوازنة وسليمة، لكن عندما تكون بنسبة زائدة فتتجلى على شكل وقاحة. عندما تكون بنسبة ناقصة لدى الفرد نراه متردداً وخجول، وبالتالي كلا الحالتين، الزيادة أو النقصان، هما سلبيتين، لأنهما منحرفتين عن حالة الاعتدال، أي نقطة المركز.

يمكننا رؤية هذا المبدأ في مجال الصحة أيضاً، إذ يمثّل أساس مفهوم الـ"ين/يانغ" في الطب الصيني. أي خلل في توازن هاتين الطاقتين سوف يؤدي إلى خلل في الحالة الصحية. وحتى في مجال الطب التقليدي نجد حالة انخفاض أو ارتفاع نسبة الكولسترول أو ضغط الدم أو السكر في الدم أو غيرها من موازين مختلفة. كل شيء ينشد الاعتدال، المحافظة على النقطة في مركز الدائرة. لا فوق ولا تحت، لا يمين ولا يسار، بل عند المركز تحديداً.

لكن السؤال هو: كيف يمكننا تحديد حالة التوازن إذا كان الشيء الذي نراه أكثر تعقيداً من الدائرة والنقطة؟ كيف نعرف مثلاً أن الإنسان الواقف أمامنا هو كامل الخلقة والأوصاف؟ أو إذا أردت أن أصنع تمثالاً أو أشيّد بناء كيف أستطيع جعله متوازناً إلى حد الكمال؟ لا بد من أن هناك قانون لفعل ذلك، وقد نجح القدماء فعلاً بإيجاده واستخدموه أحسن استخدام.

التناغم هو حالة عرفها الفلاسفة الكبار بأنها متطلّب أساسي للجمال. يُعتبر المكوّن جميلاً فقط إذا كانت أقسامه متكاملة بانسجام. يُسمى العالم جميلاً ويُشار إلى خالقه بالخيّر لأنه من الضروري أن يتصرّف الخير بالتوافق مع طبيعته الأصيلة. والخيّر الذي يتصرّف وفقاً لطبيعته هو ذاته المتناغم، لأن الخير الذي يحققه هو متناغم مع طبيعته الخيّرة. فالجمال بالتالي هو عبارة عن حالة تناغم جسّدت طبيعتها الجوهرية في عالم الأشكال.

يتألف الكون من تدرّجات متسلسلة من الخير، هذه التدرّجات تتصاعد انطلاقاً من المادة (التي تمثّل أقلّ درجات الخير) وانتهاءً بالروح (التي هي أعظم درجات الخير). أما الإنسان، فتمثّل طبيعته الأسمى الخير الأعظم. هذا يعني أن طبيعته الأسمى حاضرة دائماً وأبداً لإدراك الخير، لأن الخير المتجلي في عالمه الخارجي يتناسب بانسجام مع الخير الكامن في نفسه. إن ما يسميه الإنسان "شرّير"، والمرتبط عموماً بالمادة، هو ليس سوى أقلّ درجات نقيضه (أي الخير). أقلّ

درجة من الخير تفترض كذلك أقلّ درجة من التناغم والجمال. بالتالي فإن التشوّه (الشرّ) هو في الحقيقة أقلّ التركيبات انسجاماً للعناصر المنسجمة أصلاً كوحدات منفردة. التشوّه هو غير طبيعي، حيث بما أن مجموع كل الأشياء هو خير، من الطبيعي إذاً أن تشترك كل من هذه الأشياء بهذا الخير عبر ترتيب نفسها بمكونات متناغمة. التناغم هو التعبير المتجلّي لإرادة الخير الأزلي [جلّ جلاله].

الجمال والانسجام والتناسب كانت مواضيع قريبة الصلة بالنسبة للقدماء. الشيء الجميل يستعرض انسجاماً داخلياً أو كمال انطلقت من جزئياته التي دُمجت ببعضها بطريقة تناسبية سليمة. على نحو مشابه، إن مفهومنا حول العقلانية متصل بشكل مماثل مع الفكرة الرياضياتية المتعلقة بالـ"نسبة المتوسطة" ratio.

كان الفلاسفة القدامى معروفون بفكرهم العقلاني والمنطقي الواضح، وبالنسبة لهم كان لموضوع "التناسب" دلالة رياضياتية، أما كيف ربطوها بفكرة "التناغم" المجرّدة فكان ذلك عن طريق القوانين الرياضياتية المتعلقة بالعامل "المتوسّط" Mean.

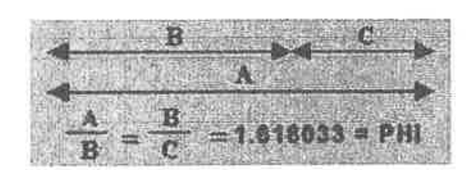
وفقاً للفكر الفلسفي القديم، يتعلق المتوسّط الرياضياتي أو المتوسط التناسبي بعملية تقسيم كمية أو سطح (خط مستقيم مثلاً) إلى مقادير أو مقاطع تناسبية. تم تحديد عامل متوسّط بين طرفين أقصيين أو قطبين متطرفين لنسبة توسطية معيّنة، وكانت تنشأ متوالية رياضية من علاقة هذا العامل المتوسط مع الطرفين الآخرين. بهذا كانوا يحصلون على حالة تناغم أو كمال من المتوالية الرياضية الناتجة من العلاقة التبادلية بين المتوسّط والأطراف. كانت الأطراف تتناغم من خلال علاقتها مع المتوسّط وبالتالي يصبح الكل وأجزاءه في حالة تناغم متناسب.

لكي تتوضح هذه المسألة جيداً سوف نلجأ إلى مثال رياضي بسيط، تماماً كما كان يفعل الفلاسفة. سوف نطرح صيغتين مختلفتين لما يُسمى الـ"نسبة المتوسطة" ratio. الأولى تمثّل العامل المتوسّط الرياضياتي (التناظر الكمّي)، والثانية تمثّل العامل المتوسط التناغمي (التناظر النوعي). لكي نخلق عامل متوسط رياضياتي، كل ما علينا فعله هو إيجاد رقمين ورقم ثالث يتوسطهما بحيث يقسمهما إلى قسمين متساويين بحيث تكون المسافة بينه وبين الرقم السابق متساوية مع

المسافة الفاصلة بينه وبين الرقم التالي. مثلاً، الرقمين [٦] و[١٢] ويتوسطهما الـرقم [٩]. هـذا الرقم يتلو الرقم [٦] بثلاثة أعداد ويسبق الرقم [١٢] بثلاثة أعداد.

لكي نخلق عامل متوسط تناغمي، كل ما علينا فعله هو إيجاد رقمين ورقم ثالث يتوسطهما بحيث تكون المسافة الفاصلة بينه وبينهما تناغمية. بالعودة إلى الـرقم [٦] و[١٢] نجـد أن المتوسـط التناغمي بينهما هو [٨]، حيث هذا الرقم الأخير أعظم من الرقم [٦] بنسبة ثلثه (١/٣) وأصـغر من الرقم [١٢] بنسبة ثلثه (١/٣).

لكن هناك صيغة أخرى لما يُسمى المتوسط التناسبي، وهي الأكثر أهميـة بـين بـاقي النسب الأخرى. لقد أشاروا إليه بـ"النسبة الذهبية" أو "المتوسط الذهبي" وهو ذاته المتجلي في كل مكان في الطبيعة (إن كان كمياً أي ظاهري أو نوعياً أي باطني). لقد شغل هذا المتوسّط الفلاسفة عبـر عصور طويلة حيث تجاوز المجال الرياضياتي ليصبح هدف الكثيـر مـن التـأملات الـصوفية والفلسفية التجاوزية. المتوسّط الذهبي يقسم المقطع الخطي بحيث يكون تناسب الجزء الأصغر مع الجزء الأكبر متساوياً مع تناسب الجزء الأكبر مع الكل كما في الشكل لتالي:



خط مقسوم وفق النسبة الذهبية

0.618   1

A   B   C

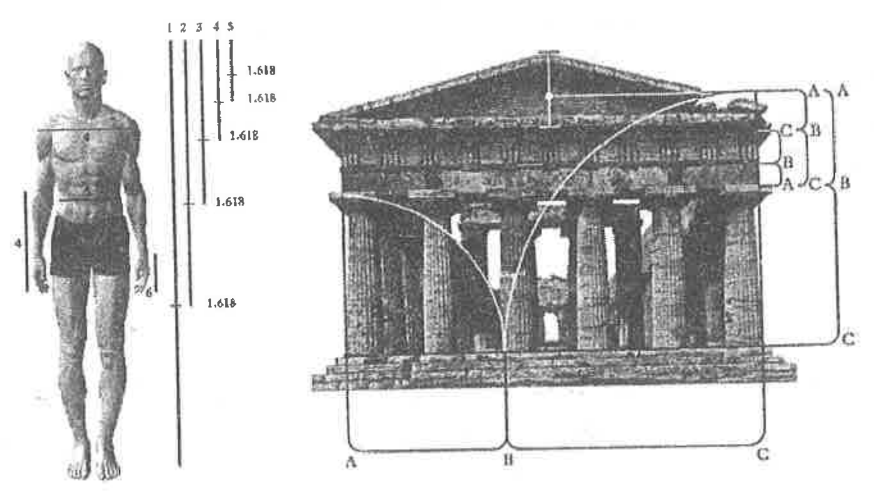
$$\frac{\text{الخط الأصغر } AB}{\text{الخط الأكبر } BC} = \frac{0.618}{1} = 0.618$$

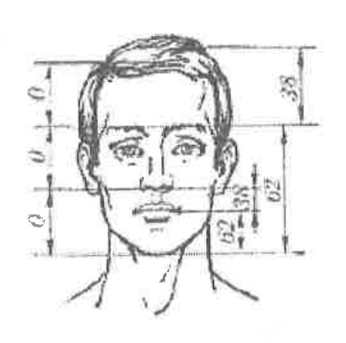
$$\frac{\text{الخط الأكبر } BC}{\text{كامل الخط } AC} = \frac{1}{1.618} = 0.618$$

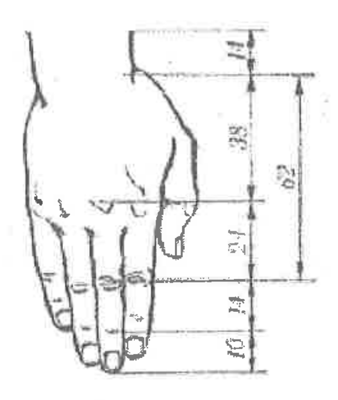
المعادلتان توفران إجابات متطابقة

وهكذا، فإن نسبة الأصغر للأكبر تساوي نسبة الأكبر للكل. إن تقسيم الخط بالنقطة **B** تمثّل نقطة التوازن بين النسبتين. فإذا أزحت النقطة قليلاً إلى الأمام أو الخلف فسوف تحصل على نسبتين غير متساويتين ولا متوازنتين. الحالة الوحيدة التي تكون النسبتين متساويتين هي عندما تكون ذهبيتين. هذا التقسيم يمثّل البرهان الرياضياتي لكيفية استشعار العين لتناسق هذه النسبة السحرية التي تظهر بشكل متكرر في كل مكان في الطبيعة وحتى في الفنون التي ينتجها المبدعون المُلهمون فطرياً.

من زاوية النسبة الذهبية ستبدأ النظر إلى الوجود من حولك بطريقة مختلفة تماماً. سوف تكتشف الجمال الحقيقي للطبيعة من حولك، جزيئات الحمض النووي DNA، قرنية العين، بلورات الثلج، مخاريط الصنوبر، بتلات الزهرة، كريستالات الألماس، تفرّع أغصان الشجر، صدفة المحار البحري، الشمس التي ندور حولها، المجرّة التي ندور داخلها، الهواء الذي نتنفسه، وجميع أشكال الحياة الأخرى التي نراها حولنا تنبثق من نظام هندسي مبطّن. والتأمّل في هذا النظام الخفي ونماذجه الهندسية المختلفة تجعلنا نحدّق مباشرةً إلى الخطوط الظاهرة على وجه الحكمة العميقة وتزوّدنا بلمحة عن الأعمال الباطنية للعقل الكوني.







ملاحظة: تحدثت عن هذا الموضوع بإسهاب في الجزء الثالث من هذه المجموعة، تحت عنوان "الهندسة المقدسة".

يمكن مشاهدة هذه النسبة بوضوح في الفنّ المعماري واليدوي القديم. كانت الحكمة القديمة تستند على هذه المعرفة بعمق لدرجة أن هذه النسبة الرياضياتية الذهبية أُدخلت إلى مجالات تبحث في الموسيقى والضوء وحتى الفلك. يمكن ملاحظة انتشار هذه المنظومة الحسابية بشكل واسع في عالم ما قبل التاريخ. يبدو أن ثقافة الحضارات القديمة كانت متأثرة جداً بهذه النسبة السحرية. حتى في الماضي القريب نسبياً، فقد اعتُبرت في عصر النهضة الأوروبية أساس التصاميم الهندسية للصروح المقدّسة، كالمعابد والجوامع والكنائس والهياكل.. كما استُخدمت لتصميم الفنون الدينية، كاللوحات الفنية، الأيقونات، والمنحوتات اليدوية.. كل شيء مقدّس كان يستند تصميمه على النسبة الذهبية.

الآن أصبحنا نعلم من أين جاء هذا المبدأ الذي يحكم كل شيء في الوجود بطرق وصيغ مختلفة. هذا هو السرّ الذي يجعل كل شيء طبيعي أو صناعي يحتوي على هذه النسبة الذهبية في بنيته الهيكلية أو مظهره الخارجي يصبح محبباً لعيوننا وقلوبنا وعقولنا.

[٤]

مبدأ الحركة اللولبية

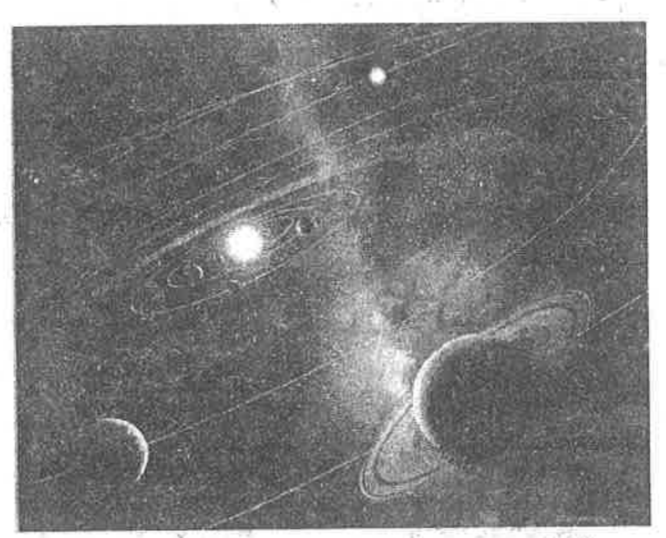
سبق وتحدثت عن مبدأ الحركة خلال تناول ثالوث [العقل والحركة والمحتوى]. لكنني سـأتناولها هنا من باب آخر يفيدنا في المحافظة على تلسل الشرح. في غياب عنصر الحركة في الطبيعة لا يمكن أن نجد أي نشاط أو طاقة من أي نوع. حتى أنه لا يحصل أي تجسيد مادي أصلاً. كما أنه لا يمكننا رؤية أي ضوء ولا حرارة ولا موجات أو مجالات طاقة مـن أي نـوع. فـي الكـون المتجسّد مادياً لا يوجد سكون من أي نوع، بل حركة دائمة ومستمرة، وعلى كافة المستويات.

لقد كشفت لنا الطبيعة، من خلال الحركة التلقائية للجسيمات الذرية، والكواكب الدائرة حول الشمس، وغيرها من مظاهر طبيعية أخرى، بأن هناك فعلاً "حركة تلقائية دائمة" متجسّدة في الطبيعة من حولنا. لكن العلم المنهجي لازال مصراً على أن الحركة التلقائية الدائمة هي مستحيلة بالمطلق! السبب وراء هذا التعنّت العلمي هو واضح طبعاً إذ أن العالم الأكاديمي محكوم كلياً من قبل المؤسسات المالية والاقتصادية التي من صالحها نشر الأكاذيب العلمية التي لازالت تُلقّن في المدارس، خصوصاً قانون مصونية الطاقة التي تثبت عدم إمكانية التوصّل إلى آلات تلقائية الحركة رغم ظهور الكثير من الأمثلة على أدوات متحرّكة تلقائياً عبر التاريخ العلمي، مثل محرّك "بيسلر" Bessler Wheel (١٧١٢ إلى ١٧١٧)، وبندول "فوكالت" Foucault Pendulum، وأجهزة "شوبرغر" التي تعمل على الدوامات الهوائية والمائية.. وغيرها، وهذه الأدوات تعمل بفعل مبدأ الحركة اللولبية التلقائية المتجلية بصيغ مختلفة في الطبيعة. إذاً، أصبحنا نعلم الآن السبب الذي يجعل رجال المال والاقتصاد يحاربون هذه التقنيات، لأنها ستقضي على اقتصاد الطاقة التي تتمحور حول النفط ومشتقاته! لهذا السبب موضوع الحركة التلقائية غير مألوف في حياتنا اليومية، حيث لا تُذكر أبداً في المؤسسات التعليمية والإعلامية وغيرها من وسائل تثقيف وتوجيه. جميع هذه المؤسسات تخضع لسيطرة المصالح المالية والسياسية النافذة.

".. إنه عجيب فعلاً، حيث في العالم المجهري الذرّي، تتطلّب الفيزياء الكمّية حركة دائمة للجسيمات من أجل حركاتها الدورانية والمدارية. بينما في العالم المرئي والملموس من حولنا، يعتمد العلم المنهجي على قانون يجزم بأن الحركة التلقائية الدائمة هي مستحيلة.... هذه هي حالة العلم المنهجي اليوم.."

John W. Ecklin

هل لازلت تؤمن بعدم وجود "حركة تلقائية دائمة"؟ هل لا زلت تظنّ بأنّك لم ترى آلة دائمة الحركة في حياتك؟ إذا لازلت تظن باستحالة هذه الفكرة فوجب عليك التوقّف لبرهة والتفكير جيداً بالأمر. هناك آلة عملاقة وفي حالة حركة دائمة وتلقائية، تعمل ليلاً نهاراً، صيفاً شتاءً، تعمل وتعمل منذ الأزل.. وستبقى كذلك حتى إشعار آخر. نعم.. إنها الكرة الأرضية! هل تساءل أحدكم كيف تتحرك هذه الآلة العملاقة في الفضاء، وبسرعة ٧٨ ألف ميل في الساعة؟!



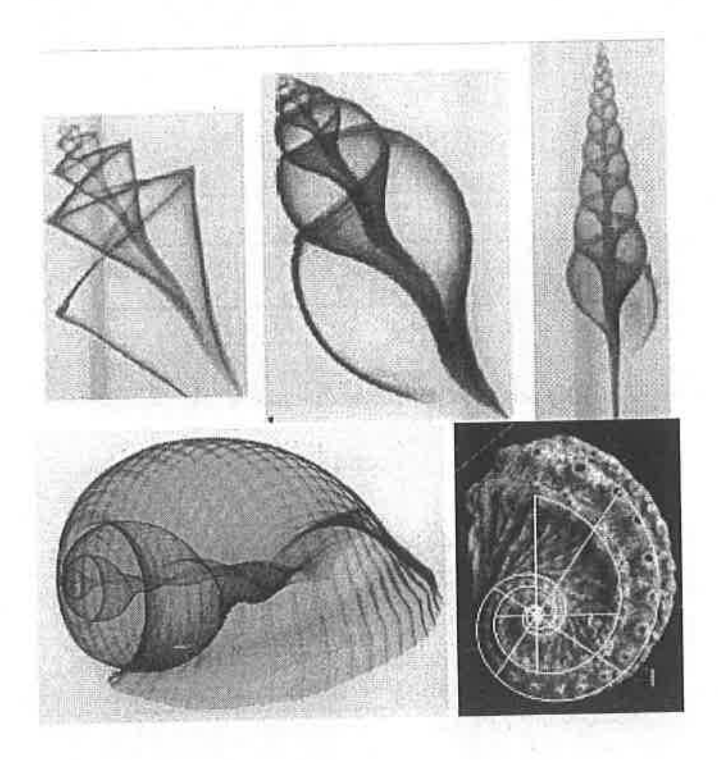
الكواكب تسافر حول الشمس وفق حركة تلقائية دائمة

لذلك، عندما يأتي أحدهم ليقول بأنه ما من شيء يُدعى "حركة تلقائية دائمة" بينما ندرك بأن أكبر جسم نعرفه ونلمسه يسافر بسرعة ٧٨ ألف ميل بالساعة ويفعل ذلك منذ بداية الزمن وسيستمر بفعل ذلك حتى نهاية الزمن أعتقد بأنه من الغرور أن ترفض فكرة وجود الحركة التلقائية الدائمة. كما أسلفت سابقاً، المسألة لا تتعلق بعدم منطقية هذه الفكرة بل لأن الناس لم يألفوها بسبب تجاهلها المقصود في المؤسسات التعليمية والإعلامية.

بالعودة إلى موضوعنا الرئيسي، نشأ مبدأ الحركة نتيجة انزياح المجتوى الكوني من محيط الكرة الكونية إلى مركزها. هذه العملية جعلت الحركة تكون على شكل دوامة، وليس هذا فحسب، بل كانت الحركة وفق أربعة أطوار: [إندفاع، تسارع، تباطؤ، توقف]، وهذا ساهم في نشوء مبادئ

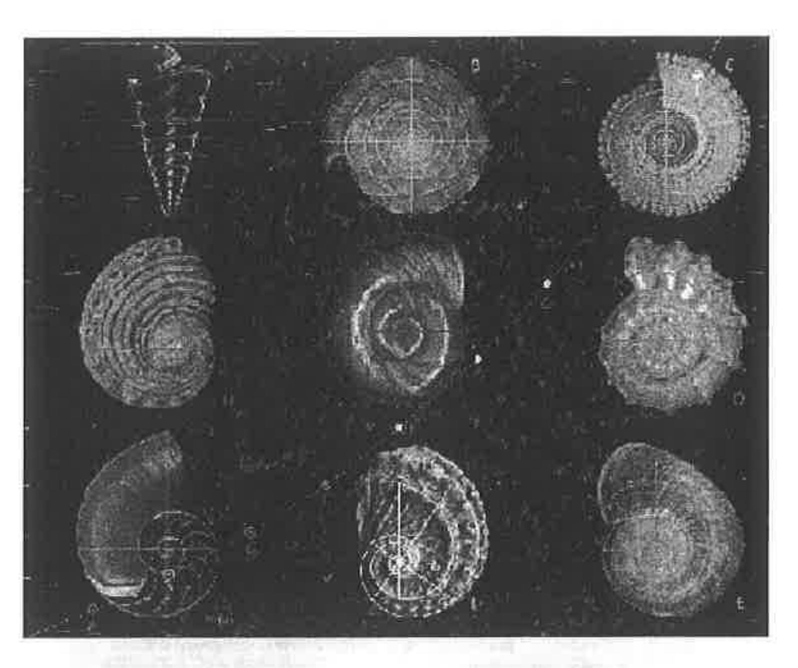
كثيرة أخرى مثل مبدأ الذبذبة ومبدأ الإيقاع (سوف أتناولها لاحقاً). إذاً، كل الدوامات في الكون المتجلّي جاءت من حركة انزياح المحتوى الكوني نحو المركز.

لقد أثبتت الصور والمشاهدات المختلفة، وليس المعادلات الحسابية والنظريات الرياضية، بأن الدوامات متواجدة في كل مكان في الوجود وعلى كافة المستويات وبكل الأحجام. كل شيء يدور بسرعات مختلفة واتجاهات مختلفة. جميع الكائنات، الحية والجامدة معاً، تُظهر دلائل على وجود حالة تناظر فيما بينها **asymmetry**، وجميعها تنمو وفق حركة لولبية **spiraling growth**.

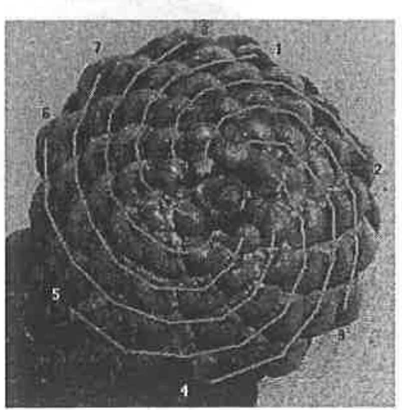


مع تقدم العلم منذ بدايات القرن التاسع عشر، بدأت الأبحاث العلمية بجميع أفرعها تكتشف هذا النمط اللولبي في مواضيع بحثها مهما كان نوعها ومستواها الوجودي. في منتصف القرن التاسع عشر، اكتشف "لويس باستور" Louis Pasteur بأن أصغر وحدة بناء والتي تنطلق منها جميع أشكال الحياة والمعروفة باسم "بروتوبلازم" protoplasm هي ليست متناظرة بطبيعتها، وأن

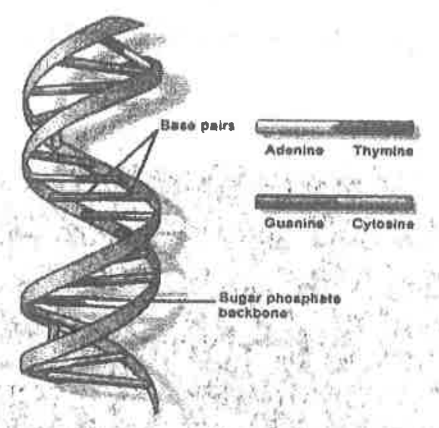
مجموعات الميكروبات تنمو بطريقة لولبية (حلزونية). هذه الطريقة في النمـــو موجـــودة عنـــد النباتات، الحشرات، الحيوانات وكذلك البشر.





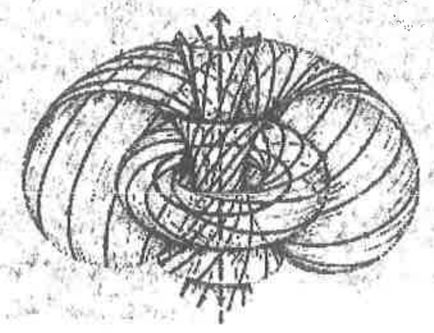


جميع أشكال الحياة قد تكون قوّة تشكيلها مُستمدّة من مصدر خفي من الطاقة اللولبية. حتى الاتجاه المماثل الذي تتخذه الصدفة البحرية، وكذلك الجهة التي يحتوي فيها جسم الإنسان على القلب، جميعها يمكن تحديدها من خلال جهة دوران هذه الحركة اللولبية الخفية.



يمكن مشاهدة الحركة اللولبية وهي تتشكّل في بنية جزيء الحمض النووي DNA

بقيت هذه الاكتشافات تتزايد حتى ظهرت أخيراً في منتصف القرن التاسع عشر نظرية الدوامة vortex theory لكل من "هولمهولتز" Helmholz و"تومسون" Thomson (اللورد كلفين) و"تايت" Tait. تقول هذه النظرية بأن الكون يتألف من محتوى رئيسي واحد وهو ذو طبيعة سيولية ويملأ الفضاء بكامله، وما نسميه مادة يتألف أصلاً من هذا المحتوى الأولي الذي تم إحياءه بحركة لولبية دوامة. لقد استعرض "تومسون" كيف أن الذرات التي تتألف منها المادة أظهرت خصائص الدوامة. لكن المنهج العلمي عارض هذه الفرضية واتخذ توجهاً يميل إلى اعتبار الذرات بأنها مؤلفة من جسيمات كهربائية.



مقطع تشريحي يبيّن الذرة على شكل دوامة أثيرية تغذّي نفسها

في العام ١٩١٣، كان الدكتور "ألي كارتان" Eli Cartan أول من استعرض بوضوح بأن "النسيج" المتمثّل بـ"الزمكان" (الزمان والمكان) في نظرية النسبية العامة لأينشتاين هو ليس

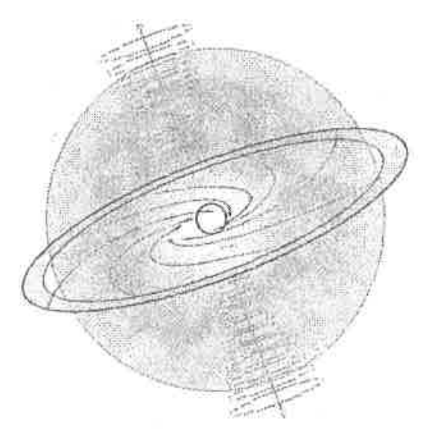
"منحني" فقط بل يتميّز أيضاً بحركة لولبية أو فتلية كامنة داخلها ومعروفة بـ"التورسون" torsion. يُشار إلى هذا المجال من الفيزياء بنظرية "أينشتاين/كارتان" أو بالاختصار ECT. لم تؤخذ نظرية "كارتان" على محمل الجد في تلك الفترة، حيث أنها جاءت في الفترة التي سبقت ظهور "الفيزياء الكمية" quantum physics، أي كانوا لازالوا يعتقدون في حينها بأن الجسيمات الدقيقة، كالإلكترونات، تدور أو تفتل خلال دورانها حول النواة. مُعظم الناس لازالوا يجهلون أنه أصبح واضح تماماً أن الفضاء المحيط بالكرة الأرضية وكذلك المجرّة بالكامل هو "فضاء يفتل نحو اليمين" مما يعني بأنه سوف يتم التأثير على الطاقة لأن تفتل وفق عقارب الساعة خلال سفرها عبر الفراغ الفيزيائي.

افترضت بأن الحقول التورسونية قد تكون أضعف من الجاذبية بـ أسّ.٣٠ مرّة، ومن المعروف بأن الجاذبية هي أضعف من الطاقة الكهرومغناطيسية بـ أسّ. ٤٠ مرّة! وبهذا التأثير الضعيف جداً، حسب النظرية، فإن الحقول التورسونية، التي في حالة فتل طبيعية، تُعتبر هامشية من ناحية الأهمية بحيث لا تستطيع أن تؤثّر بفعالية في الظواهر التي نلاحظها في الكون.

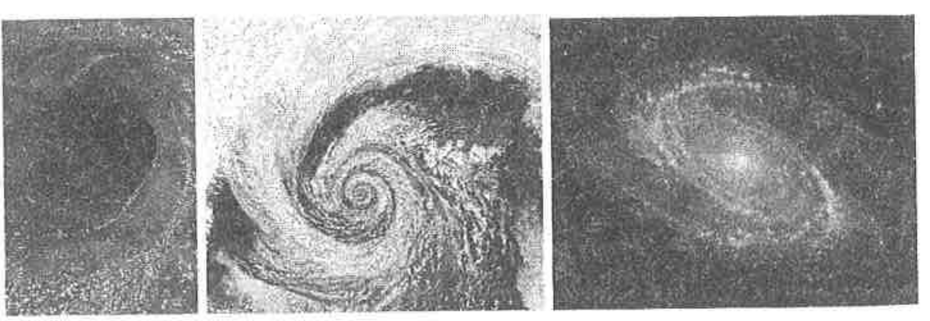
لم تكُن الحقول التورسونية تعتبر على أنها طاقة كونية بمستوى قوة الجاذبية أو الكهرومغناطيسية. والسبب هو لأنها كانت موجودة نظرياً فقط. فنظرية "كارتان" الأساسية التي ظهرت في العام ١٩١٣ افترضت بأن *الحقول التورسونية قد تكون أضعف من الجاذبية بـ أسّ.٣٠ مرّة، ومن المعروف بأن الجاذبية هي أضعف من الطاقة الكهرومغناطيسية بـ أسّ. ٤٠ مرّة!* وبهذا التأثير الضعيف جداً، حسب النظرية، فإن الحقول التورسونية، التي في حالة فتل طبيعية، تُعتبر هامشية من ناحية الأهمية بحيث لا تستطيع أن تؤثّر بفعالية في الظواهر التي نلاحظها في الكون. لكن في السبعينات من القرن الماضي أثبتت سلسلة طويلة من التجارب بأن هذه الحقول التورسونية الأساسية التي ذُكرت في نظرية أينشتاين/كارتان هي موجودة فعلاً، ويُشار إليها باسم "الحقول التورسونية الساكنة" static torsion fields. لكن الفرق هنا هو أن "الحقول التورسونية الديناميكية" dynamic torsion fields قد تم استعراضها أيضاً ولها خواص أكثر تأثيراً وعظمة مما تصوّره أينشتاين وكارتان.

في السبعينات من القرن الماضي أيضاً، تبيّن مظهر جديد لطبيعة الذرّة، حيث أن التجارب التي أجريت على "الجسيمات" من قبل الفيزيائيين الكمّيين أظهرت وجود نزعة إلى التركيبة الكروية

لهذه الحقول الطاقية. لكن بالإضافة إلى ذلك، فقد تبيّن أن هذه الهياكل الكروية هي في حالة ***فتل*** (دوران حول نفسها). وبينما تتحرّك الجسيمات خلال/عبر الأيثر، يبقى محور دورانها مصطفّاً وفق جهة حركتها. وهذا يعطيها خاصية "الدوامة" ذاتها التي تظهرها "حلقة الدخان" التي يصنعها مدخّن السيجارة أحياناً. هذا التشكّل يخلق تلقائياً خلال التحرُّك بخط مستقيم عبر وسيط سيولي fluid medium.



الذرّة عبارة عن نواة محاطة في منطقتها الاستوائية بحلقة، وفي محورها دوامة داخلة (من الأعلى) ودوامة خارجة (من الأسفل)



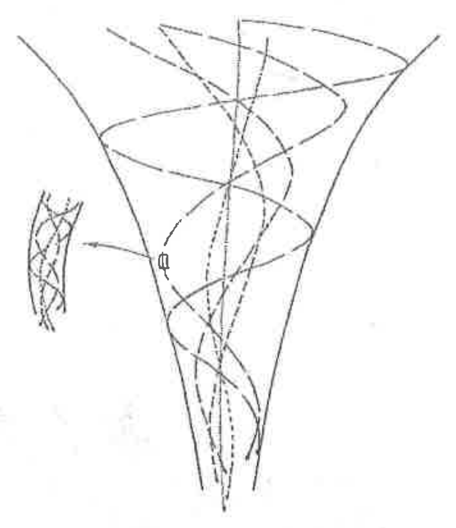
حركة الدوامة متجلية في كل مكان في الوجود وعلى كافة المستويات.

الصور من اليمين: مجرّة، إعصار استوائي، دوامة مائية.

أما بخصوص الأبحاث البيولوجية التي تناولت ظاهرة الدوامة والحركة اللولبية المتجسدة في الطبيعة من حولنا فهي كثيرة لكن أشهرها هي تلك العائدة للباحث المميّز "فيكتور شوبرغر" الذي أقام دراسات متعددة تهدف للتوصّل إلى السرّ الذي تخفيه تلك التحركات الخفية في الطبيعة،

بجميع مظاهرها، في سبيل جمع الطاقة التي تساعدها على إنجازاتها الغريزية والفطرية المختلفة، وقد توصّل إلى ما يسميها: الحركة الدورانية اللولبية ذات الدفع الذاتي.

خرج شوبرغر باستنتاج يقول إن هذه الحركات اللولبية الخفية (الدوامات) الموجودة في الطبيعة هي التي تساعد أشكال الحياة المختلفة في نموها نحو الأعلى، بعكس توجّه القوة الجاذبية. وقال إنه إذا استطاع الإنسان تنسيق هذه الأنظمة اللولبية الدوّارة (الدوامات)، وجعلها تتناغم مع بعضها، يمكن حينها إطلاق قوّة هائلة لا يمكن تصوّرها. وقد أثبت وجود هذه القوّة الطبيعية الخفية بواسطة ابتكار أجهزة وآلات عديدة تعمل على مبدأ توليدها.



الحركة الدورانية اللولبية ذات الدفع الذاتي

كما رآها شوبرغر في الطبيعة. لاحظ كيف أنه حتى في الدوامة المائية نرى أن الجزء يمثّل الكلّ، أي أن الدوامة مؤلفة أصلاً من دوامات صغيرة تتشابه مع الكل.

تبين أنه حتى الزمن له طبيعة لولبية، وهذا ما سوف أتناوله بالتفصيل لاحقاً.

الصليب المعقوف

SWASTIKA

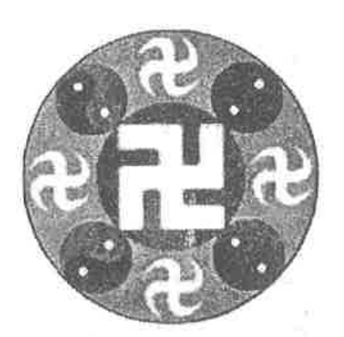
رمز الحركة الكونية اللولبية (الدوامة)



هذا الرمز منتشر بشكل واسع بين ثقافات العالم المختلفة، وتعود أصوله إلى أزمنة غابرة، إذ نجده محفوراً في كل معبد حجري أو بناء أثري في الهند، ونجده سائداً أينما ازدهرت الديانة البوذيـــة، وكذلك في اليابان واليونان والبلاد الاسكندينافية وأمريكا اللاتينية وغيرها من منـــاطق ازدهـــرت فيها حضارات قديمة. أشار الكلدانيون إلى هذا الرمز (في كتاب الأعداد) بـ"مطرقـــة الحرفـــي". وسماها الاسكندينافيون "صليب جيانا" أو "فايلفوت" أو "مطرقة الإله ثور".



آثار وأزياء فينيقية مصوّر عليها الصليب المعكوف



رمز ديني في الصين

يُعتبر رمز الصليب المعقوف بالنسبة للشعوب القديمة تميمة جالبة للحظ، لكن يبدو أن هذه الصفة لها أساس باطني ومعنى أعمق بكثير من مجرّد معتقد سطحي بسيط، إذ تعتبر ثاني أقدس الرموز في التقاليد الهندوسية.



رمز ديني هندوسي

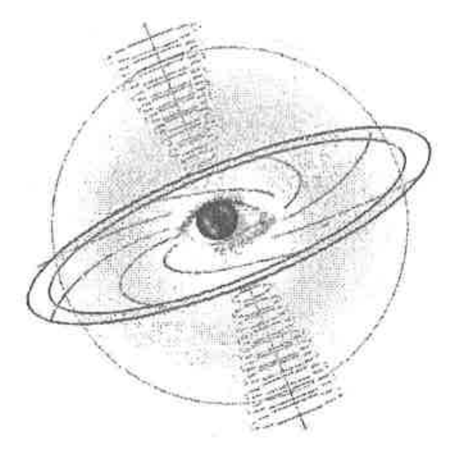
يُعد الصليب المعقوف أحد أهم الرموز الفلسفية والعلمية في الحكمة التي سادت الحضارات القديمة. هو يمثّل مختصر رمزي لكامل عملية الخلق من مستوى كوني حتى مستوى الإنسان، من مستوى "براهما" نزولاً إلى أدقّ الكائنات العضوية. القليل من الرموز القديمة تحمل معاني باطنية شمولية مثل الصليب المعقوف. هو رمز نشاط الحياة الكونية، أي الدوران المستمر لعجلات الخلق، وكذلك العناصر الأربعة المقدسة (الأطوار الأربعة) بمعانيها الباطنية والكونية معاً. الأذرع المعقوفة للصليب ترمز إلى المسيرة الدائرية للقوى الكونية المختلفة، وقد وردت في الشروحات الباطنية الهرمزية والتفسيرات الرياضية الفيثاغورثية.

بعد الاطلاع على موضوع السابق حيث أن الدوامات متواجدة في كل مكان في الوجود وعلى كافة المستويات وبكل الأحجام، وأن جميع الكائنات، الحية والجامدة معاً، تنمو أو تتصرّف وفق حركة لولبية، أصبحنا نعلم ما قصده الحكماء القدامى عند منحهم هذا الرمز أهمية كبيرة.

الكون هو عبارة عن محتوى عقلي متحرّك

الفكر هو حركة العقل وفق مسار لولبي

المحتوى العقلي هو الذي يُفعّل الطاقة التي تحرّك المادة. النظريات التي قدمها العلماء في الموضوع السابق حول الذرّة الدوامة والطبيعة اللولبية لكل الأشياء الأخرى في الكون هي قريبة جداً من الحقائق التي سلمت بها التعاليم السرية، لكن الفرق هو أن هذه الأخيرة أدخلت العنصر العقلي إلى المعادلة. تقول التعاليم السرية بأن الذرّة النهائية للمادة هي عبارة عن دوامة أثيرية صغيرة تطوف وسط بحر من الأثير العقلي، ونشوئها ودورانها هو بسبب مفعول الطاقة في الوسط الأثيري.



بما أن الأثير بذاته غير احتكاكي بطبيعته فإن الذرة الدوامة لا تفقد أي من قوة حركتها فتصبح دائمة وتملك كل الخاصيات المنسوبة للمادة مثل البُعد والحجم والليونة والجذب والامتداد.. إلى آخره، كما أنها تملك خاصية الحركة بذاتها. هذه الذرات الدوامة هي بأحجام متنوعة ومعدلات ذبذبية مختلفة، وهذا يفسّر تعدد أنواع الذرات التي حيّرت العلماء حيث تم التعرّف على العشرات منها.

بعد التسليم بظاهرة الذرّة الدوامة ذات الحركة اللولبية الدائمة اصطدم رجال العلم بالجدار حول المحرّك الأوّل المسؤول عن الحركة الدورانية الدائمة لهذه الجسيمات التي تتألف منها المادة. لا يمكن للأثير أن يملك ذكاء لكي يتحرّك من تلقاء نفسه وبهذه الصيغة المنتظمة حتى لو كان يمتلك

القوة لفعل ذلك. هنا تدخل التعاليم السرية لإنقاذ العلماء المنهجيين (إذا رغبوا ذلك) من هذه المعضلة المستعصية.

تعلّم الفلسفة السرية بأن المحتوى العقلي يجسّد نفسه من خلال الفكر. وتعريف الفكر وفقاً للتعاليم السرية يقول بأنه عبارة عن حركة محتوى العقل. هذه القوة الفكرية (إذا صحّ التعبير) التي يتم استدعاءها هي التي تحرك الأثير وتصنع فيه الدوامات بسبب طبيعة حركتها اللولبية. هذه الفكرة بالذات ستتوضح جيداً لاحقاً، لكن وفقاً للتعاليم السرية يتم وصف العملية كما يلي: بما أن الأثير ينبعث من محتوى عقلي بفعل الطاقة، فيحتوي في جوهره على كافة المقومات التي يتمتع بها آباءه وأجداده. ولهذا الوصف الأخير معنى عميق لكنه سيتوضّح جيداً لاحقاً. أي القصد من الكلام السابق هو القول بأن الكون هو عبارة عن دوامة عملاقة من المحتوى العقلي.. هو عبارة عن قوة فكرية تم استدعاءها من قبل "المطلق" [جلّ جلاله].

كما ترى، تعلّم الفلسفة السريّة بأن المادة (كما ندركها بحواسنا) هي ناتجة من قوة فكرية، وأن الفكر هو حركة محتوى العقل، وبالتالي فإن المادة بجوهرها هي عقل. كل شيء هو عقل. هذا الاستنتاج الأخير ليس ميتافيزيقياً أو صوفياً بل يمثّل الواقع بعينه. خلاصة التعاليم السرية بخصوص هذا الموضوع تؤكّد الحقيقة التالية: ***كل شيء في العالم المادي تم تفكيره إلى الوجود.***

في هذه التعاليم بالذات يمكننا إيجاد التفسير العملي للنظريات المختلفة التي وضعتها المدارس السحرية والباطنية التي تتمحور حول فكرة أن "الكل هو عقل"، وأن "المادة هي لاشيء"، وعلى هذا الأساس بنت هيكلها التعليمي الديني والميتافيزيقي. لكن مؤسسو تلك المدارس المختلفة تجاهلوا الحقيقة العظيمة المتمثّلة في أن كل من العقل والمادة هما عنصرين نسبيين وغير موجودين بذاتهما بل مجرّد تجسيدات وانبعاثات من "المطلق" [جلّ وعلا] والذي هو الكائن الحقيقي الوحيد.. هو كل ما يكون. إحذر من صنع إله من العقل وحده أو من المادة وحدها.. كلاهما إلهين وهميين. "المطلق" هو الوحيد.. الواحد الأحد.

يمكن العودة إلى المخطوطات القديمة لبعض التعاليم الباطنية في أماكن مختلفة حول العالم للتأكّد من الحقيقة المطروحة في الصفحات السابقة. يمكننا مثلاً تناول الكلمة السنسكريتية "فريتا" Vritta التي وردت كثيراً في أقدم الكتابات اليوغية وتلك التعاليم التي نشير إليها بـ"الفيدا" Vedas.

معنى هذه الكلمة حسب ورودها في النصوص هو "موجات أو ذبذبات العقل التي تصنع الفكـر. لكن المعنى الحرفي لهذه الكلمة هو "الدوامة المائية". أي أنهم كانوا على علم بأن الفكر هو عبارة عن حركة لولبية للمحتوى العقلي، وبالتالي فإن الكون هو عبارة عن دوامة عملاقة من المحتوى العقلي. نحن نعيش في كون دوّار وذو طبيعة متراكبة. الكون مؤلف من سلـسلة تراكبيـة مـن الدوامات المتدرجة في الحجم ومتفاوتة السرعة.

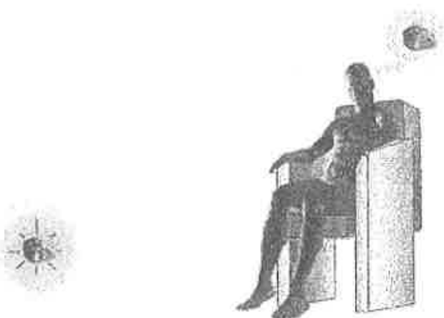
أفضل مثال الذي يمكن أن يوضّح الفكرة السابقة هو "الوعي الديناميكي". في الجزء الخامس مـن مجموعة "من نحن" (الوعي الديناميكي ونشاطه في الكون الهولوغرافي) تعرفنا على حقائق كثيرة حول عملية التفكير وآلية نشوء الوعي الديناميكي، الذي هو عبارة عن خلق مجـال طاقـة عنـد الأشياء المستهدفة فكرياً، مهما كانت المسافة الفاصلة. ما يهمنا في الموضوع هو التالي:

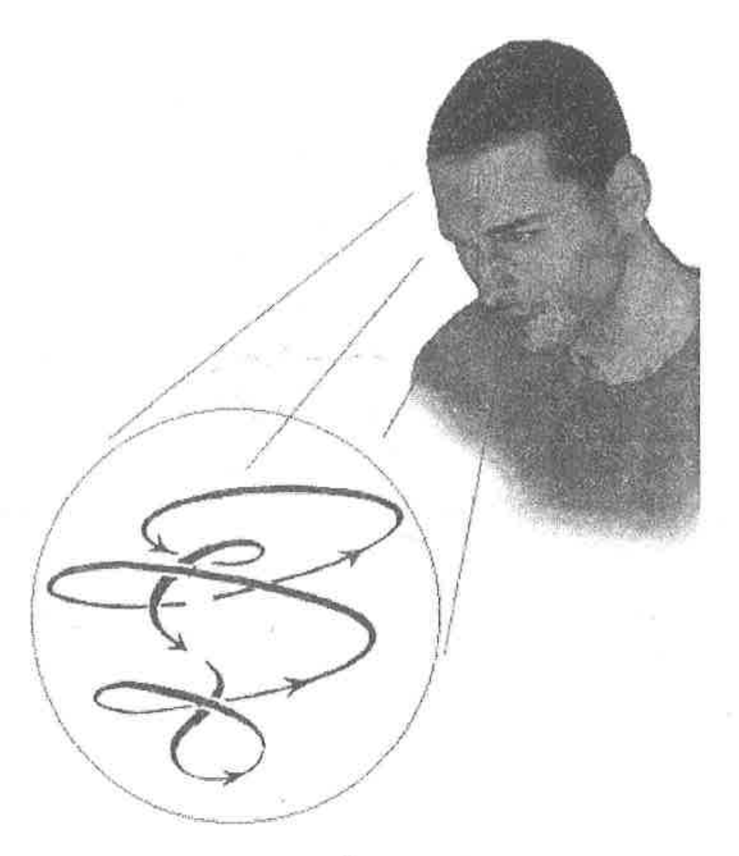
التفكير بشيء معيّن يجسّد عنده مجال كثيف من الطاقة. وتزداد كثافة هذا المجال كلما تعمقنا فـي التركيز. يستطيع الفرد خلق مجال طاقة في أي شيء يستهدفه بتفكيره. هذه الطاقة تتشكّل نتيجـة توجيه الانتباه. وتبيّن أن الانتباه له مظهرين مختلفين:

المظهر الإشعاعي: ويتمثّل بتوجيه الانتباه على شكل ضوء المصباح.



المظهر الرنيني: ويتمثّل بحصول رنـين متناغم بين الفرد وبين الشيء المـستهدف فكرياً، أينما كان موقعـه ومهمـا كانـت المسافة الفاصلة.





الوعي الديناميكي هو عبارة عن دوامة تتشكّل عند النقطة التي يستهدفها الفرد بفكره وهذه الدوامة تتألف من المحتوى العقلي للفرد

هذا الاستنتاج السابق يجعلنا نعيد النظر في عملية الخلق وكيف تمت أصلاً. الكون إذاً هو عبارة عن "وعي ديناميكي" صادر من الخالق [جلّ جلاله]. لقد صدقت التعاليم السرية عند قولها بأن:

"... كل شيء في العالم المادي تم تفكيره إلى الوجود..."

---

[٥]

مبدأ الأطوار الأربعة

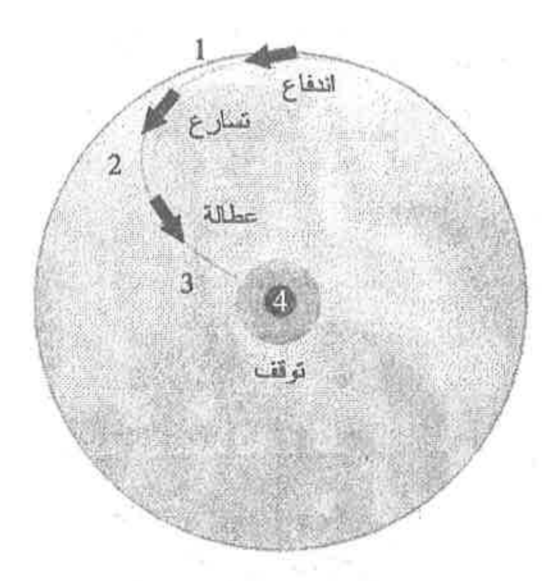
بالعودة إلى قانون الحركة الذي ذكرته سابقاً، وقد استخدمت مثال الكرة التي تمرّ عبر ثلاثة مراحل حركية قبل أن تتوقف. هذه الظاهرة تجسّد قانون الحركة الفيزيائي، وفيما يلي سوف نتعرف على أساس هذا القانون الفيزيائي الذي يحكم كافة الحركات في الوجود.

انطلاق	تحرك	كبح	توقف

بعد انطلاقه ثم تحركه تصاعدياً ثم كبح جماحه، يوجد مرحلة يتوقف فيها المحتوى العقلي تماماً

عملية التكاثف في مركز الكرة الكونية وفق مسار لولبي تخضع لقانون الحركة، بل هي أساس قانون الحركة أصلاً، لأنها تمثّل أوّل حركة في الوجود، وبالتالي تعتبر النمط الأوّلي الذي تحاكيه كافة التحركات في الكون مهما كان نوعها (تأرجح، دوران، تموّج، ذبذبة.. إلى آخره)، كافة الحركات في الوجود تتألف من ثلاثة مراحل ويتبعها مرحلة رابعة هي حالة التوقف، وحتى هذه المرحلة الأخيرة تحاكي النمط الأوّلي المتمثّل بالوقوف عند مركز الكرة الكونية.

إذاً، عندما انطلقت عملية التكاثف عند المركز بأمر من الإرادة الإلهية مرّت في أربع أطوار مختلفة. طور الاندفاع، طور الحركة المتسارعة، طور العطالة، وأخيراً طور التوقف.



عملية التكاثف عند المركز بأمر من الإرادة الإلهية مرّت في أربع أطوار مختلفة

هذه العملية أدت إلى نشوء عدد من المبادئ المختلفة، مثل المبدأ السباعي والأطوار الأربعة والإيقاع والنبذبة وغيرها. دعونا نبدأ في شرحها جميعاً مبتدئين من مبدأ الأطوار الأربعة التي تمثّل أساس مفهوم العناصر الأربعة والمألوفة في الأدبيات السحرية والفلسفية المعروفة جيداً حول العالم والتي كانت تمثّل مفهوم علمي أساسي في العالم القديم.

بالعودة إلى الأطوار الأربعة للحركة، إذا قمنا بفصلها عن بعضها وجعلنا كل طور قائم بذاته سوف يصبح لدينا العناصر الأربعة التي يقول القدماء بأنها تمثّل المكونات الأساسية لكل شيء في الطبيعة، وأشاروا إليها بالأسماء التالية: نار [اندفاع]، هواء [تسارع]، ماء [تقييد]، تراب [توقف].

لقد تنبه القدماء إلى أن الوعي (أو المبدأ العقلي عموماً) ليس له علاقة بأي من الأطوار الأربعة للنشاط الكوني، ولهذا السبب رمزوا لتلك الحالات بالعناصر الأربعة (النار، الهواء، الماء، التراب) التي نألفها في الأدبيات القديمة (علم الفلك والخيمياء والفلسفة والطب.. إلى آخره). وكل عنصر يمثّل حالة من تلك الحالات الكونية الأربعة بصيغتها النموذجية، وهي التالية:

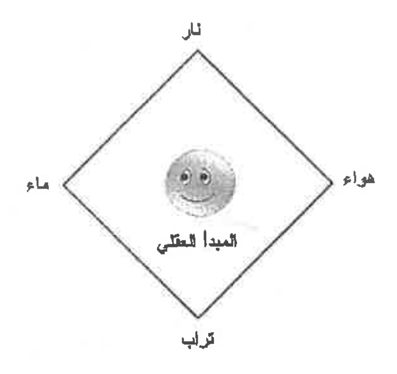
١ــ عنصر النار: يرمز للاندفاع، الانطلاق، الإرادة، التحفيز، الهيمنة،.. إلى آخره.

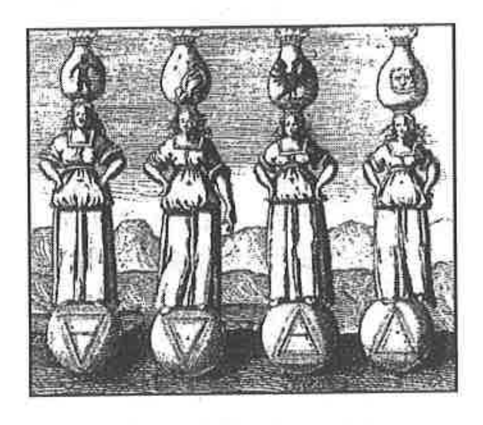
٢ـ عنصر الهواء: يرمز للحركة، النشاط، الحيوية، الاتصال،.. إلى آخره.

٣ـ عنصر الماء: يرمز للانطواء، الاحتواء، الاحتضان، التلقّي، الكبح، العطالة.. إلى آخره.

٤ـ عنصر التراب: يرمز للجمود، الثبات، الثقل، التكتّل،.. إلى آخره.

٥ـ أما الوعي (أو المبدأ العقلي عموماً) فقد رمزوا إليه بالعنصر الخامس. وهو عنصر منفعل يتأثّر بكافة العناصر الأربعة السابقة.





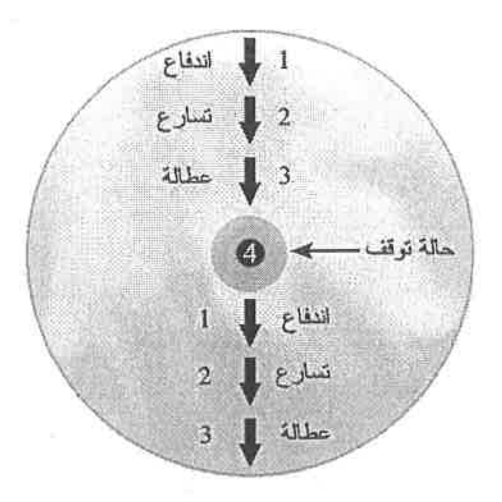
انظر في موضوع العناصر الأربعة في الجزء التالي.

---

[٦]

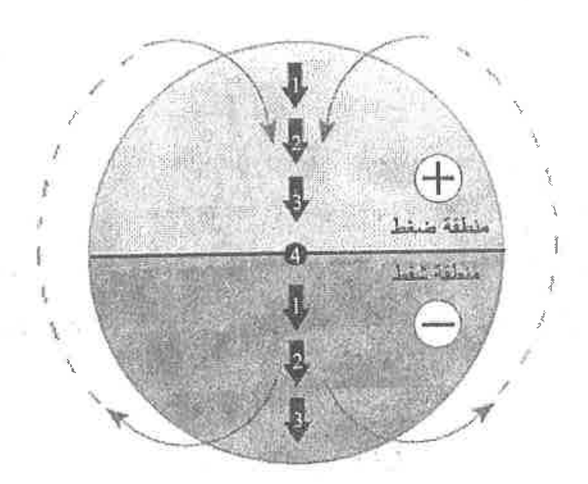
المبدأ السباعي

وفقاً لما تعرفنا عليه خلال الاطلاع على المبدأ السابق، الحركة اللولبية التي اتبعها الخلق للتكاثف في المركز تخضع لقانون الحركة أيضاً، أي هي ثلاثية الأطوار، والوقوف عند المركز يُعدّ طور قائم بذاته. الأمر الذي قد لا نفطن له هو أن هذه الحركة الثلاثية لها انعكاس كما المرآة تماماً، أي أنه من الجانب السفلي من الكرة حصل رد فعل معاكس للحركة الأساسية التي بدأت من الأعلى.



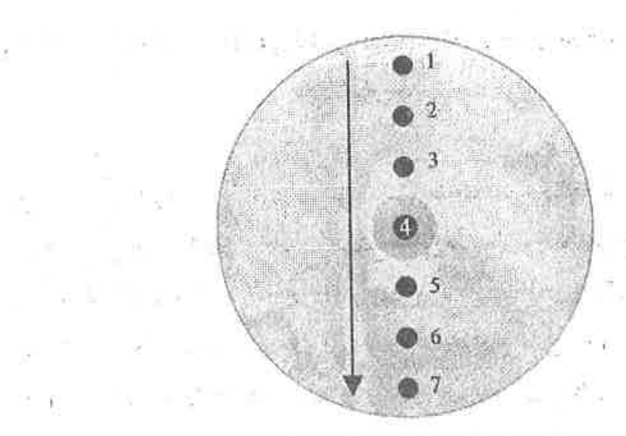
حركة ثلاثية الأطوار من الأعلى تنتهي عند المركز (الطور الرابع)، وحركة عكسية ثلاثية الأطوار من الأسفل.

خلال شرح مبدأ القطبية، تحدثت عن عملية خلق منطقة إفراغ في القسم السفلي من الكرة الكونية ومنطقة تكاثف في القسم العلوي. أي قوة شفط في الأسفل وقوة ضغط في الأعلى. هذا جعل الكرة في النهاية مقسومة إلى قسمين، القسم العلوي الموجب [+]، والقسم السفلي السالب [-]. إذا أسقطنا هذه الفكرة على موضوعنا الحالي، نجد أن حركة الانزياح والتكاثف عند المركز والتي تتألف من أربع أطوار، خلقت لنفسها انعكاساً (كما انعكاس المرآة) في القسم السفلي من الكرة الكونية بحيث تشترك مع الحركة الأساسية في الطور الرابع، أي طور التوقف. (كما في الشكل التالي).



حركة ثلاثية الأطوار من الأعلى تنتهي عند المركز (الطور الرابع) خلقت لنفسها انعكاساً في القسم السفلي، أي حركة ثلاثية الأطوار

هذا يؤدي بنا إلى استنتاج مهم جداً وهو أن القوى التي تألفت منها عملية التكاثف عند مركز الكرة هي ليست أربعة بل سبعة قوى. صحيح أن الحركة هي رباعية الأطوار لكن القوى التي أنتجتها هي سبعة. من هنا جاء المبدأ السباعي المتجذّر في كافة أشكال الخلق. وهو أساس الأوكتافات في الطاقة الكهرومغناطيسية (الصوت والضوء وغيرها من موجات ذبذبية) التي تشكل أساس المادة.



نشوء سبعة قوى مختلفة خلال حركة التكاثف عند المركز، وذلك بسبب حصول رد فعل عكسي في القسم السفلي من الكرة الكونية.

هذا المبدأ يمثّل القوى السبعة التي تساهم في خلق العالم المتجلّي. هذه القوى السبعة تجتمع بفعل قوانين كونية معيّنة وبصيغ مختلفة لتخلق كافة أشكال الحياة. لا بد من اننا لاحظنا تكرار الرقم سبعة دائماً في العلوم الباطنية، مثل سبعة مراحل للخلق، سبعة كواكب رئيسية يتعامل معها القدماء، أو سبعة قوى كونية، سبعة أيام في الأسبوع، سبعة أقسام للكينونة البشرية، وسبعة أقسام للروح، سبع سماوات، سبع شاكرات، وسبعة مراحل للتدرّج المادي.. إلى آخره، حتى الجدول الذرّي للعناصر الذي أوجده العالِم الروسي "ديميتري مندلييف" Mendeleyev محكوم بهذا المبدأ السباعي.

إذا أردنا شرح الأمر وفق مفهوم الذبذبة نجد أن هناك سلّم سباعي محدد، وضمن هذا السلّم هناك نغمات محددة تتكرّر عند كل أوكتاف octaves (أي ثُماني) وكلمة "أوكت" oct تعني الرقم ثمانية باللغة اللاتينية. في كل "أوكتاف" (مجموعة ثمانية) هناك سبعة "عُقد" ذبذبية nodes (أي مفاتيح موسيقية) يليها عقدة ثامنة. أي كل نغمة ثامنة صعوداً تمثّل النغمة الأولى في السلّم التالي لكن طبقة الصوت تكون مرتفعة أكثر من السابق.. وترتفع أكثر كلما تجاوزنا أوكتافاً جديداً على السلّم التصاعدي. هذا التقسيم السباعي للسلّم الموسيقي ليس تقسيم عابر أو جاء هكذا بالصدفة، بل لانه محكوم بالقانون السباعي الذي نشأ خلال عملية الخلق (التكاثف عند المركز).

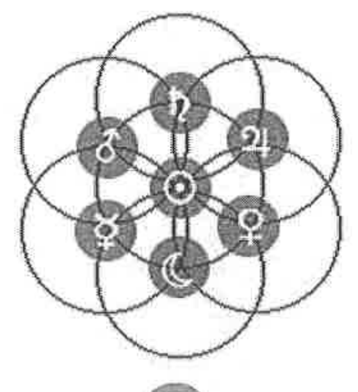
عندما نتحدث عن السلّم السباعي فهذا يشمل الموسيقى، الألوان، القوى والطاقات الكونية، تدرّجات المادة، أشكال الأجسام وبنيتها،... وغيرها من أشياء يعتمد وجودها أو تشكّلها على السلّم السباعي. المبدأ السباعي يمثّل مفهوم باطني ورد بصيغ مختلفة في كل الأديان والفلسفات والمدارس الباطنية في كافة أنحاء العالم وعلى مرّ العصور.

لطالما أوحت التعاليم الفلسفية والباطنية إلى حقيقة أن الكون هو حيّ ومفعم بالنشاط المؤلف من قسمين طاقي ومادي. لقد فهم الحكماء القدامى هذا السرّ الكوني جيداً ونظروا إلى الحياة على أنها عبارة عن امتداد متدرّج ومتمايز من الترددات الذبذبية المتبادلة بين الطاقة والمادة. لقد كانوا على إلمام تام بالطاقات الكونية السبعة المنبعثة من مصدر النور الصافي والتي تؤثّر على كل شكل من أشكال الحياة. ابتداءً من جسيم صغير داخل الذرة مروراً على كواكب منظومتنا الشمسية وانتهاءً بأكبر مجرّة في الكون.. جميعها تتأثّر بترددات الطاقة السباعية.

مع تقدم البحث العلمي المعاصر، خصوصاً في مجال الفيزياء الكموميـة Quantum Physics ومجال البحث في المادة المظلمة Dark Matter والكشف عن أسرار الحمض النووي D.N.A، توصل العلم اخيراً إلى ذات المسلمات التي أكدتها الحكمة القديمة:

"..كافة الأشياء الحيّة والجامدة، العضوية وغير العضوية، هي مفعمة بالحياة، من أصغر جسيم إلى أكبر المجرات – الكون له طبيعة سباعية متأصلة في جوهره، هو مركّب من طاقات تتردّد بسبع خصائص مختلفة – هناك تسلسل متصل يجمع كل شيء ببعضه البعض بحيث أنه أصغر خلية يمكن لنبضتها أن تُستشعر في أقصى حدود الكون (بفعل الرنين المتناغم).."

في الحقيقة ما من شيء في الكون، مهما كان مستواه التطوري أو درجته في سلّم التجسيد المادي إلا وانتمى بطريقة أو بأخرى إلى إحدى الطاقات السبعة. لطالما لمحت المخطوطات والمراجع والآثار والفنون القديمة إلى هذا المبدأ السباعي بطرق وصيغ مختلفة، ونجده مبطناً أو محجوب في كافة التعاليم الفلسفية والدينية، لكن لم نتعرف عليه أبداً بصيغة واضحة ومنهجية. حتى علم الفلك الذي يتمحور حول مفهوم الكواكب السبعة لا يكشف عن سرّ القانون السابعي بشكل سليم. لقد تم حجب وتشفير هذا العلم الأخير منذ زمن بعيد وبالتالي علم الفلك الذي نألفه اليوم هو الصيغة محرّفة من العلم الفلك الأصيل والمحجوب عن العامة.



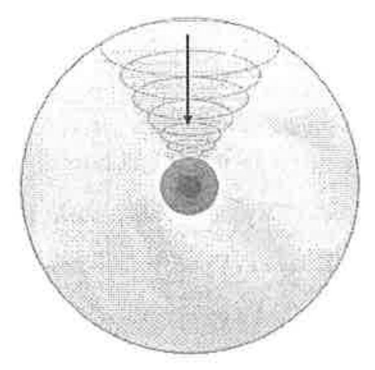
☽ ☿ ♀ ☉ ♂ ♃ ♄

أنظر في موضوع المبدأ السباعي في الجزء التالي

[٧]

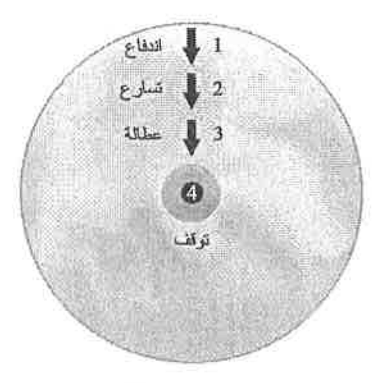
المبدأ الاثنى عشري

١ـ أثناء الحركة (اللولبية) للتكاثف في مركز الكرة الكونية، تشكّلت موجة مترافقة لها بفعل قوة الزخم الناتجة من اندفاع كتلة المحتوى نحو المركز، لكن هذه الموجة سارت مباشرة باتجاه المركز وتوقفت عنده (الشكل التالي):



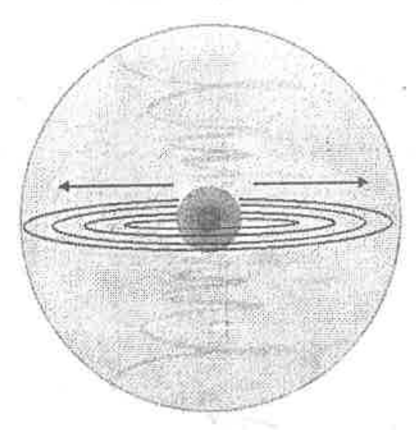
موجة متوجهة عمودياً من أعلى محيط الكرة نحو المركز، تشكّلت بفعل الزخم الناتج من تحرك المحتوى نحو المركز

المسيرة التي اتبعتها هذه الموجة الجديدة تخضع لقانون الحركة أيضاً، أي هي ثلاثية الأطوار، لكن الوقوف عند المركز يُعدّ مرحلة قائمة بذاتها، وبالتالي تُعد حركتها رباعية الأطوار (الشكل التالي):



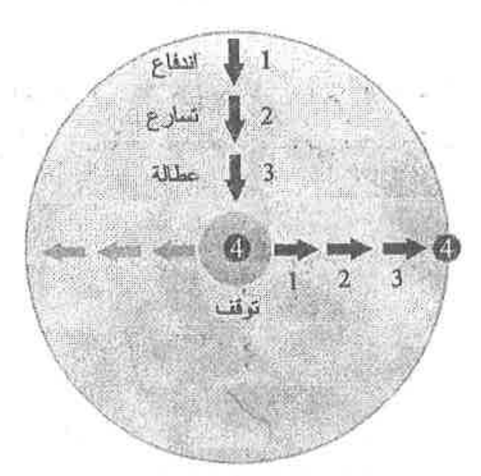
تتألف حركة هذه الموجة المسافرة عمودياً من أربعة مراحل حركية

٢ـ بعد تكاثف المحتوى في المركز، حصل ما يمكن أن نسميه موجة طرد مركزي في الوسـيط الأثيري المحيط بالكتلة، وهذه الموجة سافرت بخط أفقي باتجاه محيط الكرة (الشكل التالي):



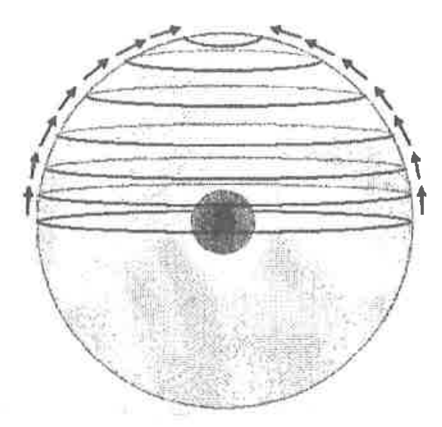
موجة طرد مركزي تسافر من المركز إلى محيط الكرة

بما أن حركة الموجة المسافرة عمودياً نحو المركز رباعية الاطوار (حيث الوقوف عند المركـز يُعدّ طور قائم بذاته) فبالتالي حركة هذه الموجة الجديدة خلال سفرها هي رباعية الأطوار أيـضاً (الشكل التالي):



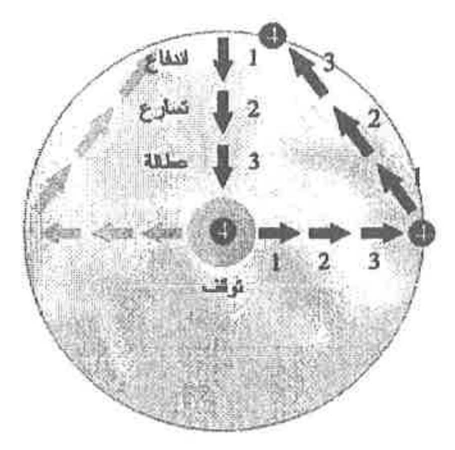
تتألف حركة هذه الموجة المسافرة من المركز إلى المحيط من أربعة أطوار حركية

٣ـ عند وصول الموجة إلى محيط الكرة اصطدمت بحدوده فنتج من ذلـــك موجـــة صـــطدمة، فانطلقت هذه الموجة الجديدة صعوداً مع حدود محيط الكرة متخذة شكل قبة. يمكن تصويرها على الشكل التالي:



موجة صدمة تسافر مع محيط الكرة ومتخذة شكل قبة

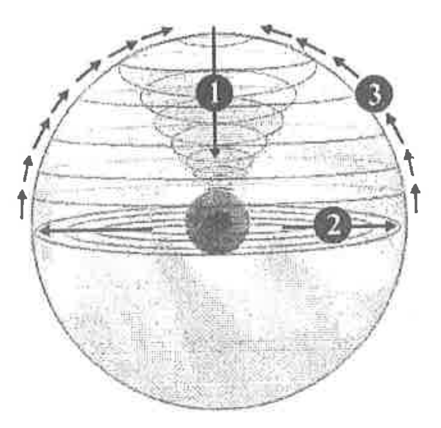
كما حركة الموجتين السابقتين، هذه الموجة الجديدة أيضاً كانت مسيرتها رباعية الأطوار، (الشكل التالي):



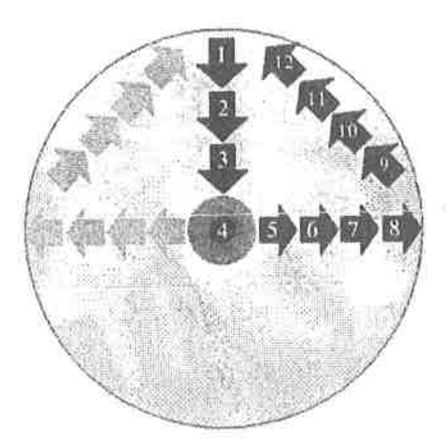
تتألف حركة هذه الموجة المسافرة صعوداً عبر المحيط من أربعة أطوار حركية

هناك أمر مهم وجب التنبه له، وهو أن الموجات الثلاثة الموصوفة سابقاً تخضع بشموليتها لقانون الحركة أيضاً، أي الموجة الأولى المنطلقة عمودياً باتجاه المركز تمثّل مرحلة الاندفاع، والموجـــة

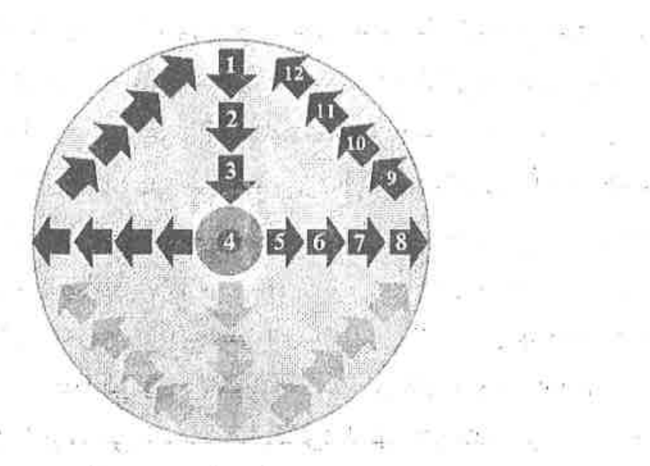
الثانية المنطلقة أفقياً من المركز نحو المحيط تمثّل مرحلة التسارع، والموجة الثالثة المنطلقة مع المحيط صعوداً على شكل قبة تمثّل مرحلة التقييد، وبهذا تكون الأطوار الرئيسية للحركة قد تمت. أما الطور الرابع للحركة فهو طور ثانوي كما أسلفت سابقاً لأنه يمثّل حالة الوقوف، لذلك دوره لم يُحتسب في هذه العملية، لأنها وفق الفيزياء التجاوزية تعتبر مرحلة التجسيد المادي الناتج من الأطوار الثلاثة السابقة. سوف أشرح هذه الفكرة الأخيرة بشكل مفصّل لاحقاً.



الموجات الثلاثة الموصوفة سابقاً تخضع بشموليتها لقانون الحركة: الموجة رقم [١] تمثّل مرحلة الاندفاع، والموجة رقم [٢] تمثّل مرحلة التسارع، والموجة رقم [٣] تمثّل مرحلة التقييد.

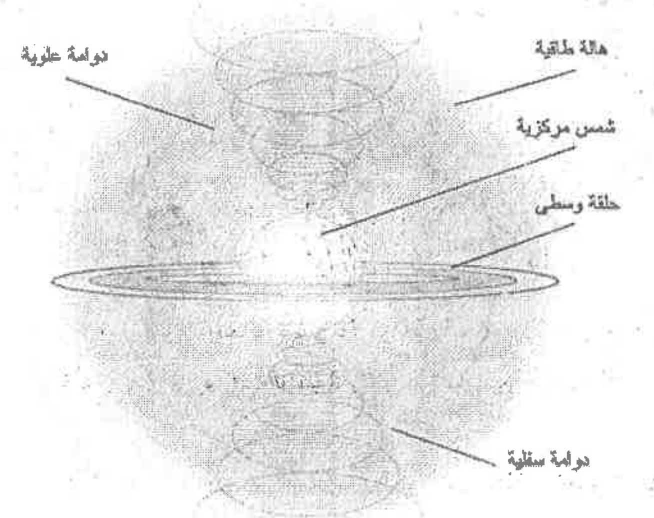


مجموع أطوار الحركات الرئيسية الثلاثة يشكّل مسيرة كاملة تتألف من ١٢ مرحلة



بعد إضافة القسم السفلي إلى المشهد تصبح الأمور أكثر وضوحاً، إذ يتبيّن أنه حتى القوى الاثنى عشر لها قطبين، سالب وموجب

بعد أن نتعرّف على الطبيعة والهيئة الحقيقية للشمس في الجزء القادم، سوف تبدو على الشكل التالي، أي هي قريبة جداً من وصف التعاليم السرية التي جعلتها نواة مشعّة تقبع بين دوامتين متشكلتين وسط هالة (فقاعة) كروية من الطاقة.



الشكل الفعلي للشمس وفقاً لآخر ما توصل إليه العلم الحديث، وهو يتطابق تماماً مع أوصاف التعاليم السرية (كما سنرى لاحقاً)

يُعتبر الرقم [١٢] الأكثر قدسية في التعاليم الباطنية حول العالم. كان تبجيلـه عميقـاً لدرجـة أن المراجع القديمة التي تناولته لا تُعد ولا تُحصى حيث يغطي هذا الرقم كافة فروع الفكر والنـشاط الإنساني تقريباً. نجد هذا الرقم مثلاً في التقسيم الزمني لليوم الواحد (١٢ ساعة نهار و١٢ ساعة ليل)، وكذلك تقسيم السنة إلى ١٢ شهر، بالإضافة إلى ١٢ إله في بانتيون الآلهة العظماء في كافة الحضارات القديمة (مثل آلهة أوليمبوس في اليونان)، الرسل الاثنا عشر الـذين رافقـوا سـيدنا يسوع، وكذلك الذين رافقو بوذا، والذين رافقوا حورس.. وغيرهم من شخصيات مقدسة تمحورت حولها الأساطير والحكايا الرمزية. بينما نجد في التوراة ذكر للاثني عشر قبيلة، والأغلال الاثنـا عشر (نيدانا) التي تحدثت عنها البوذية، والتحديات الاثنا عشر التي واجهها هرقـل،.. وغيرهـا الكثير من الأمثلة، لكن اشهرها هي تلك المتعلقة بالدائرة الفلكية التي تتألف من ١٢ برج.



القوى الاثنى عشر التي تم وصفها وتحديد تأثيراتها من قبل الحكماء القدامى اتخذت أشكالاً مختلفة تتناسب مع دورها في الطبيعة وتأثيرها على جوهر الإنسان

في كتابه الذي بعنوان "تمايوس" Timaeus يعبر أفلاطون عن هذا المفهوم الاثنا عـشري مـن خلال وصف الكون كيف نشأ من قبل الخالق وفق قوانين هندسية، وأوّل شـكل هندسـي تـشكّل خلال نشوء الكون هو الـ"دوديكاهيدرون" dodecahedron المجسّم الهندسي ذو الاسطح الاثنـا

عشر. كما اعتبر الفيلسوف اليهودي/الإغريقي "فيلو جوداس" الرقم [١٢] بأنه رقم مقدس، ووصف (بشكل رمزي) كيف تسير الشمس عبر الأبراج الفلكية بالتسلسل كل شهر وتنتهي من رحلتها مع اكتمال السنة، وربطها (بطريقة رمزية) مع تقسيم سيدنا موسى لأمته إلى ١٢ قبيلة، وشكّل القطع الاثنا عشرة من خبز الفطير، ووضع الأحجار الثمينة الاثني عشرة على موشاة رئيس الكهنة اليهود. وقد ورد في تعاليم القبالة بأن عملية الخلق قد تمت خلال ١٢ ساعة من اليوم، وهذه الفكرة الأخيرة الغير مكتملة منقولة بطريقة عشوائية من الحكمة القديمة. وقد تكلمت تعاليم القبالة عن التحولات الاثنا عشر الكُبرى للروح خلال مسيرتها نحو التجسيد المادي، إذ رمزوا لهذه العملية بالقول: المجسّم الهندسي ذو الاسطح الاثنا عشر dodecahedron يقبع محجوباً داخل مكعّب كامل، والمكعب هنا يرمز إلى التجسيد المادي. أما المدرسة الفيثاغورثية فقد جعلت المجسّم الهندسي ذو الاسطح الاثنا عشر رمزاً للكون الكامل التجسيد. وقال أفلاطون في كتابه "فايدو" Phaedo بأنه إذا نظرت إلى العالم من الأعلى فسوف يبدو لك كما الكرة المغطاة باثني عشر قطعة من الجلد المختلف الألوان.

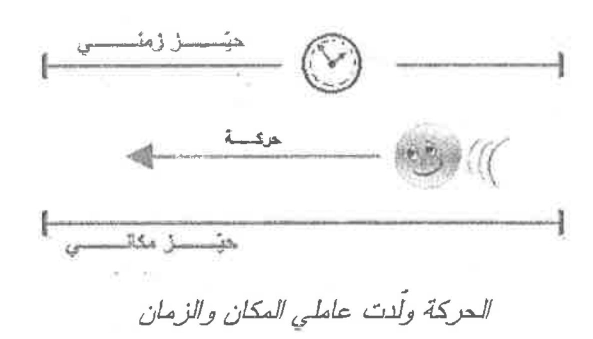


الشكل النهائي للدائرة الفلكية التي توصّل إليها القدماء عن طريق الاستنتاج الفلسفي، لكنها تستخدم اليوم بطريقة سطحية مجرّدة من المضمون الفلسفي

أنظر في موضوع المبدأ الاثنى عشر في الجزء التالي

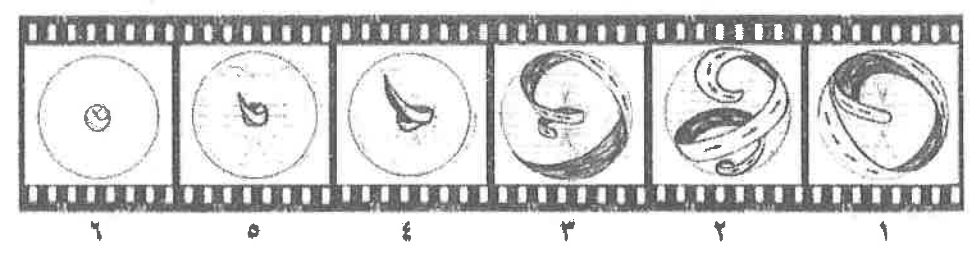
ولادة الزمكان

مجرّد أن تحرّك المحتوى الكوني بتحفيز من الإرادة الإلهية تولّد عامل المكان والزمان، أي أصبح هناك تسلسل زماني وحيّز مكاني. والطبيعة الهولوغرافية للكون تجعل الخلق يتجلّى بشكل متكرر وفي كافة الأزمنة والأمكنة وعلى جميع المستويات الوجودية، وهذا الذي جعل كل ذلك الاختلاف الحاصل في مظاهر الخلق، رغم أن عدد المبادئ التي اعتمد عليها الخلق هي قليلة بالمقارنة مع كل هذا التعدد والتنوّع اللامحدود في الكون المتجلّي. سوف تتوضح فكرة "التعددية" بشكل جيد لاحقاً.



الحركة ولّدت عاملي المكان والزمان

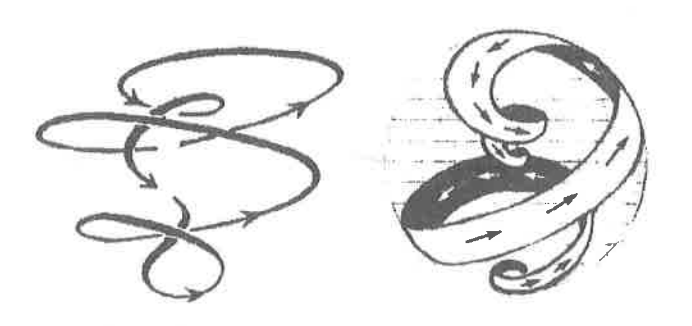
في رحاب الخلق ذو الطبيعة الهولوغرافية، مجرّد أن حصلت أوّل حركة ولد معها عامل الزمان والمكان ومجرّد أن حصل هذا في العالم التجاوزي فسوف تتكرر عملية الخلق دائماً في كل زمان ومكان. لكي تتوضّح الفكرة بشكل جيّد سوف نتصور مراحل حركة الانزياح للتكاثف نحو المركز بأنها تمثّل إطارات متسلسلة في شريط سينمائي، أي كما في الشكل التالي:



شريط سينمائي يُظهر مراحل التكاثف في المركز على شكل إطارات متفرقة

هذا الفيلم السينمائي القصير حصل مرة واحدة فقط في العالم التجاوزي، لكن بسبب الطبيعة الهولوغرافية لرحاب الخالق [جلّ جلاله] نجد أن هذا الفيلم يتكرر دائماً وأبداً وعلى جميع المستويات الوجودية. أي مجرّد أن انتهى الفيلم عند الإطار رقم [٦] سوف يبدأ مباشرة من الإطار رقم [١]، وهكذا يستمر العرض إلى الأبد دون توقف.

في هذا الكون ذو الطبيعة الهولوغرافية تتكرر عملية الخلق دائماً وأبداً

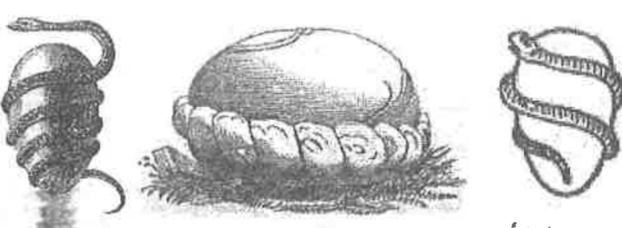


هكذا تبدو الحركة الدورانية اللولبية الأبدية خلال التجسيد الكوني العظيم، وهي تشبه تماماً حركة الأفعى. من هنا جاء تقديس الأفعى أو مفهوم "الأفعى المقدسة" التي استخدموها رمزاً لهذه الحالة الحركية الأزلية التي تبعث الحيوية والنشاط في الوجود.

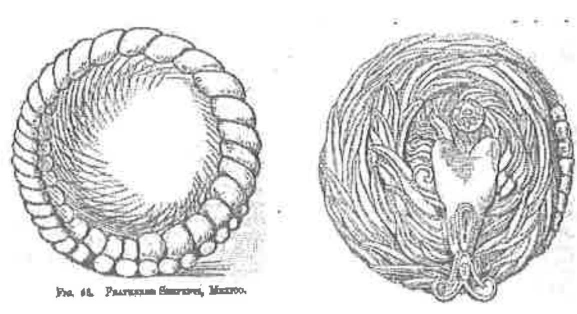
يُعتبر رمز الأفعى أحد الرموز الأساسية التي وردت بكثرة في اللغة الرمزية المحجوبة. من دلالاتها الأساسية هو الحركة الدورانية الأبدية خلال التجسيد الكوني. في الوقت الذي تُعتبر فيه الحركة بالنسبة للفيزيائي والفيلسوف عبارة عن فكرة مجرّدة، نرى أنها تمثّل بالنسبة للحكمة القديمة مبدأً أولّي أو قانون كوني راسخ بنفس مستوى مفهوم الزمان والمكان الموجودان دائماً وأبداً في مسرح العالم المتجلّي. الحال ذاتها تنطبق على الحركة التي لا تتوقف أبداً. الحركة هي دورانية بجوهرها، حيث في الوقت الذي يستخلص علم الفيزياء الحركة الدورانية من مجموعة تحركات مستقيمة، نجد أن الأمر معاكساً لدى الحكمة القديمة والتي تقول بأن الحركة الدورانية هي الأصل، وتتجلى بأشكال مختلفة تتراوح بين الحركة اللولبية والحلزونية والدوامة، وبهذه الصيغة بالذات بُنيت العوالم وما فيها، وذلك من خلال جمع العناصر المتناثرة للمحتوى الفوضوي وتحولها إلى مراكز متكاثفة.

تقول التعاليم البراهمية، قبل أن يصبح الكون وما فيه كروي الشكل تحرك ذيل طويل من الغبار الكوني (أو سديم ناري) وراح يتلوّى كما الأفعى في الفضاء. وصفوها بأنها: *".. روح الخالق تتحرّك وسط الفوضى الكونية.."*، وبالفعل، فقد وُصفت من قبل كل أمّة من الأمم القديمة بأنها على شكل أفعى نارية تنفخ النار والنور على المياه الكونية الأوّلية، إلى ان احتضنت الغبار الكوني المتكاثف وحولته إلى شكل دائري يشبه الأفعى التي تعضّ على ذيلها. وهذا الشكل يرمز إلى الأبدية وكذلك اللانهائية، لكنه يرمز أيضاً إلى الشكل الكروي لكافة الأجرام السماوية التي تشكلت في الكون نتيجة ذلك السديم الناري الدوار.

الحركة الدائرية التي تعود على نفسها كما الأفعى التي تعضّ ذيلها تمثّل الدورات الزمنية. هذه الطاقة الواعية المتحركة على شكل دوامات تتغلغل في كافة مستويات الكون، متجلية بأحجام وقوى وطاقات مختلفة وبالتالي تعمل في كافة درجات سلّم التجسيد المادي.

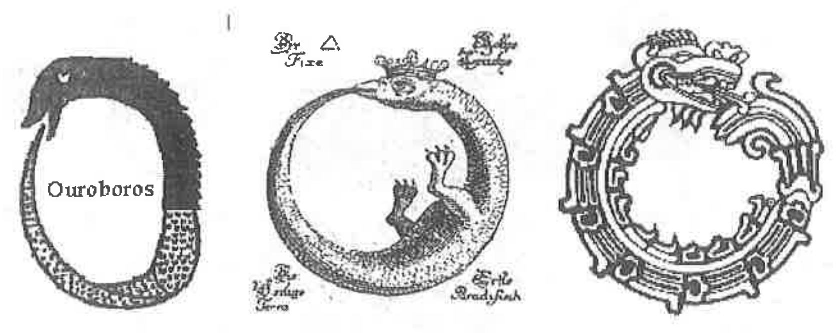


البيضة الكونية ملفوف حولها أفعى. تعتبر من بين الرموز القديمة التي تستخدمها المدارس السرية للإشارة إلى الحركة اللولبية التي بعثت الحياة في الكون (البيضة). يرمز أيضاً إلى إحياء المادة الجامدة من قبل الدميورغ وبعث الروح في كل الأشياء



الأفعى المجنّحة (المكسوة بالريش) التي تحدثت عنها الحضارات القديمة في أمريكا اللاتينية تلتفّ حول البيضة الكونية وتجعل كل شيء دوار ودائري الشكل

إذاً، عملية الخلق (التكاثف عند مركز الكرة) تتكرر دائماً في كل زمان ومكان. الفيلم السينمائي يتكرر باستمرار على جميع المستويات، وتختلف مدة هذا الفيلم القصير (سرعته أو بطؤه) حسب موقعه في سلّم التجسيد (امتداده المكاني). لقد رمزت التعاليم السرية إلى هذه الحالة "التكرارية" بالأفعى التي تعض على ذيلها، كإشارة إلى هذا الفيلم السينمائي القصير المتكرر على الدوام. فكرة الأفعى الكونية التي تعضّ على ذيلها منتشرة في كافة الحضارات القديمة. في التعاليم الهندوسية تحدثوا عن "أنانتا سيشا" أي أفعى الخلود، وفي قصة الخلق الاسكندينافية تحدثوا عن "نيدهوغ" الأفعى الكونية التي تعضّ على ذيلها وتلتفّ حول كرة أو بيضة. الفكرة ذاتها كانت موجودة لدى المصريين أيضاً، حيث ورد في تعاليمهم تصوير "كنيف" Kneph الأفعى الدنيوية وهي محبوسة داخل دائرة، إذ تستلقي على طول قطرها لكن منحنية وحاضنة القسم السفلي، مما يشير إلى أنها بالرغم من سيطرتها على العالم الدنيوي إلا أنها خاضعة لسيطرة العالم التجاوزي أو السبب الأول الممثّل بـ"أمفت" Emepht.



رموز من حضارات مختلفة تصور أفعى (أو تنين) تعض ذيلها.
هذه الرموز تمثل الأبدية أو مبدأ الإيقاع الدوري

تحدثت المخطوطات السنسكريتية عن "ناغا" Naga، رمز الخلود والحكمة، وكذلك عن تجدّد الولادات وعن المعرفة السرية. وعندما تصوّر الأفعى بأنها تعض ذيلها فهذا رمز الأبدية. لكن هناك أبعاد أخرى عظيمة لهذا المعنى الباطني الجليل وسوف أتناولها لاحقاً.

بعد نشوء عاملي الزمان والمكان تصبح الإرادة الإلهية في حالة مستمرة من الدفع إلى الأمام

بعد أن خضعت الحركة رباعية الأطوار لعاملي الزمان والمكان نشأ كل من:

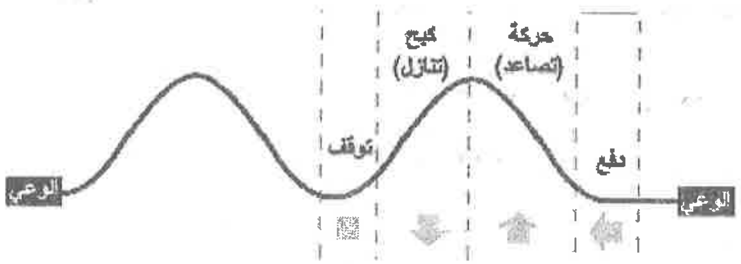
[٨] **مبدأ الإيقاع** و[٩] **مبدأ الذبذبة** و[١٠] **مبدأ الدورية**

إذا عدنا إلى موضوع الأطوار الثلاثة لحركة المحتوى العقلي التي ذكرتها أكثر من مرّة سابقاً نجد أن المحتوى الكوني تحرك عبر ثلاثة أطوار قبل أن يتوقف تماماً، وحالة التوقّف هذه تُعتبر طوراً قائماً بذاته. إذا استخدمنا مثال الكرة، فسوف نلاحظ بأن الكرة بعد مرورها عبر المراحل الثلاثة [انطلاق، تحرك، كبح] تنتهي عند مرحلة رابعة هي حالة التوقف مما يتطلب الأمر دفعة جديدة لتنطلق مرة ثانية. (الشكل التالي):

توقف	كبح	تحرك	انطلاق

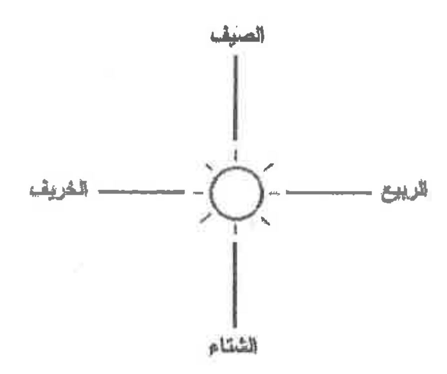
بعد انطلاقه ثم تحركه تصاعدياً ثم كبح جماحه، يوجد مرحلة يتوقف فيها الوعي تماماً

لكن بعد نشوء عاملي الزمان والمكان أصبحت الكرة (المحتوى العقلي) في حالة مستمرّة من الحركة الإيقاعية رباعية الأطوار. كلما توقفت الكرة، يتم ركلها مرّة أخرى، فتنطلق من جديد، ثم تتحرك صاعدة، ثم تتباطئ ثم تتوقف، فيتم دفعها مجدداً.. وهكذا حتى لا نهاية. فيشكّل مسارها التصاعدي والتنازلي خط متموّج لا نهاية له. (الشكل التالي):

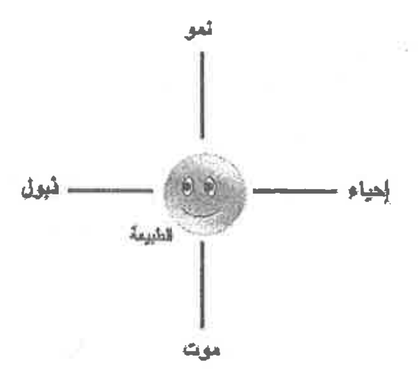


الصعود والهبوط الدائم للوعي يشكّل موجة بيانية غير منتهية

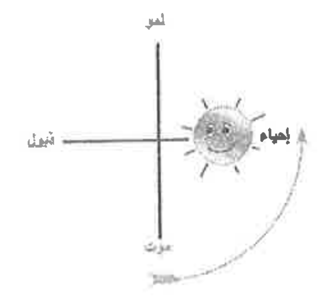
الآن أصبحنا نعلم كيف تجري الأمور في الطبيعة. إذاً، الإرادة الإلهية لم تدفع مسيرة الخلق مرة واحدة واكتفت بذلك، بل هي في حالة دفع دائم ومستمر لحركة الحياة بكل جوانبها. ذلك بسبب نشوء عاملي المكان والزمان وبالتالي تتكرّر عملية الدفع باستمرار.



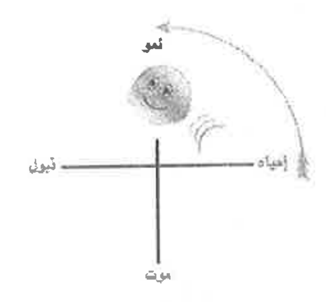
أوضح الأمثلة على هذه الحركة الدورية المتكررة تتمثّل في الطور الرباعي للطبيعة، والذي نعرفه عموماً بالفصول الأربعة: الربيع، الصيف، الخريف، الشتاء.



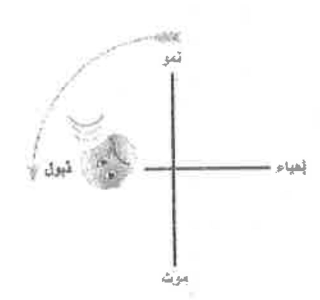
إذا استندنا على المفاهيم السابقة للنظر إلى الأمور، سوف نستنتج بأن الطبيعة المفعمة بالحركة والحياة هي كيان واعي قائم بذاته. وبالتالي ينطبق عليها القانون الرباعي السابق. أي ما نعرفها بالفصول الأربعة تحمل مضامين لم نفطن لها أبداً. دعونا نتعرّف على إحدى هذه المضامين عبر الشروحات المصورّة التالية:



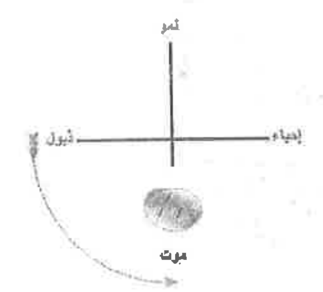
[١] الربيع يمثّل الانطلاقة الأولى للطبيعة فتنتعش من جديد بعد السبات الشتوي.



[٢] الصيف يمثّل الحركة التصاعدية للطبيعة حيث تنمو النباتات وتثمر الأشجار وتنشط حركة الكائنات.



[٣] الخريف يمثّل كبح جموح الطبيعة حيث تبدأ النباتات بالذبول وأوراق الأشجار تتساقط وتتباطأ حركة الكائنات.

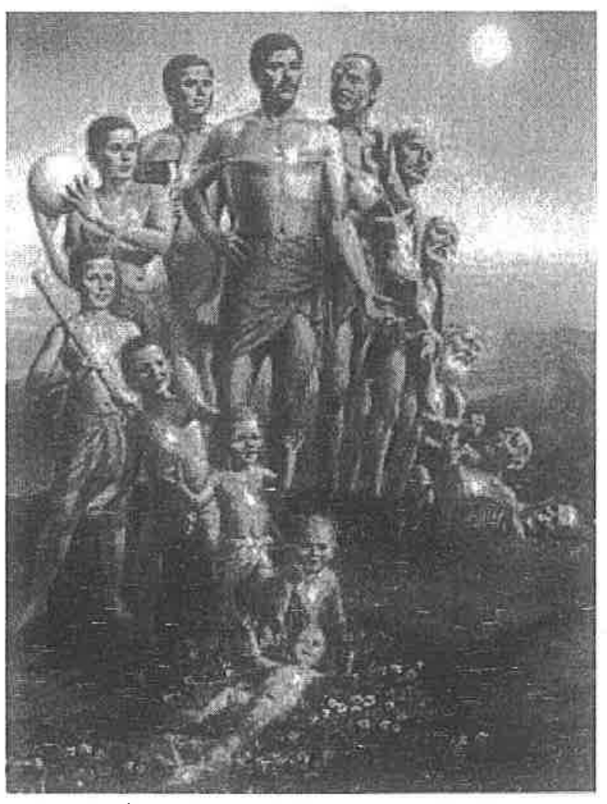


[٤] الشتاء يمثّل توقف أو جمود الطبيعة تماماً، حيث تموت النباتات وتعرى الأشجار وتجمد حركة الكائنات.

كلما دخلت الطبيعة إلى طور الجمود (الشتاء) يأتي دفعة ثانية من الإرادة الإلهية فتحيا من جديد وتنتقل إلى طور الإنعاش (الربيع). وفقاً للتعاليم السريّة، لا علاقة بين الفصول الأربعة مع اقتراب الأرض أو بعدها عن الشمس. السرّ يكمن في الشمس ذاتها. هناك تغييرات إيقاعية

تحصل في جوهر الشمس مما يؤدي إلى حصول هذا التبدّل الإيقاعي في الفصول. أعتقد بأن هذا هو التفسير المنطقي الوحيد لتلك الظاهرة التي حيّرت العلم والمتمثلة في أن الأرض تكون أقرب إلى الشمس خلال فصل الشتاء وأبعد منها في فصل الصيف، مما يؤكّد عدم وجود أي دور لاقتراب الأرض أو بعدها في زيادة أو نقصان درجة الحرارة.

ليس فقط السنة الشمسية مقسومة إلى أربعة مراحل، بل اليوم الواحد أيضاً. بين فجر الصباح وغروب المساء نجد دائماً شمس الظهيرة بأوجّ قوتها. لكن بعد الغروب يأتي الليل حيث تغيب الشمس تماماً. أما المراحل الثلاثة الرئيسية لمسيرة حياة الأشياء (الولادة، البلوغ، التلاشي)، فيتمبعها دائماً الموت.



حياة الإنسان تعتبر مسيرة إيقاعية رباعية الأطوار:

الولادة، البلوغ، الكهولة، ثم الموت

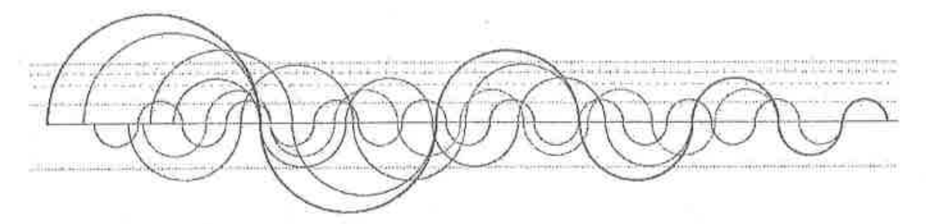
لكن في الطبيعة تُعتبر هذه المرحلة الرابعة (الموت) غير نهائية، بل يتبعها دائماً انتفاضة جديدة. فالحياة لا تتوقف أبداً بل تعود وتنتفض من جديد لتعيد إحياء المسيرة رباعية الأطوار مرّة أخرى.. وهكذا إلى لا نهاية. يمكن رؤية ذلك في التوالي المستمرّ للفصول الأربعة. وتستمرّ الحياة قدماً، أي من النقطة التي توقفت عندها في المرحلة الأخيرة السابقة. فبعد أن تنتعش الطبيعة من جديد، لا تعود الأشجار إلى الوراء حيث تصبح شجيرات، بل تنطلق من النقطة التي توقفت عندها في الدورة الماضية. إذا استخدمنا مثال الكرة، بعد أن توقفت الكرة في المرحلة الرابعة، نجد أن هناك من يدفعها من جديد كل مرّة تتوقف فيها، ومن النقطة التي توقفت عندها.

قلنا بأن الموت يمثّل الطور الرابع في مسيرة حياة كل شيء، لكن يتبع ذلك دائماً قيامة من جديد، لكن بأشكال وصيغ مختلفة حسب الحالة. عندما تتلاشى النبتة مثلاً ثم تموت، نجد بأن هذه المرحلة الأخيرة ليست نهائية بل انتقالية. فموت النبتة يفسح مجالٍ لنمو بذورها التي نثرتها أثناء تلاشيها. حبة القمح مثلاً هي منتوج السنبلة التي مرّت عبر مراحل أربعة قبل أن تنتجها. ونمو هذه الحبة تمثّل استمرارية نوع النبتة وليس بالضرورة النبتة ذاتها.

هناك أمثلة كثيرة أخرى تتناول مواضيع مختلفة. عندما ينبض القلب مثلاً فإنه يفعل ذلك عبر أربعة أطوار. بعد اندفاعه ثم تمدده ثم انكماشه، يتبع ذلك مرحلة مؤقّتة وهي التوقف التام. لكنه ما يلبث أن يأتيه دفعة ثانية حتى ينتعش من جديد. عملية التنفّس محكومة بذات الحركة الإيقاعية أيضاً. الجسيمات الذريّة تقوم بنفس الحركة الرباعية (نبذبة)، والتي تُعتبر العامل الأساسي في المحافظة على صلابة المادة. ظاهرة الذبذبة تمثّل هذه الحركة الرباعية أصلاً. كل الظواهر المتجلية حولنا، والسائرة وفق الإيقاع الثلاثي: [الولادة، النمو، والتلاشي] والمتبوع بمرحلة التوقف أو الموت، ثم الانطلاق أو الولادة من جديد، هي تعبير عن إرادة إلهية تجسّد نفسها في عملية الإيقاع المتصاعد للوعي. تدفع دائماً بالكرة إلى الأمام كلما توقفت.

هذه الحركة (رباعية الأطوار) الدائمة والمستمرّة متجلية في كامل الكون وعلى كافة المستويات. تبدأ أولاً بشكل بسيط، ثم تتخذ تدريجياً أنماط أكثر تعقيداً، فيبدأ ظهور أشكال مركّبة وبُنى معقّدة. ومع تسلسل العملية من المستوى البسيط إلى المستوى المعقّد يبدأ ظهور المكونات المناسبة لتجلّي الحياة العضوية. ثم تتجلى الحياة ذات التكوينات المعقّدة التي يتعذّر استيعابها.. وهكذا إلى لانهاية.

إنها مسيرة لانهائية، متدرّجة ومتراكبة من الحياة والكينونة، من الشكل والهيئة، والتنوّع اللامحدود.



هذه الحركة الرباعية الدائمة تبدأ أولاً بشكل بسيط، ثم تتخذ تدريجياً أنماط أكثر تعقيداً

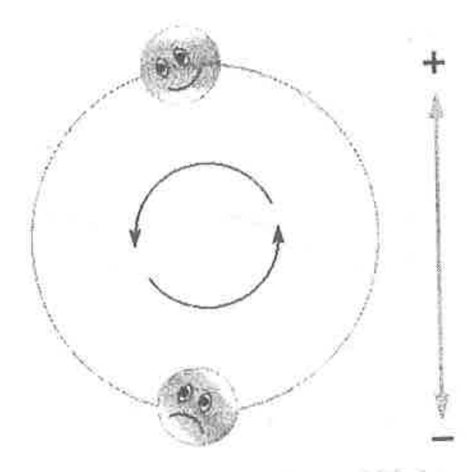
الإرادة تسبق دائماً الحركة والمحتوى. العقل يكمن دائماً في المحتوى. المحتوى يشمل دائماً العقل. هذا المحتوى العاقل والمتحرّك على الدوام يخلق الوعي. عملية نمو الكريستال، ونمو الحيوان من خليّة دقيقة، وتطوّر الدجاجة من خليّة واحدة تكمن في البيضة، كل هذه هي عبارة عن تجليات الحركة الجسدية والتغيير البنيوي وحركة المحتوى التي تستجيب جميعاً لمسببات عقلية باطنية. من واحد اعرف الكلّ. قانون التماثل متجلّي دائماً في الكون.. كما في الأعلى كذلك في الأسفل، وكما هنا كذلك هناك.

الحياة وكل ظواهرها ومظاهرها هي عبارة عن عملية اندفاع مستمرّ ومتكرر للإرادة الإلهية إلى الأمام. ولا أعني بالدفع هنا كما لو أننا مدفوعون بقوة الريح مثلاً، بل إصرار كامن في جوهر الأشياء على التقدم للأمام عبر مراحل رباعية بواسطة تفاعل المبادئ الثلاثة. ثالوث العقل والحركة والمحتوى يدخل في مكونات كل شيء في الطبيعة. وهذه العناصر الثلاثة هي في حالة نشاط دائم ومستمرّ بسبب تحفيز الإرادة الإلهية.

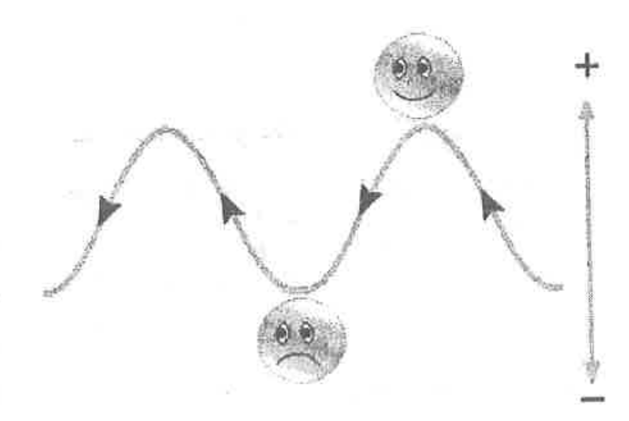
حول الحركة الكونية الإيقاعية رباعية الأطوار

كما لاحظنا سابقاً فإن الحركة رباعية الأطوار لها عدة مظاهر حركية أهمها: [١] الطبيعة الإيقاعية (كالذبذبة)، و[٢] الطبيعة الدورية (الفصول الأربعة)، بالإضافة إلى مظاهر أخرى سوف نتناولها في مواضيع لاحقة. وبالتالي مهما بدت الحالات أو الظواهر مختلفة ومتمايزة عن بعضها فهذا لا يعني أنها متحرّرة من هذه الحركة رباعية الأطوار.

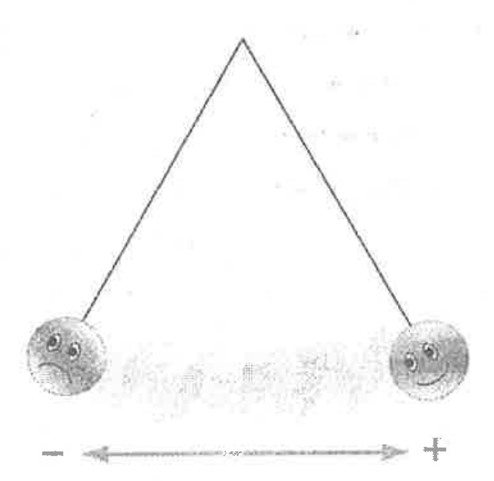
لكن غالباً ما تتخذ هذه الحركة رباعية المراحل مظهر الحركة بين قطبين رئيسين مثل الصعود والهبوط أو الذهاب والإياب أو الكرب والانفراج أو المد والجزر أو غيرها من مظاهر تشبه تأرجح البندول بين قطبين، وهذا ما يجعل الفرد يواجه صعوبة أحياناً في التعرّف على المراحل الأربعة في هذا المظهر الثنائي لبعض الظواهر الحركية، فيعجز بالتالي عن تمييز العامل المشترك بين ظاهرتين حركيتين مختلفتين.



الطبيعة الدورانية أو الدورية لظاهرة الحركة رباعية المراحل



الطبيعة الإيقاعية لظاهرة الحركة رباعية المراحل



غالباً ما تتخذ الحركة رباعية المراحل مظهر الحركة بين قطبين رئيسين كما تأرجح البندول، مما يؤدي إلى صعوبة في تمييز المراحل الأربعة لهذه الحركة

ورد في أحد فصول التعاليم السريّة المقولة التالية:

كلّ شيء في الكون يتحرّك. كل شيء في حالة حركة مستمرّة. كل شيء يخضع للتغيير الدائم. كل شيء إيقاعي زمني. الذبذبة سائدة على مستوى الكون، وبصفتها متجلية وفقاً لقانون الإيقاع فهي تختلف بين الأشياء والمستويات من حيث الدرجة. كل شيء يتحرك ذهاباً وإياباً بين أقطابه بشكل إيقاعي. كل شيء يصعد ويهبط بشكل إيقاعي ضمن حدود طبيعته. كل شيء يتقدم ويتراجع بشكل إيقاعي ضمن حدود قدرته.

ما تحاول الحكمة السابقة إعلامنا به هو حقيقة أنه كل شيء في هذا الكون يتحرّك باستمرار وبالتالي هو دائم التغيير. هذا أحد أهم مبادئ التعاليم التي كرّسها الأسياد القدامى، وتم الإلتزام به طوال العصور. وها هو العلم الحديث يعود إلى ملاحظته مجدداً بعد غيابه الطويل عن المسرح العلمي. الفيلسوف اليوناني الشهير "هيراقليطوس"، والذي عاش قبل أكثر من خمسة وعشرين قرناً مضى (وكان منتسباً لإحدى المدارس السرّيّة)، جعل هذا المبدأ أساساً لفلسفته. يقول مبدأه الفلسفي الأساسي بأنه: *".. كل شيء يتحرّك.. كل شيء في حالة تغيير دائم.. كل شيء في حالة تدفّق مستمرّ.. كل شيء في حالة صيرورة دائمة.."*. حتى "بوذا" أخذ بهذا المبدأ حيث قال بأنه *".. كل شيء يتغيّر ما عدى التغيير ذاته.."*.

كلما تعلمنا شيء جديد عن طبيعة الأشياء، كلما توضّح بأنه ما نسميه استقرار هو عبارة عن نشاط خفي يتعذّر إدراكه. ما يبدو ظاهرياً بأنه في حالة سلام يكون في الحقيقة بحالة حرب عنيفة لكن صامتة وغير مُدركة. في كل جزئية وكل لحظة كونية هناك تعبير عن إعادة تموضع لقوى متنافسة.. حالة نزاع مستمر بين قوى مختلفة في حالة كفاح دائم. ما ينطبق على جزئية الشيء ينطبق أيضاً على الشيء بكامله. كل شيء متجلّي في السماء والأرض وما بينهما يتألف من أنماط انتقالية لأجزاء مختلفة من المحتوى الكوني، تمضي في سبيلها نحو التجلّي، من مستوى الكمون السديمي عبر النمو اللامحدود للشموس والكواكب والأقمار، عبر كافة تنوّعات المادة، عبر الأشكال اللانهائية للحياة.. إلى آخره. أصبح واضحاً أن السمة الثابتة للكون هي التغيير الدائم والمستمرّ.

الحركة الدائمة والأبدية لكافة الأشياء في الكون سببها طبعاً هو مفعول مبدأ الحركة، والذي يمثّل أحد المبادئ الثلاثة الرئيسية. هذا المبدأ النشِط الذي ينتج من تفاعلاته المختلفة مع مبدأ المحتوى كل التجسيدات المتنوعة في الكون. وبما أن هذه التجسيدات لا محدودة فبالتالي إن طرق وصيغ وأنماط تفاعل مبدأ الحركة مع مبدأ المحتوى لا محدودة أيضاً. كما استنتجنا من المواضيع السابقة، فإن حركة المحتوى العقلي ذو طبيعة إيقاعية، وهذا يعني أنها حركة متذبذبة. ورد في المقولة السابقة ما يلي: "*.. النبذبة سائدة على مستوى الكون، وبصفتها متجلية وفقاً لقانون الإيقاع، فهي تختلف بين الأشياء والمستويات من حيث الدرجة..*"، وهذا بالضبط ما يؤكده العلم الحديث الذي يقول بأن كل الأشياء في حالة ذبذبة، وأن الاختلاف في وتيرة الذبذبة يحدّد الطبيعة البنيوية لكل الأشياء. كل شيء، ابتداءً من الجسيم الذرّي الدقيق وانتهاءً بأكبر الكتل المادية في الكون، يجسّد قانون الذبذبة الإيقاعية. بالإضافة إلى ذلك، فقد أثبت العلم أيضاً بأن الفرق الوحيد بين العناصر المكوّنة لأشكال المادة المختلفة يكمن في وتيرة ذبذبة الجسيمات التي تتألف منها. الفرق مثلاً بين معدن الذهب ومعدن الرصاص يكمن في اختلاف وتيرة ذبذبة الجسيمات الذرية. والفرق بين الضوء وشمع العسل يكمن في اختلاف الذبذبة.

منذ فجر نشوء الكون، تجسّدت الذبذبة على طول سلّم التجلّي، على طول امتداد سلّم الطاقة/المادة، نزولاً إلى أدنى مستوى. من أكبر كتلة مادية في الكون وصولاً إلى أصغر جسيم. وهذا الاختلاف اللامحدود في درجات الذبذبة مسؤول عن تجسيد كل شيء، ليس فقط الأشياء المادية، بل الحالات العقلية أيضاً. كل حالة عقلية لها درجتها الذبذبية الخاصة، وهذا ما يميّزها

عن الحالات الأخرى. وفي هذا السياق، وجب تذكّر حقيقة أنه ما نسميه صوت وضوء وحرارة ومغناطيسية وكهرباء وأشعّة سينية وغيرها من أشكال الطاقة هي عبارة عن أشكال مختلفة من الذبذبة. وحتى أكثر المواد الصلبة قساوة، وهو الماس، مكوّن من جزيئات وجسيمات ذرية دقيقة في حالة حركة وتذبذب مولّدة بذلك طاقة هائلة مما يجعل قطعة الماس تبدو شديدة الصلابة. حتى كتب الفيزياء المنهجية تؤكّد حقيقة أن كل شيء ندركه بحواسنا هو عبارة عن مظاهر ناشئة من وتائر ذبذبية مختلفة. حتى إدراكنا لهذه الأشياء هو عملية ذبذبية صرفة.

".. الذبذبة هي عبارة عن تغيير تبادلي دوري للحالة.." [دايل بوند]

".. الذبذبة هي عبارة عن تبادل إيقاعي متوازن.." [والتر رويسل]

".. الذبذبة هي حركة إيقاعية لجسم ضمن نفسه.." [جون كيلي]

".. كل القوى هي ذبذبة.. وكذلك الحال مع المادة.. كل شيء متذبذب.. جميعها تنبعث من ذبذبة مركزية واحدة لكنها تتخذ أشكال مختلفة.." [ادغار كايسي]

".. الذبذبة هي حركة. الحركة هي نشاط قوّة موجبة وسالبة.." [ادغار كايسي]

".. الكهرباء والذبذبة تمثلان تلك الطاقة، تلك القوة، التي نسميها الله.." [ادغار كايسي]

".. الحياة، بكل تجلياتها المختلفة هي ذبذبة. الكهرباء هي ذبذبة. لكن الذبذبة الخلاقة تمثّل شيء، والذبذبة المدمّرة تمثّل شيء آخر، ومع ذلك فإنهما من ذات المصدر.." [ادغار كايسي]

ملاحظة: انظر في موضوع "فيزياء الذبذبة المتجانسة" وأعمال الباحث "جون وريل كيلي" في الجزء التالي.

لكن ماذا عن "قانون الإيقاع" الذي يجعل كل الأشياء تتحرّك بإيقاع زمني متناسق، كما تؤكّده الحكمة السابقة؟ دعونا نلقي نظرة على هذا القانون وأهمية دوره في مجال الحالات العقلية وكذلك

الظواهر الحركيّة في الطبيعة. المعنى الحرفي لكلمة "إيقاع" هو: تكرار الحركة وفق نسق زمني موحّد. أوضح مثال على ذلك هو الإيقاع الموسيقي الذي يُقاس بواسطة دقات المترونوم (بندول الإيقاع) أو عصا قائد الأوركسترا الذي يحافظ على نسق زمني محدّد لتكرار الدقّة أو النغمة. لقد اكتشف العلم حديثاً ما كانت تدعيه التعاليم السريّة منذ عصور مديدة، وهو أن كل شيء في الكون هو "إيقاعي زمني"، ويتحرّك وفقاً لإيقاع معيّن. يمكننا رؤية ذلك بوضوح في ظاهرة المدّ والجزر، وضربات القلب، وعملية التنفّس، وعمل الذبذبة في كل الأشياء وعلى كافة المستويات. وكما هي الذبذبة ظاهرة كونية، فالإيقاع أيضاً هو ظاهرة كونية.

بعد برهة من التأمّل في الأشياء سوف تكتشف بأن كافة الظواهر في الطبيعة تجسّد قانون الحركة الإيقاعية بين قطبين متعاكسين. هناك دائماً جزر ومدّ في كل الأشياء. نجد دائماً تأرجح البندول بين قطبين متعاكسين للشيء ذاته. دائماً يكون النهار متبوعاً بالليل، والصيف متبوعاً بالشتاء، والفعل متبوعاً بردّ الفعل، والعمل متبوعاً بالراحة، والنشاط متبوعاً بالخمول، والأوقات الجيّدة في مجال التجارة مثلاً تتبعها أوقات صعبة، بعد الازدهار يأتي الكساد. في كافة المجالات وعلى كل المستويات يمكن ملاحظة هذا التأرجح الإيقاعي الذي ينقل الشيء ذهاباً وإياباً بين قطبيه المتناقضين. كما تقول الحكمة السابقة: *".. كل شيء يتحرك ذهاباً وإياباً بين أقطابه بشكل إيقاعي كل شيء يصعد ويهبط بشكل إيقاعي ضمن حدود طبيعته. كل شيء يتقدم ويتراجع بشكل إيقاعي ضمن حدود قدرته.."*. التعاليم السريّة لم تتوقف عند الأشياء التفصيلية في الكون، بل ذهبت أبعد من ذلك، أي على مستوى الكون بذاته، حيث كما هناك نهار وليل في اليوم العادي، فهناك أيضاً نهار وليل بالنسبة للكون بكامله، حيث نحن الآن نعيش في فترة النهار الكوني، أي فترة التجلّي بصيغة مادية، لكن ما أن يحين الليل الكوني سوف يعود كل شيء إلى حالة اللاتجلّي.

قانون القطبية وقانون الإيقاع هما توأمين. إنهما مندمجان إلى الأبد. يمكن تحديد نتيجة التأثير الذي يولده التأرجح الإيقاعي بين قطبين حسب طول امتداد السلّم بين هذين القطبين. لا يمكن لشيء أن يتأرجح متجاوزاً حدود قطبيه. لا يمكن لشيء أن يتجاوز حدود طبيعته أو قدرته. وبالتالي، إذا تأرجح الشيء بعيداً باتجاه أحد الأقطاب، فسوف يتأرجح حتماً بنفس المسافة باتجاه القطب المعاكس. إذا كانت مسافة التأرجح كبيرة، فلا بد من أن تكون أقطاب الشيء متباعدة. وإذا كانت مسافة التأرجح قصيرة، فلا بد من أن تكون أقطاب الشيء متقاربة. يمكن تطبيق مثال "البندول المتأرجح" في كافة المجالات وعلى كل المستويات. في المجال النفسي مثلاً، الذين

يتمتعون كثيراً يتألمون كثيراً. أما الذين لا تسمح طبيعتهم سوى بالقليل من المتعة، سوف لا يختبروا سوى القليل من الألم. طول المسافة التي يتأرجحها البندول باتجاه معيّن تساوي طول المسافة التي يتأرجحها في الاتجاه المعاكس. هذا الأمر ينطبق على كافة المجالات، النفسية والعقلية والمادية وغيرها..

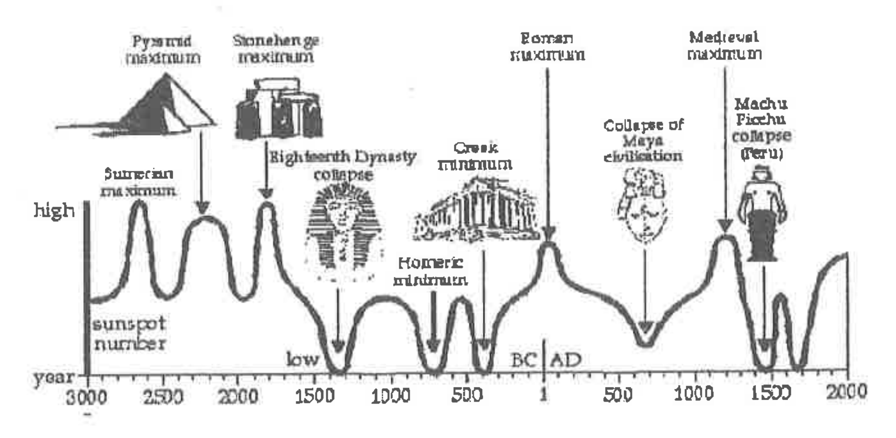
دعونا الآن نلقي نظرة على قانون "الدوروية"، أي الظواهر الدوريّة في الطبيعة. سبق وذكرت بأن جميع الظواهر الحركية في الطبيعة تمثّل الشيء ذاته جوهرياً، وبالتالي فقانون "الدوروية" قريب الصلة بقانون "الإيقاع". ورد في أحد فصول التعاليم السريّة المقولة التالية:

الدورويّة متجانسة مع الإيقاع، وتنشط بسببه أصلاً. كافة الأحداث تحصل بطريقة دوريّة، أي أنها تتكرّر دائماً وباستمرار، وضمن نفس الإيقاع. الطريقة الوحيدة للإفلات من هذا التأثير الدوري هي تحويل الحركة الدوريّة إلى حركة لولبيّة. يتحقّق ذلك بواسطة التقدّم بمركز الحركة الدورانيّة إلى الأمام. تُعتبر عمليّة تحويل الحركة الدائرية إلى لولبيّة من أرفع أشكال الخيمياء العقليّة.

الفكرة الرئيسية التي علينا الاهتمام بها في المقولة السابقة هو أن الأحداث في كافة المستويات، في حياتنا الشخصية أو عبر التاريخ، هي دائمة التكرار رغم أننا لم نفطن لذلك. صحيح أنها لم تتكرّر بنفس الصيغة والمشهد لكن الظروف التي تؤدي إلى نفس الحالات والمواقف هي التي تتكرّر. أما بخصوص تحويل الحركة الدائرية إلى حركة لولبيّة بواسطة الخيمياء العقلية فتنتمي إلى موضوع آخر لسنا بصدده الآن، لكن الهدف من هذه العملية العقليّة هو عدم التأثّر سلباً بالأحداث السيّئة عندما تتكرّر مرّة ثانية في حياتنا، ونحقق ذلك عبر نقل مركز الدائرة (أي نحن) من مكان إلى آخر وسط هذه الحركة الدوريّة للحدث المعني فننأى بنفسنا عن تاثيراته السيّئة. والقصد من نقل مركز الدائرة هو القيام بإجراءات عقليّة معيّنة سوف أتناولها بإصدارات قادمة.

بالعودة إلى الفكرة التي تطرحها المقولة السابقة حول التكرار الدائم للأحداث، وبعد التفكير ملياً بالأمر، مع الأخذ بعين الاعتبار خبرتنا الشخصية في حياتنا اليومية وكذلك الدراسات التاريخية، سوف نجد أنها صحيحة. لطالما صُدم الباحثون في علم التاريخ من ظاهرة تكرار ذات الأحداث والمواقف والظروف والأفكار.. وغيرها.. بشكل دوري عبر العصور التاريخيّة المتعاقبة. وكذلك الباحث في مجال الفلسفة الذي لاحظ ذات الظاهرة الدوريّة عبر التاريخ. في الحقيقة، هذه الظاهرة

الدورية متجسّدة في كافة مجالات الفكر الإنساني وليس مجال واحد فحسب. نلاحظ بأن الأعراق والأمم المختلفة تشهد فترات ازدهار ثم انحطاط ثم اندثار، ثم يتبعها أعراق وأمم أخرى بنفس مسيرة الصعود والهبوط الإيقاعي لحضارتها. نجد دائماً بأن مركز السلطة السياسية الكبرى ينتقل من مكان إلى مكان حول العالم عبر فصول التاريخ المختلفة. حضارات كل من أطلنطس ومصر والكلدانيين والرومان واليونان... جميعها ازدهرت ثم اندثرت. حضارتنا الحاليّة التي تتمحور حول الغرب تسير بنفس الاتجاه ووفق المسار الإيقاعي ذاته. كافة أشكال الحكومات السياسية، ملكيّة، ديمقراطية، أتوقراطيّة استبدادية، وغيرها.. وبكل تنوعاتها، كانت معروفة جيداً في الماضي وعبر العصور المتعاقبة. يمكن ملاحظة قانون الإيقاع في تاريخ الفلسفة أيضاً، حيث معظم الفلسفات الحالية التي نظنها من إنتاج عقول هذا العصر كانت مألوفة جيداً في الماضي البعيد، لكنها واجهت مصيرها المحتوم.. الانتشار والاختفاء تماماً من ذاكرة الشعوب. كافة النظريات العلميّة التي برزت في هذا العصر الحديث، مثل السببيّة Causation، الاستمرارية Continuity، الحتميّة Determinism، وحتى نظرية التطوّر Evolution، كانت مألوفة جيّداً في اليونان القديمة قبل أكثر من ألفي سنة. وكانت مألوفة أيضاً قبل ذلك بكثير في كل من مصر والهند. الموضة في اللباس والتفكير والعادات وغيرها كان يتكرر بروزها واختفاءها من الساحة الاجتماعية بشكل دوري عبر العصور. حتى الأفكار الدينيّة التي نألفها اليوم هي قديمة بقدم العالم. كافة المذاهب الدينية كانت مألوفة، الحلوليّة والتوحيدية والإلحادية والوثنية.. وغيرها.. يتكرّر ازدهارها واندثارها بشكل دوري منذ بداية التاريخ. جميعها لعبت دورها في توجيه الشعوب وقولبة تفكيرهم.



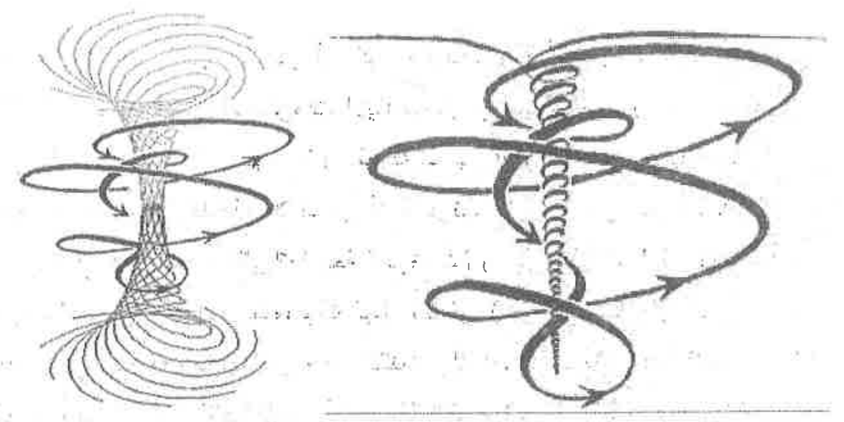
حتى الحضارات تزدهر وتنهار بتزامن مع دورات إيقاعية معيّنة

كما تاريخ البشرية، نجد أن حياة الأشخاص أيضاً ذات طبيعة دوريّة. القليل من التفكيــر بــالأمر سوف يجعلك ترى كيف أن معظم الناس تسير ضمن دوائر متكرّرة فــي حيــاتهم. ذات الــشيء يتكرّر دائماً وباستمرار، وتكون مواعيد حصوله متباعدة أو متقاربة، يعتمد ذلــك علـــى طبيعـــة الشخص ذاته. أغلبية الناس يشبهون السنجاب الذي يدور ويدور في عجلة قفصه دون أن يــصل إلى مكان آخر سوى النقطة ذاتها التي تتكرّر دائماً. لكن التعاليم السريّة وجدت الحــل المناســب لهذه المسألة. فقط الأقوياء والأكثر حكمة يستطيعون الإفلات من هذه العجلة الأبدية التي تتكــرّر باستمرار. لكن كما ذكرت سابقاً، هذا الموضوع ينتمي إلى مجال آخر مختلــف تمامــاً وســوف نتناوله في إصدار لاحق.

إذاً، كل شيء له طبيعة إيقاعية، ويمكن أن تكون طبيعة دورية أو تبدوا ظاهرياً بأنها تأرجح بين قطبين، لكن في النهاية جميع هذه الحركات الإيقاعية هي رباعية الأطــوار، وبنــاء علــى هــذه الحقيقة، توصل الحكماء القدامى إلى ابتكار طريقة مجدية للتنبؤ بأحداث مستقبلية. بما أن الأحدث تتكرّر باستمرار وبطريقة إيقاعيّة، فلا بد من أن مسيرتها الإيقاعية تمرّ عبر أربعة أطــوار ذات طبيعة محدّدة، أي يمكن تحديد تاثيراتها بدقة كبيرة. أشاروا إلى هذه المراحل الأربعــة للــدورة الإيقاعية بأسماء [النار، الهواء، الماء، والتراب] ووصفوا تأثير كل منها على الــوعي البــشري وكذلك على وعي الطبيعة وما فيها من وعي كائنات وأشياء. أقرب مثال على ذلك هــو التقــسيم الذي نألفه جيداً في الدائرة الفلكية (رغم أن طريقة التقسيم الحالية خاطئة وسوف أبيّنها لاحقــاً). حتى في مبدأ الين واليانغ الصيني، نجد أن هذين القطبين يتوسطهما مرحلتين انتقاليتين.

ولادة الابن المقدّس

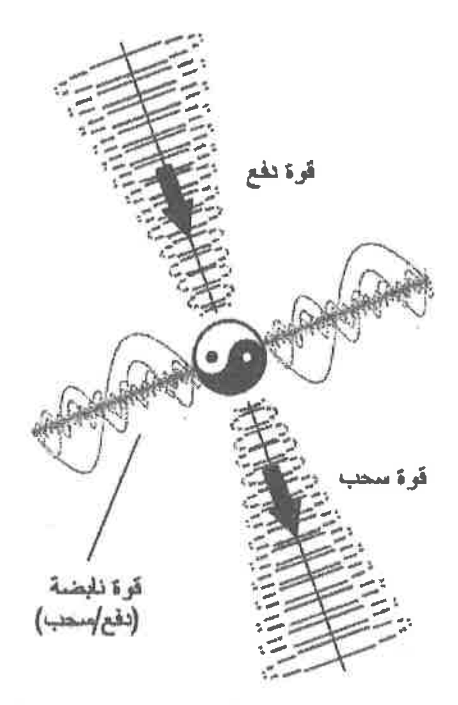
بعد أن تكاثف المحتوى الكوني في مركز الكرة الكونية متبعاً مسار لولبي، وولادة عاملي المكان والزمان مما أدى إلى تكرار هذه العملية بشكل مستمر، أصبح لدينا حركة لولبيـــة دائمـــة. والآن السؤال المهم هو: عندما تحصل حركة لولبية بشكل مستمر وبسرعة معيّنة في وسيط أثيري، مـــا هي التأثيرات التي تنتجها والحالة التي تولدها داخل هذا الوسيط؟ الجواب قد يكون بديهي بالنسبة للبعض: الحركة اللولبية المتكررة باستمرار وبوتيرة سريعة تولّد دوامة. دعونا نتصور الدوامـــة الناتجة من الحركة اللولبية التي نتحدث عنها، وذلك من خلال النظر إلى الأشكال التالية:



الحركة اللولبية المستمرة في وسيط أثيري تخلق دوامة (الصورة على اليمين). الحركة اللولبية المستمرة في وسيط أثيري داخل كرة تخلق دوامتين متعاكستين (الصورة على اليسار).

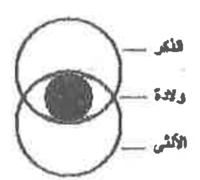
هذه الظاهرة التي تنتج من الحركة اللولبية المستمرة فـــي محتـــوى الكـــرة الكونيـــة (دوامتـــين متعاكستين) تمثّل بداية مرحلة جديدة في مسيرة الخلق وما يرافقها من مظاهر ومبادئ مختلفة.

خلال تكرار عملية التكاثف في مركز الكرة الكونية عبر مسار لولبي، نشأت دوامتين متناقضتين في أعلى وأسفل الكرة الكونية. وطريقة المسار اللولبي جعلت الدوامة العليا تدفع إلـــى المركـــز (موجبة) والثانية تسحب من المركز (سالبة)، وهذه الحالة المتعاكسة للدوامتين المتقابلتين تجعـــل نقطة التقائهما عند المركز منطقة نابضة أو متذبذبة. (الشكل التالي):

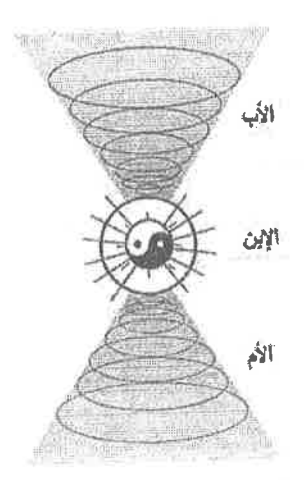


دوامتين متعاكستين تولدان منطقة نابضة عند نقطة التقائهما

جميع التعاليم الباطنية حول العالم تحدثت عن تزاوج طاقتين متعاكستين، الأولى لها طبيعة ذكورية (دفع)، والثانية لها طبيعة أنثوية (سحب)، ونتج من هذا التزاوج مولوداً يحمل الطبيعتين معاً، أي طاقة متذبذبة (دفع/سحب). إذاً، تزاوج الذكر مع الأنثى أدى إلى ولادة الإبن، وهو مزيج من ذكر وأنثى، وهنا نتحدث عن طاقة كهرومغناطيسية. هذا هو النموذج الأول لمفهوم "الثالوث المقدّس" المنتشرة بين كافة التعاليم الروحية حول العالم (وإن بصيغ مختلفة). وصفت الحالة الثالثة بالسمكة vesca psices، أو عين حورس.. إلى آخره. رغم اختلاف صيغة وصف هذا الثالوث الأول بين التعاليم المختلفة إلا أن المبدأ واحد: جميعها توصف اجتماع طاقتين لولادة طاقة ثالثة.

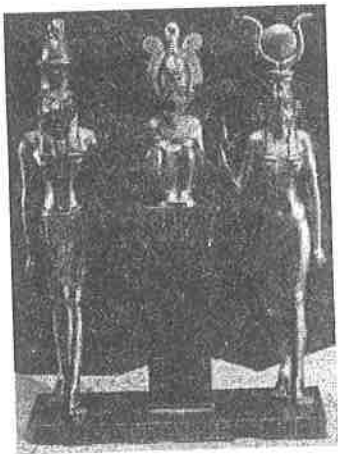


صورة تمثّل التعبير الهندسي لهذا الاندماج بين الطاقتين لتولد قوة ثالثة

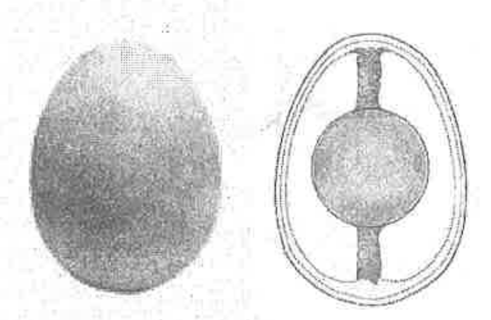


نشوء قوة ثالثة (الإبن) نتيجة تزاوج طاقتا الذكر مع الأنثى

أصبح لدينا صيغة أخرى للثالوث المقدس وهي تلك التي تجعل العامل المشترك بين الثنائي (الفاعل والمفعول) ليس الكائن الذي يشملهما (كما ثالوث التريمورتي الهندوسي) بل المولود الذي نتج من تفاعلهما. أي ثلاثي الأب والأم والابن، وهو الثالوث ذاته الذي يمثله أوزيريس وإيزيس وحورس. أو زيوس وديميتر ودايونيسيوس، وغيره العشرات من الثواليث المقدسة التي كانت معروفة في أديان مختلفة حول العالم في عهود سابقة. وقد مثّل هذا الثالوث الصيغة الأساسية للثالوث المسيحي قبل أن تم تحويره نتيجة الجدليات اللاهوتية التي فرضت نفسها بالقوة لاسباب سياسية بحتة. إذا جعلنا روح القدس يمثّل المبدأ الأنثوي (كما فعلوا في البداية) لكنا حصلنا على الصيغة الأساسية لثالوث [الأب والأم والابن].

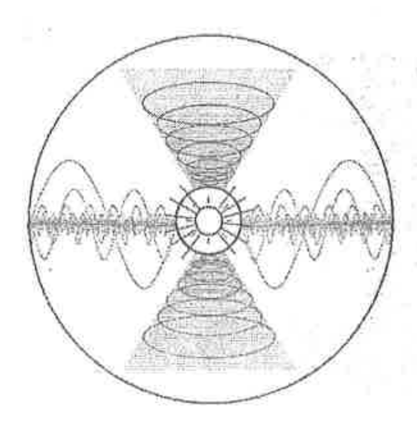


حورس (الإبن) بين أوزيريس (الأب) وإيزيس (الأم)



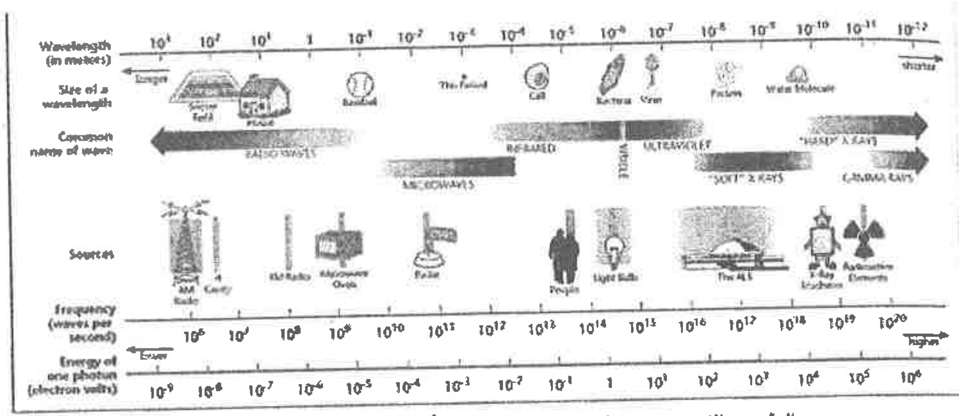
إن تشريح بيضة الدجاجة يبيّن التماثل الكبير مع مراحل عملية الخلق (صفار البيضة يمثّل المحتوى الإلهي بعد تكاثفه في المركز، ومعلّق بين ما يشبه دوامتين من الأعلى والأسفل.

تعرفنا سابقاً كيف رمز القدماء إلى الكرة الكونية بالبيضة الكونية، ويبدو أن هذا التمثيل دقيق. ورد في النصوص المصرية القديمة كيف أن حورس ولد من بيضة، وكانت البيضة مقدسة من خلال ربطها بالإلهة إيزيس (المبدأ الأنثوي) وبالتالي امتنع الكهنة من أكل البيض. ورد في التعاليم المصرية أيضاً كيف أن إله الخلق "بتاه" Ptah شكّل كتلة من الوحل في وسط المحيط المائي، وهذه الكتلة تمثّل طبعاً لبّ البيضة الكونية (التكاثف في المركز) التي راحت تولّد المخلوقات المختلفة من داخلها. الآن أصبحنا نعلم كيف توالدت المخلوقات من لب البيضة الكونية. حورس يمثل الشمس في التعاليم المصرية، والشمس هي مصدر الطاقة الكهرومغناطيسية والطاقة الكهرومغناطيسية تمثّل حجر بناء كل شيء في الكون المادي.



الشمس المركزية بين الدوامتين تبعث النور (الطاقة الكهرومغناطيسية) ضمن حدود الإطار الدائري للكرة الكونية.

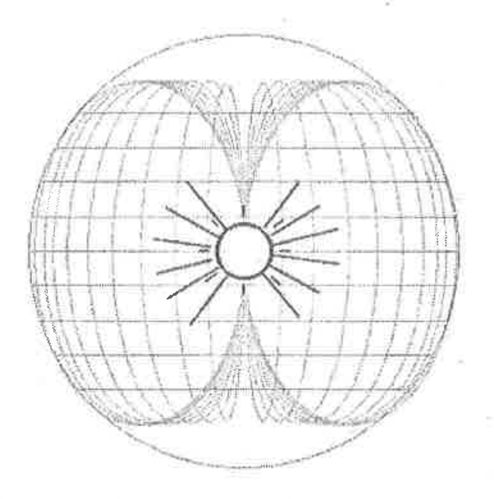
هذه الطاقة الثالثة تمثّل الجوهر الإلهي ثنائي الجندر، لكنه نسخة مصغّرة للخالق [عزّ وجلّ]، وقد أشاروا إليها بالشمس المركزية العظيمة. هذه الشمس ذات طبيعة نابضة على الدوام وبوتيرة مستقرة وإيقاع ثابت. توصف التعاليم الصوفية هذه العملية بالتنفّس المستمرّ داخلاً وخارجاً. هذا هو نفس "براهما" الذي تحدث عنه الهندوس. جميع التعاليم الباطنية حول العالم أشاروا إليه بـ"تنفّس الإله الأعلى" (شهيق وزفير) أو "نبضات القلب الكوني". أما الفيزياء الحديثة فتسميها طاقة كهرومغناطيسية، وجميعنا طبعاً نعلم بأن الطاقة الكهرومغناطيسية تمثّل حجر بناء كل شيء في الكون المادي، بما في ذلك الضوء والصوت والمادة الملموسة.



الطيف الكهرومغناطيسي يشمل كل الأشياء المتجسّدة في الكون

الشمس المركزية

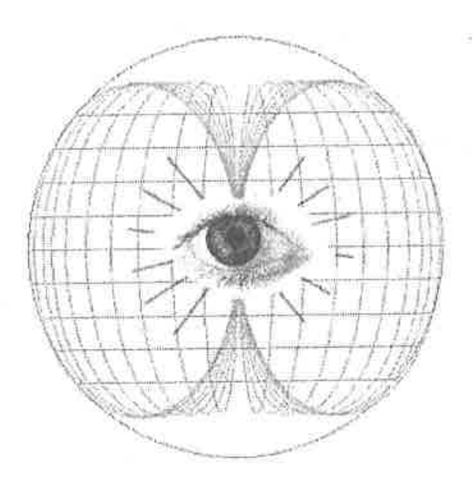
إذاً، "الشمس المركزية" التي تحدث عنها القدماء هي مشابهة للتعريف العلمي الذي يوصفه بأنــه "مولّد ذبذبة مركزي" ينبض بالطاقة الكهرومغناطيسية. لكن هذا التعريف العلمي الــذي نألفــه لا يكفي، إذ هناك الكثير بخصوص هذا المذبذب المركزي بالنسبة للقدماء.



الشمس المركزية العظيمة. الجوهر الإلهي القابع في مركز الكون، وفي قلب كل مخلوق فرداني في الكون.

نورها الذي ينتشر في كل مكان ليس نور عادي بل يتضمن داخله مكونات كثيرة. كل نبضة مــن هذه الشمس هي ثلاثية التكوين ورباعية الأطوار، وتتألف من سبعة طاقات، واثني عــشر قــوة، وكل من هذه المكونات مقسوم إلى قطبين. أصبحنا نعلم طبعاً من أين جاءت هذه المكونات التــي تتألف منها نبضة الشمس المركزية. هي تشكّل جميع الإحداثيات التي تمت خلال عمليــة الخلــق والتي أصبحت تمثّل مبادئ كونية راسخة تتجلى في كل مكان وكل زمان.

إذاً، أصبح لدينا موجة إشعاعية ذات محتوى عقلي نشيط، وهي ثنائية القطبية وتتألف مــن كافــة المبادئ التي نتجت خلال عملية الخلق. أهم المظاهر التي تميّز هذا الإشعاع هو أنــه لا يبعــث النور فحسب بل يتألف من الوعي أيضاً. لهذا السبب كانوا يسمون هذه الشمس المركزية بـــ"عين العالم"، أي أنها مصدر الوعي المنتشر في كل مكان.



يرمزون إلى عملية انبعاث الطاقة الكهرومغناطيسية من مركز الكرة الكونية بتفتح العين. وفق المفهوم القديم، هذه الطاقة الكهرومغناطيسية هي عبارة عن ذبذبة محتوى عاقل. عندما ينشط المحتوى العقلي فهذا يولد حالة الوعي.

"... عندما رغب مستتر المستترين أن يكشف عن نفسه، صنع لنفسه أولاً نقطة منفردة. كان اللامحدود مجهولاً بالكامل، ولم يكن يبعث أي نور قبل انطلاق هذه النقطة المضيئة بعنف إلى مجال الرؤية..."

تعاليم القبالة

الشمس هي البؤرة المركزية لإشعاع الطاقة الفيزيائية والروحية في نظامنا الشمسي. جميع الشموس في الكون تتبع نظام تراتبي يخضع في النهاية إلى الشمس الكونية المركزية، ذلك بسبب الطبيعة التراكبية للكون (الكل يمثّل الجزء والجزء يمثّل الكل). هذه الشمس المركزية (وكل الشموس الأخرى) هي مصدر الوعي والحياة والقوى الخلاقة. أشاروا إلى هذه الشمس المركزية للكون، أو مركز الوعي الكوني، بأسماء كثيرة في الأساطير الشعبية، حسب الحضارة والثقافة. هي ذاتها الـ"كريستوس" والأبراكس وميثراس ودايونيسيوس، اوزيريس، أورمازد، آمون رع.. إلى آخره. وقد رمزوا إليها بدائرة في مركزها نقطة.

مثلها الإغريق بالإله "هيليوس" Helios إله الشمس، ابن "هايبريون" Hyperion (الذي يأتي قبل الشمس). ولدى "هيليوس" عدة أولاد (يمثّل كل منهم أحد خصائص الشمس المركزية) أشهرهم

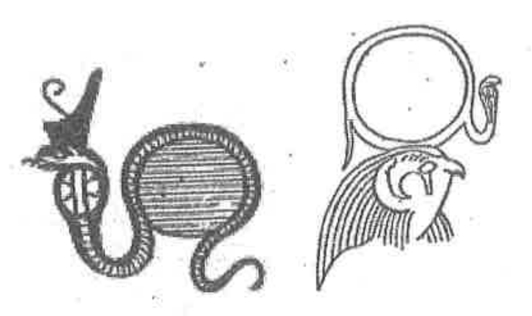
"بايثوسا" Phaethusa (متوهّج) و"لامبيتا" Lampetia (لامع). غالباً ما يصورونه وهو يركب عربته عابراً السماء ويجرّها أربع أحصنة (الأطوار الأربعة)، وأحياناً يجعلون عدد الاحصنة سبعة (المبدأ السباعي). هو يمثّل الطهارة الروحية والجسدية معاً. تراقق مع ولادته انبعاث النور لأوّل مرّة من الظلام السرمدي، لذلك يُعتبر عموماً إله النور. هو مانح الحياة والنور والحكمة للكون بما فيه الأرض والإنسان. هو يرى كل شيء ويعلم بكل شيء. كما أنه راعي الموسيقى والأغاني، وقيثارته هي سباعية الأوتار (المبدأ السباعي المتجلّي في كل شيء في الخلق). هو المرادف الإغريقي لعدد كبير من الآلهة المذكورة في أساطير الحضارات الأخرى حول العالم، مثل "أبولو" أو "فويبوس" أو "صول" (لاتيني) أو "بل" (كلداني) أو "بعل" (الفينيقي) أو "سوريا" (السنسكريتي) أو "حورس" (مصر).. وهكذا إلى آخره. جميع هذه الأساطير تمثل باطنياً الشمس المركزية للكون وشمس منظومتنا هي نسخة مصغّرة من تلك الشمس المركزية وكذلك كل شموس المنظومات الأخرى في الكون.

بما أن هذه الشمس مصدر النور والوعي فهي تُستخدم للإشارة إلى الذات المقدسة، الـ"أنا" الجوهرية التي تقبع خفية عميقاً تحت مستوى شخصيتنا الدنيوية المزيفة المشغولة بأفكارنا اليومية القلقة وعواطفنا المتغيرة على الدوام. كما في الأعلى كذلك في الأسفل، كافة الشموس في الوجود هي عبارة عن نقاط متكاثفة للوعي المركزي، إن كان على المستوى الفردي أو المستوى الكوني أو ما بينهما من مستويات مثل المجرات والمنظومات الشمسية.

ملاحظة: سوف أسهب في شرح هذا الموضوع في الجزء التالي

إذاً، عند الحديث عن آلهة الشمس في الأساطير المختلفة يقصدون "الذات الإلهية" على المستوى الفردي أو الكوني. هي ذاتها "الوعي المركزي" أو "الشمس المركزية" متعددة القوى والمبادئ. غالباً ما يجعلونها ذكورية (رمز القوة والبأس والإقدام) لأنه عليها مقاتلة الوحوش الشرسة (رمز المغريات الدنيوية)، مثل "أبولو" الذي قتل الأفعى العملاقة، او حورس الذي قتل "تايفون" (الشيطان)، أو هرقل الذي واجه العديد من الوحوش، وشمشون الذي قتل الأسد.. وهكذا. (سوف أتحدث عن هذا الموضوع لاحقاً).

بما أن الشمس المركزية ولدت نتيجة الحركة اللولبية المستمرة للأفعى الكونية، فهذا جعل الأفعى رمزاً مألوفاً لآلهة الشمس في الزمن القديم.



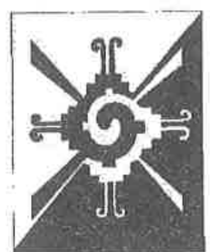
كانت الأفعى رمزاً مألوفاً لآلهة الشمس مما جعلها تدخل في مكونات الشعارات أو الرموز التي تمثّل هؤلاء الآلهة، كرمز حورس الذي تصوّر فيه الأفعى وهي تلتفّ حول قرص الشمس





الصورة على اليمين تبيّن تمثالاً من كمبوديا يصوّر "بودا"، إله الشمس، جالساً وسط لفائف الأفعى. الصورة على اليسار تبيّن تمثالاً من المكسيك يصوّر "كويتزالكوتل"، إله الشمس عند شعب "المايا" تلتفّ حوله الأفعى المجنّحة.

لقد كان حكماء حضارة المايا دقيقين جداً عندما وصفوا الشمس المركزية العظمى بأن لها قطبين. يمثّل هذه الشمس الإله الأعظم "هوناب كو" Hunab Ku، إنه إله الآلهة بالنسبة للمايا. ويوصفونه بأنه يقبع في وسط كل مجرّة نجمية، يشعّ نواياه (تأثيراته الفلكية) على كل نجم محلّي (شمس) جاعله مفعماً بالحياة. يُعتبر النواة المركزية في المجرّة بحيث منه بالذات تصدر الأوامر التي تحرّك المجرّة وكل ما يدور فيها من نشاطات وعلى كافة المستويات. كافة عناصر ومكونات المجرّة موصولة ببعضها عبر شبكة متداخلة تخضع لقوانين زمنية وديناميةٍ وجاذبية خاصة بها، وتتدرّج هذه القوانين من مستوى مجرّي إلى مستوى شمسي إلى مستوى كوكبي حتى تصل إلينا بالطريقة التي نألفها.



شعار الإله "هوناب كو" ذو القطبية المزدوجة

كان المايا يعتبرون أنفسهم ممثلين الكيان "هوناب كو" ومُرسلين من قبله، ومهمتهم هي رسم وتحديد وحساب تحركات الزمن بالنسبة لكوكبنا مع الأخذ بعين الاعتبار "علاقته المتناغمة" مع النواة المركزية للمجرّة، أي "هوناب كو". الطريقة التي قسموا بها الزمن، وحتى الطريقة التي عرّفوا بها الزمن، كانت متطورة جداً وشاملة جداً ودقيقة جداً. لقد توصلوا إلى فهم شامل ودقيق لطبيعة "الزمن" وعلاقته بالحياة على مستوى المجرةّ وكذلك على مستوى النظام الشمسي والكواكب.

تبين أخيراً أن المفهوم الذي يمثّله الإله "هوناب كو" لا يستند على أسس ما ورائية أكثر من كونه يستند على أسس علمية بحتة، رغم تعرّضه للكثير من التحريف والتشويه عبر القرون. سوف ننظر إليه من الآن وصاعداً بطريقة مختلفة تماماً. لقد صدق القدماء عندما جعلوه مصدر طاقة كونية هائلة متعددة الجوانب والمستويات والأبعاد.

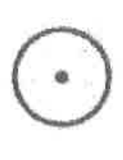
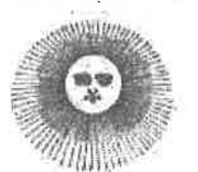
آلهة الشمس

وشعائر عبادتها التي سادت يوماً جميع أنحاء الكوكب



عبادة الشمس هي الأساس الذي انطلقت منه كل الأديان، لكن ليس وفق المفهوم المبتذل الذي انحدر إلينا من عصور الانحطاط التي عمّت الأرض في إحدا الفترات الغادرة التي تبعت العصر الذهبي. كان العارفون القابعين في الخفاء يعلمون الحقيقة كاملة مكمّلة. عندما تحدثوا عن الشمس كانوا يعلمون عن أي شمس يتكلمون، ويدركون مدى أهميتها وجلالتها. بالإضافة إلى أنهم يعلمون بأنها ليست الكيان الأسمى [جلّ جلاله] الذي انطلقت بأمره قوى الخلق المسؤولة عن تجسيد الكون، بل الشمس هي البؤرة التي انبعثت منها هذه القوى. هي ليست الأب، بل الإبن.. هي "الذات" الجليلة التي تقبع في الوسط.. في المركز.. إن كان على مستوى كوني أو مستوى فردي فالأمر سيان. خلال حديث القدماء عن الشمس في أساطيرهم هذا لا يعني أنهم يتحدثون عن الشمس الفيزيائية لعالمنا فحسب بل عن "الوعي المركزي" أيضاً، أي "الذات". هذا بالضبط ما قصدوه في قصص كل من "حورس" و"أدونيس" و"باخوس" و"كريشنا" و"كريستوس".. إلى آخره.





إحدى الصور المألوفة للإله سوريا Surya، إله الشمس عند الهندوس. يجلس على أفعى بسبعة رؤوس، ويقود العربة حصان بسبعة رؤوس (الطاقات السبعة)، والأقسام الاثنى عشر للعجلة (القوى الاثنى عشر)، ويبدو أن للإله أربع أيادي (الأطوار الأربعة)، وغيرها من أشياء تبينها الصورة لكنها ترمز إلى معاني عميقة تتعلّق بطبيعة الشمس.

من بين أشهر الأساطير القديمة نجد الأسطورة الإغريقية التي تتحدث عن الإله "فانيز" Phanes ويعني باللغة الإغريقية "الذي ظهر أو شعشع"، أو "فانيز ـ بروتوغونوس" Phanes-Protogonos والكلمة الأخيرة (بروتوغونوس) تعني "المولود الأول". وهذا كله يعني في النهاية: "الشمس المركزية التي هي المولود الأول الذي سطع بقوة". وفقاً للأسطورة "الأورفية" حول عملية الخلق Orphic mythogony، تزاوج "أيثر" (الروح الأب) و"كايوس" (المحتوى الأم) ونتج من زواجهما "البيضة الكونية" وكان لونها ذهبي من الأعلى وفضّي من الأدنى (العالمين العلوي والدنيوي)، ثم انبثق منها لاحقاً "فاينيز" الممثّل للحب الإلهي الذي بعث الحركة والحيوية في الأشياء، وهو أنثى وذكر معاً، ووصفته الأسطورة كيف كان له جناحين من ذهب ساعدته على الطيران إلى كل مكان وأربعة عيون يستطيع بواسطتها الرؤية في كل الاتجاهات.

"فاينيز" هو والد الألهة الكونيين وكذلك الدميورغ أو صانع الكون المادي. بما أنه والد الآلهة والعالم المادي فهذا يجعله والد الإنسان، وبالتالي كل من يولد من الكائنات يحمل "فاينيز" في جوهره. إذاً، الإنسان يحتوي على "فاينيز" في كيانه بصفته الجوهر الأوليّ والقوة الأساسية

لكينونته. ومن جهة أخرى، وعلى مستوى الكون تحديداً، يُعتبر "فاينيز" القوة الروحيـــة المـــشكّلة للكون وهو بالتالي والد وكذلك جوهر كل ما هو موجود. بالإضافة إلى أنه الوعي الكوني، أي هو مسؤول عن كل المجريات العقلية في الطبيعة وكل ما فيها من عمليات عضوية وحيويـــة. هـــو مهندس الكون بكل ما تعنيه الكلمة. إنه يمثّل صلة الوصل بين الأنماط الأوليّة لكل الخلـــق وبـــين تجسيدها المادي، أي أنه المنفّذ الفعلي لكافة الأنماط الأوّلية القابعة في العالم الفكري.



"فانيز" Phanes يفقس من داخل البيضة الكونية والأفعى تلتف حول جسمه، ويحمل صولجان العجائب بيده. القشرة السفلية للبيضة المفقوسة تحت اقدامه ويتفجّر منها اللهب المشعّ والقشرة العلوية فوق رأسه ينبعث منها اللهب أيضاً. والدائرة الفلكية تحيط بالصورة (القوى الإثنى عشر).

تحدثت التعاليم السريّة الأورفية Orphic Mysteries عن السبب الأول (المطلق جلّ جلاله) وسلّمت بأنه يتعذّر وصفه مما يجعل التفكّر به مستحيلاً. كما تناولت حقيقة الظهور والاختفاء المتناوب للأشياء (ذبذبة) من مستوى الذرّة حتى مستوى الكون. وتحدثت أيضاً عن تناسخ الأرواح، وقانون الإيقاع، والجوهر الإلهي المتأصّل في كل الأشياء، وتناولت أيضاً الطبيعة المزدوجة للتجسيد الكوني (تجاوزي ومادي). تحدثت عن الانبعاثات السبعة التي انبثقت من اللامحدود المؤلف من "أيثر" (الروح) و"كايوس" (المادة الأوليّة) واللذان برزت منهما البيضة الكونية التي فقست فيما بعد وانبعث منها "فاينيز" الابن.

ظاهرة التعددية في الكون المتجلّي

تكرار عملية الخلق + تعدد عوامل الزمان والمكان = تنوّع هائل في المخلوقات

التكرار المستمرّ لعملية الخلق (الشريط السينمائي القصير) مضافاً إليه التعدد الكبير في عوامل الماكن والزمان ينتج تنوّع هائل في مظاهر الخلق رغم أن المبادئ التي اعتمد عليها قليلة جداً بحيث تعدّ على أصابع اليد. الاختلاف في عامل المكان يعني اختلاف في الحيّز المكاني الذي يحتله الكائن، أو اختلاف في الموقع المكاني الذي يتواجد فيه في رحاب الكون الواسع، أو اختلاف في المستوى الوجودي (سلسلة الطاقة/المادة) الذي يتجلى فيه. أما الاختلاف في عامل الزمان، فيعني اختلاف النقطة التي يتواجد فيها الكائن في التسلسل الزمني الخطّي، أو اختلاف تفاعل الكائن مع الزمن (حسب مستواه الوجودي) أو غيرها من ظروف تتعلّق بالزمن.

إذاً، عملية الخلق (مراحل التكاثف عند مركز الكرة) تتكرر دائماً في كل زمان ومكان. الفيلم السينمائي يتكرر باستمرار على جميع المستويات وبكل الأحجام، وتختلف مدة هذا الفيلم القصير (سرعته أو بطؤه) حسب موقعه في سلّم التجسيد (امتداده المكاني).

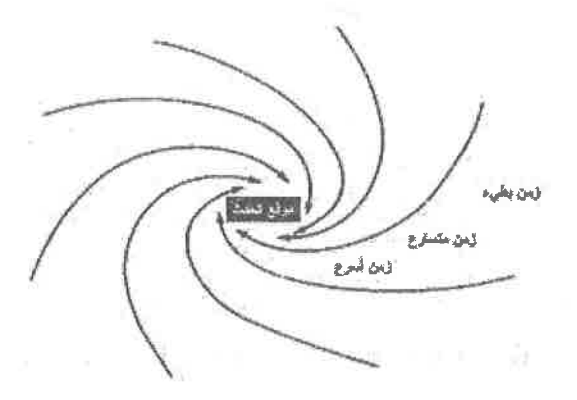
الدوامة الزمنية والتعدد متفاوت الأحجام

تحدثت في إصدار سابق عن الطبيعة اللولبية للزمن، وكيف أثبت الفيزيائي الروسي الشهير "نيكولاي كوزيريف" في الستينات من القرن الماضي وعبر سلسلة من التجارب الاستثنائية بأن الطاقة اللولبية تمثّل في الحقيقة التجلّي الطبيعي للـ"زمن" time. لقد أكّد بأن "الزمن" كما نعرفه هو أكثر بكثير من مجرّد آلية تسلسلية بسيطة أو ذات طبيعة استمرارية على الدوام بحيث يمكن إحصائها بالمدّة العددية المتساوية.

وقد ألحّ كوزيريف في كتاباته بأن نحاول التفكير بمسبّب ما للـ"زمن"، شيئاً حسيّاً ومماثلاً في الكون يمكن تشبيهه بـ"الزمن". بعد التأمّل والإمعان في هذه القضية، سنكتشف بأن "الزمن" هو مجرّد "حركة لولبية". نعلم بأننا بذلك نتبع خطى نموذج لولبي معقّد يجري في الفضاء بفضل

نموذج المجرى المداري للأرض والنظام الشمسي. لكن الآن وفي هذه اللحظة، فإن دراسة "علـم الوقت" temporology، تجري على قدم وساق في جامعة موسكو الحكومية، وكذلك "المؤسـسة الروسية الإنسانية" Russian Humanitarian Foundation، وجميع هذه الدراسات هي مُلهمة من أعمال الدكتور كوزيريف الرائدة.

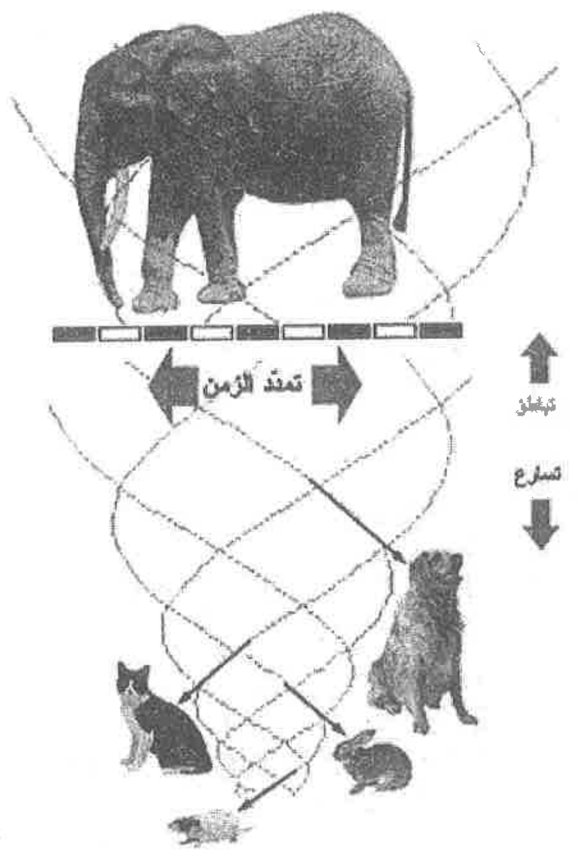
أهم الأفكار التي طرحها كوزيريف هي تلك التي تقول بأن الطاقة اللولبيـة spiraling energy للـ"زمن" تفعل كما الدوامة المائية تماماً، حيث يبدأ الماء بحركة متباطئـة عنـد توجهـه نحـو المركز، ثم تبدأ الحركة بالتسارع تدريجياً كلما اقتربت من نقطة المركز (موقع الحدث). الأمـر ذاته ينطبق مع الزمن الذي يتمدد بفعل مسبّب، وعلى الجانب الآخر يصبح أكثر انحـشاراً فـي موقع الحدث. وهذا بالضبط ما تفعله الحركة اللولبية في الطبيعة (الدوامة).



كل الأشياء المتجسدة مادياً، الحجارة، الأشجار، الحيوانات، الإنسان،.. إلى آخره، تشكّل مواقع أحداث لدوامات زمنية.

كما حالة أي حركة لولبية في الطبيعة (دوامة مائية، إعصار.. إلى آخره)، كلما توجهنا إلى مركز الدوامة اللولبية نزولاً كلما تسارعت الحركة، بينما إذا توجهنا صعوداً نحو الأطراف وبعيداً عن المركز تباطأت الحركة. الأمر ذاته ينطبق على دوامة الزمن. بما أن خصائص الزمن واحدة في الكون لكن تختلف فقط حسب اختلاف طبيعة الحدث (الكائن)، نجد بالتالي أن حجم الحدث (الكائن) يلعب دوراً في تفاعل الزمن معه. إذا رتبنا مجموعة من الحيوانات (وفقاً للحجم) على دوامة زمنية واحدة (لسهولة المقارنة)، نجد أنه كلما صغر حجم الكائن كلما تناسب مع مستوى تسارع أكبر في الدوامة، والعكس بالعكس. لهذا السبب نلاحظ وجود اختلاف كبير في الحركة

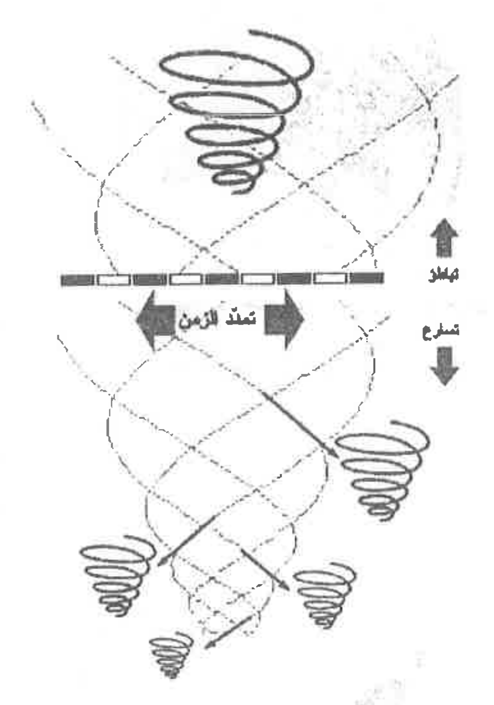
وآلية إدراك الزمن بين الحيوانات رغم تشاركها في مسرح واقعي واحد. ربما بدأنا نقترب من التفسير الفعلي لكيفية نمو الخلايا المجهرية وتكاثرها بسرعة أمام ناظرينا خلال مراقبتنا لها بواسطة المجهر. يبدو أن سرعة الزمن بالنسبة لها تختلف عنا رغم أننا نشترك في ذات الواقع.



كلما صغر الحجم زاد معه تسارع الزمن. حتى لو تشاركت الكائنات في واقع واحد، لكن حجمها هو الذي يحدّد وتيرة تسارع الزمن بالنسبة لها

من خلال الفكرة السابقة والمتعلقة بطبيعة الزمن، يمكننا استنتاج الآلية الحقيقية للشروط التي تُحدّد سرعة الحدث أو الحركة، والتي تستند كلياً على عنصر الحجم/المساحة (الامتداد المكاني). دعونا نسقط مثالاً واحداً على هذا المفهوم الجديد للزمن، ولنأخذ مبدأ الحركة اللولبية (الدوامـــة) الـــذي يُعتبر نمط أوّلي (نشأ في العالم التجاوزي خلال عملية الخلق) والمتجلّي في كل مكان في الكـــون

(بسبب طبيعته الهولوغرافية) ابتداءً من المستوى الكوني نزولاً إلى المستوى الذري، نستنتج بأن سرعة دوران هذه الحركة اللولبية تختلف حسب اختلاف حجمها/مساحتها (امتدادها المكاني). أي كلما صغرت مساحة الحركة اللولبية زادت سرعة دورانها بينما كلما كبرت المساحة تباطئ دورانها. سوف يتوضّح الأمر جيداً من خلال الشرح المصور التالي:

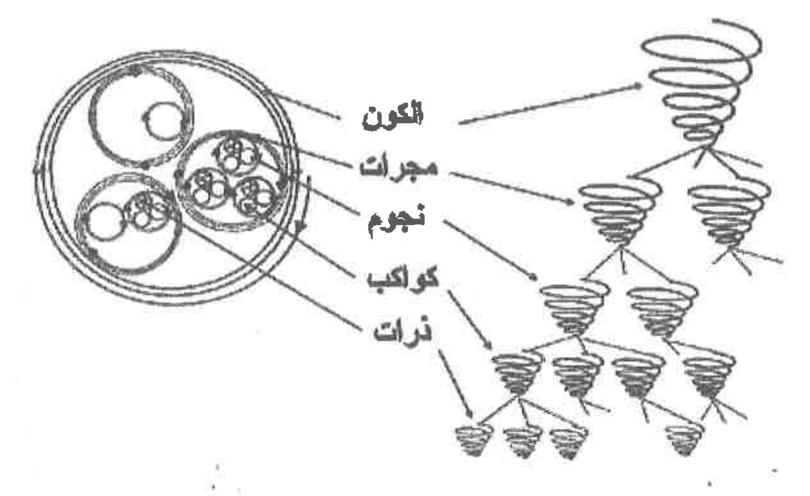


دوامة زمنية نموذجية وتشمل أمثلة مختلفة الأحجام من الدوامات.

سرعة دوران هذه الدوامات تختلف حسب اختلاف حجمها/مساحتها (امتدادها المكاني). أي كلما صغرت مساحة الدوامة زادت سرعة دورانها بينما كلما كبرت المساحة تباطئ دورانها.

وفقاً لمفهوم الدوامة الزمنية، كلما صغر حجم الشيء كلما زادت سرعته (أو زادت سرعة تجاوبه مع البيئة الوجودية المحيطة به)، أي إذا كانت هذه الدوامة على المستوى الذرّي فسوف تدور بسرعة كبيرة تقارب سرعة الضوء (وهذا بالضبط ما يجعل الجسيم الذري يبدو صلباً). لكن إذا كانت هذه الدوامة على مستوى الكوكب فسوف يكون دورانها بطيء نسبياً، كما حالة الإعصار الاستوائي، وإذا كانت على مستى مجرّة بكاملها فدورانها بطيء جداً يُقاس بآلاف السنوات للدورة الواحدة (سوف أتناول هذا الموضوع بإسهاب في الجزء التالي).

تمثّل الحركة اللولبية قانون كوني عام. يمكننا إيجاد هذه الحركة في كل مكان في الطبيعة وبأنماط وصيغ وسلوكيات مختلفة. نشاهدها في حركة المجرات وكذلك في طبيعة الجسيمات الذرية. أينما رأينا حالة دوران ودوامة، إن كان في المادة أو في حالة زمنية معيّنة، لا بد من أن يكون سـبب هذه الظاهرة الدورانية نابع من موقع تجاوزي يقبع فيه نمط أوّلي مسؤول عنها.



الطبيعة التراكبية للحركة الدورانية في الكون تجعله مؤلفاً من دوامات كُبرى على مستوى المجرات، وهي بدورها مؤلفة من دوامات أصغر وهكذا وصولاً إلى المستوى الذري

والآن تصورّ كم سيبدو التنوّع هائلاً في مظاهر الوجود بعد أن تتجلّى كافة المبادئ التي تـشكّلت أثناء عملية الخلق (في العالم التجاوزي) على كافة المستويات الوجودية (في العالم المتجلّي)، هل تستطيع بعدها إحصاء كل ذلك التنوّع الهائل الذي ينتج بعدها؟!

الطبيعة التراكبية للكون

Fractal Universe

".. الكل يمثّل الجزء والجزء يمثّل الكل.. كما في الأعلى كذلك في الأسفل.. كما الآن كذلك كل أوان.. كما هنا كذلك كل مكان.."

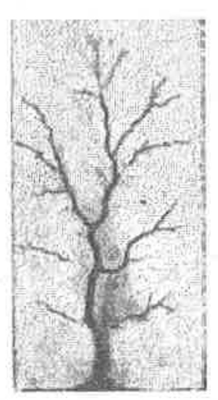
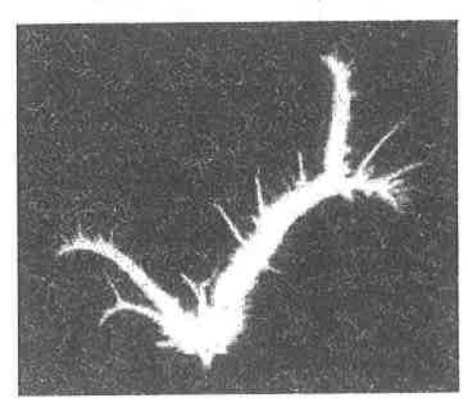
عندما ننظر إلى تفرّع أغصان الأشجار التي تشبه تماماً تفرّعات الأوردة الدموية وتفرعات الأنهار، وننظر إلى الشكل الهندسي للبذور الكريستالية الذي يشبه فقاعات الصابون وصفائح صدفة ظهر السلحفاة، وننظر إلى الرؤوس اللولبية لنبات السرخس والمتشابهة مع شكل المجرات النجمية والحركة اللولبية للماء عند مصرف حوض الاستحمام، حينها لا يمكننا سوى التأمل متسائلين: لماذا تستخدم الطبيعة مجموعة قليلة فقط من الأنماط المتقاربة في خلق هذا التنوع الواسع من أشكال الحياة؟ لماذا هذا التشابه في تعرّج حركة الأفاعي والأنهار وعقد الخيوط؟ لماذا التشققات الحاصلة في الأرض الجافة تتشابه تماماً مع الأشكال الهندسية الموجودة على جلد الزرافة؟ عندما يتعلق الأمر في المظهر المرئي للأشياء نلاحظ بأن الطبيعة تفضّل مجموعة قليلة من الأنماط، من بينها نجد اللولب والدوامة، الحركة المتعرجة، شكل التفرعات، مفاصل ذات زاوية ١٢٠ درجة. هذه الأنماط تظهر مرة بعد مرة في كل مكان. تتصرف الطبيعة كما المخرج المسرحي الذي يستخدم نفس الممثلين كل ليلة لكن بأزياء مختلفة لتلعب أدوار مختلفة. فيكرّر الممثّل دوره المحدود لكن بصيغة مختلفة في كل مرّة. الشكل الهندسي خماسي الأضلاع يدخل في تكوين معظم الزهور لكنه غير موجود إطلاقاً في عالم البلورات. سداسي الأضلاع يتولى أمر معظم الأنماط ثنائية الأبعاد المتكررة لكنها لن تحتل فضاء ثلاثي الأبعاد. أما الدوامات فهي تتفنّن كثيراً في ظهورها الذي يكاد يغطي كل شيء، ابتداءً من مستوى أصغر الفيروسات وانتهاءً عند أكبر المجرات النجمية.

بيتر.س. ستيفنز Peter S.Stevens

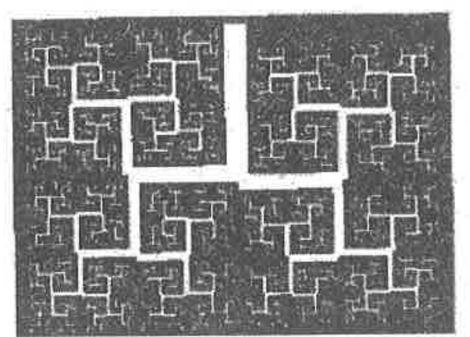
في كتابه: *أنماط في الطبيعة* Patterns in Nature (١٩٧٦)

الشكل المتراكب Fractal (أو المتكاسر) هو ما يمكن اعتباره عموماً شكل هندسي مُركّب يمكن تقسيمه إلى أجزاء وكل جزء يبقى محافظاً على الشكل الكلّي. وهي خاصية تُسمى التناظر الذاتي self-similarity. أول من أوجد هذا المصطلح (Fractal) هو العالم "بينوا ماندلبروت" Benoit Mandelbrot في العام ١٩٧٥م الذي اشتقه من الكلمة اللاتينية "فراكتشوس" أي بمعنى "مكسور". الكسر الرياضياتي يستند على معادلة تخضع للتكرار، وهو نوع من الاسترجاع يستند على التكرار المستمر.

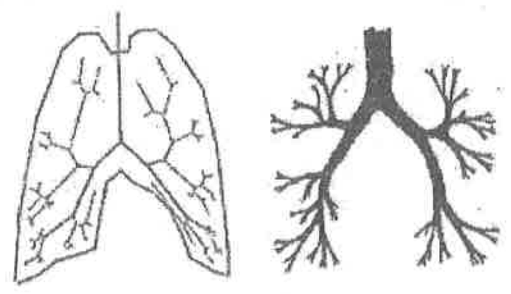
لأنها تبدو متشابهة جداً في كل مستويات التكبير، تُعتبر الكسور التراكيبية معقّدة جداً. مـن بـين الأجسام الطبيعية التي يمكن اعتبارها متراكبة إلى حدّ معيّن نجـد الغيـوم والـسلاسل الجبليـة والصواعق وشواطئ السواحل والبلورات الثلجية والكثبان الرملية.. إلى آخره، وجميعها مألوفـة جداً في كوكبنا لدرجة يسهل تمييزها لكن من الصعب جداً تفسير آلية تشكّلها.

لاحظ التشابه بين تفرعات الشرارة الكهربائية وتفرعات أغصان الشجرة



صيغة التفرّع تتبع دائماً نمط التماثل بحيث الجزء متطابق مع الكل



لاحظ التشابه بيم تفرعات النبتة وتفرعات الأوردة في الرئتين

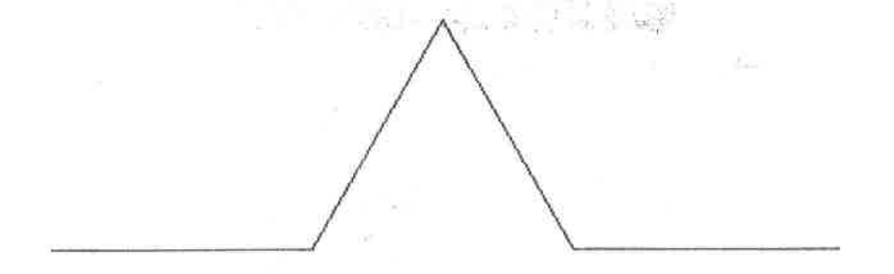


يمكننا ملاحظة نمط تطابق الجزء مع الكل بوضوح في بعض أنواع النباتات

من الصعب استيعاب كيفية تشكّل مجسمات معقّدة من خلال تكرار مستمر لإجراء معيّن بسيط، لكن المثال البسيط التالي سوف يساهم في توضيح الفكرة جيداً.

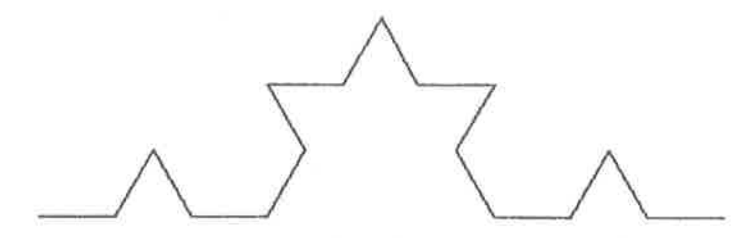
ـ أي شكل متراكب يُصنع عبر تكرار إجراء بسيط، لكن التكرار المستمر لهذا الإجراء البسيط يمكنه أن ينتج في النهاية أشكالاً بدرجة كبيرة من التعقيد. إذا أخذنا خط مستقيم كما في الشكل التالي، وزودناه بالأمر التالي: ".. اصنع مثلث في منتصف الخط المستقيم.."

ـ نرى أنه يتخذ الشكل التالي، أي عبارة عن مثلث في منتصف الخط المستقيم.

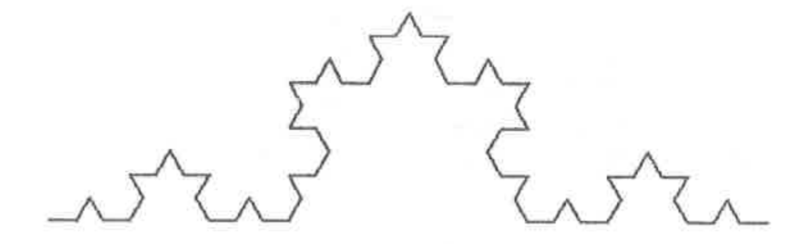


ـ لكن نلاحظ بأن الشكل يبدأ باتخاذ صيغة مختلفة تماماً، إذ أن الأمر الذي زودناه للخط المستقيم بدأ يسري مفعوله على كل خط مستقيم ينشأ في الشكل الناتج. مثلث الذي نشأ في منتصف الخط

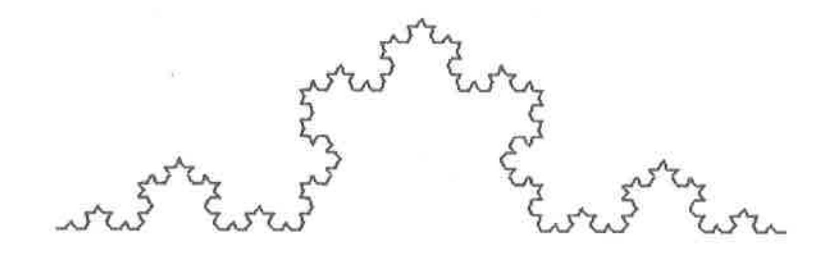
المستقيم في الشكل السابق صنع أربعة خطوط مستقيمة، وعندما خضع للأمر الذي زودنـــاه فـــي البداية بدى على الشكل التالي:



ـ حتى في الشكل السابق بقي مفعول الأمر سارياً، أي طالما هناك خطوط مستقيمة سوف تتكرر عملية نشوء المثلثات في منتصفها، ويزداد الأمر تعقيداً مع تكرار العملية، كما الشكل التالي:

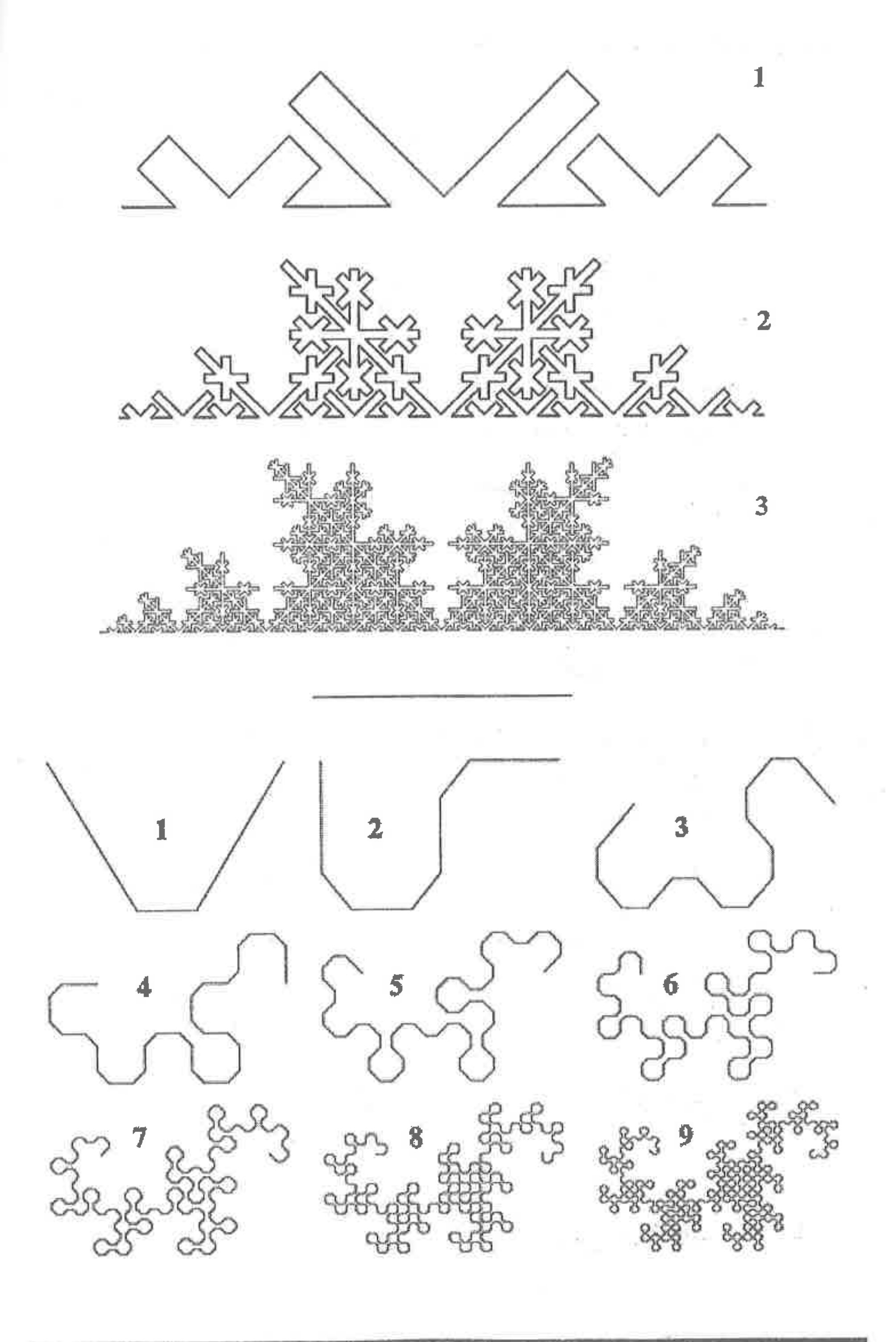


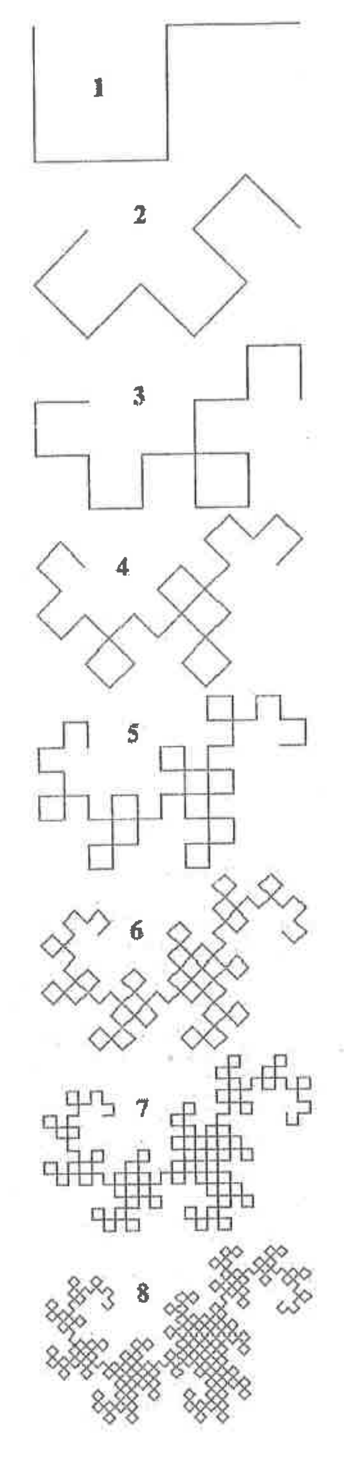
ـ مع تكرار عملية نشوء المثلثات في منتصف الخطوط يزداد تعقيد الشكل إلى درجة أنه لم يعد يوجد أي صلة ظاهرية بينه وبين الشكل الأوّل الذي انطلقت منه العملية التكرارية. (الشكل التالي)



مهما كانت النقطة الجزئية التي تنظر إليها سوف ترى أنها تتشابه مع الشكل الكلّي

فيما يلي أمثلة أخرى على هذه العملية التراكبية الناتجة من اتباع صيغة (برمجة) محددة:


1
2
3
1
2
3
4
5
6
7
8
9



بدأت الرياضيات المتعلقة بموضوع التراكـب fractals تتشكّل في القرن السابع عشر عنـدما قـام الرياضـياتي والفيلسوف الشهير "ليبنيز" بتناول مسألة التـشابه الـذاتي المتكرّر recursive self-similarity، لكنه أخطأ فـي اعتبار أنه فقط الخط المستقيم هو متناظر ذاتياً.

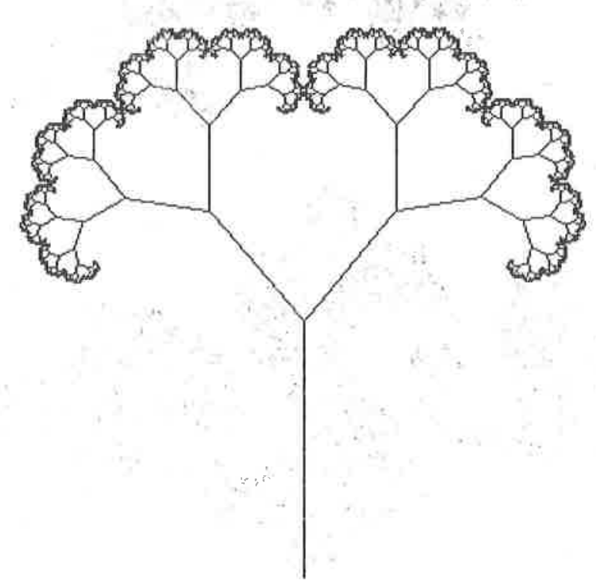
بقيت الحال كذلك حتى العام ١٨٧٢م حيث ظهرت معادلة رياضية يمكن اعتبارها اليوم تراكبيـة، قـدمها "كـارل ويرستراس" Karl Weierstrass كمثال علـى وجـود معادلات ذات خاصية الاستمرارية في كل مكان وغيـر متباينة في أي مكان.

في العام ١٩٠٤م، كان "هيلغ فون كـوش" Helge von Koch غير راضياً بتعريفـات "ويرسـتراس" التحليليـة والمجرّدة، فقدم تعريفاً هندسياً للمعادلة ذاتها وأصـبحت مشهورة اليوم باسـم "رقاقـة كـوش الثلجيـة" Koch snowflake.

في العام ١٩١٥م، بنى "واكلو سيرمنـسكي" Waclaw Sierpinski مثلثه الشهير وفي السنة التالية خرج بكـل هندسي متراكب آخر سماه "السجادة". كانت هذه الأشكال الهندسية التراكبية توصف على أنها منحنيـات curves بدلاً من أشكال ثنائية الأبعاد كما توصف اليوم.

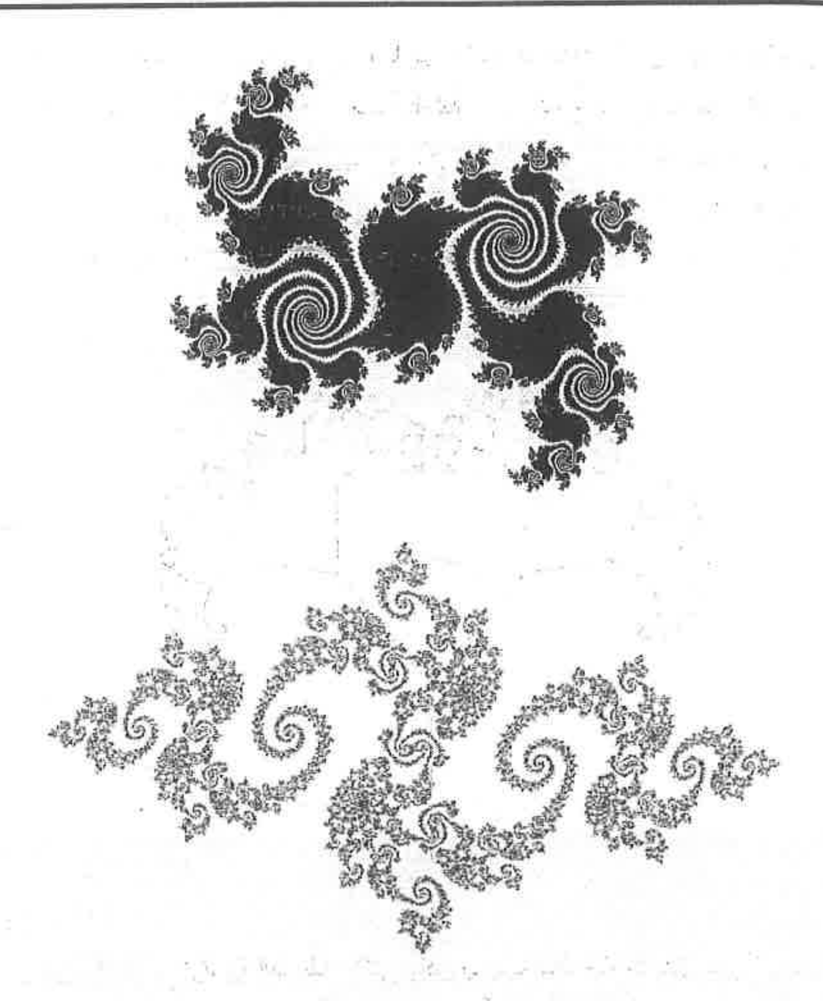
في العام ١٩١٨م، سلّم "بيرترانـد روسـل" Bertrand Russell بوجود جمال سامي في الرياضيات التراكبيـة التي بدأت تبرز إلى الساحة العلمية في ايامه.

تقدمت فكرة المنحنيات المتشابهة ذاتياً أشواطاً إلى الأمام عندما قدم "بول بيير ليفي" Paul Pierre Levy في العام ١٩٣٨ ورقته العلمية المتناولة لموضوع المنحنيات الفراغية أو المنبسطة وكذلك سطوح تحتوي على أجزاء متشابهة مع الكل، وقد وصف نوع جديد من المنحنيات التراكبية وسماه "منحنى ليفي" Levy C curve. وقد قدم "جورج كانتور" Georg Cantor أمثلة على مجموعات جزئية للخط الأصلي مع خاصيات غير عادية، هذه المجموعات الجزئية اصبح معترف بها اليوم على أنها تراكبية.



هذه من بين الأشكال التراكبية البسيطة والتي يمكن بسهولة ملاحظة التطابق بين كل من الأجزاء الصغيرة وبين الشكل الكلّي للشجرة.

لقد تم البحث في موضوع المعادلات المتكررة في المسطح المعقّد منذ أواخر القرن التاسع عشر حتى بدايات القرن العشرين، وذلك من قبل رياضيين مشهورين مثل "هنري بونكاريه" و"فيلكس كلاين" و"بيير فاتو" و"غاستون جوليا". لكن مهما كان الأمر، في غياب برامج الغرافيك الكمبيوترية العصرية التي لدينا لم تسنح لهم الفرصة للتمتع بمدى جمال الأشكال التي اكتشفوها رياضياتياً.



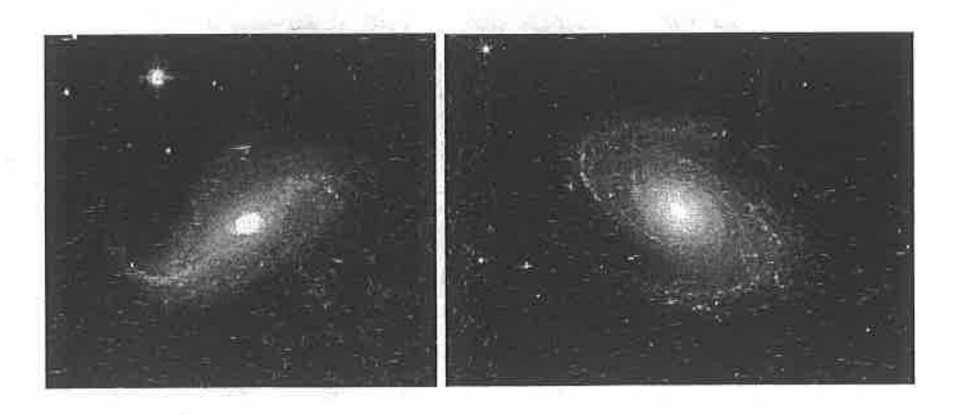
رسوم تم إنشاءها بواسطة برامج غرافيك تستعرض بطريقة فنية جميلة، لكن معقدة، كيف الكل يمثّل الجزء والجزء يمثل الكل

في الستينات من القرن الماضي، بدأ "بينوا ماندلبروت" Benoit Mandelbrot يبحث في موضوع التشابع الذاتي في أوراق عديدة لها علاقة، كتلك التي تبحث في طول الخط الساحلي لبريطانيا، وكذلك الورقة العلمية العائدة للعالم "لويس فراي ريتشاردسون" Lewis Fry Richardson المتناولة لموضوع التشابه الذاتي الإحصائي والأبعاد التراكبية. وأخيراً في العام ١٩٧٥م، خرج "ماندلبروت" بالمصطلح "تراكب" fractal للإشارة إلى جسم يتشابه شكل الهندسي الكلّي مع شكل أجزاءه. لقد استعرض هذا التعريف الرياضياتي من خلال صور تراكبية مذهلة تم

تصنيعها على جهاز الكمبيوتر، وقد سلبت خيال كل من شاهدها. معظمها استندت على عملية تكرار عملية بسيطة بحيث جعلت شكل بسيط يصبح معقّد جداً لكنه يحافظ على جماله وتناسقه.

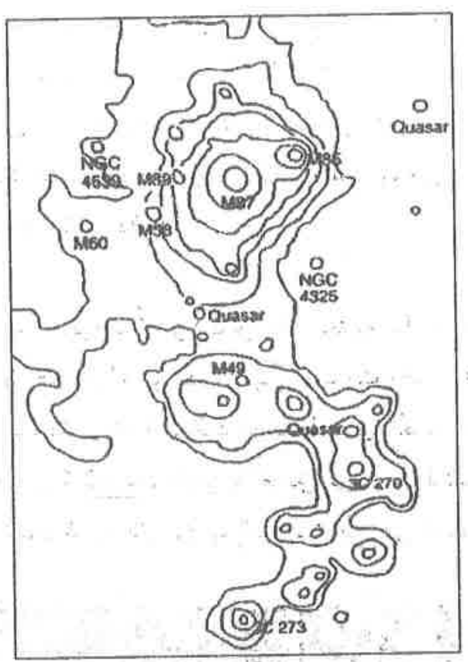
لكن "ماندلبروت" لم يتوقف عند هذا الحد حيث في العام ١٩٧٧م أعلن بأن توزيع المجرات النجمية في الفضاء يُظهر نمط متراكب. بعد دراسة مدققة في خرائط المجرات وجد أنها تتبع صيغة تراكبية وهذا يعني إمكانية أن يكون الكون بكامله ذو طبيعة تراكبية. وبالفعل، الصور التي التقطتها أقوى التلسكوبات المجهّزت بكاميرات CCD والمدعومة ببرامج رقمية دقيقة أظهرت ما يكفي من تفاصيل لتؤكّد هذه الفرضية.

الأمر لا يتطلب معادلات حسابية معقّدة ولا نظريات رياضية لعلماء بارزين. في هذا العصر المعلوماتي الواسع كل ما عليك فعله هو الدخول إلى الإنترنت والنظر في صور المجرات النجمية وترى الحقيقة واضحة أمامك. سوف تلاحظ ذات النمط الذي تتخذه أشكالها مهما كان حجمها وامتدادها. جميعها تتبع صيغة الدوامة. الصورة أصدق من آلاف الكلمات. ما تراه أمامك يثبت بشكل جازم أن نظرية نشوء الكون التي يتبعها العلم المنهجي هي خاطئة تماماً.



إذا دققت النظر في بعض الصور الواضحة لتلك المجرات الدوامية، ستجد بأنها تحتوي بداخلها على نسخ متطابقة من الدوامات الأصغر حجماً، وبعض هذه النسخ موزعة على محيطها الخارجي. وإذا كانت الصورة أكثر وضوحاً ستلاحظ وجود دوامات متراكبة أصغر وأصغر. وإذا تابعت في البحث بهذا الموضوع سوف تتوصل إلى نظام تصاعدي لهذا النمط تحديداً، بدءاً من

المذنبات ثم النجوم ثم الغمائم السديمية ثم المجرات ثم العناقيد النجمية ثم العناقيد النجمية العملاقة.. وهكذا.. كلها تتبع نفس الصيغة: الدوامة.



صورة رقمية للعنقود النجمي "فيرجو" Virgo Cluster
لاحظ تعدد الدوامات (الدوائر) الموزعة بأحجام مختلفة داخل العنقود

في الوقت الذي كان فيه العلماء يبحثون في تركيبة المجرات الكونية والتكتلات العنقودية الهائلة التي تشكّلها، كان يجري بنفس الوقت أبحاث واكتشافات ثورية على المستوى الذرّي، والذي يدعو للعجب هو أن هذا النمط الذي لاحظوه على مستوى المجرات والأجرام السماوية، هو ذاته الذي لوحظ وجوده على هذا المستوى الدقيق جداً. من هنا برز ما اصبح يُعرف بـ"فيزياء الكتل العنقودية المكروية" والتي ستعمل على تغيير نظرتنا بالكامل نحو العالم الكمّي، بحيث ستقدم لنا وجه جديد ومختلف تماماً لما نعرفها بـ"المادة" والتي لا تخضع لأي من القوانين الفيزيائية التقليدية. ***الكتل العنقودية المكروية*** هي جسيمات دقيقة تقدم دليلاً واضحاً على أن الذرّات هي عبارة عن ***دوامات*** في الأيثر وتتجمع لتشكّل اجسام مختلفة حسب اختلاف وتيرة التردد.

طرق مختلفة لتجلّي حالة التراكب في الكون

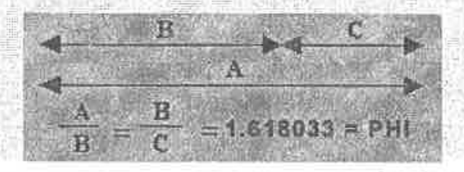
هناك عدد كبير من الطرق التي يمكن أن تتجلّى عبرها حالة التراكب، لكن سوف أذكر ثلاثة نماذج مختلفة كأمثلة على تنوعها:

١ ــ التراكب الشكلي:

يمكننا ملاحظة التراكب الشكلي بوضوح في الطبيعة، مثل تماثل شكل أغصان الشجرة مع كامل الشجرة، أو توزيع المجرات النجمية في الفضاء الذي يُظهر نمط متراكب إذ تتخذ هذه المجرات شكل دوامة وتحتوي بداخلها على نسخ متطابقة من الدوامات الأصغر حجماً.

٢ ــ التراكب وفق معدّل متوسّط رياضياتي:

في الحقيقة يوجد أمثلة كثيرة على هذا النوع من النسب الرياضية التي تثبت وجود توافق بين الأعلى والأسفل، أشهر هذه النسب هي تلك المذكورة سابقاً والتي يشيرون إليها بـ"النسبة الذهبية" أو "المقطع الذهبي" أو "الباي الذهبي" أو غيرها من مصطلحات مختلفة تشير إلى هذا المقياس الأساسي المتجلّي في معظم مظاهر الطبيعة. هذه النسبة الذهبية هي فريدة من نوعها بحيث نسبة "الكل" لجزئه الأكبر هو متطابق مع نسبة "الجزء الأكبر" للجزء الأصغر. أبسط تعبير لهذه النسبة يتجلى كما في الشكل التالي:



كافة الكائنات الحيّة لا بدّ من أن يخضع أحد مظاهرها لقانون النسبة الذهبية. فهي تحكم طريقة تناسق الأزهار، وكذلك توزيع الأوراق، وتحكم طريقة توزيع الألوان في الطيور. جمال المظهر لكل من تقاسيم الوجه يخضع للنسبة الذهبية. *(ذكرتها في الجزء الثالث من هذه المجموعة، تحت عنوان: الهندسة المقدسة).*

لكن يوجد نسب كثيرة أخرى، مثل نسبة [٣٤٥٦٠] التوافقية. تعتبر إحدى النسب الرياضية المثيرة للجدل، وقد اكتشفها الفيزيائي "راي تومز" Ray Tomes. اكتشف "تومز" بأن متوسط المسافة بين كافة الأجرام الفضائية (كواكب، اقمار، شموس،.. هكذا) هي متصلة ببعضها عن طريق نسبة [٣٤٥٦٠] التوافقية. فمثلاً:

ـ إذا أخذنا متوسط المسافة بين الأقمار التي تدور حول كواكب النظام الشمسي وضربناها بعامل نسبة [٣٤٥٦٠] التوافقية، سوف نحصل على متوسط المسافة بين كواكب النظام الشمسي.
ـ إذا أخذنا متوسط المسافة بين كواكب النظام الشمسي وضربناها بعامل نسبة [٣٤٥٦٠] التوافقية، سوف نحصل على متوسط المسافة بين النجوم (الشموس).
ـ إذا أخذنا متوسط المسافة بين الشموس وضربناها بعامل نسبة [٣٤٥٦٠] التوافقية، سوف نحصل على متوسط المسافة بين المجرات.
ـ إذا اخذنا متوسط المسافة بين المجرات وضربناها بعامل نسبة [٣٤٥٦٠] التوافقية، سوف نحصل على حجم الكون المعروف.

هذا يفترض وجود تنظيم تراكبي للكون، وهذا يعني وجود تماثل ما في كافة المستويات. التشكلات الهندسية التي تخلقها الرياضيات التراكبية قابلة للتضخيم بشكل غير محدود، ومهما كبّرت هذا التشكيل سوف يحافظ على أجزاء متطابقة شكلاً مع الكلّ. وهذا بالضبط ما يمكننا فعله مع نسبة [٣٤٥٦٠] التوافقية، حيث يمكن إجراء حسابات للمسافات نزولاً أيضاً وليس فقط صعوداً:

ـ إذا ضغطنا متوسط المسافة بين الأقمار بعاملين لنسبة [٣٤٥٦٠] التوافقية، سوف نحصل على متوسط المسافة بين خلايا الحيوانات والنباتات.
ـ إذا ضغطنا متوسط المسافة بين هذه الخلايا بعامل نسبة [٣٤٥٦٠] التوافقية، سوف نحصل على متوسط المسافة بين الذرات.
ـ إذا ضغطنا متوسط المسافة بين الذرات بعامل نسبة [٣٤٥٦٠] التوافقية، سوف نحصل على متوسط المسافة بين النيوكلونات nucleons، وهي أصغر الجسيمات في الكون.

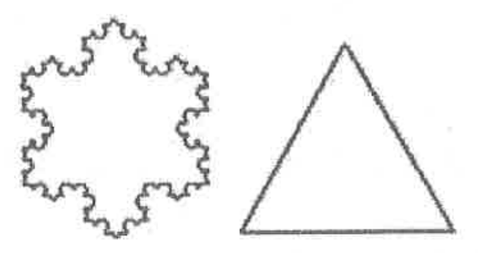
إنه عجيب فعلاً كيف يمكن لهكذا نظام حسابي بسيط ان يعمل بهذه البساطة والدقة شاملاً كافة المستويات ابتداءً من المستوى الكمّي مروراً عبر الخليوي وصولاً إلى المستوى المجرّي. لكن بالإضافة إلى ذلك، فإن تطبيقات نسبة [٣٤٥٦٠] التوافقية لا تتوقف عند الأمور المذكورة سابقاً بل هناك المزيد.

ـ إذا ضغطت سرعة الضوء بعامل نسبة [٣٤٥٦٠] التوافقية سوف تحصل على سرعة الصوت.
ـ إذا ضغطت سرعة الصوت بعامل نسبة [٣٤٥٦٠] التوافقية سوف تحصل على سرعة الحرارة.

إذاً هناك علاقة مباشرة بين سرعة الضوء وسرعة الصوت والحرارة عن طريق نسبة [٣٤٥٦٠] التوافقية. في الحقيقة يوجد الكثير من التطبيقات لهذه نسبة التوافقية لكن أعتقد بأن الفكرة قد توضّحت جيداً.

٣ـ التراكب المبدئي:

لكي أوضّح القصد وراء تعريف هذا النوع من التراكب سوف أستخدم الشرح التصويري. يبدو واضحاً وجود اختلاف كبير بين الشكلين التاليين، لكن الحقيقة أنهما مرتبطان ببعضهما بشكل صميمي، والسبب هو وجود مبدأ عام يجمعهما.

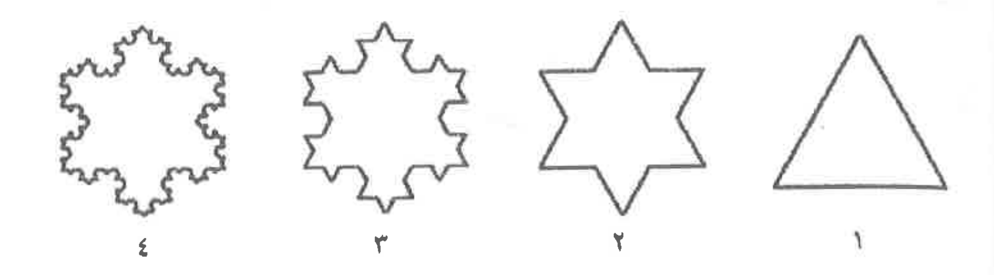


شكل مثلث وشكل بلورة ثلجية، يجمعهما علاقة صميمية

لقد بدأت هذا البحث في الصفحات السابقة بتعريف الشكل المتراكب وأنه يتشكّل من خلال تكرار إجراء بسيط، والتكرار المستمر لهذا الإجراء البسيط يمكنه أن ينتج في النهاية أشكالاً بدرجة كبيرة من التعقيد. وذكرت مثال الخط المستقيم، وزودناه بالأمر التالي: ".. اصنع مثلث في

منتصف الخط المستقيم..."، وانتهى به الأمر متخذاً شكل فائق التعقيد بحيث لم يعد يـشبه الـشكل الأول.

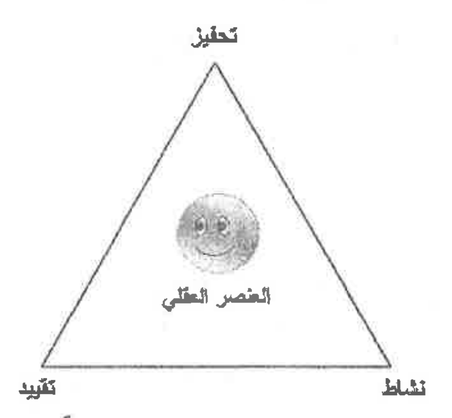
الفكرة المطروحة هنا مشابهة تماماً، إذ أن العامل المشترك بين الشكلين السابقين هو أمر محـدد زودناه للمثلث فانتهى به المطاف متخذاً الشكل النهائي الذي يشبه البلورة الثلجية. أما كيف تمـت العملية، فالأمر بسيط، قمنا بتزويد المثلث بالأمر التالي: ".. اصنع مثلث فـي منتـصف الخـط المستقيم.."، فانطلقت بعدها العملية المتسلسلة التالية التي اختصرناها إلى أربعة مراحل:



إذاً، العامل المشترك بين شكل المثلث والشكل النهائي الذي اتخذه هو عامل مبدئي، وهـذا مثـال واضح على الآلية التي يتجلى عبرها التراكب المبدئي في الكون. وبهذه الطريقة بالـذات تتجلـى المبادئ الكونية التي نشأت خلال عملية الخلق، مثل مبدأ الأطوار الأربعة والمبدأ السباعي والمبدأ الاثنى عشري وغيرها من مبادئ مختلفة. قد ننخدع بالمظهر الخارجي للأشياء (بفعـل الخـداع البصري أو محدوديته) بحيث لا نلاحظ وجود هذه المبادئ متجلية فيها بوضوح لكنهـا موجـودة فعلياً وتلعب دورها على أكمل وجه. لكي أوضّح هذه الفكرة، سوف استخدم مبدأ "الثالوث" كمثال، إذ سنرى كيف يتجلّى هذا المبدأ بطريقة تراكبية في الكون وعلى كافة المستويات.

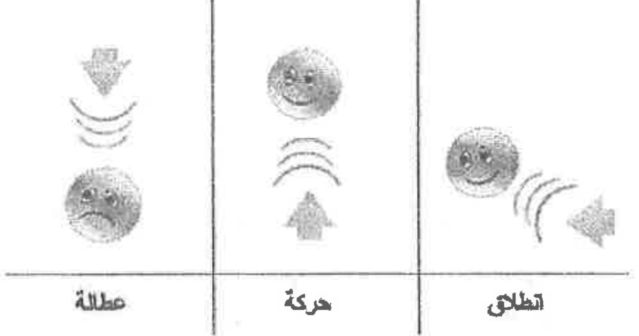
تجلّي مبدأ الثالوث بطريقة متراكبة

شرحت سابقاً كيف أن الوجود مؤلف من ثلاثة مكونات أساسية، [١] العقـل و[٢] الحركـة و[٣] المحتوى. لكن هذا الثالوث مسبوق بعامل محفّز سميناه الإرادة الإلهية. أي انه لا يمكن حـصول تجلّي من أي نوع دون أن يتلقّى هذا الثالوث دفعة أوليّة من عنصر الإرادة (الـذي خلـق مبـدأ الحركة هو تحفيز الإرادة أصلاً). وبالتالي يمكن وصف هذه الحالة على الشكل التالي:



العنصر العقلي يقبع وسط مثلث يحتل زواياه كل من: عنصر محفّز، عنصر نشط، وعنصر مقيّد

يمكن توضيح الفكرة السابقة بطريقة اخرى (كما في الشكل التالي)، لاحظ العنصر العقلـي يمـرّ عبر ثلاث حالات مختلفة:



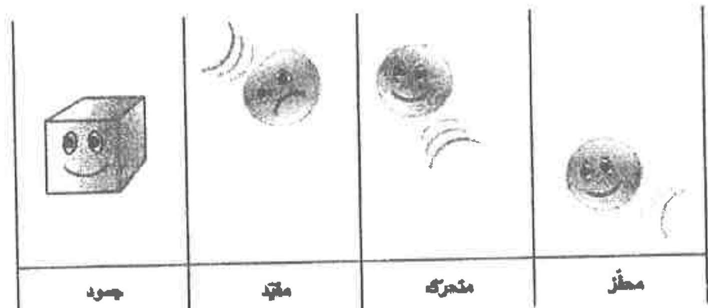
تم تحفيز العقل فانطلق، يمرّ في فترة نشاط وحيوية وحركة، ثم تُكبح حركته ويُقيّد نشاطه. من هنا جاء مفهوم: العنصر المحفّز، العنصر النشيط، والعنصر المقيّد



العنصر المحفّز، العنصر النشيط، والعنصر المقيّد

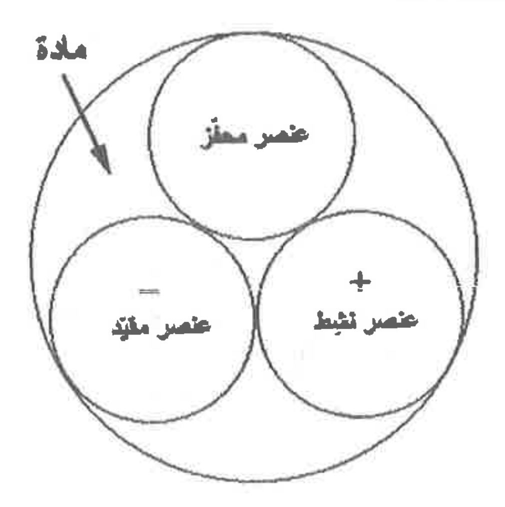
تفاعل عناصر هذا الثالوث نتيجة تحفيز الإرادة يخلق حالة، وتُحدد مواصفات وخصائص وطبيعة هذه الحالة بناءً على الطريقة التي تفاعل عبرها العناصر الثلاثة (سوف أشرحها لاحقـاً)، لكننـا

سنعتبرها الآن حالة مثالية. هذه الحالة هي الطور الرابع في مبدأ الحركة. الشكل التالي يوضح المسألة:



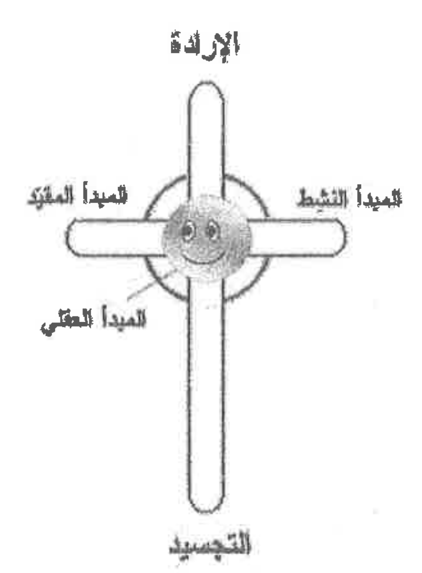
تعرفنا سابقاً أنه بعد الأطوار الثلاثة للحركة (اندفاع، حركة، عطالة) يأتي طور التوقّف، وبالتالي الحالة التي تنتج من تفاعل العنصر المحفّز مع العنصر النشِط والعنصر المقيّد هي حالة جمود. أي بمعنى آخر، المادة (التي تمثّل العقل في حالة جمود) تتألف من ثلاثة مكونات رئيسية: [١] عنصر محفّز، [٢] عنصر نشِط، و[٣] عنصر مقيّد.

لهذا السبب يصورون هذه الحالة الأخيرة (الجمود) بأنها دائرة كبيرة تشمل ثلاثة دوائر وكل دائرة تمثّل أحد العناصر الرئيسية الثلاثة.



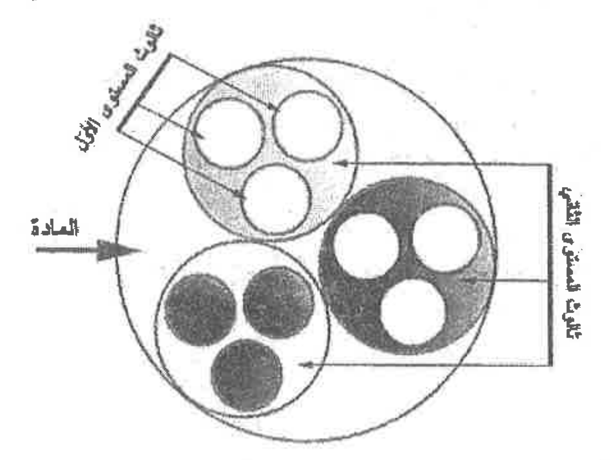
المادة تتألف من ثلاثة مكونات رئيسية: [١] عنصر محفّز، [٢] عنصر نشط، و[٣] عنصر مقيّد

يتم التعبير عن الفكرة السابقة وفق منظومة تعاليم شجرة الحياة على الشكل التالي:



هذا الشكل يمثّل الفكرة الأساسية التي يرمز لها الصليب. حيث يقبع مبدأ العقل في الوسط على شكل دائرة، والأذرع الأربعة تمثّل: الإرادة (في القمة)، ومبدأ النشاط (على اليمين)، والمبدأ المقيّد (على اليسار)، والتجسيد المادي (في الأدنى). حتى أنهم ميّزوا هذا العنصر الأخير عن طريق زيادة طول الذراع الأدنى وذلك لإبعاده عن عناصر الثالوث الأساسية. (سوف أتناول هذا الجانب لاحقاً)

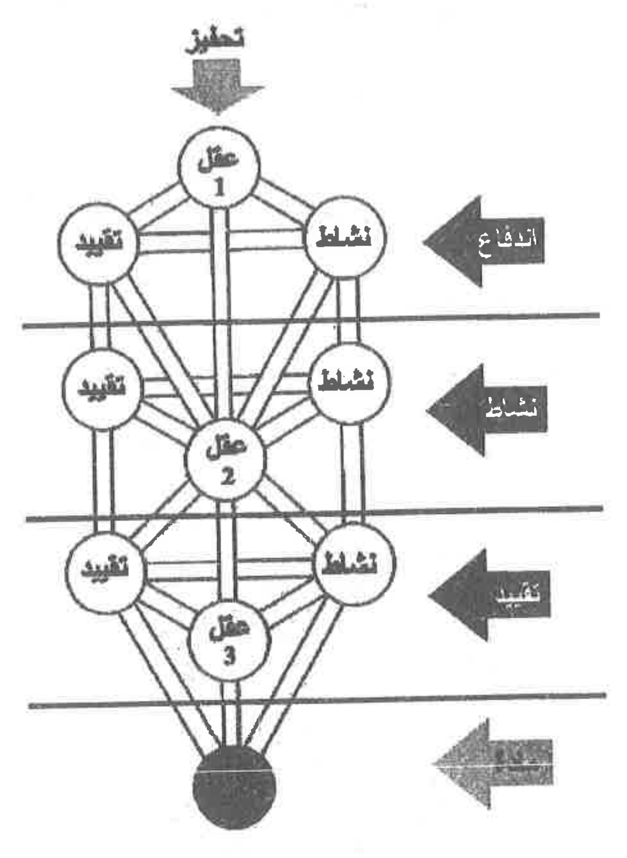
لكن الفكرة السابقة هي نظرية أكثر من كونها حقيقية، فالواقع يختلف تماماً. بعد تلقي دفعة من الإرادة الإلهية وانطلاق مسيرة التجلّي، يتحوّل الثالوث (بسبب الطبيعة التراكبية للكون) إلى ثلاثة ثواليث متسلسلة، ويصبح كل ثالوث يمثّل عنصر من عناصر الثالوث الرئيسي:



المادة تتألف من ثلاثة مكونات رئيسية: [١] عنصر محفّز، [٢] عنصر نشط، و[٣] عنصر مقيّد.
وكل من هذه المكونات الرئيسية يتألف ثلاثة مكونات رئيسية.

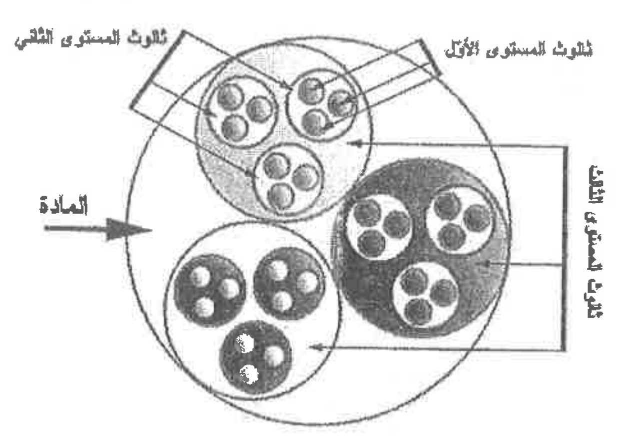
كما رأينا في الصورة السابقة، يصبح لدينا ثلاث حالات (بفعل الطبيعة التراكبية لمبدأ الثالوث) إذ تتخذ كل من هذه الحالات دوراً متوافقاً مع أحد عناصر الثالوث: عنصر محفّز، عنــصر نــشط، وعنصر مقيّد. وكل من هذه الحالات الثلاثة تتألف أصلاً من المكونات الرئيسية الثلاثة.

يتم التعبير عنها وفق منظومة تعاليم شجرة الحياة على الشكل التالي:



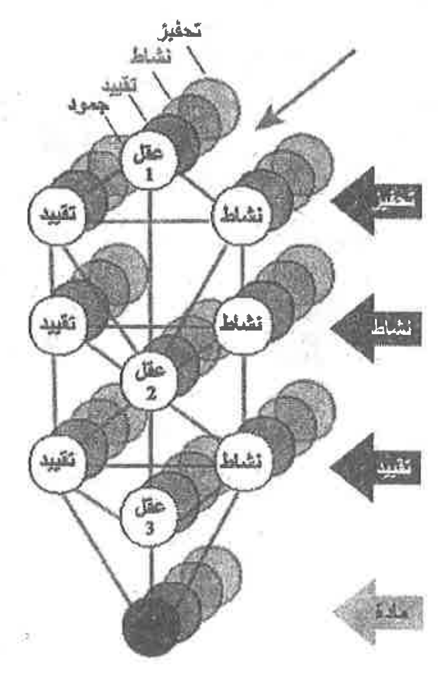
ثلاثة مثلثات متساساة عمودياً، ويمثل كل منها عنصر محفّز، عنصر نشط، وعنصر مقيّد

مع استمرار مسيرة التجسيد، تتشكّل حالة جديدة تشمل الحالات السابقة بمجموعات ثلاثية. وهكذا حتى تصل المستوى المادي.



المادة تتألف من ثلاثة مكونات رئيسية: [1] عنصر محفّز، [2] عنصر نشِط، و[3] عنصر مقيّد. وكل من هذه المكونات الرئيسية يتألف ثلاثة مكونات. وهذه المكونات الأخيرة يتألف كل منها من ثلاث مكونات.

وفقاً للتعاليم شجرة الحياة، ينتهي الأمر بتشكّل أربعة أشجار مختلفة، وكل شجرة تتخذ دوراً متوافقاً مع أحد عناصر الثالوث، كما في الشكل التالي:



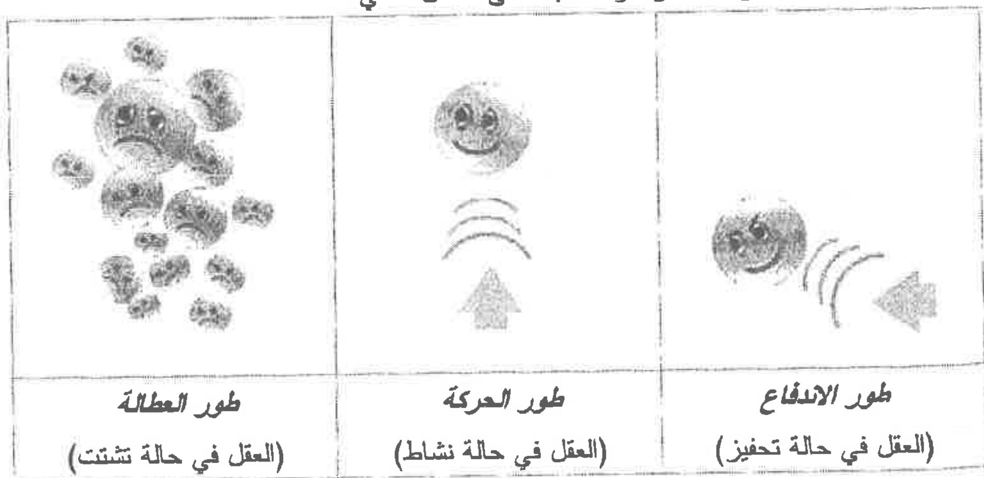
إذاً، مسيرة التجلّي تحصل وفق مراحل ثلاثية وليس مراحل انفرادية تسلسلية (مرحلة مرحلة) كما يفرضه المنطق العلمي المألوف. وبالتالي، إذا نظرنا إلى كامل مسيرة التجلي التي شرحتها طوال الصفحات السابقة، أي منذ استهلالية الخلق (تكاثف المحتوى في المركز) حتى حالة التعددية (ولادة الزمكان)، نجد أن هي أيضاً تنقسم طبيعياً إلى ثلاثة مراحل رئيسية:

١ـ المرحلة الأولى: تمثّل طور الاندفاع (التحفيز). هذه المرحلة متجاوزة للزمان والمكان. مسيرة التكاثف عند مركز الكرة الكونية على شكل حركة لولبية واحدة.

٢ـ المرحلة الثانية: تمثّل طور الحركة (النشاط). تشهد هذه المرحلة ولادة عامل الزمان. هذا يعني التكرار المستمرّ للحركة اللولبية مما أدى إلى نشوء دوامتين ولدتا الشمس عند نقطة التقاءهما في المركز.

٣ـ المرحلة الثالثة: تمثّل طور العطالة (التقييد). تشهد هذه المرحلة ولادة عامل الزمان والمكان (الزمكان)، هذا يعني تكرار عملية التكاثف في كل زمان وكل مكان مما أدى إلى نشوء التعددية. تستحق هذه المرحلة صفة العطالة بسبب حصول حالة انتشار (انفلاش) للحركة المندفعة مما أدى إلى تشتت القوة وفقدان زخمها، وهذا ما سوف أشرحه لاحقاً.

يمكن اختصار هذه المراحل الموصوفة سابقاً على الشكل التالي:



طور الاندفاع (العقل في حالة تحفيز)	طور الحركة (العقل في حالة نشاط)	طور العطالة (العقل في حالة تشتت)

هذه الأطوار الثلاثة تنطبق على المراحل الثلاثة لعملية الخلق:

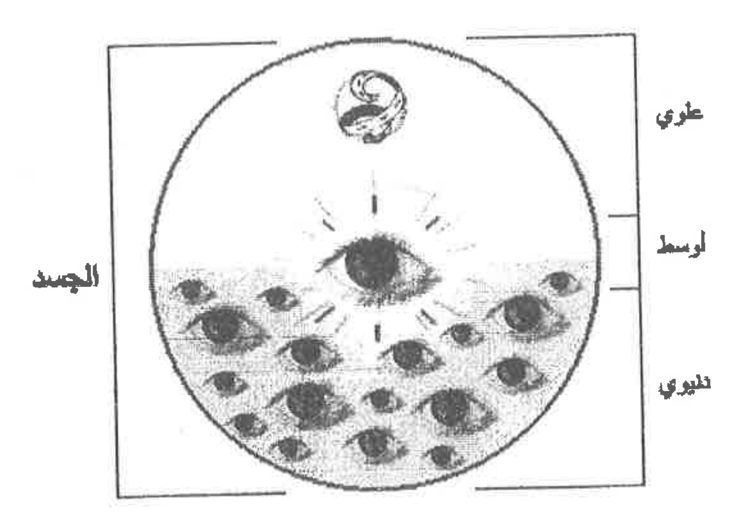
المرحلة الأولى (تحفيز)	المرحلة الثانية (نشاط)	المرحلة الثالثة (تشتت)
مسيرة التكاثف عند مركز الكرة الكونية على شكل حركة لولبية واحدة	تكرار الحركة اللولبية أدى إلى نشوء دوامتين ولدتا الشمس عند المركز	تكرار الحركة اللولبية في كل زمان وكل مكان مما أدى إلى نشوء حالة التعددية

ـ يمكن وصفها بطريقة مختصرة أخرى تتم على الشكل التالي:

المرحلة الأولى (تحفيز)	المرحلة الثانية (نشاط)	المرحلة الثالثة (تشتت)
تلقيح البيضة	تجلّي الوعي	الانشطار والتكاثر
نفخ الروح	بعث الحياة	تزايد في الكتلة (نمو)
المبدأ المحفّز	المبدأ النشط	المبدأ المقيّد
ولادة قوة	تعاظم القوة	تشتت القوة

ملاحظة: هناك الكثير مما وجب معرفته بخصوص هذا الموضوع الأخير لكنني ذكرته هنا لضرورة حظوره من أجل إتمام فكرة "التراكب". الأمر ليس بالبساطة التي يبدو عليها بل يتطلب المزيد من المعلومات قبل أن يتوضح بشكل جيّد.

بناء على هذا التقسيم الثلاثي لمراحل الخلق، يمكننا تكوين فكرة عن التركيبة الثلاثية للكائن المتجلّي (بما في ذلك الإنسان)، وهي مختصرة في الشكل التالي:

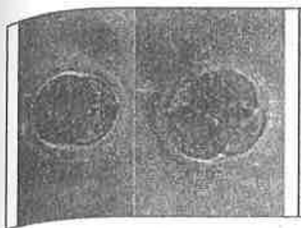


١ــ قسم علوي متجاوز للمكان والزمان، ويشيرون إليه عموماً بالمستوى الروحي. وهو المحفّز الرئيسي لحياة الفرد.

٢ــ قسم أوسط محكوم بعامل الزمان، ويشيرون إليه عموماً بالمستوى العقلي (أسميه الوعي لأسباب متعددة سأشرحها لاحقاً). وهو المسؤول عن كافة المجريات الفكرية والذهنية.

٣ــ قسم دنيوي محكوم بعاملي الزمان والمكان، ويشيرون إليه بالنفس أو الكينونة الجسمية (ليس الجسد الفيزيائي). وهو المسؤول عن كافة المجريات الجسدية مثل النمو والتكاثر واحتلال حيّز مكاني زماني.. إلى آخره

لاحظ كيف أن تعدد الكرات الكونية في القسم الدنيوي يذكرنا بعملية انشطار الخلايا مما يؤدي إلى نمو الجسم وزيادة كتلته (الشكل المقابل). من هنا جاء مبدأ النمو ومبدأ التكاثر الذان يحكمان كل شيء في الطبيعة، مما يحفز كل الكائنات الحيّة والجامدة على النمو والتكاثر.



إذاً، كما رأينا في السابق، كل كائن مؤلف من قسم تجاوزي وقسم متجلّي، ويتوسطهما قسم نشط (الوعي) قابل للحركة بينهما. هذه هي المكونات الأساسية لأي كائن في الكون. هذا الموضوع الأخير سوف يفرض علينا النظر في موضوع آخر مهم جداً لازال يمثّل غموض كبير بالنسبة للكثيرين. إنه موضوع العالم العلوي والعالم السفلي، وهذا ما سوف نبحثه في الصفحات التالية.

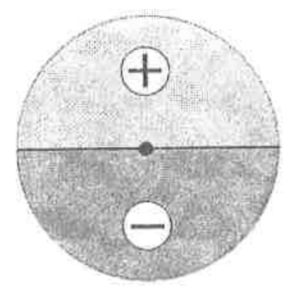
العالم العلوي والعالم السفلي

من المألوف في أدبيات التعاليم الباطنية تقسيم الكون إلى عالمين علوي وسفلي، أو باطني وظاهري، أو تجاوزي ومتجلّي.. إلى آخره، وغالباً ما وردت هذه التقسيمات الثنائية في النصوص الفلسفية المنحدرة إلينا بطريقة اعتباطية يشوبها اللغط والتشويش، إذ يتم أحياناً التمييز بين هذه التقسيمات الثنائية (أي يفرّقون بين العلوي والتجاوزي مثلاً) وأحيان أخرى يتم إدماجها ببعضها واعتبارها شيئاً واحداً، وهذا يجعل الطبيعة الثنائية للكون تبدو غامضة وعصية عن الفهم. يذكرون مظهره الثنائي في التعاليم المختلفة على الشكل التالي: العلوي والدنيوي، السماوي والأرضي، الداخلي والخارجي، الأبدي والزائل، الفكري والمحسوس، الروحي والمادي، التجاوزي والملموس... إلى آخره. فتضيع الحقيقة وسط هذا اللغط الحاصل بين تقسيمات الكون الفعلية.

يعرّف العالم العلوي بأنه المجال الرحب للمجريات الإلهية ويتميّز بمحتواه الفكري والحياة الأبدية، بينما العالم الدنيوي يمثّل التعبير المحسوس والمؤقّت لما هو في الأعلى. يشمل العالم العلوي كافة الأفكار والمثل والشخوص الرمزية والأنماط الأولية لكل الأشياء الموجودة والتي سوف توجد في العالم الدنيوي. هذه الأفكار والنماذج والرموز هي وحدوية متكاملة ومتوالدة أبداً دون أن تنضب، كما أنها واقية وحافظة، ومنشّطة ومنعشة، ومكمّلة ومتمّمة. بالتالي فإن العلوي ليس فقط كاملاً بصورة احتمالية بل هو كامل متكامل بصورة فعلية. هو المملكة التي تتحقق في رحابها كل المثل العليا. أما العالم الدنيوي فهو يشمل الحياة المحسوسة والوجود المادي الذي من خلاله تتجسّد النماذج والصور والشخوص الرمزية المثالية للعالم العلوي، لكنها تكون في هذه الحالة الظاهرية مقيّدة ضمن نطاق الظروف المحدودة التي يفرضها عاملي المكان والزمان. هذه الشروط التي تقيّد العالم الدنيوي تطغي على كامل الطبيعة المتجسّدة مادياً وكائناتها المختلفة.

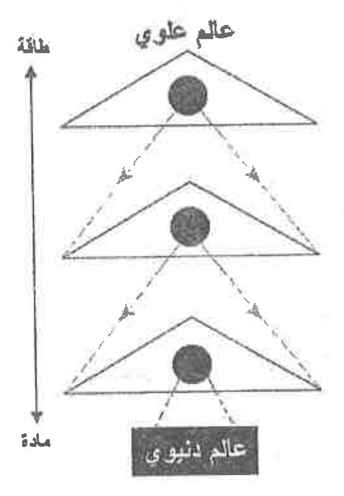
دون أن أدخل في سفسطة المفسّرين والمحللين الساذجين الذين أساؤوا تقييم وتفسير مبادئ ومعاني الحكمة السرية، سوف أدخل مباشرة إلى موضوع التقسيم الثنائي الفعلي للوجود وذلك بالعتماد على ما توصلنا إليه من حقائق حتى الآن في هذا الكتاب.

أوّل ما وجب معرفته هو أن العالم العلوي هو ذاته الباطني والتجاوزي، والعالم الدنيوي هو ذاتـه الظاهري والمتجلّي. جميع المدارس الباطنية حول العالم أحسنت في وصـف العـالم التجـاوزي والمتجلّي وقد أصابت في تقسيم الوجود إلى مظهره الثنائي، لكن الذي لم تتوفق فيه معظـم تلـك المدارس هو طريقة تفسيرها للقصد الحقيقي من العالم العلوي والعالم الدنيوي. هم يوصفون الأمر وكأن العالم العلوي يقبع فوق، والعالم الدنيوي يقبع تحت. أي يتصورون الكون وكأنه مقسوم إلى قسمين، علوي ودنيوي، كما فعلنا سابقاً مثلاً حين قمنا بتقسيم الكرة الكونية إلى موجـب وسـالب (الشكل التالي) مع أن موضوع القطبية يختلف تماماً عن موضوع العلوي والسفلي.



لقد أخطأ المفسّرون في تصوّرهم الكون وكأنه مقسوم إلى قسمين، علوي ودنيوي

لكن في الحقيقة لا يمكن أن نستوعب القصد الحقيقي من مصطلح العلوي والسفلي إلا بعد العـودة إلى مخطط التجسيد المادي الذي أسلفت ذكره والذي يتألف من ثلاثة ثواليث (الشكل التالي):

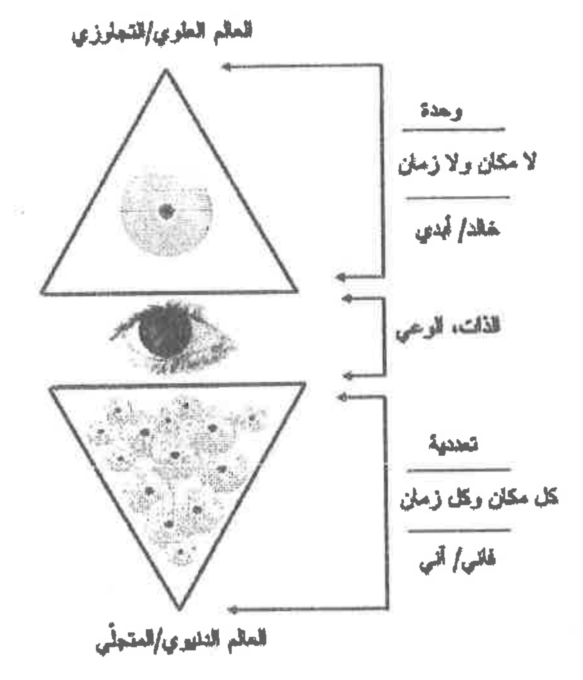


الثالوث الأوّل في المخطط يمثل العالم العلوي، والتجسيد المادي يمثل العالم الدنيوي

العالم العلوي هو ليس القسم الأعلى من الكرة الكونية، بل الثالوث الأعلى من مخطط شجرة الحياة المؤلفة من ثلاثة ثواليث. والثالوث العلوي يمثل العالم التجاوزي، أي المتحرر من عاملي المكان والزمان، بينما العالم الدنيوي يمثله المثلث الأخير وما يليه من تجسيد مادي.

إذاً، ليس هناك فوق وتحت في الكون، لكننا نستخدم هذه المصطلحات لمساعدتنا على تصنيف المواقع في مخطط أو شكل هندسي يمثّل الكون. حتى القانون الهرمزي الشهير "كما في الأعلى كذلك في الأسفل" أسيء تفسيره بشكل كبير، إذ ما يقصده في الحقيقة هو مواقع رمزية في المخطط الذي يعبّر عن سلسلة التجلّي وليس أقسام فعلية في الكون.

بعد التعرف على فكرة وجيزة عن آلية تجلّي الكون أصبح من السهل علينا فهم تقسيماته الرئيسية بطريقة سليمة وواضحة، وبالتالي يمكننا صياغة اختصار رمزي يمثّل صورة نهائية عن مكونات الكون المتجلّي:



هذا مخطط أولي لبنية الكون، وكل من هذين القسمين (علوي/دنيوي) يتألف بدوره من أقسام أو مستويات متعددة، ويمكن إيجاد تناظر وتماثل صميمي بينها جميعاً، ولهذا السبب يمكن التسليم

افتراضياً بخصائصها النسبية عبر قانون التماثل الهرمزي، ومن خلال أخذها كقاعدة سوف نخرج بمخطط كامل (أكثر أو أقل) للكون.

فيما يلي بعض السمات والخصائص التي يتميّز بها كل من العالم العلوي والعالم المتجلّي، والتي يمكن استنتاجها منطقياً بالاعتماد على ما توصلنا إليه خلال الشروحات السابقة لعملية الخلق:

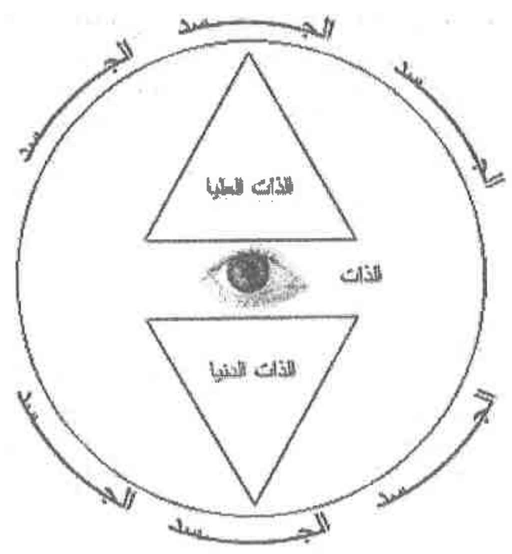
	العالم العلوي	العالم الدنيوي
١	تجاوزي	متجلّي
٢	متكاثف في المركز	منتشر نحو المحيط
٣	انطواء إلى الداخل	انفراج إلى الخارج
٤	فردانية	تعدد
٥	الحقيقة	وهم
٦	مثالية	دونية
٧	واحد	كثير
٨	باطني	ظاهري
٩	روحي	مادي
١٠	فكري	حسّي
١١	كمال	نقص
١٢	غير محدود	محدودية
١٣	صفاوة	شوائب
١٤	لطيف	كثيف
١٥	لامكان ولازمان	محكوم بالمكان والزمان
١٦	أبدية، خلود	مؤقت، زائل

كما نرى من خلال الجدول السابق، الدنيوي هو انعكاس للعلوي، وبالتالي ما يجري في الأسفل هو معاكس لما يحصل في الأعلى، حيث التكاثف في العلوي يصبح انتشار في السفلي... والدوران إلى اليمين يصبح دوران إلى اليسار... وهكذا. لكن مع ذلك، يبقى الأدنا رمزي

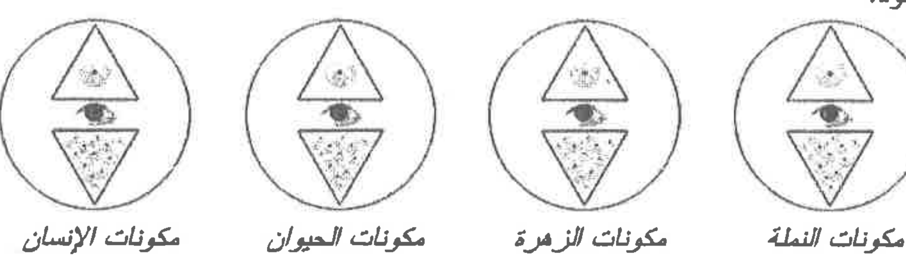
للأعلى، والملموس هو انبعاث من التجاوزي، والخارجي هو تعبير عن الداخلي، والمحسوس هو تعبير عن الفكري.. إلى آخره. هذا الموضوع بالذات سوف نتناوله لاحقاً لأنه يتطلب المزيد من الشرح.

ملاحظة: تذكر أنني ختمت الجزء السابق بالقول أن الخالق يكمل نفسه عبر خلقه. هنا بالذات علينا رؤية الأمر بوضوح ونفهم القصد الفعلي من تلك المقولة. عندما نتكلم عن العالم الدنيوي، الذي يشوبه الكثير من النواقص والشواذ (عكس العالم العلوي) لا بد من أننا نتحدث عن كائن كوني لازال في طريقه إلى الكمال. حيث الكمال لا يمكن أن يوجد سوى في العالم العلوي.

كما تبينه الصورة التالية، كل كائن في الكون مؤلف من قسم تجاوزي وقسم متجلّي، ويتوسطهما قسم نشط (الذات) قابل للحركة بينهما. هذه هي المكونات الأساسية لأي كائن متجلّي. تذكر أنه ليس هناك فوق وتحت في مكونات الكائن، بل تجاوزي ومتجلّي فقط. وبالتالي ليس هناك ذات عليا وذات دنيا بشكل فعلي، كما تعلمه بعض المدارس، بل هي مصطلحات رمزية أكثر من كونها واقعية. أما الجسد فهو منتوج تفاعل المكونات الثلاثة التي يتألف منها. أي يعتمد المظهر الخارجي على طريقة تفاعل المكونات الداخلية. هذه الفكرة سوف تتوضح لاحقاً مع تسلسل المواضيع.



هذا التقسيم الثلاثي للكون ينطبق على كافة الأشياء المتجلية في الوجود. أي أن ما تتميز به الكرة الكونية الشمولية تتميّز به أيضاً كافة الكرات الفردية الجزئية نزولاً إلى أصغر جسيم ذري في الوجود.



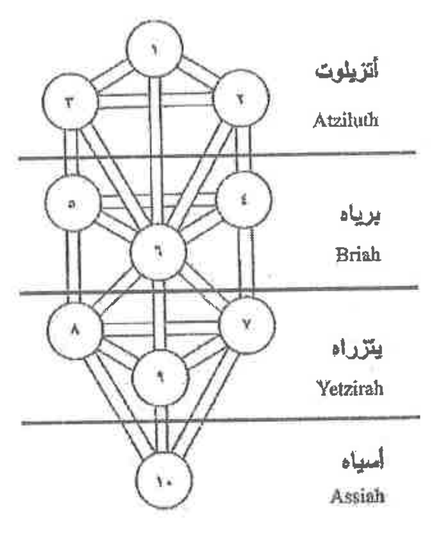
مكونات النملة *مكونات الزهرة* *مكونات الحيوان* *مكونات الإنسان*

كل شيء في الوجود، الجامد والحي، المعدن والنبات والحشرة والحيوان، الذرّة والخلية والكوكب،... يدخل في تركيبتها هذه المكونات الأساسية، لأنها المكونات ذاتها التي يتألف منها الكون. بسبب الطبيعة التراكبية التي تحكم كل الخلق، لا بد من أن كل الكائنات الجزئية تتألف من المكونات التي يتألف منها الكائن الكلّي. الجزء يمثّل الكل، والكل يمثّل الجزء. كما في الأعلى كذلك في الأسفل. هذا قانون ثابت لا يمكن المساومة عليه. لا يقبل الاستثناءات، لا إنسان ولا ملاك ولا شبه إله.. الكل يخضع للقانون.

ملاحظة: هذه الفكرة سوف تتوضح جيداً في موضوع (الجدلية الفلسفية لثالوث التجسيد)

التقسيم الرباعي للكون في تعاليم القبالة

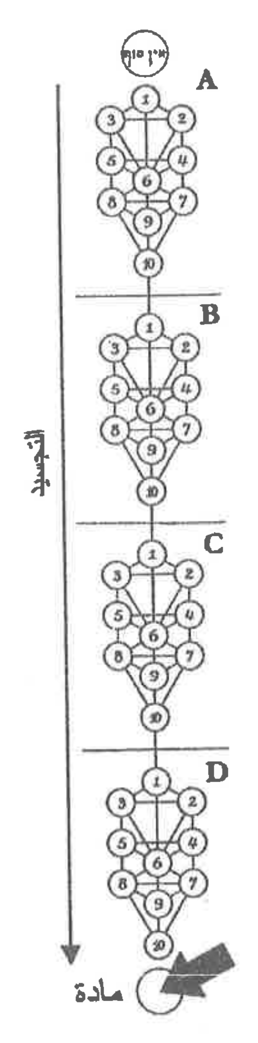
وفقاً لتعاليم القبالة، تنقسم مسيرة تجسيد الكون إلى أربعة أقسام، وهي مشابهة تماماً لتقسيم الكون المشروح سابقاً. كما أنها وصفت عملية التجلّي والتجسيد بطريقة تراكيبية، حيث يمكن تطبيق هذا التقسيم الرباعي على شجرة واحدة أو أربعة أشجار متسلسلة عمودياً. الأقسام الأربعة مبيّنة بوضوح في الشكل التالي:



[١] عالم "أتزيلوت" Atziluth، ويُسمى عالم المفاهيم والمبادئ والأنماط الأولّية Archetypes. هو المكان الذي تكمن فيه الشرارة التي تنبعث منها النماذج والأنماط التي تنشأ في عالم "برياه"، وتتشكّل في عالم "يتزراه"، وتتجسّد في عالم "أساياه". هو عالم الانبعاث، هو عالم المفاهيم والمبادئ والأنماط الأولية. هنا يكون الخالق حاضراً وفاعلاً. هنا تكمن الإرادة الأولى والعقل الصافي. هو عالم الوحدة والموحّدة. في هذا العالم تولد إرادة الخلق. هنا تكمن البذور وجوهر العوالم التي ستُخلق لاحقاً. عند الإنسان، يمثّل مستوى أتزيلوت منبع الإلهام والمفاهيم الأولية، هنا تولد إرادته. يتوافق أتزيلوت مع عنصر النار.

[٢] عالم "برياه" Briah، ويُسمى عالم الخلق والإبداع، الذي تتطوّر فيه النماذج الأولّية في عالم "أتزيلوت". يمكن تشبيه هذا العالم بالمفاهيم العُليا للعقل، والتي ليس لديها هيئة واضحة أو شكل متبلور. في هذا العالم تنشط عملية الخلق وتبدأ الأنماط الأوليّة مسيرتها نحو التجلّي وتكتسب المزيد من الكثافة. هنا تنشأ الثنائية القطبية للأشياء. هنا ينشط العقل ويتحرّك. في الوقت الذي لا وجود فيه للكينونة في عالم

أتزيلوت، نجد أن التفكير بها بدأ في عالم برياه. عند الإنسان، يمثّل مستوى برياه منبع الأفكار والإجراءات الذهنية، هنا يولد وعيه. يتوافق برياه مع عنصر الهواء.



[٣] عالم "يتزراه" Yetzirah، ويُسمى عالم التشكّل، حيث فيه توجد النماذج والهيئات التابعة للأشياء المادية لكن على شكل ضلال. هو عالم الهيئة، عالم التكاثر والتعددية والانفلاش والنمو. هنا تبدأ الطاقة القادمة من عالم برياه باتخاذ شكلاً وهيئة. عند الإنسان، يمثّل مستوى يتزراه منبع المشاعر والعواطف والرغبات والإجراءات الجسدية، هنا يولد شعوره بكينونته. يتوافق يتزراه مع عنصر الماء.

[٤] عالم "أسياه" Assiah، ويُسمى عالم التصرّف أو التنفيذ، والذي يجري فيه فعل ورد فعل المادة والطاقة. هو عالم التجسيدات والظواهر والأحداث والصيرورة. هو عالمنا المادي الذي تبلورت فيه العوالم السابقة حتى أصبحت صلبة. هو الجسد المادي عند الإنسان. يتوافق أسياه مع عنصر التراب.

الشكل المقابل يبيّن طريقة تقسيم مسيرة التجسيد المادي إلى أربع أشجار متسلسلة بدلاً من شجرة واحدة مقسومة إلى أربع مستويات. [A] يمثّل عالم أتزيلوت، و[B] يمثل عالم برياه، و[C] يمثل عالم يتزراه، و[D] يمثل عالم أسياه.

إذاً، بسبب الطبيعة التراكبية للكون المتجلّي، يمكن شرح هذا المبدأ الثلاثي (مع الطور الرابع الذي يمثل نتيجة) بأكثر من طريقة، إذ يمكن شرحه بطريقة مختصرة مستخدماً شجرة واحدة مقسومة إلى أربع أقسام، أو إتباع الشرح المستفيض مستخدماً أربع شجرات متسلسلة.

[٣]

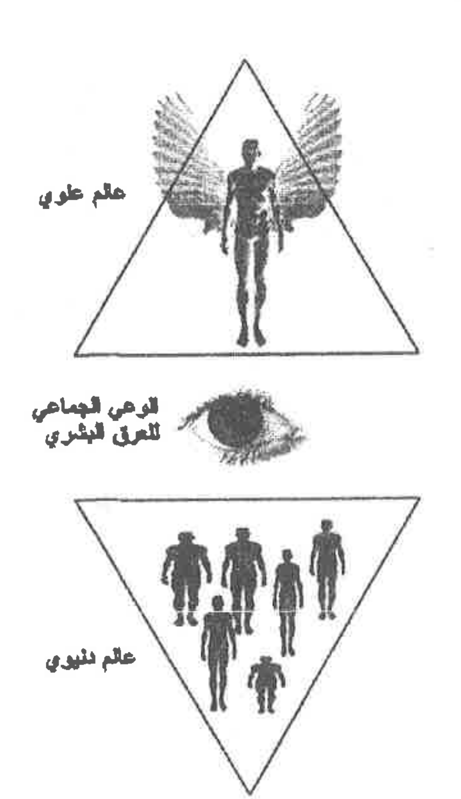
الإنسان

(العالم الأصغر)

كما هي حالة الكون الذي بدأ بانفرادية في العالم العلوي ثم انتهي إلى حالة تعددية في العالم الدنيوي، نجد أن الحال ذاتها تنطبق على كافة الكائنات في الوجود. هذا ما يفرضه مبدأ التراكب، أو الطبيعة الهولوغرافية للكون. وفقاً للفلسفة السريّة، يُشار إلى الكائن الفردي (أي كائن) على أنه النسخة الصُغرى للعالم الأكبر (الكون). بالإضافة إلى ذلك، كما يُشار إلى العالم الدنيوي بأنه يمثّل تعبيراً عن العالم العلوي، كذلك الحال مع العالم الأصغر الدنيوي (الكائن العادي) إذ هو يمثّل تعبير عن العالم النموذجي العلوي (كائن مثالي كامل). الإنسان ليس استثناء من هذه المعادلة التي تحكم الجميع.

الإنسان المثالي الكامل

يكون النموذج المثالي للإنسان، القابع في العالم العلوي، منفرداً (أي نموذج واحد قائم بذاته) بالإضافة إلى كونه كامل وأبدي. ومنه تنبعث كافة النماذج الإنسانية المختلفة التي نراها في العالم المحسوس. وكلما كان الإنسان الدنيوي أقرب إلى التشابه مع هذا النموذج المثالي كلما زادت حظوظه في وراثة الحق في مشاركته خصائصه الجليلة وتجسيدها في عالمه الدنيوي بدرجة معيّنة من المجد والتألّق. تعتمد درجة هذا المجد على مدى التشابه مع هذا النموذج المثالي الكامل.



العالم العلوي يكمن فيه إنسان نموذجي واحد، وهو كامل السمات والخصائص. أما العالم الدنيوي فتقبع فيه نماذج بشرية مختلفة من حيث السمات والخصائص وذلك لاختلافات زمانية/مكانية في ولاداتهم ومنشأهم، هذا لأن العالم الدنيوي محكوم بعاملي الزمان والمكان.

تكون علاقة النموذج المثالي للإنسان مع العالم العلوي كما علاقة الإنسانية مع العالم الدنيوي المحسوس، حيث أن العالم النموذجي الأصغر (النموذج المثالي للإنسان) هو ذاته المسيح الكوني Universal Christos، أي انه لا يمثّل سيد البشرية فحسب بل سيد الكون أيضاً.

الإنسانية جمعاء

الإنسانية جمعاء هي جوهرياً تعبير للإنسان النموذجي الواحد. يعود التنوّع الكبير لأفراد الإنسانية في العالم الدنيوي إلى أسباب كثيرة تتمحور جميعاً حول سبب رئيسي واحد هو أن العالم الدنيوي محكوم بعاملي المكان والزمان، وبالتالي فإن الاختلاف الحاصل بين البشر يعود إلى اختلاف النقطة الزمانية والمكانية في ولادة ومنشأ كل منهم. فنرى مثلاً تفاوت في درجة العاطفة بين فرد وآخر، وكذلك درجة البأس والذكاء والوداعة وهكذا إلى آخره، بالإضافة إلى اختلاف في البنية الجسدية وتقاسيم الوجه وغيرها من مظاهر وسمات ومواصفات.



الاختلاف في السمات والخصائص بين إنسان وآخر يعود إلى اختلاف الموقع الزماني/المكاني لولادته ومنشأه مما يؤثر على وظروف تكوينه الجسدي والنفسي والفكري

هذا الاختلاف الظرفي يؤدي إلى حصول اختلاف كبير في التعبير دنيوياً من الناحية الفيزيولوجية أو الفكرية أو العاطفية أو حتى المستوى الروحي. كل هذه الجوانب الاختلافية تنتج التنوّع الهائل الذي تتصف به البشرية في العالم الدنيوي.

قُدر لكل إنسان أن يتوصّل في نهاية المطاف إلى حالة يستطيع فيها تجسيد خصائصه وصفاته المختلفة بحالة مثالية متشابهة مع حالة الإنسان المثالي الكامل في العالم العلوي والذي يتجاوز حالة التعددية والاختلاف. يمكن للفرد تحقيق ذلك عبر إجراءات متعددة سوف أتحدث عنها لاحقاً (موضوع "العلم الباطني وفنون تطبيقه")، وفي الحقيقة هذا الموضوع يشكّل محور الأجزاء القادمة.

التكوين الثلاثي للإنسان

تتكرّر فكرة [مبدأ الثالوث] في العالم الأصغر (الإنسان) كما الحال مع العالم الأكبر (الكون) في طبيعتها ودرجتها ومستواها في سلّم التجلّي. في مستوى الإنسان، ينعكس لغز الثالوث في المقومات الأساسية الممثلة بالتالي:

١ــ القسم العلوي أو [الذات العليا]، ٢ــ الوعي المركزي أو [الذات]، ٣ــ القسم الدنيوي أو [الذات الدنيا]. من بين هذه المقومات السابقة تتماثل الأولى والأخيرة مع القسمين الرئيسيين للعالم الأكبر (الكون)، بينما الثانية (أي الذات) تقبع مجازياً بين الاثنين (الشمس المركزية)، وهذا يجعلها تتمتع برؤية ثنائية وقوة ثنائية وغاية ثنائية.



صورة رمزية للطبيعة الثلاثية للإنسان والمماثلة للتقسيم الثلاثي للكون

فوق [الذات] يكمن [القسم العلوي]، المبدأ المثالي، والتي تندمج [الذات] من خلاله مع الوحدة والثلاثية والتعددية الإلهية، ومن دون هذا [القسم العلوي] لا تستطيع [الذات] الدخول بشكل واعي إلى مملكة الحقائق والمثاليات الروحية. (الشكل التالي)

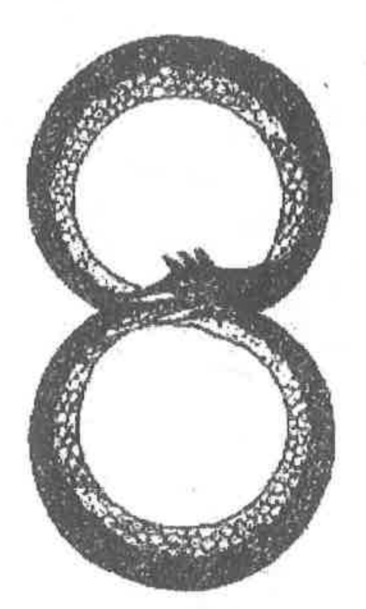


تحت [الذات] يقبع [القسم الدنيوي]، والذي من خلاله تعبّر عن نفسها ومن دونه لا تستطيع المشاركة بشكل واعي مع العالم الدنيوي المحسوس. (الشكل التالي)

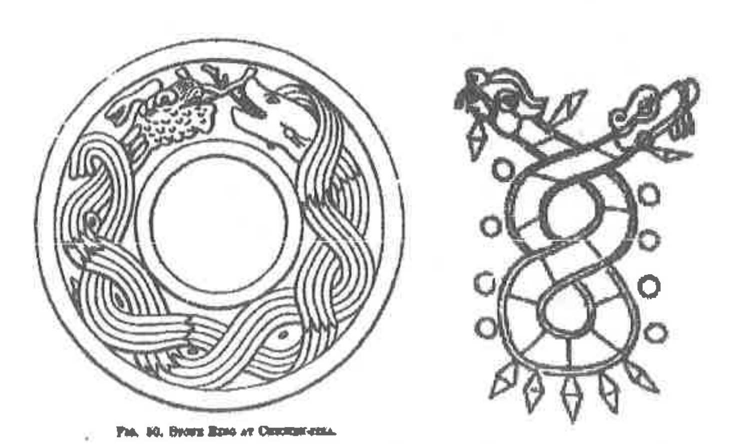


لطالما صوروا الأفعى الكونية بأنها ثنائية المظهر، فتمثّل الأعلى والأدنى، الداخل والخارج، النشيط والخامل، الموجب والسالب، الروحي والمادي.. إلى آخره. تقبع "الذات" وسط هذه الحالة الازدواجية، إذ هي معلّقة مثلاً في الوسط بين قوتين عظيمتين: [١] قوة الإرادة والمسؤول عنها

الجانب العلوي، و[٢] قوة الرغبة والمسؤول عنها الجانب الدنيوي. والجانب الدنيوي هو قوي جداً لدرجة تتطلب مجهود كبير للتغلب عليها.



الأفعى الكونية هي ثنائية المظهر تشمل كل من العالم العلوي والدنيوي معاً



تصوير رمزي للأفعى السماوية والأفعى الدنيوية من موقع "تشيشانيتزا" في المكسيك، ويبدو أنهم أحياناً يصورونها برأسين في جسد واحدة



رسم يبيّن رمز فارسي قديم يمثّل صراع بين أفعتين، الأولى خيّرة (علوية) والأخرى شريرة (سفلية)، وتتصارعان حول حيازة البيضة الكونية (الكائن).

عند اتحادها مع [القسم العلوي] تتماثل [الذات] معه وتنال خصائصه الإلهية، وعندما تندمج مع [القسم الدنيوي] تصبح [الذات] عرضة لمحدوديات العالم المادي المحسوس وتخضع لقوانينه المقيّدة. [الذات] هي منفتحة وطيّعة بشكل لامحدود وبالتالي هي قابلة للتأثّر بشكل كبير، قُدر لها أن تنهل من الوفرة غير المحدودة [للقسم العلوي] من جهة وتجسّد تلك الوفرة دنيوياً من جهة أخرى، وذلك عبر مبادئ التراتب والتناغم والجمال.

لكن هذا الدور الذي تلعبه [الذات] هو في الحالة النموذجية فقط، بينما في الحقيقة نجد أنها انحرفت عند الإنسان كثيراً نحو القسم الدنيوي وراح يتعامل مع بيئته على هذا الأساس. هنا يدخل دور التعاليم السرية التي مهمتها إعادة الذات إلى مكانتها الحقيقية، وهذا ما سوف أتحدث عنه في الأجزاء القادمة. لكن هذه المهمة ليست سهلة إطلاقاً إذ صوّروها بأنها تشبه مصارعة الوحش أو التنين (مغريات العالم المادي).

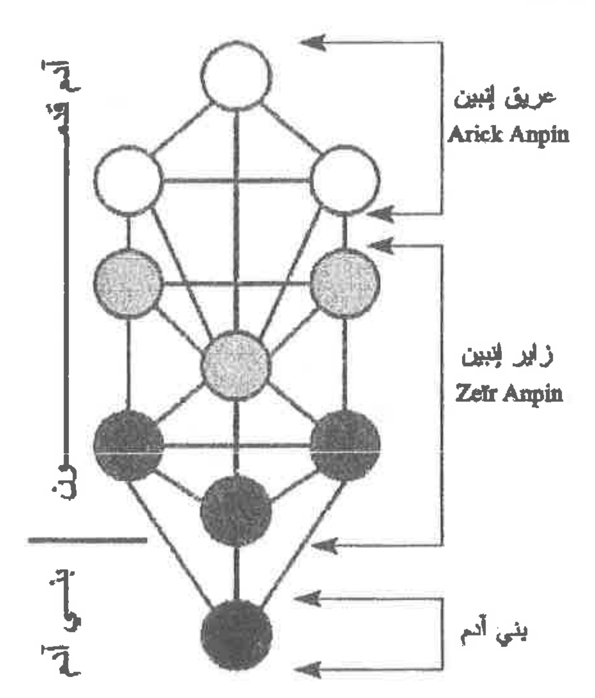
ملاحظة: انظر في موضوع مبدأ الثالوث والتعاليم الروحية، صفحة ٣٣٦

آدم قدمون

Adam Kadmon

ومفهوم الإنسان المثالي الكامل في تعاليم القبالة

وفقاً لتعاليم القبالة، آدم قدمون يمثل مفهوم الإنسان النموذجي الكامل الذي أسلفت ذكره في الفصل السابق، لكن الأمر مختلف قليلاً هنا، حيث آدم قدمون يمثّل الجانب الماورائي للإنسان عموماً وجعلوا هذا الجانب الماورائي ذو وجهين: الوجه الأول قابعاً في عالم "أتزيلوت" أي العالم العلوي أو التجاوزي، وهو عالم الانبعاثات الأولى والأنماط الأولية، وهذا الوجه يُسمى "عريق إنبين" Arick Anpin. أما الوجه الثاني فهو نموذج الإنسان العادي ويقبع في المثلثين الأدنيين من شجرة الحياة (عالم "برياه" وعالم "يتزراه") وأشاروا إلى هذا الوجه باسم "زاير إنبين" Zeïr Anpin. وقد جعلوا المثلثين السفليين يتوجهان للأسفل بينما المثلث العلوي يتوجّه للأعلى تمييزاً للفرق الكبير بين الوجهين.



آدم قدمون يحتل المثلث العلوي والمثلثين الدنيويين، بينما القسم المادي يُسمى بني آدم

إذاً، وفقاً لتعاليم القبالة جعلوا لآدم قدمون (الجانب الماورائي للإنسان المتجلّي) وجهين مختلفين: "عريق إنبين" Arick Anpin و"زاير إنبين" Zeïr Anpin. الوجه الأول يحتل المثلث العلوي وهذا يجعله متجاوز للزمان والمكان مما يجعله خالداً وفي هذا القسم التجاوزي تكمن الإرادة الإلهية الخارقة والوعي التجاوزي. في هذا القسم بالذات يقبع الإنسان المثالي الكامل الذي أسلفت ذكره. أما الوجه الثاني فيحتل المثلثين الدنيويين مما يجعله محكوماً بعاملي الزمان والمكان وبالتالي يجعله القسم مؤقّت أو الفاني للإنسان. هذا القسم الأدنى من الإنسان هو الذي يساهم في تشكيل الشخصية الدنيوية والملكات الذهنية والنفسية والعاطفية للإنسان بحيث تميّزه عن غيره.

أما القسم المادي الذي يمثّل الجسد الفيزيائي وما يرافقه من حواس وصحوة تتفاعل مع العالم الظواهري، فأشاروا إليه باسم "بن آدم" (إبن آدم)، أي المنتوج النهائي للأقسام (المثلثات) السابقة في مخطط شجرة الحياة.

ملاحظة: كلمة "زاير" العبرية والتي قصدوا بها القسم المؤقّت لآدم قدمون، يمكننا استنباط معنى شبيه إذا أخذنا الكلمة باللغة العربية، حيث "زاير" تعني "زائر" (زار، يزور، زيارة)، والشخص الذي يأتي زائراً يعني أن مكوثه مؤقّت في المكان. أما كلمة "عريق" العبرية، والتي قصدوا بها القسم الخالد لآدم قدمون، فيمكننا استنباط شبيه باللغة العربية، حيث كلمة "عريق" تعني القديم أو الصامد أو الأزلي.. إلى آخره، وهذا أيضاً يناسب الوصف الممنوح لهذا القسم العلوي من آدم قدمون.

الواحد والكثير

سوف نلقي نظرة الآن على المسألة الفلسفية المهمة حول "الواحد" و"الكثير" كما فسّرتها التعاليم السريّة. لا يمكن تفسير هذه المسألة أبداً في الفلسفات التي تقول بأن الحياة الواحدة هي "المطلق" ذاته، لأنه يستحيل استيعاب فكرة أن "المطلق" العصيّ عن التقسيم أو التحويل يُقسّم نفسه ويتحوّل إلى أجزاء. لكن مع التسليم بحقيقة أن الحياة الواحدة لا تمثّل "المطلق" [جلّ وعلا] بل تخضع "للقانون"، فسوف يسهل علينا الأمر وتختفي الإشكالات تماماً. ورد في أحد فصول التعاليم السرية المقولة التالية:

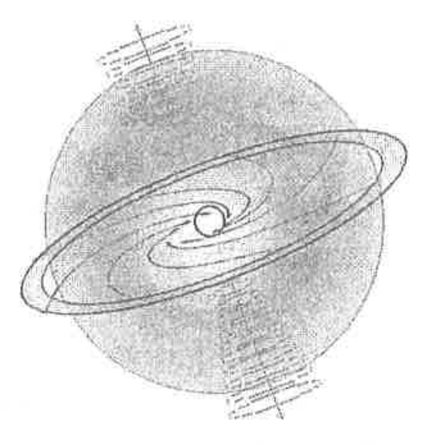
أعلم بأنه يوجد في الحقيقة حياة واحدة وليس حيوات متعددة. الاختلاف هو وهم نسبي وجزئي معاً، هو مجرّد خيال مُختلق في المنظومة الكونية. كل من يعلّم عكس ذلك هو خاطئ. في رحاب الإرادة الإلهية يوجد حياة واحدة يتجلّى عبرها وضمنها الكثير.

وكأن الحكماء الأوائل يوصفون الطبيعة الهولوغرافية للكون لكن بطريقتهم الخاصة، حيث الجزء يمثّل الكلّ والكلّ يمثّل الجزء، أي: "*.. كل شيء يمثّل في الحقيقة شيء واحد..*". لكن مع ذلك، يوجد أمور كثيرة وجب توضيحها هنا.

ورد في إحدى فصول التعاليم السريّة المقولة التالية:

ما يسميه الناس "مادة" هو مجرّد عُقد *(مراكز تكاثف)* لانهائية تصنعها "الإرادة" في "المحتوى" عبر مفعول "الحركة".

ما تؤكده المقولة السابقة أصبح الآن يعتبر حقيقة ثابتة بالنسبة للفلاسفة والعلماء العصريين. لكن العلم المعاصر لا يسميها "عُقد" أو "مراكز تكاثف" بل جسيمات ذريّة. وبكل تأكيد، لا يعترفون بحقيقة أنه خلف نشاطات وظواهر الكون تكمن إرادة إلهية تجسّد نفسها في التنوّع اللانهائي من الأشكال والهيئات الحياتية والسلوكية، إذ يصرّون على أن العشوائية هي التي تسود الكون وعامل الصدفة هو الذي يقرر مظاهر الخلق.



الذرّة عبارة عن نواة (شمس) محاطة في منطقتها الاستوائية بحلقة، وفي محورها دوامة داخلة (من الأعلى) ودوامة خارجة (من الأسفل)

الجسميات الذرية بالنسبة إلى التعاليم السرية هي عبارة عن دوامات أثيرية (مراكز تكاثف للمحتوى الكوني) دائمة الحركة

كافة الجسيمات الذرية في الكون، والتي هي عبارة عن مراكز تكاثف في "المحتوى" الكوني العاقل، هي إسقاطات منعكسة من مركز تكاثف واحد. الاختلاف هو مجرّد خيال مُختلق في المنظومة الكونية، هو وهمي ونسبي. كل الجسيمات الذريّة في الكون تمثّل انعكاسات لمركز تكاثف كوني واحد. كل الحياة هي في النهاية حياة واحدة بطبيعتها الأصلية. بنفس طريقة الجسيمات الذريّة، كافة الكائنات الحيّة تمثّل أيضاً مراكز تكاثف في "المحتوى" الكوني العاقل، حيث تمثّل إسقاطات منعكسة من مركز تكاثف واحد. كافة أشكال الحياة، الحيّة والجامدة، بكل تدرجاتها، إن كان في سلّم الحجم أو التجلّي، تمثّل انعكاسات مختلفة لمركز تكاثف كوني واحد. وسبب الاختلاف والتنوّع اللانهائي في أشكال الحياة يكمن في نقطة مهمة جداً نادراً ما يأتى على ذكرها في المراجع: التكاثف الكوني الواحد هو متجاوز لعاملي المكان والزمان. ***وكل ما حصل ما وراء الزمان والمكان يحصل في كل زمان وكل مكان.*** وبما أن العالم المادي (المتجلّي) محكومٌ بعاملي المكان وزمان، فلا بدّ بالتالي من أن يحصل هذا التنوّع في أشكال وصيغ مراكز تكاثف الوعي في المواد الجامدة والحيّة، حيث تتنوّع المواقع الزمانية والمكانية لكل شكل من الأشكال، مما يجعله مختلفاً عن غيره.

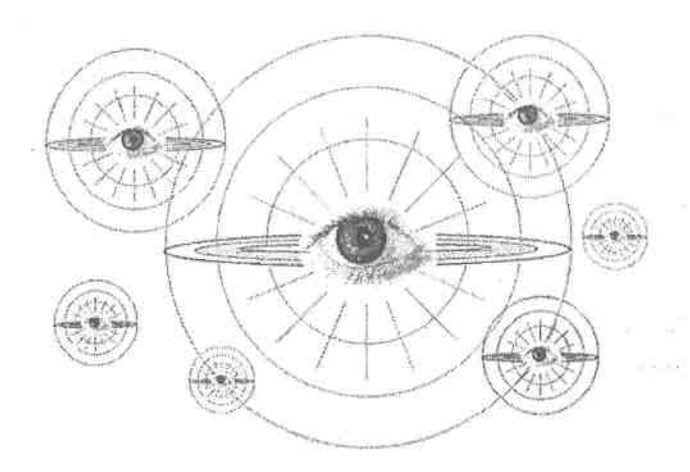
مركز تكاثف الوعي الذي يتجسّد في الشهر الأوّل من فصل الربيع وفي الموقع الشمالي من الكرة الأرضية وعلى المستوى الذرّي في عالم المعادن، سوف يختلف تماماً عن مركز تكاثف آخر للوعي تجسّد في الشهر الثاني من فصل الخريف وفي الموقع الجنوبي من كوكب الأرضية وعلى المستوى الخليوي في العالم العضوي. سوف يختلف من حيث الأداء والوضيفة والشكل لكنه في النهاية يمثّل نسخة طبق الأصل للنموذج الافتراضي لمركز التكاثف الكوني الواحد.

لا زلنا نتكلم ضمن نطاق الكرة الأرضية، وعليك تصوّر مدى التنوّع الهائل عندما تختلف المواقع الزمنية والمكانية على مستوى الكون! مع إضافة عامل آخر يتمثّل بالتدرّج في سلّم الطاقة/المادة! حينها لم يعد العقل البشري قادراً على شمول كل ذلك التنوّع اللامحدود في صيغة تجلّي مركز التكاثف الكوني. إذاً، سبب الاختلاف في صيغة تجلّي مركز التكاثف الكوني يكمن في عوامل زمانية ومكانية يخضع لها عالمنا الدنيوي. أي أنه في هذه الحالة تتخذ الطبيعة الهولوغرافية للكون منحاً مختلفاً. هذه الفكرة تتطلب المزيد من التوضيح وهذا ما سأفعله في أجزاء لاحقة.

نحن شموس تنبعث من مراكز تكاثف المحتوى الكوني

هناك نقطة مهمة تشدد عليها التعاليم السريّة وهي أن الكون يكون واعياً فقط عبر وبواسطة مراكز التكاثف التي يتألف منها. ومراكز التكاثف هذه هي مراكز وعي. دون مراكز الوعي هذه، أي أنت وأنا وكل كائن فرداني في الكون (نبات، حيوان، خليّة، ذرّة، جسيم.. شمس، كوكب..)، سوف تغيب المنظومة الكونية عن الوعي. أي ينعدم الوعي في الكون. أينما يوجد مركز تكاثف للمحتوى الكوني لا بد من وجود وعي. وقد رأينا كيف أن الوعي الذي يقصده الحكماء هو الشمس (المُمثّلة برمز العين). وبالتالي، فإن كافة أشكال الحياة "الفردانيّة" هي عبارة عن "شموس" (مراكز تكاثف للوعي) بحيث تمثّل انعكاسات مختلفة للشمس الكونية المركزية.

بالتالي، عندما يتحدث القدماء عن الشمس ويشرحون مظاهرها وقواها المختلفة فالأمر لا يقتصر على الشمس الكونية المركزية، أو تلك التي تقبع وسط نظامنا الشمسي، بل يشمل كل الشموس في الوجود، أي كافة الكائنات الفردية في الكون، وهذا لا يستثني الجسيمات الذرية التي هي أيضاً تعتبر شموس دقيقة. ما ينطبق على الشمس الكونية ينطبق على باقي الشموس في الوجود، بما فيها نحن.

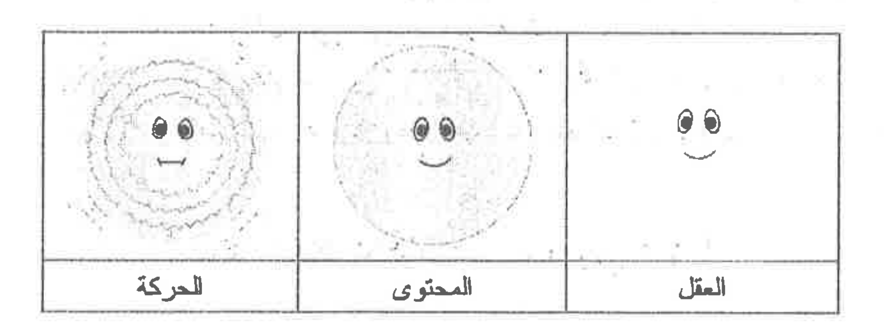


".. كل ذرة، كل جسيم، يدخل في تكوينه ما يدخل في تكوين كامل شكل الكون وبنيته.."

أدغار كايسي

الجدلية الفلسفية لتشكّل ثواليث التجلّي والتجسيد

بالعودة إلى ذلك الشيء الذي سميناه "الطبيعة الكونية"، "المبدأ الإحيائي الكوني"، أو الـ"ديميورغ" Demiurge، وهو الشيء الذي تستطيع عقولنا استيعابه على الأقلّ، وقد وجدنا أنه مؤلف من الثالوث الأساسي [١] عنصر عقلي (وعي، ذكاء،.. إلى آخره)، [٢] عنصر مادي (جوهر، محتوى،.. إلى آخره)، [٣] عنصر نشِط (حيوية، حركة،.. إلى آخره). هذه العناصر بالذات، باختلاف تسمياتها أو أوصافها، هي التي تمثّل الثالوث المقدس الذي تحدثت عنه كافة الفلسفات والأديان حول العالم وعبر العصور. إنه المبدأ الثلاثي الذي تستند عليه كافة الثواليث الأخرى، كما رأينا في هذا الكتاب، وكل ذلك بأمر من الإرادة الإلهية. مع توالد المثلثات من بعضها بالتسلسل، سوف نجد دائماً بأن كل مثلث جديد مؤلف من هذه العناصر الأساسيّة.



من أجل فهم عملية صحوة الكون، أو استثارة نشاطه، أو تجسيده المادي، لا بد من التعرّف جيداً على المبادئ الكونية الثلاثة التي تمثّل أساس انبعاث كل الأشكال والأجسام والهيئات والتركيبات وغيرها من التجليات المتنوعة. هذه المبادئ الكونية الثلاثة هي: [١] مبدأ العقل، [٢] مبدأ الحركة، و[٣] مبدأ المحتوى. لكن في نهاية الأمر، وجب اعتبار هذه المبادئ الثلاثة بأنها تمثّل جوانب مختلفة للشيء ذاته، وهذا الشيء يمثّل انعكاس للجوهر الذي هو السبب الأوّل لانبعاثه أصلاً.

إن ما سنفعله في الصفحات التالية هو وصف الآلية الفلسفية التي أدت إلى استنتاج هذا المبدأ الثلاثي الثابت، وكل ذلك بالتسلسل المنطقي طبعاً. إنها الطريقة ذاتها التي كان يتبعها المعلمون القدامى لشرح موضوع التجلّي الإلهي لتلاميذهم. سلسلة من المثلثات التي تربط بين الإله الأعلى

والكائن الدنيوي.. بين "الجوهر" والعالم المادي الملموس. ويبدو أنها طريقة مجدية بالفعل حيث سهولة الاستيعاب وسرعة الفهم. بالإضافة إلى ذلك، الأمر الأهم المتعلق بهذه الطريقة في شرح ثواليث التجلّي هو أنها توفّر فهم صحيح للمعاني الحقيقية للكلمات التي تستخدمها التعاليم السريّة. فمثلاً، لا أحد يعلم ما هو الوعي تحديداً، لكن مجرّد أن ألقيت نظرة إلى آلية تشكّل هذا العنصر في سلسلة توالد المثلثات سوف تعرف معناه بالضبط. الأمر ذاته ينطبق على كافة المصطلحات الأخرى الواردة في العملية، مثل "الروح" و"الفكر" و"الكينونة" وغيرها. إن هذه الطريقة في الشرح مجدية فعلاً وهذا ما سوف تلمسه بنفسك. بالإضافة إلى أنه من الضروري ذكرها بسبب أهميّة التعرّف على المعاني الحقيقية لهذه المصطلحات المختلفة لنتمكن من استيعاب الفكرة الجوهرية لهذه التعاليم. سوف تلاحظون خلال شرح مراحل تشكّل ثواليث التجسيد بأنه مهما اختلفت الأحوال مع المثلثات المتوالدة تسلسلياً تبقى عناصرها محافظة على ذات المعنى الجوهري. أي نجد دائماً كل مثلث مؤلف من عنصر عقلي (عقل، روح، وعي، كينونة)، عنصر مادي (محتوى، هيئة، إطار، شكل)، عنصر نشط (حركة، فكر، جهد، حيوية). هذه العناصر بالذات، باختلاف تسمياتها أو أوصافها، هي التي تمثّل الثالوث الأصلي الذي تحدثت عنه كافة الفلسفات والأديان حول العالم وعبر العصور. لكن قبل ذلك هناك تساؤل مهم وجب الإجابة عليه:

ما هو الكائن العاقل المفكّر الذي يتمتع بوعي خلاق ؟

هو كائن عاقل مفكّر، يتمتع بوعي خلاق، وكينونته تتميّز عن الكائنات الأخرى من حيث الوظيفة الموكلة لها. محتواه مكوّن من روح، لكن له مظهر وشكل ذو صيغة وإطار تميّزه عن غيره لأنها تتناسب مع وظيفته في الوجود. يتمتع بحيوية وقدرة على الحركة وبذل مجهود معيّن، مزوّد بمخزون محدد من الطاقة ومهيأ باستطاعة مناسبة لأداء الوظيفة التي تجلى من أجلها.

عندما نقرأ التعريف السابق أوّل ما يحضر في الذهن هو صورة الإنسان، لأننا لازلنا محكومون بالمنطق الذي يقول بأن الكائن الوحيد الذي يمكن اعتباره عاقل ومفكّر ويتمتع بوعي خلاق هو الإنسان. هذه القناعة مزروعة بعمق في وجداننا لدرجة نعتبرها حقيقة مسلّم بها. لقد اعتدنا على هذه الطريقة في التفكير لأننا أولينا أهمية كبرى للإنسان على حساب الكائنات الأخرى، لكن الذنب ليس ذنبنا على أي حال. لقد فُرضت هذه الفكرة علينا منذ آلاف السنين وقد اعتدنا على

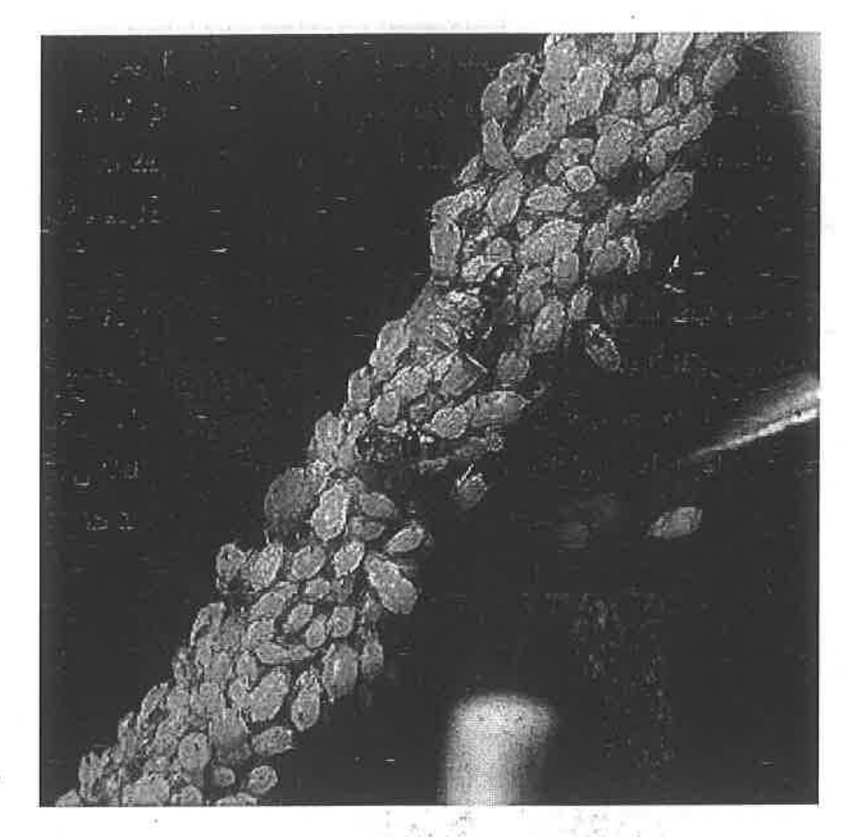
النظر بفوقية إلى الكائنات الأخرى وحصل الذي حصل. لكن أعتقد بأنه آن الأوان لإعادة النظر في هذا التوجّه الخاطئ. إذا كنا نرغب فعلاً التوصل إلى الحقيقة، والكف عن خداع أنفسنا بتعريفات كاذبة ومظللة، وجب علينا إعادة تعريف مصطلحات كثيرة مثل "الفكر" و"الوعي" وإعادة صياغة المعنى الفعلي لسمات عديدة مثل "العاقل" و"الخلاق"، حينها يمكننا إدراك الحقيقة.

كلمة "مفكّر" تستنهض في مخيلتنا صورة إنسان مفكّر يقبع وراء مكتبه ويعصر دماغه محاولاً إيجاد حلول مناسبة لمسائل معيّنة، أو يحمل في يده كتاب شاغلاً تفكيره بمحتوياته، أو غيرها من صور مشابهة تجعل الإنسان محورها وليس أي كائن آخر. لكن هذه ليست الصورة الحقيقية للكائن "المفكر". كل كائن في الوجود هو "مفكر". لهذا السبب علينا إعادة تعريف هذه الكلمة وكلمات كثيرة أخرى لازالت تتمحور حول الإنسان.





في الصورة المقابلة يرقانات صغيرة تنتمي لإحدى فصائل الحشرات، تعتاش على أوراق الأشجار، وتظهر في الصورة وهي تسرح في أحد مراعيها المفضلة، ورقة شجر كبيرة. لكن هذه الحشرات ليست مستقلّة كما يبدو في الصورة، حيث يوجد من يملكها ويرعاها.



النمـل يرعـى بماشيته!

الراعي هو أحد أنواع النمل! يرعى اليرقانات كما يرعى الإنسان ماشيته من الأبقار أو الأغنام. يقوم النمل بتربية هذه اليرقانات ويجلبها من وقت لآخر من أجل الحصول على السائل المستخرج منها. وفي فصل الشتاء أو أثناء الحروب مع مجموعات أخرى من النمل يزربها في حضائر خاصة موجودة في بيته تحت الأرض، وكثيراً ما تحصل غزوات بين مجموعات النمل من أجل الحصول على هذه الكائنات الثمينة! هذا مثال واحد على آلاف الحالات والظواهر التي تجعلنا نعيد النظر في قناعاتنا بخصوص الكائنات الأخرى وعلاقتها بموضوع "العقل والفكر والوعي الخلاق" وسوف نتعرف على بعضها لاحقاً في هذا الكتاب.

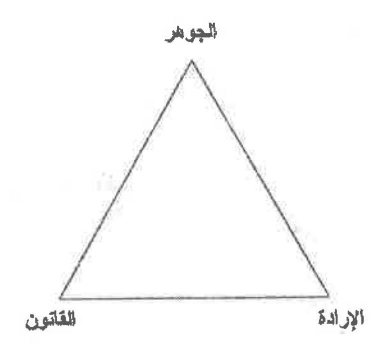
نحن البشر، العاقلين المفكرين الذين نتمتع بوعي خلاق، اعتدنا على ترفعنا وارتقائنا فوق باقي الكائنات مما يجعلنا نرفض بكل بساطة فكرة وجود أي كائن يشاركنا بهذه الخصائص على هذه

المعمورة، بينما تثبت الحقائق والاكتشافات يوماً بعد يوم ما يشير إلى أننا أكثر المخلوقات غباءً على الإطلاق!

لكن السؤال المهم الذي قد يراودنا ويسبب الحيرة في نفسنا هو: ما القصد من عبارة "كائن عاقل مفكّر ويتمتع بوعي خلاق"؟ كيف يمكن إسقاط هذه العبارة على كائنات مثل النبتة والدودة والمعدن وحتى الخليّة؟ الجواب سهل وبسيط: لا يمكن أن ننسب هذه الصفات إلى الكائنات الأخرى إلا بعد إجراء تغيير في مفهومنا العام لموضوع العقل والفكر والوعي الخلاق وغيرها من مواضيع. هذا ما سوف نتعرف عليه في الموضوع التالي، حيث خلال الشرح الفلسفي لمسيرة التجسيد سنتعرّف على المعنى الحقيقي للكثير من المصطلحات مثل العقل والفكر وكذلك الوعي الخلاق. حينها ندرك أن معناها الفعلي لا يشبه المعاني التي تعلمناها. هذا ما سوف نفعله بالضبط في الصفحات التالية.

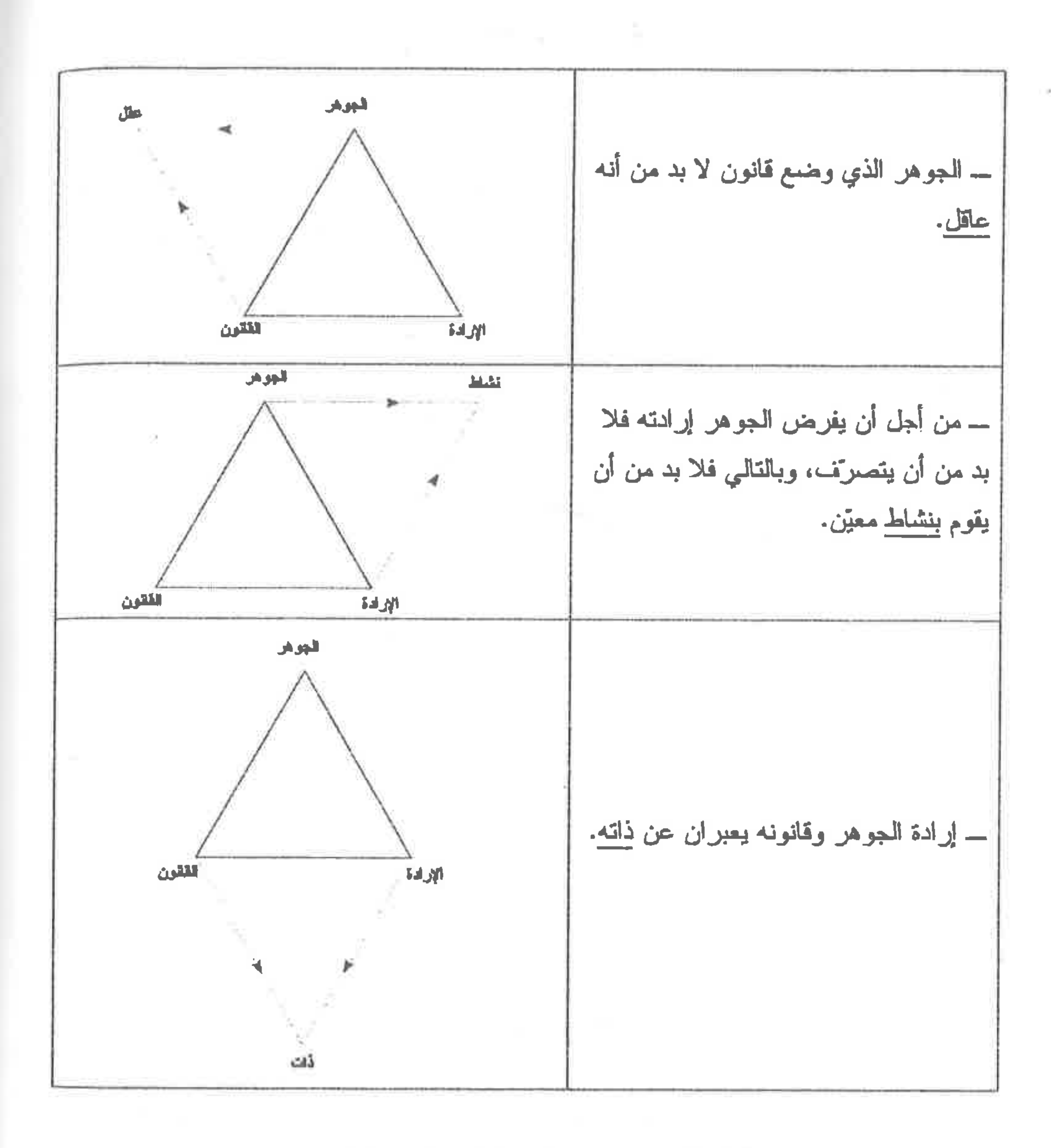
في البداية كان الجوهر

شرحت سابقاً كيف توصلت التعاليم السرية إلى أن الإرادة الإلهية، وهي المولود الأول من رحم اللامحدود، تمثّل في تحليلها النهائي "الجوهر". "الجوهر" هنا يعني الكينونة الكونية. "الجوهر" هو أقصى الحدود التي يمكن للعقل البشري إدراكه، إذ لا يستطيع استيعاب أو تحليل أو استنتاج ما يقبع خلفه أو ما وراءه. لهذا السبب بدأ متنورو العصور من هذا المستوى في تفسيراتهم وشروحاتهم. ولهذا السبب رسخت الفكرة القائلة بأن "الجوهر" هو المولود الأول من لانهائية اللاشيء. هو أول شيء "يكون". ومن هذا "الجوهر" انبعث الكون. والكون هو في النهاية "الجوهر" بذاته، لأنه جوهر "الكل" في الكل. ما وراء هذا "الجوهر" لا يوجد شيء سوى "اللا شيء". "الجوهر" هو الكينونة الأولى، مؤلفة من ثنائية "القانون" و"الإرادة". جميع هذه العناصر الثلاثة تمثّل في النهاية الشيء ذاته، وهذا الشيء هو "الكلّ" العظيم. وقد صوّروا هذا الشيء على شكل مثلّث متساوي الأضلاع، وكل من العنصرين الآخرين يحتلّ أحد زواياه (الشكل التالي) ويمكن اعتباره أول مثلث في سلسلة المثلثات المتوالدة منه:



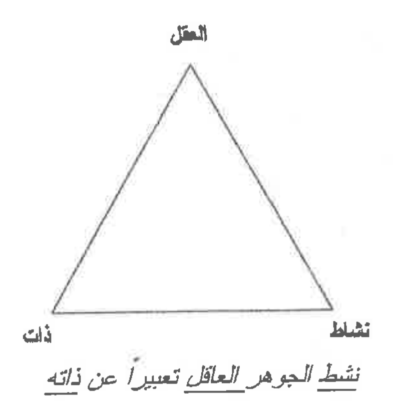
مثلث: الجوهر، الإرادة، والقانون (إطار القانون يقيّد مجهود الإرادة)

من هنا تبدأ الجدلية الفلسفية التي ينتج من تسلسلها المنطقي ثالوث آخر. في الحقيقة، إن الجدال في هذا المستوى الوجودي السامي طويل ومتداخل، ويُعتبر لاهوتي/ديني أكثر من كونه علمي/فلسفي، تذكّر أنها تُعتبر في النهاية تنظيرات تناسب مستوى العقل البشري، حيث في هذا المستوى السامي للكينونة الكونية لا يمكن الخروج سوى بفرضيات وليس حقائق ثابتة. بالتالي سوف نختار إحدى الصيغ المختصرة والسريعة للجدال الفلسفي بهذا المستوى لأنه من غير المجدي الغوص في متاهاته اللامنتهية، والطريقة هي التالية:



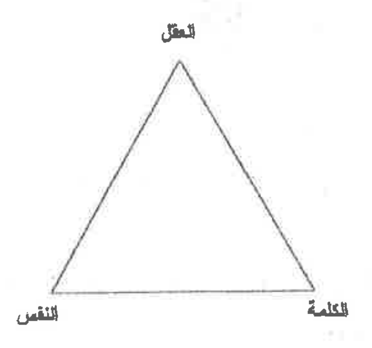
ـ الجوهر الذي وضع قانون لا بد من أنه عاقل.	الجوهر، عقل، القانون، الإرادة
ـ من أجل أن يفرض الجوهر إرادته فلا بد من أن يتصرّف، وبالتالي فلا بد من أن يقوم بنشاط معيّن.	الجوهر، نشاط، القانون، الإرادة
ـ إرادة الجوهر وقانونه يعبران عن ذاته.	الجوهر، القانون، الإرادة، ذات

أوّل ثالوث ينتج من الجدلية السابقة هو التالي:



نشط الجوهر العاقل تعبيراً عن ذاته

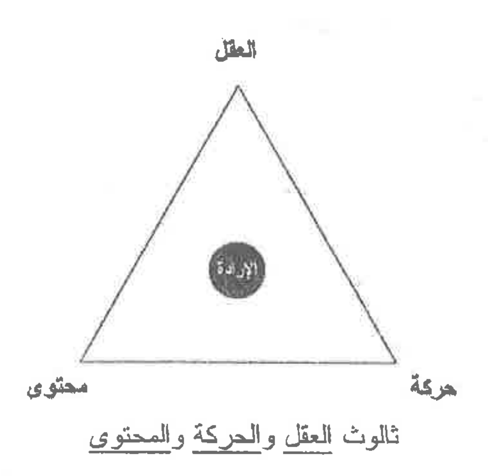
تجري جدلية بعض المدارس الأخرى بطريقة مختلفة نوعاً ما، أي كما يلي: عندما ينشط الجوهر تعبيراً عن ذاته فما عليه سوى الأمر أو الكلام، لأنه عالي المقام. عندما يريد السيّد شيئاً يتصرف بالأمر وليس بالحركة، بينما الخادم يطيع ويتحرّك. لهذا السبب، إنه من المنطقي التعبير عن فعل [النشاط] بكلمة [أمر]. لكن شاع بين التعاليم استخدام مصطلح آخر يعبّر عن هذا الفعل وهو [الكلمة]. كما أنه شاع استخدام مصطلح [النفس] بدلاً من [الذات]. وبالتالي، يصبح الثالوث على الشكل التالي:



تلفظ الجوهر العاقل بالكلمة معبّراً عن نفسه

هناك بعض المدارس التي فضّلت البدء من هذا الثالوث، واكتفت بالإشارة إلى المثلّث الذي يسبقه باسم "السابق"، والمثلّث الذي يليه باسم "اللاحق". وقد مثلوا هذه العناصر الخمسة بنجمة خماسية أو الصليب الذي في وسطه دائرة أو المخمّس الهندسي الذي استخدمته المدرسة الفيثاغورثية، وسوف نتعرّف عليها جميعاً لاحقاً.

هناك مدارس فضّلت البدء من هذه المرحلة لكن مع إجراء تغييرات في أسماء العناصر. أي بدلاً من مصطلح "الكلمة" (الأمر) تعبيراً عن النشاط، استخدموا مصطلح "الحركة"، وبدلاً من "النفس" أو الذات الإلهية، استخدموا "المحتوى". وأعتقد بأن هذا الثالوث الأخير هو الأنسب من أجل البدء بشروحاتنا، أولاً لسهولة التوضيح (لأنه أكثر علمياً من كونه لاهوتياً)، وثانياً لتجنّب الصدام مع أي معتقد أو مذهب فكري يعتبر الموضوع مقدساً وبالتالي يحرّم تناول مصطلحاته بأي حال من الأحوال. تذكر أننا نسعى وراء الحقيقة ولا شيء آخر. النيّة هي المعرفة وليس الحشرية التي يترجمها البعض بأنها اعتداء سافر على المقدسات. لنترك اللاهوت لأهله ونأخذ الجدوى العلمية لأنفسنا. دعونا بالتالي نستخدم الثالوث الذي لا تطاله أي حرمة مقدّسة. سوف نبدأ من الثالوث التالي:



ثالوث العقل والحركة والمحتوى

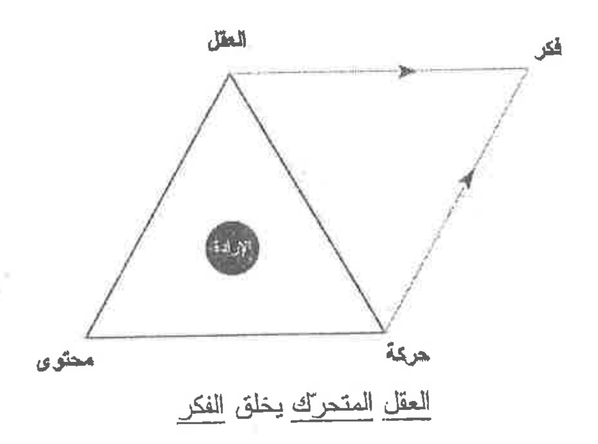
سوف نعتبر هذا الثالوث (العقل، الحركة، المحتوى) بأنه أوّل الثواليث التي ستتوالد لاحقاً بالتسلسل، وكل ذلك بتحفيز من الإرادة الإلهية طبعاً، ولهذا السبب وضعت [الإرادة] في الوسط وهناك سبب وجيه لذلك، حيث ستدخل [الإرادة] لاحقاً في معادلات كثيرة وسنكتشف مدى أهميتها في تلك المعادلات. دعونا إذاً نبدأ بالشرح انطلاقاً من هذه المرحلة.

حتى لو بدأت من هذه المرحلة، كما فعلت بعض المدارس، سوف تجد بأنه منطقي وسليم. بعد إثبات فكرة أن الكون هو عاقل، وهذه مهمة أصبحت سهلة إذ أصبح من الحقائق الثابتة أن العقل يتجلّى في كل مكان من حولنا (نباتات، خلايا، معادن، جسيمات ذرية..)، وأن كل شيء في الكون ينبثق أصلاً من مادة أوليّة واحدة، أو محتوى واحد، وكل شيء في الوجود يتحرّك رغم أنه لا

يبدو كذلك في أحيان كثيرة (لولا الحركة لما كان هناك كون مرئي وملموس أصلاً)، نستنتج من هذا كله أنه عندما [أراد] "الكلّ" العظيم أن يخلق الكون المادي الملموس، لا بدّ من أن تتوفّرت ثلاثة عوامل أساسية لذلك، وهي: [١] العقل، [٢] الحركة، [٣] المحتوى. ويُصوّر على شكل مثلّث متساوي الأضلاع (الشكل السابق). انطلاقاً من هذا الثالوث الأخير، سوف نبدأ الآن بالجدال الفلسفي الذي ينتج من تسلسله المنطقي مجموعة من الثواليث المتتالية وصولاً إلى مرحلة التجسيد، والموضوع التالي يشرح كيف تجري العملية:

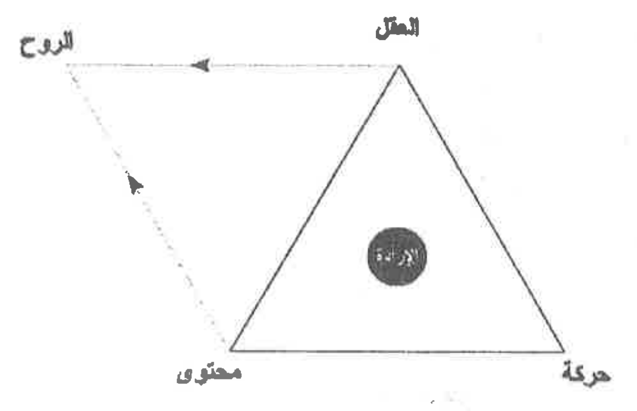
سلسلة تشكّل ثواليث التجلّي

ـ العقل هو شكل من أشكال الطاقة الساكنة، ومنه يبرز النشاط الذي نسميه تفكير والذي هو بدوره الوجه المتحرّك للعقل. العقل هو طاقة ساكنة والفكر هو طاقة متحرّكة. الفكر إذاً هو قوّة متحرّكة تتشكّل نتيجة تحويل العقل الساكن إلى عقل متحرّك (لمسنا ذلك بوضوح في موضوع "الوعي الديناميكي" في الجزء الخامس). وهذا يعني أنه تحفيز الإرادة الإلهية لعنصري [العقل] و[الحركة] ينتج عنصر [الفكر]. كما في الشكل التالي:



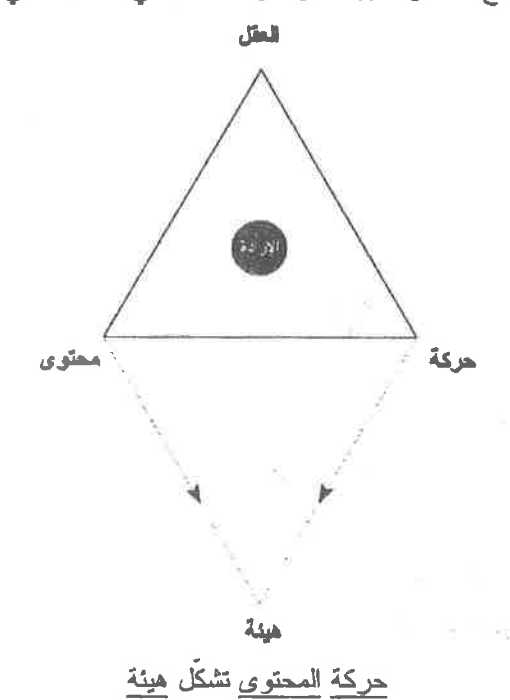
العقل المتحرّك يخلق الفكر

ـ تحفيز الإرادة الإلهية لعنصري [العقل] و[المحتوى] ينتج عنصر [الروح]. كل شيء له روح، وهو مؤلف من روح أصلاً. الروح إذاً هي المحتوى العاقل للشيء. يُعبّر عنه كما في الشكل التالي:



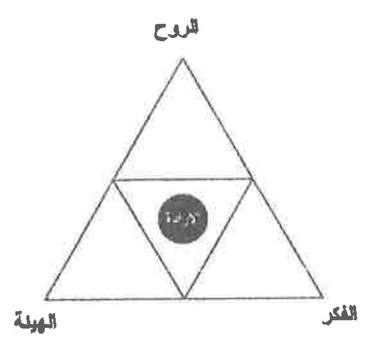
محتوى العقل هو الروح

ـــ عندما يكون لدينا محتوى معيّن، جسم مائي شفاف مثلاً، وتحرّك أو نشط بطريقة معيّنة (تذبذب أو اهتزّ أو غيره) فسوف يتشكّل هيئة معيّنة لهذا الجسم المائي. إذاً، المعنى الجوهري للهيئة هنا هو المعالم التي تتشكّل من مجال طاقة متحرّك أو متموّج. بالتالي، تحفيز الإرادة الإلهية لعنصري [الحركة] و[المحتوى] ينتج عنصر [الهيئة]. ويُعبّر عنه كما في الشكل التالي:



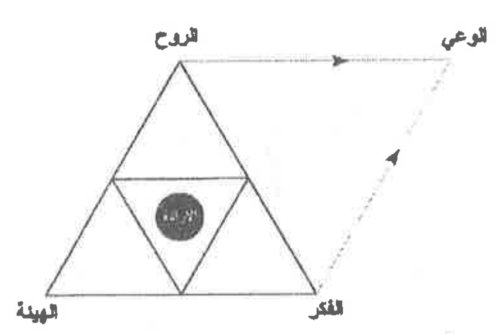
حركة المحتوى تشكّل هيئة

ـ أصبح لدينا مثلّث جديد يمثّل ثالوث آخر:



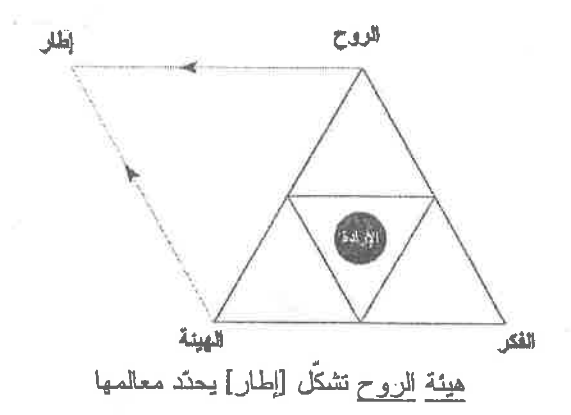
ثالوث الروح، الفكر، والهيئة

ـ كما الحال مع الثالوث السابق، يبدأ هذا الثالوث بإنتاج ثالوث آخر. وذلك وفقاً للجدلية التاليـة: طالما أن الفكر هو عقل متحرك، والروح هي محتوى العقل، فاجتماعهما (الفكر والروح) ينـتج [الوعي]. الوعي إذاً هو عبارة عن [حركة محتوى العقل]. بالتالي، تحفيز الإرادة الإلهية لعنصري [الروح] و[الفكر] ينتج عنصر [الوعي]. ويُعبّر عنها كما في الشكل التالي:



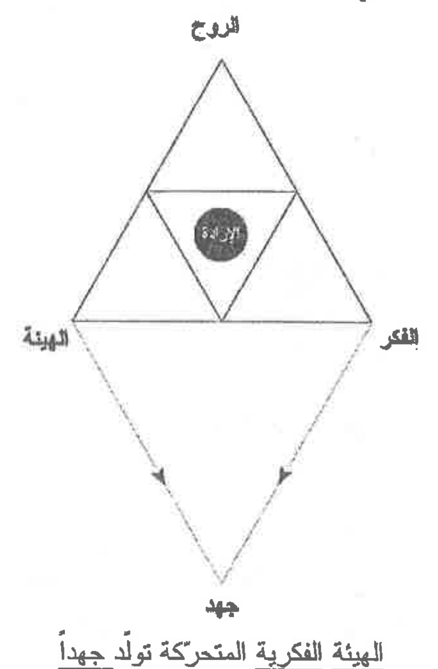
الروح المفكّرة تنتج الوعي، أو الوعي هو حركة محتوى العقل

ـ كما رأينا سابقاً، [الهيئة] تنتج من حركة المحتوى، وإذا كان هذا المحتوى عاقلاً (روح) فلا بد أن يكون للهيئة الناتجة من حركة هذا المحتوى [إطار] يحدّد معالمها. هيئة الروح بحاجـة إلـى [إطار] يحدّد معالمها. إذاً، تحفيز الإرادة الإلهية لعنصري [الروح] و[الهيئة] يولّد النـزوع نحـو تشكيل [إطار] يحدّد المعالم. ويُعبّر عنها كما في الشكل التالي:



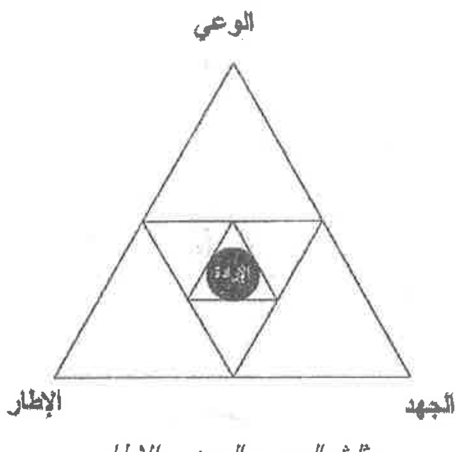
هيئة الروح تشكّل [إطار] يحدّد معالمها

ـ بما أن الهيئة تتشكّل من حركة المحتوى، والفكر هو حركة العقل، فبالتالي اجتماع هذين العنصرين يخلق هيئة متحركة، وهذا يولّد [جهد]. تصوّر كتلة مائية تتحرّك دفعة واحدة باتجاه معيّن، لا بدّ من أنها ستولّد قوة دفع ذات قيمة معتبرة. وعندما نتحدث عن "جهد كهربائي" فنقصد بذلك مجال كهربائي متحرّك باتجاه معيّن. إذاً، تحفيز الإرادة الإلهية لعنصري [الفكر] و[الهيئة] يخلق [الجهد]، كما في الشكل التالي:



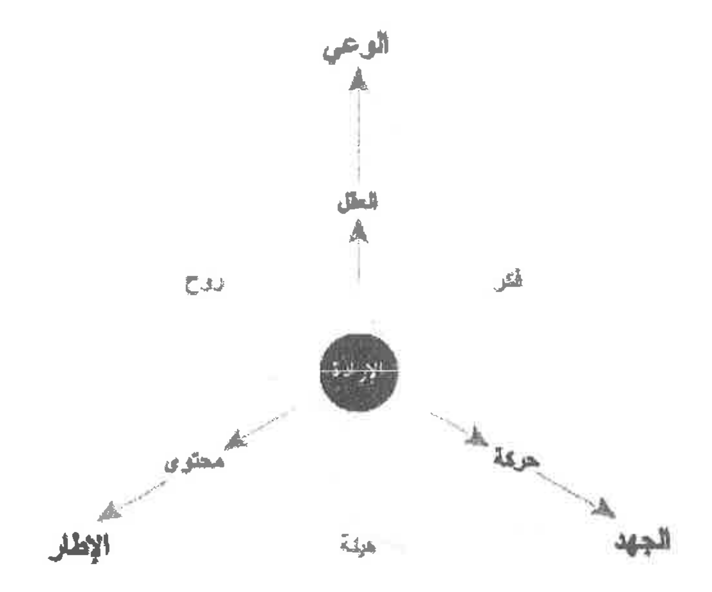
الهيئة الفكرية المتحرّكة تولّد جهداً

ـ أصبح لدينا مثلث جديد يمثّل ثالوث آخر:



مثلث الوعي، الجهد، والإطار

ها قد وصلنا إلى الثالوث الذي يُعتبر أساسياً في الفلسفة التجاوزية. كل شيء في الوجود مؤلف من حالة أوّلية ونقية من "الوعي"، والتي تجلّت أصلاً من حركة العقل الأوّل وعلى شكل تفاعل متبادل بين "الجهد" (حركة، نشاط، قوة) و"الإطار" (شكل، صيغة، قيود). كل شيء مؤلف من ثالوث [الوعي، الجهد، والإطار]. لهذا السبب يُعرّف الحكماء الأوائل العالم المادي بأنه تجلّي "وعي" يُعبّر عن "إرادة عليا" من خلال توازن غير مستقرّ (لكنه متصاعد) بين الجهد والإطار. لكن ماذا يعني هذا الكلام فعلياً؟ وما علاقة هذا الثالوث بالتجسيد بصيغة مرئية وملموسة؟ دعونا نستكشف تفاصيل هذه العملية من خلال إكمال سلسلة تشكّل الثواليث. سنبدأ من المثلّث الذي انتهينا عنده، لكن سيكون الشرح بطريقة مختلفة. سوف نتبع طريقة بعض الحكماء الذين يجمعون كافة الثواليث السابقة في مخطط ثالوثي شامل (كالمبيّن في الشكل التالي)، وذلك لإجراء الجدليات الفلسفية الواردة سابقاً، لكن وفق صيغة مختلفة من الشرح، والتي تساهم بالنهاية في توضيح الفكرة أكثر:



الشكل السابق هو عبارة عن مخطط يشمل كل المثلثات الموصوفة سابقاً وصولاً إلى مثلث [الوعي، الجهد، الإطار]. وهناك ثلاثة متّجهات (مسارات موجّهة) منطلقة من [الإرادة] القابعة في المركز نحو زوايا الثالوث الأكبر. وهذه المتّجهات الثلاثة تساهم في إثبات الشروحات السابقة منطقياً. أي تجري طريقة الشرح وفق الصيغة التالية:

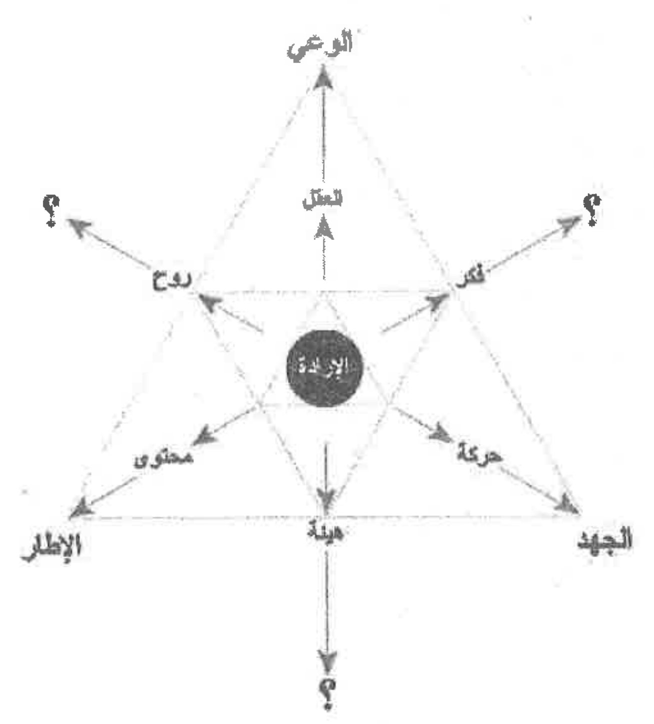
١ـ المتّجهة الأولى مؤلفة من [الإرادة، العقل، والوعي]، وهذا يعني المعادلة التالية: [مفعول الإرادة في العقل = الوعي]. عندما تؤثّر الإرادة في عنصر العقل، لا يمكن أن ينتج من ذلك شيء سوى عنصر عقلي، وقد سمينا هذا العنصر "الوعي".

٢ـ المتّجهة الثانية مؤلفة من [الإرادة، الحركة، والجهد]، وهذا يعني المعادلة التالية: [مفعول الإرادة في الحركة = جهد]. عندما تؤثّر الإرادة في عنصر الحركة، لا يمكن أن ينتج من ذلك شيء سوى مجهود معيّن، وقد سمينا هذا الشيء بـ"الجهد".

٣ـ المتّجهة الثالثة مؤلفة من [الإرادة، المحتوى، والإطار]، وهذا يعني المعادلة التالية: [مفعول الإرادة في المحتوى = إطار]. عندما تؤثّر الإرادة في عنصر المحتوى، لا يمكن أن ينتج من ذلك

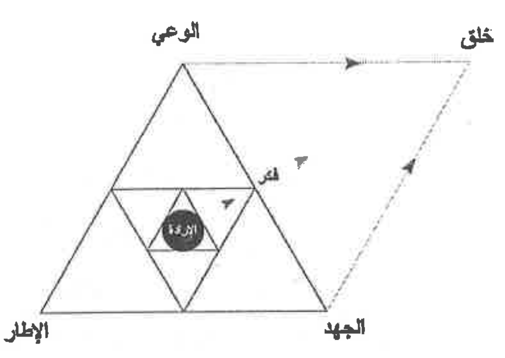
سوى حالة استيعاب لهذا التأثير، واستيعاب المحتوى للشيء يعني احتضانه وبالتالي تأطيره، وقد عبرنا عن هذه الحالة بمصطلح "الإطار".

بناء على هذه الطريقة الجديدة سوف نسعى إلى استنتاج الثالوث التالي، لكن مع المزيد من التوضيح. لدينا الآن مثلث مؤلف من ثلاثة عناصر [الوعي، الجهد، والإطار]، لكن إذا دققنا النظر في الشكل السابق نكتشف انه بدلاً من ثلاثة متّجهات يوجد في الحقيقة ستة متّجهات منطلقة من [الإرادة] القابعة في المركز، وهي: [١] الإرادة، العقل، الوعي، [٢] الإرادة، الحركة، الجهد، [٣] الإرادة، المحتوى، الهيئة، [٤] الإرادة، الفكر، (؟)، [٥] الإرادة، الروح، (؟)، [٦] الإرادة، الطاقة، (؟). (كما تم توضيحه في الشكل التالي). إشارات الاستفهام بين قوسين في المتجهات الثلاثة الأخيرة تمثّل العناصر الثلاثة المؤلفة للثالوث التالي، لكن ما هي وكيف سنستنتجها؟ دعونا نرى:



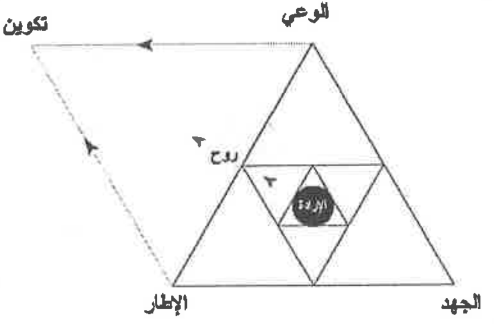
مخطط شامل لكل المثلثات الموصوفة سابقاً وصولاً إلى مثلث [الوعي، الجهد، الإطار]. وهناك ستة متّجهات منطلقة من [الإرادة] القابعة في المركز.

ـ إذا جمعنا عنصر [الجهد] مع عنصر [الوعي]، وكان ذلك ضمن متّجهة [الإرادة/الفكر]، فهـذا يعني أن مجهود الوعي مبذولاً في المجال الفكري، وبالتالي سوف يتولّد نزوع نحو [الخلــق] أي بمعنى الإبداع.



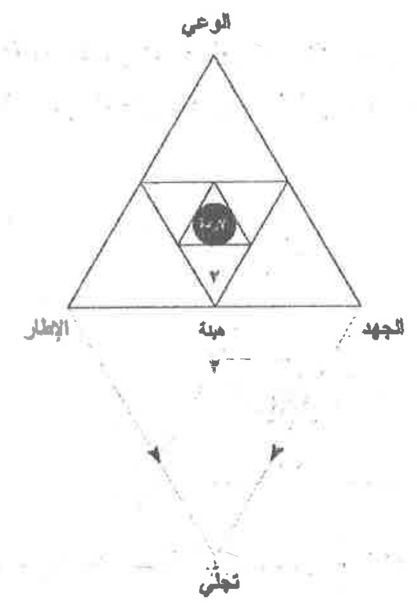
مجهود الوعي ضمن متّجهة الإرادة/الفكر يولّد الإبداع أو الخلق

ـ إذا جمعنا عنصر [الإطار] مع عنصر [الوعي]، وكان ذلك ضمن متّجهة [الإرادة/الروح]، فهذا يعني أن الوعي منشغلاً بمسألة الإطار، وبالتالي سوف يتولّد نزوع نحــو [التكــوين] أي بمعنـــى التشكيل أو رسم المعالم.



إطار الوعي ضمن متّجهة الإرادة/الروح يولّد التكوين

ـ إذا جمعنا عنصر [الجهد] مع عنصر [الإطار]، وكان ذلك ضمن متّجهة [الإرادة/الهيئة]، فهـذا يعني أن الإطار تلقى المزيد من الجهد في مجال الهيئة وبالتالي لا بد من أن يولّد ذلك نزوع نحو [التجلّي] أي بمعنى الميل نحو الظهور والبيان. عندما يكون لدينا قارورة زجاجيــة شــفافة، ثــم ملأتها بسائل معيّن، فهذا يزيد من درجة ظهور معالم القارورة. القارورة تمثّل [الإطار] والــسائل يمثّل [الجهد].



اكتساب الإطار جهداً إضافياً ضمن متّجهة الإرادة/الهيئة يولّد التجلّي

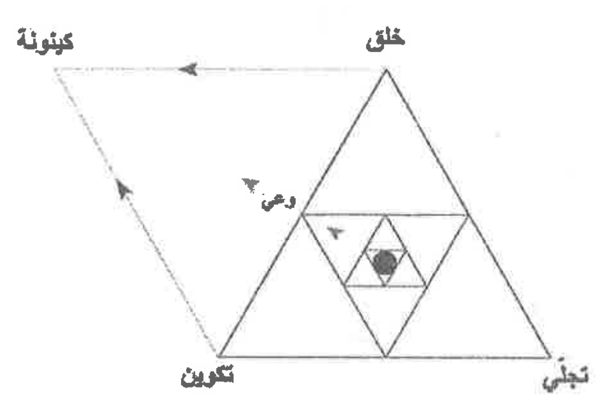
ـ ينتج لدينا ثالوث جديد:



الخلق، التكوين، التجلّي

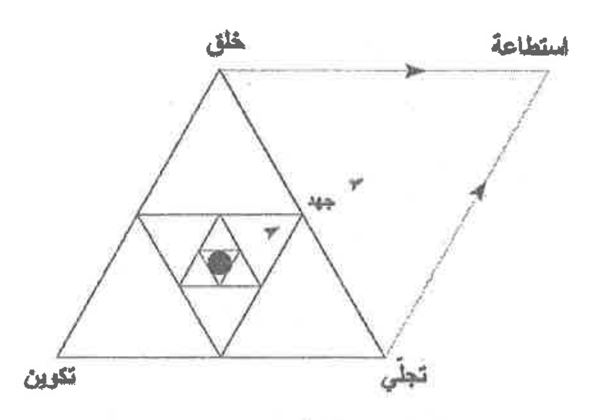
الفكر يخلق ـ الروح تكوّن ـ والهيئة تتجلّى

ــ إذا جمعنا عنصر [الخلق] مع عنصر [التكوين]، وكان ذلك ضــمن متّجهــة [الإرادة، العقــل، الوعي]، فسوف ينتج عنصر عقلي جديد يمكن أن نسميه [الكينونة] أي بمعنى الشيء القائم بذاتــه أو الكيان العقلي، أو شيء عقلي يتمتع بدرجة معيّنة من الشعور بالذات.



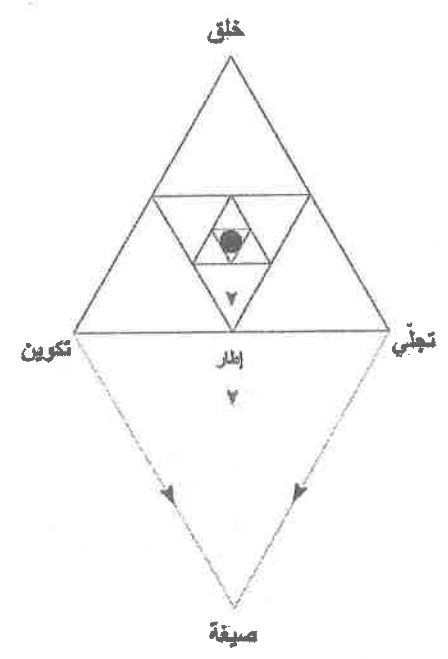
من اجتماع الخلق والتكوين ينتج كيان عقلي ذو هوية (كينونة)

ــ إذا جمعنا عنصر [الخلق] مع عنصر [التجلّي]، وكان ذلك ضمن متّجهــة [الإرادة، الحركــة، الجهد]، فسوف ينتج عنصر الاستطاعة، وتشير هذه الكلمة في علم الفيزياء إلى العنــصر الــذي يحدّد قدرة الشيء.



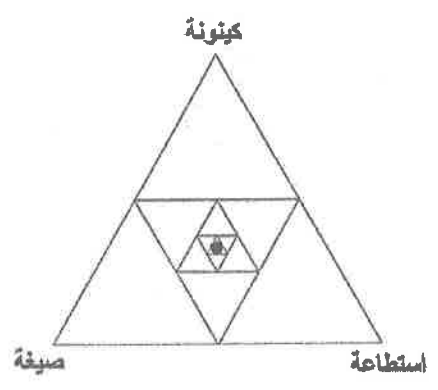
من اجتماع الخلق والتجلّي ينتج كيان ذو استطاعة

ـ إذا جمعنا عنصر [التجلّي] مع عنصر [التكوين]، وكان ذلك ضمن متّجهة [الإرادة، المحتوى، الإطار]، فسوف ينتج عنصر [الصيغة] أي شيء محدّد المعالِم، أو مسؤول عن تحديد الهيكل الهندسي أو الإطار البنيوي للكائن.



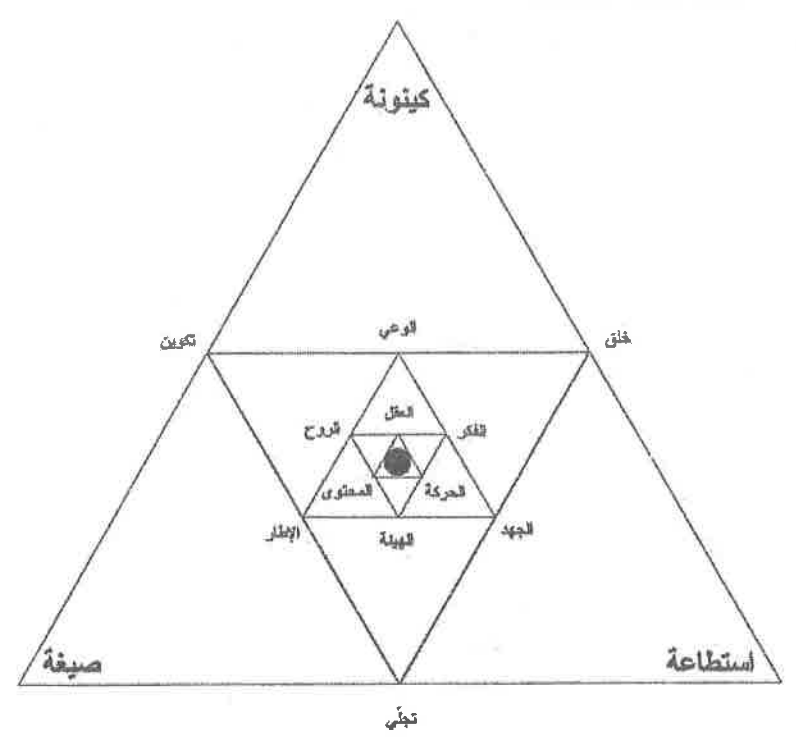
من اجتماع التجلّي والتكوين ينتج صيغة تحدّد معالم الشيء

ـ ينتج لدينا ثالوث جديد:

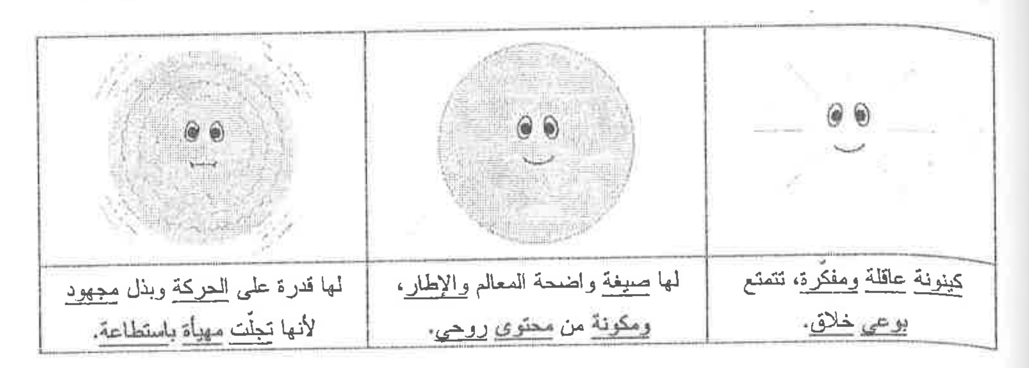


كينونة، استطاعة، صيغة

بعد جمع كل الثواليث في صورة واحدة، أصبح لدينا مخطط يمثّل كل كائن في الوجود بصيغته المجرّدة (الشكل التالي). أي أصبح لدينا: [١] كينونة عاقلة ومفكّرة، تتمتع بوعي خلاق. [٢] لها صيغة واضحة المعالم والإطار، ومكونة من محتوى روحي. [٣] لها قدرة على الحركة وبذل مجهود لأنها تجلّت مهيأة باستطاعة.



يمكن استخدام هذا المخطط السابق بطرق مختلفة، إذ يمكن مثلاً توضيح العلاقة الصميميّة بين هذه الكينونة الجديدة (والتي تمثّل المخطط الأوّلي لأي كائن في الوجود) وبين الكائن الكوني الواحد. من أجل استيعاب ما أقصده، دعونا نعود إلى التعريف السابق للكينونة الجديدة لكن بصيغة مختلفة:



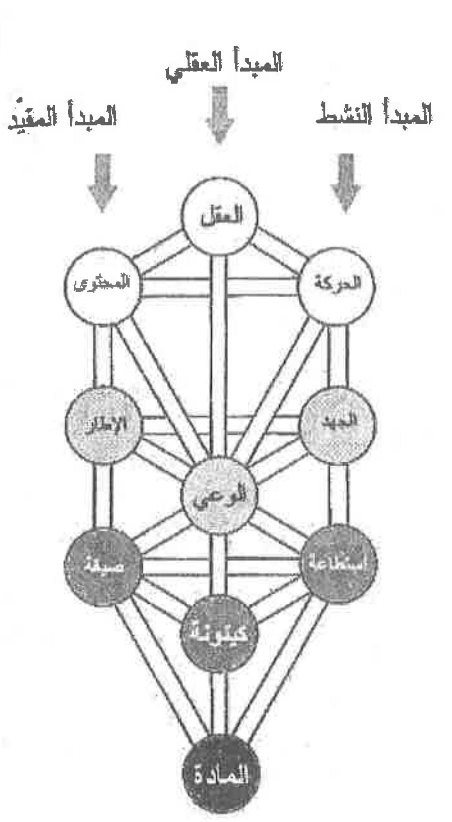
لاحظوا كيف أن هذا التعريف مؤلّف من ثلاثة أقسام، وكل قسم من هذه الأقسام يمثّل أحد العناصر الثلاثة الرئيسية للخلق المتجلّي (العقل، المحتوى، الحركة). تكون هذه العناصر في المستوى التجاوزي بصيغة نقيّة صافية، لكنها تتفرّع وتتشعّب وتصبح أكثر تنوعاً وتعقيداً عند تجلّيها بصيغة مادية.

لقد اعتدنا على إنساب هذا التعريف السابق للإنسان فقط، لكن هذه نظرة خاطئة ويمكن إثبات خطأها من خلال الاطلاع على الكثير من المواضيع التي تثبت بالدليل الملموس أنه ليس فقط الحيوانات بل حتى النباتات أيضاً (والمعادن والحجارة والماء بدرجة معيّنة) هي كائنات عاقلة تتمتع بالوعي وقدرة على التفكير (سوف أتناولها لاحقاً). وإذا نظرنا إلى معنى هذه الكلمات (عقل، وعي، تفكير) وفق ورودها في سلسلة تشكّل الثواليث السابقة نجد الأمر منطقياً نوعاً ما. لكن هذه المواصفات تختلف بين كائن وآخر بالدرجة فقط.

بالعودة إلى التعريف السابق للكينونة الجديدة والمُعبّر عنه بالمخطط الشامل السابق، سنلاحظ بأنها كينونة مجرّدة، أي أن تعريفها عمومي بحيث ينطبق على كل الكائنات. والسؤال هو: ما الذي يميّز كل كينونة عن غيرها؟ أي ماذا يميّز المعدن عن النبتة عن الإنسان؟ ماذا يميّز الكائن الحيّ عن الكائن الجامد؟ ما الذي يميّز المعدن عن معدن آخر، والنبتة عن نبتة أخرى؟ كيف وأين يحصل الاختلاف في المظهر والشكل والسمات الفيزيائية والكيماوية؟ في الحقيقة، الإجابة على هذه التساؤلات ستكون مهمّة سهلة بعد أن نستوعب الفكرة الرئيسية للموضوع الذي عالجناه في الصفحات السابقة. وبعد فهم الفكرة الرئيسية سوف ننطلق منها إلى معالجة الموضوع الذي يحتوي الإجابات الشافية على كل التساؤلات السابقة.

لقد أصبح لدينا ثلاثة مستويات من العقــل: [١] العقل، [٢] الوعي، [٣] الكينونة. ويمكن التعبير عنها وفق منظومة تعاليم شجرة الحياة كما في الشكل المقابل.

لكن كما التعريف الوارد في الفقرة السابقة، هذا المخطط لشجرة الحياة هو عمومي ويشمل كل كائن في الوجود، مهما كان نوعه. هذه المسألة تتطلب المزيد من المعلومات لكــي تتوضّــح جيداً، وهذا ما سوف نفعله عبر توالي فــصول هذا الكتاب.



إذاً، عندما تحرك محتوى العقل، ولّد ثالوث الوعي والجهد والإطار، والذي بدوره أنــتج ثــالوث الكينونة والاستطاعة والصيغة. أي بمعنى آخر، أصبح لدينا:

[١] كينونة عاقلة ومفكرة، تتمتع بوعي خلاق. [٢] لها صيغة واضحة المعالم والإطار، ومكونــة من محتوى روحي. [٣] لها قدرة على الحركة وبذل مجهود لأنها تجلّت مهيأة باستطاعة.

لكن هذا التعريف الذي توصلنا إليه يمثّل كينونة مجرّدة، أي أن تعريفها عمومي بحيــث ينطبــق على كل الكائنات. والسؤال هو: ما الذي يميّز كل كينونة عن غيرها؟ الجواب بسيط جداً: يتحــدّد مظهر الكائن وحيويته في العالم الدنيوي بناء على العوامل التالية: [١] الوظيفة، [٢] الطاقــة، [٣] الشكل. كل شيء في الوجود له وظيفته التي يساهم بها في سمفونية الحياة على مسرح الوجود. لا

شيء خُلق هكذا دون سبب، لابد من أن له دور في منظومة الحياة المتكاملة. كل شــيء يلعــب دوره الخاص، الأشجار، الطيور، الحجارة، المعادن، السوائل... إلى آخره. ومــن أجــل إنجــاز مهمته على أكمل وجه وبطريقة سليمة فلا بد من أن يُزوّد هذا الكائن بكميّة مناسبة مــن الطاقــة ويتخذ شكل مناسب يساعده على أداء وظيفته المعهودة إليه.

عندما تتأمّل بهذه الفكرة أرجو أن لا يذهب تفكيرك نحو أشياء مثل الكرسي أو المنزل أو السيارة أو البندقية.. أو غيرها من أشياء ليست مخلوقة طبيعياً. أنظر في الطبيعة من حولك وحدق إلــى كل مظهر من مظاهرها. مهما بدى لك أحد المظاهر بأنه شاذ شكلاً وقواماً لكن أعلم بأنــه اتخــذ هذا الشكل والقوام لأسباب منطقية ومدروسة تساعده على أداء دور معيّن فــي مــسرح الوجــود وبانسجام كامل مع المخلوقات الأخرى.

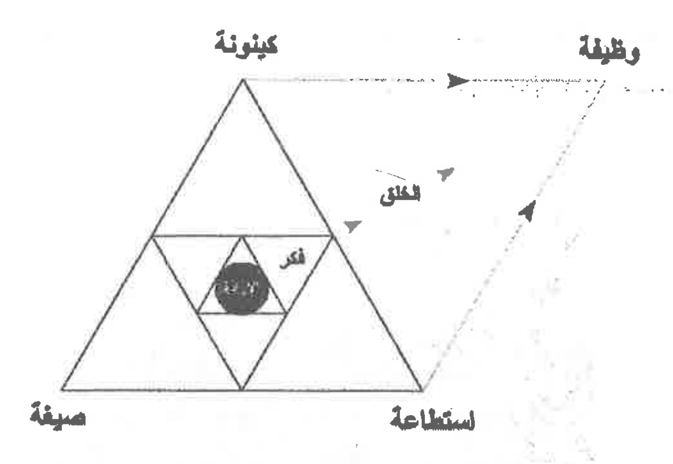


بالعودة إلى سلسلة تجلّي الثواليث، وانطلاقاً من الثالوث الأخير الذي توصلنا إليه، أي [الكينونــة، الاستطاعة، الصيغة]، نتسائل: من أجل أن تنجز هذه الكينونة دورها المعهود في الحياة المادية ما هي المقومات التي تمكنها من فعل ذلك؟

المقومات الأساسية هي التنكّر بزيّ كائن معيّن ولعب الدور المخصص به، ويكون هــذا الكــائن فرداني قائم بذاته، يتمتع بدرجة معيّنة من الحيوية، ويتخذ مظهر محــدّد. هــذه هــي العناصــر الأساسية التي تحدد معالم الشيء المرئي والملموس، وبطريقة تجعله مميّزاً عن غيره من الأشياء شكلاً ونوعاً. كافة الأشياء في الكون تختلف من حيث اختلاف هذه العناصــر الثلاثــة: الكــائن (النوع)، درجة حيويته (قدرة)، ومظهره (تكوينه الخارجي). من أجل التوصّل إلى هذا الثــالوث،

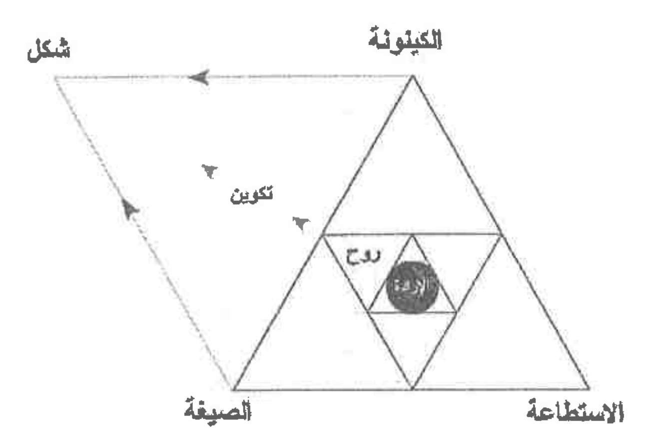
منطلقين من الثالوث الأخير الذي توصلنا إليه سابقاً، أي [الكينونة، الاستطاعة، الصيغة]، نجـري الجدلية الفلسفية التالية:

ـ إذا جمعنا عنصر [الاستطاعة] مع عنصر [الكينونة]، وكان نلك ضمن متّجهة [الإرادة/الفكـر/ الخلق]، فهذا يعني أن استطاعة الكينونة مبذولاً في مجال الخلق، فتتولّد وظيفة معيّنة تتناسب مـع فكرة الخلق.



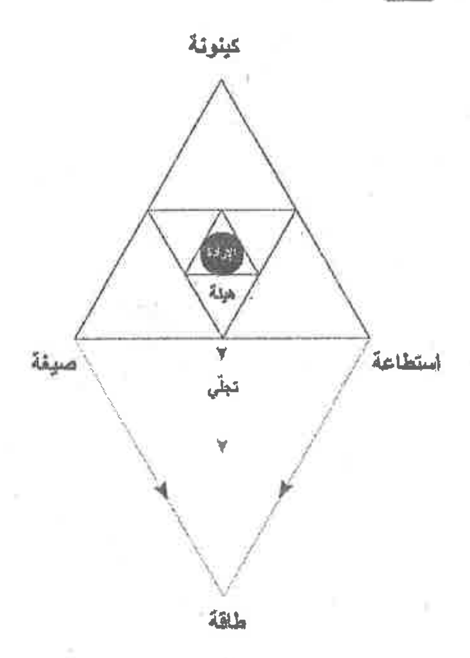
استطاعة الكينونة سوف تؤدّي وظيفة معيّنة تتناسب مع فكرة الخلق

ـ إذا جمعنـا عنـصر [الـصيغة] مـع عنـصر [الكينونـة]، وكـان نلـك ضـمن متّجهـة [الإرادة/الروح/التكوين]، فهذا يعني أن صيغة الكينونة مبذولة في مجال التكوين، فيتكـوّن شـكل معيّن يتناسب مع الوظيفة.



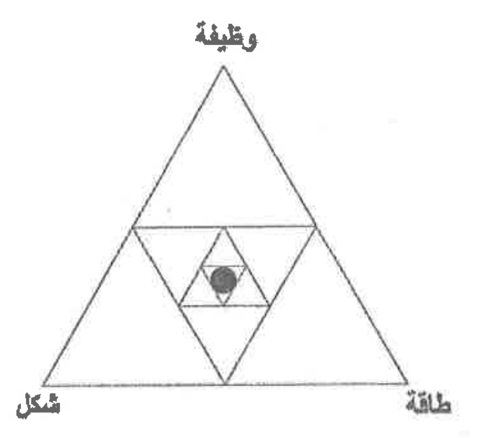
صيغة الكينونة تكوّن شكل معيّن

ـ إذا جمعنا عنصر [الاستطاعة] مع عنصر [الصيغة]، وكان ذلك ضمن متّجهة [الإرادة/الهيئة/التجلّي]، فهذا يعني أن الاستطاعة المبذولة وفق صيغة معيّنة لا بدّ من أن تؤدّي تأثير معيّن، وهذا ما نسميه طاقة.

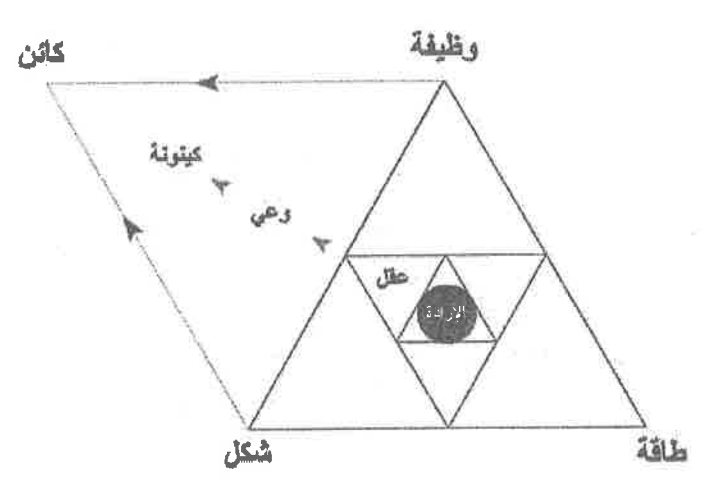


الاستطاعة المبذولة وفق صيغة معيّنة تولّد طاقة معيّنة تتناسب مع فكرة الخلق

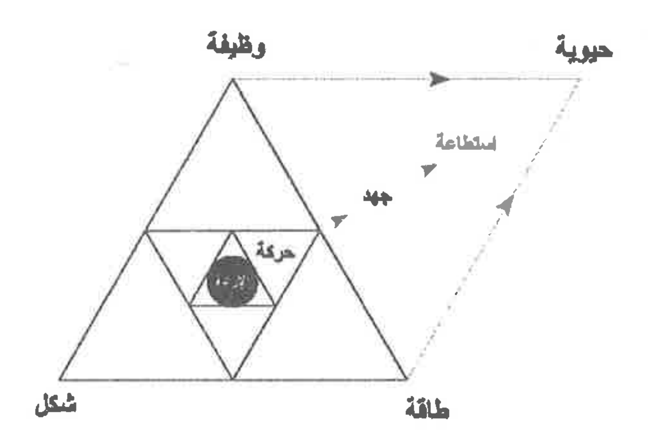
أصبح لدينا ثالوث جديد:



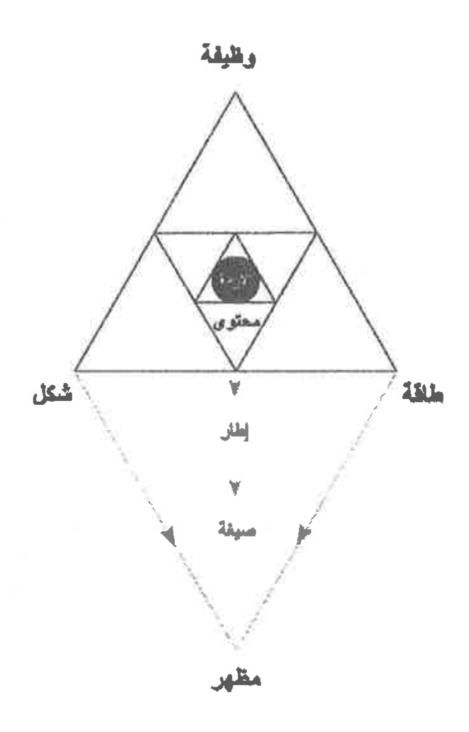
ـ إذا جمعنا عنصر [الوظيفة] مع عنصر [الشكل]، وكان ذلك ضمن متّجهة [العقل، الوعي، الكينونة]، فسوف ينتج مستوى جديد للتدرّج العقلي، يمكن أن نسميه [كائن]، وله وظيفة معيّنة وشكل معيّن.



ـ إذا جمعنا عنصر [الوظيفة] مع عنصر [الطاقة]، وكان ذلك ضمن متّجهة [الحركة، الجهد، الاستطاعة]، فسوف ينتج عنصر الحيوية (يمكن اعتبارها درجة حضور الحياة في الكائن أو النشاط اللازم الذي يساعد على أداء الوظيفة بشكل سليم وكامل).



ـ إذا جمعنا عنصر [الشكل] مع عنصر [الطاقة]، وكان ذلك ضمن متّجهة [المحتــوى، الإطــار، الصيغة]، فسوف ينتج عنصر المظهر أو الهيئة الخارجية، أي مجموعة من السمات والخــواص الفيزيائية التي تتخذها الطاقة بحيث تتناسب مع أداء الوظيفة الموكلة بها.



ـ أصبح لدينا ثالوث جديد ونهائي وهو الثالوث الوحيد الذي يمكن أن نراه ونلمسه:



التعريف السابق الذي توصلنا إليه بخصوص الكينونة هو: [١] كينونة عاقلة ومفكّرة، تتمتع بوعي خلاق. [٢] لها صيغة واضحة المعالم والإطار، ومكونة من محتوى روحي. [٣] لها قدرة على الحركة وبذل مجهود لأنها تجلّت مهيأة باستطاعة.

أما التعريف الجديد بخصوص الكائن فهو: [١] كائن عاقل مفكّر، يتمتع بوعي خلاق، وكينونته تتميّز عن الكائنات الأخرى من حيث الوظيفة الموكلة لها. [٢] محتواه مكوّن من روح، لكن له مظهر وشكل ذو صيغة وإطار تميّزه عن غيره لأنها تتناسب مع وظيفته في الوجود. [٣] يتمتع بحيوية وقدرة على الحركة وبذل مجهود معيّن، مزوّد بمخزون مجدد من الطاقة ومهيأ باستطاعة مناسبة لأداء الوظيفة التي تجلى من أجلها.

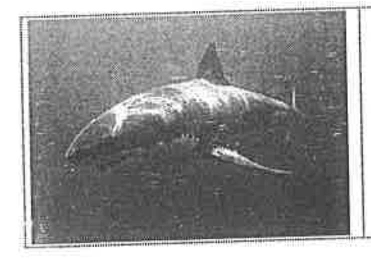
فيما يلي بعض الكائنات المختلفة وتعريفاتها المتطابقة وفقاً لما توصلت إليه الجدلية الفلسفية السابقة من استنتاج نهائي.



١ـ كائن عاقل مفكّر، يتمتع بوعي خلاق، وكينونته تتميّز عن الكائنات الأخرى من حيث الوظيفة الموكلة لها.

٢ـ محتواه مكوّن من روح، لكن له مظهر وشكل ذو صيغة وإطار تميّزه عن غيره لأنها تتناسب مع وظيفته في الوجود.

٣ـ يتمتع بحيوية وقدرة على الحركة وبذل مجهود معيّن، مزوّد بمخزون معيّن من الطاقة ومهيأ باستطاعة مناسبة لأداء الوظيفة التي تجلي من أجلها.



١ـ كائن عاقل مفكّر، يتمتع بوعي خلاق، وكينونته تتميّز عن الكائنات الأخرى من حيث الوظيفة الموكلة لها.

٢ـ محتواه مكوّن من روح، لكن له مظهر وشكل ذو صيغة وإطار تميّزه عن غيره لأنها تتناسب مع وظيفته في الوجود.

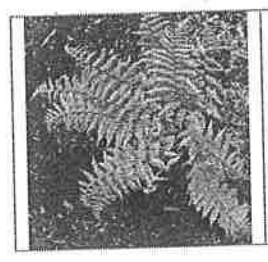
٣ـ يتمتع بحيوية وقدرة على الحركة وبذل مجهود معيّن، مزوّد بمخزون معيّن من الطاقة ومهيأ باستطاعة مناسبة لأداء الوظيفة التي تجلي من أجلها.



١ـ كائن عاقل مفكّر، يتمتع بوعي خلاق، وكينونته تتميّز عن الكائنات الأخرى من حيث الوظيفة الموكلة لها.

٢ـ محتواه مكوّن من روح، لكن له مظهر وشكل ذو صيغة وإطار تميّزه عن غيره لأنها تتناسب مع وظيفته في الوجود.

٣ـ يتمتع بحيوية وقدرة على الحركة وبذل مجهود معيّن، مزوّد بمخزون معيّن من الطاقة ومهيأ باستطاعة مناسبة لأداء الوظيفة التي تجلي من أجلها.



١ـ كائن عاقل مفكّر، يتمتع بوعي خلاق، وكينونته تتميّز عن الكائنات الأخرى من حيث الوظيفة الموكلة لها.

٢ـ محتواه مكوّن من روح، لكن له مظهر وشكل ذو صيغة وإطار تميّزه عن غيره لأنها تتناسب مع وظيفته في الوجود.

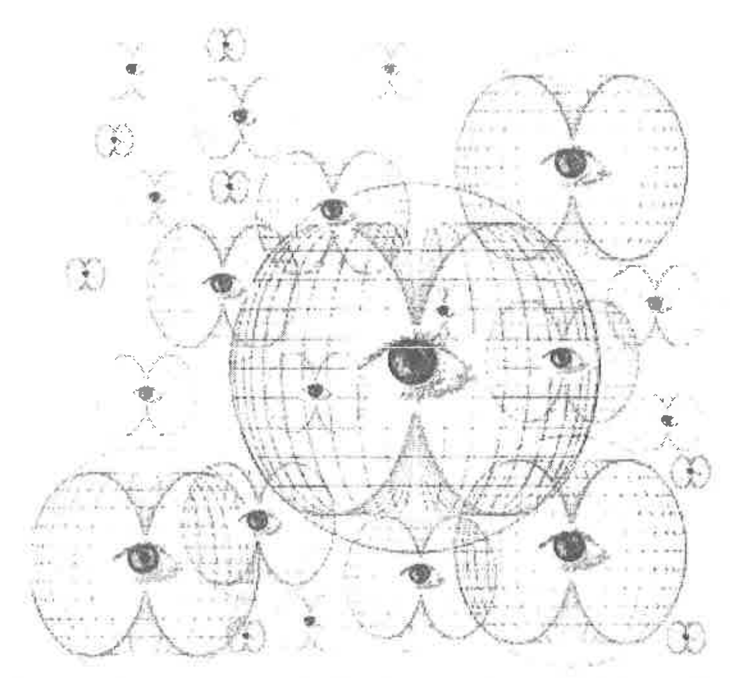
٣ـ يتمتع بحيوية وقدرة على الحركة وبذل مجهود معيّن، مزوّد بمخزون معيّن من الطاقة ومهيأ باستطاعة مناسبة لأداء الوظيفة التي تجلي من أجلها.



١ـ كائن عاقل مفكّر، يتمتع بوعي خلاق، وكينونته تتميّز عن الكائنات الأخرى من حيث الوظيفة الموكلة لها.

٢ـ محتواه مكوّن من روح، لكن له مظهر وشكل ذو صيغة وإطار تميّزه عن غيره لأنها تتناسب مع وظيفته في الوجود.

٣ـ يتمتع بحيوية وقدرة على الحركة وبذل مجهود معيّن، مزوّد بمخزون معيّن من الطاقة ومهيأ باستطاعة مناسبة لأداء الوظيفة التي تجلي من أجلها.



وفقاً للمنطق الفلسفي المشروح في الصفحات السابقة، كل شيء في الطبيعة من حولنا، الطيور والنباتات والحيوانات والحشرات.. والخلايا والذرات.. هي عبارة عن مخلوقات منبعثة من مصدر واحد وتتألف من الجبلة ذاتها، لكن الاختلاف يتجلّى فقط عند مستوى ظهورها بشكلها المرئي والملموس، إذ تختلف العوامل الزمكانية وشروط كثيرة أخرى داخلة في تجلّيها بهذا المظهر، وبالتالي تختلف وظائفها في مسرح الحياة مما يجعلها تتخذ أشكال ومظاهر مختلفة وتتمتع بدرجات مختلة من الحيوية والنشاط والحركة.

والآن لا بد من أن تساؤلات كثيرة تطرأ في البال مثل: كيف يمكن لحجر مثلاً أو حفنة تـراب أو كتلة مائية أو غيرها من أشياء أن تتمتع بالمواصفات المذكورة سابقاً المنسوبة لكل الكائنات؟

في الحقيقة، بعد الاطلاع على الموضوع التالي ("الحياة في كل مكـان فـي الطبيعـة") سـوف تستكشف الجواب بنفسك. سوف تصاب بالذهول من ما ستتعرف عليه. كل شيء فـي الوجـود عاقل ومفعم بالحيوية! حتى البلورات الصخرية الدقيقة تتزاوج وتتناسل وتنمو كما الكائنات الحيّة! حتى الجسيمات الذرية تتنافر من بعضها وتتجذب إلى بعضها بطريقة لا تخلو من عنصر الوعي، وإدارة هذا السلوك الحاصل بين الذرات أصبح يُسمى اليوم علم الكيمياء. نحن نجهل كـل هـذه

الحقائق الرائعة تماماً، لكن الذنب ليس ذنبنا على أي حال، هكذا تم توجيهنا في هذه الحياة الدنيوية الفانية.

لكن مع هذا كله هناك مسألة مهمة وجب توضيحها. يمكن تطبيق المواصفات العامة للكائن على المعادن والحجارة والماء لكن الفرق هو أن هذه المواد لا تمثّل شمولية نوعية، أي أنها في صيغتها الحالية (قطعة حجر، أو كوب من الماء مثلاً) صحيح أنها تحتوي على روح لكنها لا تملك [ذات] تجعلها قائمة بنفسها. وبالتالي يصلح التعريف السابق على الماء أو الحجر فقط إذا شمل كل المياه في الكون أو كل الحجارة في الكون، لأنه فقط في ذلك المستوى نستطيع إدراك سلوك هذه الكائنات الشمولية ومظهرها النهائي. الأمر يشبه تماماً حالة العرق البشري الذي يشمل كافة الكائنات البشرية. نحن نعلم أننا ننتمي إلى فصيلة واحدة تسمى "العرق البشري"، لكن هذه الفصيلة تمثّل كائن شمولي له سلوكه ودوافع الخاصة، وبسبب محدودية إدراكنا نجهل كيف يتصرّف هذا الكائن الشمولي الذي يُسمى "العرق البشري".

السبب الذي يجعلنا نرى الحجر بأنه جامد (مجرّد من أي حركة) يعود إلى أننا لا نرى الكائن الحجري بشموليته (الذي يشمل كل الحجارة في الكون)، بل فقط جزئية صغيرة منه (قطعة حجر). دعونا نفترض مثلاً بأن الجبل يمثّل كائن حجري قائم بذاته، لكن حجمه الهائل لا يسمح لنا بمتابعة سلوكه لأننا نختلف عنه من حيث الوتيرة الزمنية (وفق مبدأ الدوامة الزمنية المذكورة سابقاً في هذا الكتاب). يمكن للجبل أن يبدي ردة فعل معيّنة تجاه عمل مسيء له (مثل إجراء حفريات عميقة بجسمه) لكن ردة الفعل هذه تتطلب عدة قرون من الزمن قبل أن تنطلق وتظهر على السطح. صحيح أننا نقاسمه ذات المسرح الوجودي لكننا لا نتشارك معه في ذات المستوى الزمني. الأمر ذاته ينطبق على الماء التي تنتمي إلى مخلوق سيولي هائل يشمل كل المياه في الكرة الأرضيّة أو حتى في الكون. لهذا السبب، نعتبر أن قطعة الحجر أو كمية صغيرة من الماء تمتلك روحاً لكنها لا تملك ذاتاً قائمة بنفسها (كما ورد في أحد الأجزاء السابقة).

ما هو الفرق بين الإنسان والكائنات الأخرى؟ كيف يمكننا التفريق بين الكائنات المختلفة والمتنوعة التي تتمتع بدرجات متفاوتة من الذكاء والوعي والإرادة. الموضوع التالي سيجيب على هذه التساؤلات ويوضّح أمور كثيرة أخرى.

تراتبية العقل في الطبيعة

مقتبسة من محاضرة للباحث والمفكر

"جورج تروارد" Thomas Troward

أدنبورغ (اسكتلندا) عام ١٩٠٤م

حول الروح والمادة

إذا سُئِل أحدنا عن الفرق بين الروح والمادة أوّل ما يخطر في ذهنه هو الجواب البديهي الذي يعبّر عن حيويّة الروح وجماد المادة. أي أن الأولى مفعمة بالحياة بينما الثانية ميتة أو مجرّدة من الحياة. هذه المصطلحات التي نستخدمها للإشارة إلى الفرق بين الروح والمادة تُعتبر صحيحة عموماً لكن فقط إذا نظرنا إلى المسألة ظاهرياً. كافة الحقائق المُجمع عليها بين الناس تُعتبر صحيحة ومجرّدة من أي التباس، والسبب هو أنها مدعومة بشهادة الحواس التي تُدرك تلك الحقائق وتلمسها، وأي منظومة معرفية لا توافق على واقعية ما نلمسه ونراه سوف لن تُعتبر عقلانية أو منطقية في أي مجتمع من المجتمعات. ليس هناك ضير في تسليم العقل السليم بكل ما تنقله له حواس الجسم السليم، لكن المشكلة تبدأ عندما نأتي إلى الحكم على ما تنقله لنا حواسنا. لقد اعتدنا الحكم على الأمور بظاهرها فقط، وعبر معاني محدودة ربطناها بكلمات. لكن عندما نبدأ في تحليل المعاني الحقيقية للكلمات التي نستخدمها، وتحليل الأسباب الأوليّة التي أدت إلى بروز تلك المظاهر إلى مستوى إدراكنا، سوف نجد في النهاية أن تصوّراتنا المألوفة السابقة بدأت بالتلاشي، إلى أن نصحو أخيراً إلى حقيقة أننا نعيش في عالم مختلف تماماً عن ذلك الذي كنا نراه ظاهرياً. سوف يتلاشى نمط تفكيرنا المحدود وسوف نكتشف بأننا أمام عالم جديد تكون فيه الأشياء أكثر استقلالية ومُفعمة بالحياة. هذا ما سيخرج به كل عقل متنوّر مصرّ على اكتشاف الحقيقة بصرف النظر عن التصوّرات والقناعات التي نشأ عليها سابقاً، ومهما كانت مصداقية المرجعيات المعرفية التي استند عليها للوصول إلى تلك القناعات. الإصرار على التفكير الذاتي والصادق، والكفّ عن الاعتماد على الأفكار الجاهزة التي يستقيها من اجتهادات الآخرين سوف يصل بالفرد إلى الحقيقة الجليّة. دعونا الآن نشرع بمعالجة الموضوع، مبتدئين بمسائلة أنفسنا عن ما نقصده فعلاً بكلمة "الحيوية" التي ننسبها إلى الروح، وكلمة "الجماد" التي ننسبها إلى المادة.

في البداية يمكننا القول بأن "الحيوية" تتمثّل بالقدرة على الحركة بينما "الجماد" يتمثّل بغياب هذه القدرة. لكن بعد الاطلاع على الأبحاث العلمية الحديثة سنكتشف بأن هذا الفرق بين الحالتين ليس عميقاً بتلك الدرجة التي نتصوّرها. لقد أصبحت من بين الحقائق الفيزيائية الثابتة أن الذرّة التي نعتبرها "مادة جامدة" هي ليست كذلك على الإطلاق. ما من ذرّة عديمة الحركة، جميعها متحرّكة على الدوام ومفعمة بالحيوية والنشاط. إذا نظرت إلى قطعة جامدة أمامك الآن، لنقل كتلة معدنية مثلاً، سوف تعتبرها بديهياً بأنها "جامدة"، لكن العلم الحديث لا يعتبرها كذلك، بل بالعكس تماماً، حيث الذرّات التي تتألف منها هذه الكتلة الجامدة هي في حالة ذبذبة شديدة، وحالة دائمة من الحركة المنتفضة هنا وهناك وبسرعة خاطفة وعبر مسارات معقّدة تجعلنا نُصاب بالدهشة. يمكن للكتلة المادية أن تقبع جامدة في مكانها، لكن رغم غياب أي مظهر حركة لديها، فهي في الحقيقة موطن طاقة نشطة على الدوام، وتتحرّك الجسيمات المؤلّفة للكتلة بسرعة خاطفة. فبالتالي عندما نتحدث عن الفرق بين الروح والمادة فالأمر لا يتعلّق بموضوع الحركة إطلاقاً. وجب علينا التعمّق أكثر من ذلك. لا يمكن الوصول إلى حلّ المسألة عبر مقارنة الحياة بما نسميه جمود، والسبب سوف يتوضّح جيداً لاحقاً، لكن المفتاح الحقيقي يكمن في مقارنتنا بين درجة حياة وأخرى. ليس هناك حياة وموت، بل فقط حياة، لكنها بدرجات متفاوتة في سلّم الوجود. لكن بكل تأكيد، هناك جوانب معيّنة من المسألة لا تخضع فيها نوعية الحياة لعامل الدرجات، بينما هناك جوانب أخرى تخضع تماماً لعامل التدرّج. مثلاً، لا يمكننا الشكّ في تمتّع النبتة بالحياة، لكننا نعلم بديهياً أن حيويتها تختلف تماماً عن حيوية الحيوان. مثال آخر، ما من ولد صغير يفضّل اقتناء سمكة على حساب كلب كحيوان أليف. مثال آخر على شكل سؤال، لماذا يكون مستوى الولد الصغير أرقى من مستوى الكلب؟ النبتة، السمكة، الكلب، والولد الصغير، جميعهم أحياء، لكن هناك اختلاف في نوعية حياتهم بحيث لا يمكن لأحد إنكاره، وما من أحد سيتردد بالقول أن الاختلاف يكمن في درجة الذكاء. كيفما نظرنا إلى الموضوع سوف نجد دائماً بأن ما نسميه "حيوية" (إحياء) يتمتع بها أي كائن حيّ فإنه يُقاس بالنهاية بدرجة ذكاءه. إن الحوزة على درجة أكبر من الذكاء هي التي تجعل مرتبة الحيوان أعلى من مرتبة النبتة في سلّم الوجود، والإنسان أعلى من الحيوان، والإنسان العقلاني أعلى من الإنسان المتوحّش. إن الزيادة في مستوى الذكاء تفعّل أنماط حركية ذات مرتبة أعلى تتوافق معها. كلما ارتقى مستوى الذكاء، كلما زاد خضوع الأنماط الحركية لسيطرته تماماً. لكن كلما انحدرنا نزولاً في سلّم الذكاء، كلما زادت درجة الحركة الأوتوماتيكية التي لا تخضع لسيطرة الكائن. هذا الانحدار التدريجي في سلّم الذكاء يبدأ

من مستوى الوعي بالذات الذي تتمتع به شخصية الإنسان الراقي، ثم نزولاً إلى أدنى مرتبة من أشكال الحياة التي نسميها أشياء جامدة والتي لا تتمتع بأي درجة من الوعي بالذات.

كما رأينا إذاً، إن مدى حيويّة الحياة تُقاس بدرجة الذكاء. بمعنى آخر، تُقاس بمدى قوة الفكر، وبالتالي يمكن القول بأن الخاصيّة التي تميّز الروح هي الفكر، بينما على الجانب الآخر، يمكن القول بأن الخاصية التي تميّز المادة هي الجسم. لا يمكننا تصوّر أي مادة دون خاصية الجسم. لا بدّ من حضور جسم ما، حتى لو كان خفياً للعين المجرّدة (مجهري مثلاً، أو هلامي شفاف). حيث من أجل أن تكون المادة مادة، وجب أن تحتّل حيّز مكاني معيّن، ولكي تحتل حيّز مكاني معيّن فهذا يتطلّب حضور خاصية الجسم. لهذه الأسباب يمكننا التسليم بالمعادلة الجوهرية القائلة بأن: الخاصيّة التي تميّز الروح هي الفكر، والخاصية التي تميّز المادة هي الجسم. هذا فارق جذري وأساسي بحيث يُبنى عليه نتائج مهمة، وبالتالي وجب ملاحظته جيداً من قبل القارئ.

يفرض الجسم وجود امتداد معيّن في الفضاء (حيّز مكاني) والتقيّد ضمن حدود معيّنة. أما الفكر، فلا يتضمّن أي من الشروط السابقة. بالتالي، عندما ننظر إلى الحياة على أنها موجودة بأي جسم معيّن، فنربطها مباشرة بفكرة الامتداد المكاني (احتلالها حيّز مكاني)، فنقول مثلاً بأن الفيل يحتوي على كمية كبيرة من المادة الحيّة بالمقارنة مع الفأر. لكن إذا نظرنا إلى الحياة على أنها حالة حيوية سوف لن نربطها بفكرة الامتداد المكاني، بل نرى مباشرة أن الفأر يتمتع بالحيوية بنفس درجة الفيل، دون أي أخذ بالاعتبار الفارق في الحجم.

النقطة المهمة في هذا الفرق هي أنه إذا تصوّرنا أي شيء بأنه مجرّد تماماً من عنصر الامتداد المكاني، فهذا يعني إمكانية حضوره كلياً في أي مكان وكل مكان، أي، يكون موجوداً في أي نقطة في الفضاء بنفس الوقت. التعريف العلمي للـ"زمن" هو أنه المدة التي يستغرقها جسم معيّن خلال انتقاله من نقطة إلى أخرى في الفضاء، وبالتالي، وفقاً لهذا التعريف، عندما لا يوجد مكان لا يمكن أن يوجد زمان. من هنا، فإن المفهوم الذي ينظر إلى الروح على أنها مجرّدة من عنصر المكان لا بد من أن يراها مجرّدة من عنصر الزمان أيضاً. فنستنتج بالتالي أن مفهوم الروح بصفتها فكر صافي، وليس جسم ملموس، هو ذاته المفهوم الذي يعتبرها مستقلّة تماماً من عنصري الزمان والمكان. من هنا نصل إلى أنه إذا تصوّرنا فكرة أي شيء بأنه موجود في هذا المستوى (الروحي) فإنه يمثّل ذلك الشيء موجوداً فعلياً هنا والآن. وفق هذه النظرة للأشياء لا

يمكن لأي شيء أن يكون بعيد عنا زمانياً أو مكانياً. إما أن تكون الفكرة مشتّتة أو أنها موجـودة ككيان حاضر فعلياً وليس شيئاً سيكون في المستقبل، حيث أينما يغيب التسلسل الزمني لا يمكن أن يكون هناك مستقبل أصلاً. وبشكل مماثل، أينما يغيب عنصر المكان لا يمكن أن يكـون هنـاك إدراك لأي شيء بعيد أو قريب منا، إذ لا وجود للمسافة أصلاً. عندما يزول عنـصري المكـان والزمان، وجب أن تكون كل أفكارنا بخصوص الأشياء موجودة في هنا كونية والآن أبدية. هـذا دون شكّ مفهوم مجرّد بشكل كبير، لكن أودّ الطلب من القارئ أن يحاول استيعابه جيـداً، وذلـك بسبب أهميته الجوهرية في المواضيع التي تناولتها في هذا الكتاب. المفهوم المعاكس هـو ذلـك الذي يتناول الأشياء التي تعبّر عن نفسها من خلال شروط زمانية ومكانيـة، وتؤسّـس بالتـالي مجموعة متنوعة من العلاقات مع أشياء أخرى، مثل الحجم، المـسافة، والاتجـاه، أو التسلـسل الزمني.

هذين المفهومين السابقين يمثلان المفهوم النظري التجريدي والمفهوم المادي الملموس. أو يمثلان مفهوم اللامشروط ومفهوم المشروط، أو يمثلان مفهوم المطلق ومفهوم النسبي. هذان المفهومـان لا يناقضان بعضهما بمعنى الاختلاف، بل كل منهما يكمّل الآخر، والواقع الحقيقي الوحيد يكمـن في اجتماعهما معاً. الخطأ الذي يقترفه المثالي المتطرّف هو محاولته تحقيق المطلق دون النسبي، وخطأ المادي المتطرّف هو محاولته تحقيق النسبي دون المطلق. الأول لا يتعامـل سـوى مـع الباطن على حساب الظاهر، بينما الثاني لا يرى سوى الظاهر على حساب الباطن. بينمـا فـي الحقيقة، الجانبان الباطني والظاهري ضروريان لتكوين كيان كامل متكامل.

الذكاء الأعلى يتحكم بالذكاء الأدنى

رأينا كيف أن الإنحدار من مستوى الشخصية، كما نعرفها داخل أنفسنا، إلى مستوى المادة، كمـا نعرفها بصيغة الأشكال الجامدة، هو انحدار تدريجي في سلّم الذكاء من مستوى الكينونـة التـي تستطيع إدراك قوة إرادتها بصفتها قدرة كامنة على توليد سلسلة من المـسببات، إلـى مـستوى الكينونة التي تعجز تماماً عن تمييز ذاتها ككيان مستقلّ. كلما ارتفعت درجة الحياة كلمـا ارتقـى مستوى الذكاء، وهذا يؤدّي إلى حقيقة أن المبدأ الأعلى للحياة لا بدّ من أن يكـون أيـضاً المبـدأ النهائي للذكاء. يمكن استعراض هذه الحقيقة بوضوح من خلال النظر إلـى الترتيـب الطبيعـي الإجمالي للكون عموماً. في ضوء العلم الحديث لا بد من أن مبدأ التطوّر مألوف لـدينا جميعـاً،

وكذلك التنظيم الدقيق الموجود بين كافة أقسام المشهد الكوني هو واضح جداً بحيث لا يتطلّب الشرح لإثباته. كل تقدّم في العلم يتمثّل في اكتشاف مظاهر وصل ذكية وحاذقة في هذا الترتيب الكوني الرائع. كل شيء في الطبيعة من حولنا يدلّ على وجود عقل مدبّر مفعم بالحيوية ولا يتطلّب سوى اعترافنا به قبل أن نستثمره في تطبيقات عملية مجدية. إذا كان العمل الأساسي لأكبر العقول العلمية لا يتمثّل بشيء سوى الاعتراف بنظام موجود أصلاً *(من أوجد هذا النظام قبل وجود الإنسان أصلاً؟!!)*، فليس هناك مهرب من الاستنتاج المؤكّد لوجود عقل أسمى كامن في مبدأ الحياة، والذي يجسّد نفسه في كل هذا النظام الكوني أصلاً، فنخرج بقناعة تامة بأنه لا بد من وجود عقل كوني عظيم يشكّل أساس كل الأشياء.

التاريخ الطبيعي لكوكبنا يروي لنا كيف كان في حالة صخرية قاحلة في أوائل نشوءه، حيث البراكين والهزات الأرضية وانعدام كامل لمقومات الحياة. ثم تبع ذلك فترة مديدة من العصور الجيولوجية المتعاقبة، ثم بدأت تظهر أشكال حياة بدائية ذات المستوى المتدنّي، إن كان النبات أو الحيوان. انطلاقاً من هذا المستوى البدائي بدأ يظهر تدريجياً، وحقبة بعد حقبة، تشكيلة جديدة من الحياة الأكثر رقياً، حتى وصلت الحال بأشكال الحياة إلى ما هي عليه اليوم. من خلال النظر إلى هذا التقدم الثابت والتدريجي لنوعية الحياة، يصبح واضحاً بأنه مهما كانت الزاوية التي تنظر من خلالها إلى مبدأ التطوّر، نجده لا يحيد أبداً عن مسيرة تقدّم الفصائل المختلفة بما فيها عرقنا البشري. لكنه يفعل ذلك من خلال خلق أعداد معيّنة من كل نوع بحيث، رغم السماح بهامش واسع لإمكانية حصول حوادث لأفراد هذا النوع، إلا أن هذا النوع (أو العرق) سيستمر في تقدمه إلى الأمام. يبدو واضحاً اهتمام الطبيعة بالعرق ككلّ لكنها لا تأبه كثيراً بالفرد. باختصار، يمكننا القول بأن العقل الكوني يعمل وفق قانون المعدّلات Law of Averages الذي يسمح بهامش واسع من الحوادث والفشل والفناء على المستوى الفردي.

لكن التقدم نحو مستوى أعلى من الذكاء يكون دائماً باتجاه تضييق هامش الحوادث وإخراج الفرد أكثر وأكثر من نطاق قانون المعدلات، وإدخاله إلى نطاق قانون الاختيار الفردي law of individual selection. هذا ما يمكن أن نسميه وفق المصطلح العلمي "البقاء للأنسب". إن معدّل تكاثر الأسماك سريع جداً لدرجة تجعله قابل لأن يجعل البحار تعجّ بهذه الكائنات إذا كان لكل فرد منها فرصة متساوية للبقاء، لكن هامش الفناء هو كبير أيضاً، حيث يحافظ قانون المعدّلات على بقاء نسبة معيّنة فقط. لكن على الجانب الآخر من سلّم الحياة، أي عند مستوى

الإنسان، يكون معدّل التوالد أكثر بكثير من معدّل الفناء. صحيح أن هناك هامش واسع نسبياً للحوادث والأمراض التي تزيل أعداد كبيرة من البشر قبل بلوغهم أواسط أعمارهم، لكن مع ذلك يبقى الأمر مختلف تماماً عن حالة الأنواع المتدنية، كالأسمالك التي تُفنى بمآت الآلاف (أو حتى الملايين) مقابل فناء إنسان واحد. يمكننا بالتالي التسليم بحقيقة ثابتة تقول بأنه كلما تقدم شكل الحياة في سلّم الذكاء كلما تحرّر أفراد هذا الشكل من سطوة قانون المعدلات بحيث يكون له قدرة متزايدة على التحكم بشروط بقاءه.

نستنتج بالتالي أنه هناك فرق شاسع بين العقل الكوني والعقل الفردي، وأن العامل الرئيسي الذي يفرّق الأوّل عن الثاني هو مدى حضور الإرادة الفردية (هامش الاختيار الفردي). كلما ارتقى شكل الحياة في سلّم الذكاء كلما زادت الإرادة الذاتية لأفراده، وكلما انحدر نزولاً كلما نقصت الإرادة الذاتية لأفراده، أي تكون هذه الأخيرة كائنات أوتوماتيكية لا تساعدها عقولها على الاختيار الفردي بل الامتثال للغريزة الجماعية. تؤكّد الفلسفة التجاوزية على التناسبية القائمة بين القدرة الفردية على الاختيار والقانون الكوني العظيم الذي يسعى إلى تقدم النوع (أو العرق) والمحافظة على بقاءه. والنقطة المهمة التي وجب ملاحظتها بحذر هي أن قدرة الاختيار الفردي تمثّل بذاتها الحصيلة النهائية لمبدأ التطوّر الكوني عند بلوغه مستواه الأعلى والأخير. لطالما كان مجهود الطبيعة موجهاً نحو الإرتقاء للأعلى منذ الفترة التي كانت فيها كواكب الكون مأهولة بأشكال حياة بدائية، وقد بلغت الآن ذروتها بعد أن توصّلت إلى إنتاج كائن راقي (الإنسان) يملك عقل قادر على التجريد المنطقي ودماغ مناسب لأن يمثّل الأداة المادية لهكذا عقل متطوّر. عند هذه المرحلة يقوم مبدأ الحياة، الخالق الكلّي، بتوليد نفسه وفق شكل يجعله قادراً على تمييز آلية عمل قانون التطوّر، ووحدة واستمرارية الغاية الشاملة لكامل مسيرة التقدم حتى الآن تشير دون أدنى شكّ إلى أن مكانة هكذا كائن في المشهد الكوني تتمثّل في إظهار أداء عاملٍ مهم جداً وهو "الإرادة الفردية العاقلة". التطوّر الذي أوصلنا إلى هذه المرحلة عمل وفقاً لقانون المعدلات، أي أن الإنسان الفردي لم يلعب دوراً واعياً خلال هذه المسيرة السابقة. لكن لأنه ما هو عليه الآن، حيث يقود قاطرة التقدم التطوّري، إذا أراد أن يتطوّر أكثر، فلا بدّ من أن يتحقق ذلك عبر تعاونه الواعي مع القانون الكوني الذي أوصله إلى هذه المرحلة الحالية حيث يستطيع إدراك وجود هكذا قانون أصلاً. وجب على تطوره في المستقبل أن يكون عبر المساهمة الواعية في العمل العظيم، لا يمكن لهذا أن يحصل سوى بواسطة ذكاءه ومجهوده الفردي. هذه العملية هي عبارة عن "نمو عاقل". لا أحد يستطيع النمو من أجلنا، كل منا عليه النمو بنفسه، وهذا النمو العاقل يتضمن

اعترافنا المتزايد بالقانون الكوني الذي أوصلنا إلى هذه المرحلة المتقدمة، وكذلك التعرّف على علاقتنا الفردية بالقانون والمستند على حقيقة أننا أكثر منتجاته تقدماً. الحكمة المأثورة القائلة بأن "*.. الطبيعة تطيعنا بقدر ما نحن نطيعها أولاً..*" تمثّل حقيقة جوهرية. إذا عمل الكهربائي عكس المبدأ المتمثّل في أن التيار يسير دائماً من الكمون العالي نحو الكمون المنخفض فسوف لن يخرج بأي نتيجة مجدية، لكن إذا التزم بهذا المبدأ الكهربائي الأساسي فسوف ينجح في استثمار التيار بأي تطبيق كهربائي يرغبه.

هذه الاعتبارات ترينا أنه ما يميّز درجة الذكاء العالية من الدرجة المنخفضة هو مدى تمييز الكيان لذاتيته، وكلما كان هذا التمييز أكثر ذكاءً، كلما زادت القوة. الدرجة الدنيا من التمييز الذاتي هي تلك التي تميّز نفسها ككيان منفصل عن باقي الكيانات، كما حالة "الأنا" ego التي تميّز نفسها عن "اللا أنا" non-ego. لكن الدرجة العليا من التمييز الذاتي هي تلك التي، عبر إدراك طبيعتها الروحية، ترى في كل أشكال الحياة الأخرى امتداد لذاتيتها، أو تمثّل ذاتها فعلياً لكن بنمط مختلف من التعبير الوجودي. هذه الدرجة العليا من التمييز الذاتي هي ذاتها القوّة التي يحوزها الحكيم التجاوزي لتجسيد معجزاته العقلية. لهذا السبب، من الضروري أن يفهم جيداً الفرق بين المظهر والذات. فالأولى تمثّل المظهر الخارجي فحسب، أي النموذج النسبي والمشروط، وبالتالي تُجبر على الخضوع للظروف الدنيوية. بينما الثانية تمثّل الجوهر، الحقيقة المطلقة، غير المشروطة، وهي التي تتحكّم بالظروف الدنيوية لأنها أسمى منها جميعاً.

وجب على هذه المعرفة العُليا للذات باعتبارها فردانية روحية نقيّة أن تسيطر بالضرورة على كل أنماط الروح التي لم تصل بعد إلى نفس المستوى من معرفة الذات. هذه الأنماط المتدنيّة من الروح تخضع لعبودية قانون وجودها لأنها لا تعرف هذا القانون، وبالتالي، الفرد الذي أحرز هذه المعرفة يستطيع التحكم بتلك الأنماط عبر القانون ذاته. لكن من اجل فهم هذا كله، علينا إجراء المزيد من الاستعلام عن طبيعة الروح. لقد استعرضت سابقاً كيف أن الموائمة والتلاؤم بين كافة أجزاء المشهد الكوني مع بعضها البعض وعلى نطاق واسع تُثبت حضور عقل عظيم ومذهل في مكان ما، ومستتر وراء كل شيء، ومشكّل أساس لكل شيء، والسؤال هو: أين يمكن إيجاد هذا العقل؟ لا يمكننا في النهاية سوى تصوّره متأصلاً في مادة أوّلية تشكّل أساس كافة الأنماط المادية الملموسة والمألوفة لدينا، إن كانت مرئية للعين المجرّدة أو غير مرئية لكن اكتشفها العلم من خلال تأثيراتها الملموسة. كما أنه يمثّل تلك القوّة المتأصّلة في كل فصيلة وكل فرد والتي تتحوّل

إلى ما هي عليه، وبالتالي لا يمكن تصورّه سوى بأنه عقل متشكّل ذاتياً يتأصّل في المادة الأولى التي يمثّل كل شيء تجسيداً لها لكن وفق أنماط وأشكال مختلفة.

حقيقة أن هذه المادة الأوليّة وجب اعتبارها قابلة للتشكّل الذاتي من قبل عقل متأصل داخلها، يمكن إثباتها بناء على حقيقة أخرى استنتجناها سابقاً وهي أن العقل يمثّل الميزة الجوهرية للروح، وإذا تصورّنا المادة الأوليّة على أنها لا تمثّل جزءاً من الروح، فعلينا إذاً افتراض وجود قوة أخرى لا تمثّل المادة ولا الروح، لكن هذا يعني التراجع بفكرة "القوة ذاتية التطوير" إلى الوراء واقتراح وجود أكثر من قوة روحية غير متمايزة، وهذا طبعاً اقتراح باطل ومناقض تماماً لأي فكرة يمكن تكوينها عن الروح الواحدة غير المتمايزة. بالعودة إلى نقطة البداية، حيث لا يمكننا تفادي الاستنتاج بأن الروح تحتوي على المادة الأوليّة، مما يعيدنا إلى الإقرار بأنها صنعت كل شيء من لا شيء. نجد بالتالي عاملين يدخلان في صناعة الأشياء: [الروح] و[لا شيء]، وبعد إجراء عملية حسابية بسيطة، أي جمع الروح مع لا شيء [x + 0 = x]، تبقى الروح قائمة لوحدها.

من هذه الاعتبارات السابقة نجد أن الأساس النهائي لكل شكل مادي هو الروح، وأن العقل الكوني متجلّي في الطبيعة ومتأصل في كل تجسيد من تجسيداتها. لكن هذا العقل المحجوب لا ينتمي إلى الهيئة إلا في مدى ملائمتها الجسمية مع عملية تراكزها إلى فردانية مميّزة لذاتها. هذا العقل يقبع مستتراً في المادة الأوليّة التي يمثّل الشكل المرئي تجسيداً ملموساً لها. هذه المادة الأوليّة تمثّل ضرورة فلسفية، ويمكننا تصورها بأنها أكثر نقاوة ورهافة من الذرّة التي تمثّل بدورها استدلال فلسفي ضروري يستند عليه علم الفيزياء. وأيضاً، من أجل التوضيح أكثر، يمكننا الحديث على نحو ملائم عن هذا العقل الأولّي المتأصّل في جوهر الأشياء بأنه العقل الذرّي Atomic Intelligence. يمكن لهذا المصطلح أن يكون معرضاً لبعض الاعتراضات، لكنه سيخدم غايتنا الحالية في التمييز بين هذا النمط من الذكاء الروحي وبين ذاك النمط المعاكس تماماً والمتمثّل بالذكاء الفردي. وجب ملاحظة هذا التمييز جيداً لأنه عبر استجابة الذكاء الذرّي للذكاء الفردي تستطيع قوة الفكر أن تجسّد نتائج ملموسة في العالم المادي، كما في حالة شفاء الأمراض بواسطة العلاج العقلي، أو حتى التأثير على الأشياء بواسطة الفكر ([PK]) أو غيرها من أعمال. يجسّد العقل نفسه عبر الاستجابة، وكامل عمل العقل الكوني في إطلاق مسيرة التطوّر من بدايتها الأولى حتى مرحلة الإنسان الحالية هو ليس سوى استجابة عقلية مستمرّة لمتطلبات كل مرحلة في هذه المسيرة لتحقيق التلاؤم بينها وبين البيئة المحيطة. إذاً، بما أننا سلّمنا بحضور ذكاء كوني يتغلغل

في كل الأشياء، فعلينا التسليم أيضاً بوجود استجابة متناغمة مستترة عميقاً في طبيعة هذه الأشياء ومستعدة دائماً للعمل حين الطلب. كافة أشكال العلاج العقلي تعتمد على هذه الاستجابة للروح في مستوياتها الأدنى تلبية لطلب من مستوياتها الأعلى. هنا بالذات يكمن الفرق بين الحكيم التجاوزي والشخص الجاهل لهذه الحقيقة. فالأول يعرف بوجود هذه الاستجابة المتأصّلة في الأشياء فيستثمرها لصالحه، بينما الثاني لا يستطيع الاستفادة منها لأنه يجهل وجودها أصلاً.

وحدة الروح

لقد مهدنا الطريق الآن لاستيعاب المعنى الحقيقي لـ"وحدة الروح". في المفهوم الأول للروح بصفتها الأساس الجوهري لكل الأشياء تعرفنا على مادة كونية غير متمايزة أو متخذة أي شكل من الأشكال. نحن لا نتكلم عن مرحلة معيّنة أو زمن سابق تطوّرت منه الأشياء، بل عن مادة موجودة في كل لحظة من كل الأوقات وفي جوهر طبيعة كل الكائنات. وعندما نرى هذه الحقيقة، نرى أن الاختلاف بين شكل وآخر ظاهري فحسب، حيث خلف هذا المظهر الخارجي نرى وحدة جوهرية عميقة وتعمل على دعم وتعزيز كافة الأشكال الفردانية المتعددة المنبعثة منها. ومع اختراق أفكارنا عميقاً في طبيعة هذه المادة الروحية متعددة الإنتاج، نرى أنه لا يمكنها أن تكون محدودة في جزء واحد في الفضاء، بل هي غير محدودة كما الفضاء ذاته، وأن فكرة محدوديتها لجزء معيّن في الفضاء هي فكرة غير معقولة. أحد تلك البديهيات التي لا يمكن للعقل البشري التهرّب منها هو أن هذه الروح الأوليّة، الحيّة ومتعددة الإنتاج، هي لانهائية بطبيعتها، وبالتالي لا يمكننا تصوّر شيء آخر سوى لامحدوديتها وعملها على المستوى الكوني. اللامحدود هو المطلق بذاته، وبالتالي لا يمكن أن يكون هناك مطلقين اثنين، حيث هذا سيزيل صفة المطلق عن كليهما، سوف يكون كل منهما محدوداً من قبل الآخر، ولا تستطيع تقسيم المطلق إلى أجزاء وكسور. من الناحية الحسابية، يمثّل المطلق (أو اللامحدود) وحدة جوهرية. لا يمكننا التشديد على هذه النقطة أكثر من ذلك، حيث يليها تبعات مهمة جداً. وحدة كهذه لا يمكن مضاعفتها أو تقسيمها، حيث كل من العمليتين تدمّر الوحدة. من خلال المضاعفة، ننتج مجموعة من الوحدات المتطابقة مع الوحدة الأصلية. ومن خلال عملية الطرح، ننتج مجموعة من الوحدات المُصغّرة، ومجموعة الوحدات لا تمثّل وحدة بل تعدد وحدات. لذلك، إذا اخترقنا إلى داخل المظهر الخارجي للشيء، وتعمقنا إلى المبدأ الجوهري لكينونة ذلك الشيء الذي برزت منه فرديته، يمكننا فعل ذلك فقط من خلال تجاوز مفهوم الوجود الفردي والدخول إلى وحدة الكائن الكوني. قد يبدو ذلك عبارة عن تجريد

فلسفي، لكن القارئ الذي يرغب في الخروج بنتائج عملية عليه التسليم بـأن هـذه العموميـات المجرّدة تمثّل أساس التطبيقات العملية التي سوف ينجزها في المستقبل.

الحقيقة العظيمة التي وجب التسليم بها بخصوص الوحدة هي أنه لكونها تمثّل وحدة منفردة، فهـذا يجعلها كاملة متكاملة أينما كانت حتى لو في جزئية معيّنة في الكون. في اللحظة التي نسمح فيها لذهننا أن يشطح نحو فكرة التمدد في الفضاء ونقول بأن جزء من الوحدة يقبع هنا وجـزء آخـر يقبع هناك، نكون قد انحدرنا بمستوى الوحدة الكاملة المتكاملة إلى مستوى الوحدة المجزئـة إلـى أجزاء، أي تسود فكرة تعدد الوحدات المُصغّرة، وفي هذه الحالة نتعامل مع النسبي وليس المطلق، ونكون بذلك قد خرجنا من نطاق الوحدة الواحدة المتكاملة والمطلقـة. إنهـا بالتـالي ضـرورة رياضياتية، حيث لأن المبدأ الحيوي الأوّلي هو مطلق أو لا محدود، فهو يمثّل وحدة منفردة، وهذا يجعله كاملاً أينما وجد، أي كله سيكون حاضراً في أي نقطة بالكون. لأنه مطلق، أو لا محـدود، فهو في كل مكان، وهذا بالتالي يجعل كامل الروح الكونية حاضرة في كل نقطة بالفـضاء وفـي نفس الوقت. الروح بالتالي هي كليّة الوجود بكليتها، ومن المنطقي أن يتبع ذلك حقيقة أنه في كل لحظة زمنية تكون كل الروح متراكزة في أي نقطة بالفضاء وجهنا إليها تفكيرنـا. هـذه حقيقـة جوهرية بخصوص الكينونة الكلّية، وإنه لهذا السبب مهدت لهذه الفكرة عبر البدء بالحديث عـن العلاقة بين الروح والمادة والعلاقة بين الفكرة والشكل، وكذلك عن المطلـق الـذي تكـون فيـه عناصر الزمان والمكان معدومة، وعن النسبي الذي يعتمد كلياً على هـذه العناصـر. الحقيقـة العظيمة هي أن الروح النقية تكمن دائماً وأبداً في حيّز المطلق، إن كان ذلك في الجسد المادي أو غير ذلك، ومنها تنبعث كافة الظواهر الوجودية، إن كان على المـستوى العقلـي أو المـستوى المادي. إن معرفة هذه الحقيقة العظيمة المتعلقة بالروح تمثّل أساس كافـة الأعمـال الروحيـة، وبالتالي كلما ازداد تسليمنا بصحّة هذه الحقيقة وواقعيتها كلما زادت قوة الفكر لدينا بحيث يستطيع تجسيد نتائج ملموسة في محيطنا الخارجي. الكل هو أعظم من أجزاءه، وبالتالي، إذا استطعنا من خلال تسليمنا بهذه الوحدة أن نركّز كلّ الروح في أي نقطة نرغبها (وعي دينـاميكي) وفـي أي وقت من الأوقات، فسوف نجسّد أي جانب من جوانبها والذي نرغب في التعامل معـه. الأهميـة العملية لهذا الاستنتاج هي واضحة جداً بحيث لا تحتاج لشرح إضافي.

الروح النقية هي المبدأ الإحيائي الذي يُعتبر منفصلاً عن عوامل الزمان والمكان. بهـذا المظهـر تكون عقل صافي غير متمايز. كونها عقل صافي يجعلها قابلة للتأثر وتتمتع باستجابة لامحدودة.

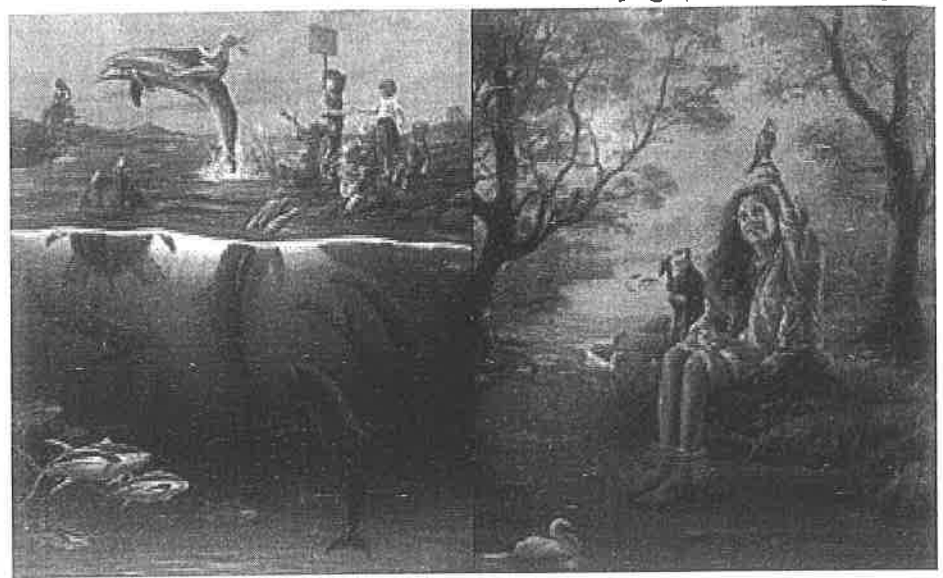
بما أنها مجرّدة من عاملي الزمان والمكان، فهي بالتالي مجرّدة من الشخصية الفردية. كونها بهذا المظهر يجعلها تمثّل عنصر مجرّد غير شخصي بحيث، عبر ذكاءها المتأصّل وقابليتها المتأثرة، يمكننا منحها أي شخصية نرغبها. هذه هي الحقائق العظمى التي يتعامل معها الحكيم التجاوزي، والتي على القارئ أن يتأمل عميقاً في مدى أهميتها والمسؤولية التي تترتب على كل من استثمرها في تطبيقاته العملية المختلفة.

مرتبة الإنسان في الكون

وفقاً للتعاليم السرية

المبادئ والقيم التي تحويها التعاليم السرية هي صالحة اليوم كما كانت قبل آلاف السنين. بصرف النظر عن الزمن الذي نعيش فيه، تبقى رحلة النفس البشرية الاعتبار الأكثر أهمية في حياة الفرد، ووجب أن تكون إحدى الديناميكيات الكبرى للكلّ العظيم. إلى أن يستشعر الإنسان مجدداً مواطنته في الكون، إلى أن يدرك بأن قدره لا يمكن أي يكتمل أو يتحقق في دورة صغيرة من الاختبارات التي يألفها في حياة واحدة، لا يمكننا أن نأمل بتطوير نظرة بعيدة المدى تستطيع أن تلهمنا أو تحفّزنا نحو اتخاذ سلوك بنّاء. لقد فقد الإنسان اليوم صلاته بمجموعة من القيم التي تقبّلها الإنسان القديم وقدّرها بشكل كبير. رأى الإنسان القديم نفسه جزءاً من كائن حيّ واسع مترامي الأطراف. شعر بأن كل الفضاء كان مسكوناً بمخلوقات عقلانية، قد تتجاوز حياة هذه الكائنات وأفكارها حدود استيعاب الإنسان، لكنه مع ذلك شعر بوجودها وأدرك مدى قوتها فجعل منها آلهة يعبدها. لم يؤمن الإنسان القديم بأن كل آلهته تقبع عاليا فوق السماء. لقد سكنت الأرض وفي الصخور من حوله، سكنت الجبال والوديان والأشجار والشلالات المائية، ذلك لكي يبقى هذا الإحساس الرائع بقرب القوى الكونية منه. لقد فقدنا هذا كله اليوم، لأن الإنسان أصبح يجد القرب فقط من نوعيته أو القرب من العالم الغريب والمعقّد الذي صنعه بيديه. سعى حكماء العالم القديم إلى موائمة الإنسان مع الكون، بينما المفكرين العصريين يسعون إلى موائمة الكون مع الإنسان، وهذا ليس منطقياً ولا ممكناً لأن الإنسان ليس محور الخطة الكونية الهائلة التي تجري من حولنا. الإنسان يشكل جزء من هذه الخطة وليس محورها. وهذه الخطة لها قدرها الخاص، والإنسان عالق في مجريات هذا القدر ولا يمكنه السيطرة عليها ولا هو يمثّل العامل الرئيسي في غاية الوجود بذاته. من خلال التواضع الصحيح والتصاغر المناسب ومن خلال الاعتراف بأهمية وجلالة المنزلة

الإنسانية لكن دون مبالغة أو تحريف، حقق الإنسان القديم إنجازاً ذو أهمية. في مجال الدين والفلسفة، خصوصاً في القرون الأخيرة، مُنح الإنسان أهمية كبرى. أصبح مهماً بطريقة أنانية تتمحور حول ذاته. منح نفسه أهمية مغرورة. وفي التركيز على أهميته الذاتية، فشل في التركيز على صلاته مع العالم الأكبر الذي يمثّل جزءاً منه. وإلى أن يكون لديه نظرة مناسبة للأمور لا يستطيع التعاون بشكل سليم مع أي غاية غير مصالحه الشخصية.



نظر الإنسان القديم إلى الكون من حوله ورءاه كمنزل كبير، منزل مؤلف من عدة حجرات وأجنحة. كما أدرك الحياة تتجلّى في كافة زوايا هذا البنيان الكبير. بصفته مؤلف من أجزاء لا متناهية، ليس هناك أي جزء في الكون أهم من الآخر. بعض الأجزاء أكثر تقدماً من غيرها فتسبقها في المسيرة، بينما البعض أكثر تواضعاً من الآخر. بعض الكائنات الحية بدائية جداً وأخرى تقترب من إكمال مسيرة النمو. لكن هذه الاختلافات المتنوعة هي اختلافات كمية بدلاً من اختلافات نوعية. أدرك الإنسان القديم وجود حياة مشتركة بين الجميع وعليه احترامها. وقد سعى إلى فهمها لكنه لم يرغب في انتهاكها. فمثلاً، عندما كان الإنسان القديم يصطاد ليأكل، صحيح أنه كان يقتل الحيوانات لكنه قتلها ليعيش، قتلها من أجل إطعام الجياع. الإنسان القديم لم يقتل من أجل الرياضة أو التسلية. لم يقتل للتمتع ببهجة التدمير. الإنسان لم يبني من أجل التمتع بخلق الأشياء على حساب دمار الطبيعة، بل من أجل غاية مكرّسة. الأشياء التي قام بها سعت إلى نيل الأهمية بمساعدة آلهته، تكريساً لدينه ولإيمانه. حتى فنونه وعلومه كانت مكرّسة. كامل حياته كانت

مكرّسة. نتساءل إذاً كيف يمكن أن أناس مكرّسين أنفسهم بهذه الدرجة لم يحرزوا الأهداف النهائية التي رغبوا بها. أي لم يستطيعوا عبر التكريس وحده تحقيق الأمان الذي لازلنا نسعى إلى تحقيقه اليوم. ربما أحد الأسباب وراء عدم استطاعتهم فعل ذلك هو أنهم مثلنا اليوم، لازالوا في منتصف الطريق في مسيرة النمو. حتى اليوم ليس هناك شيء يُسمى الإحراز النهائي. الإحراز هو آني فقط. الفرد الذي يحرز كمال معيّن اليوم سوف يكون إحرازه غير مكتمل غداً. ويستمر التقدم دون توقف نحو الكمال النهائي. لا يستطيع الإنسان بالاعتماد على مستواه الحالي غير الكامل أن يحقق الكمال النهائي. عليه الإستمرار في النمو والبناء والتجديد والإصلاح، عليه الاستمرار في الكفاح نحو الغاية الأسمى التي لا يمكنها أن تكون ملكاً سوى لتجليه النهائي الكامل.

الحيـــــــاة

العقل ــ الحركة ــ المحتوى

فـي كـل مكـان فـي الطبيعـة

لقد علّم حكماء العالم القديم بأن الكون حيّ والحياة متجلية في كل شيء، وأن لا شيء ميّت في الطبيعة إذ أن الموت هو عبارة عن تغيير في شكل ومادة الأجسام الميتة. علّموا بأن الحياة بدرجاتها المختلفة من التعبير والتجسيد حاضرة في كل شيء وكل غرض، حتى في أقسى الأشكال المادية والذرات التي تتألف منها. يتقدم العلم العصري الآن بسرعة نحو الاستنتاج ذاته وكل بحث أو اكتشاف علمي جديد يؤكّد هذه الحقيقة التي شدد عليها القدماء.

منذ بدايات القرن الماضي، في ذروة طغيان العلمانية المادية على الساحة العلمية، برز الكثير من العلماء الذين أكدوا الحقيقة السابقة بكل ثقة وقناعة. لقد عبّر عالم النباتات الشهير "لوثر بوربانك" Luther Burbank عن هذه الفكرة جيداً عندما قال:

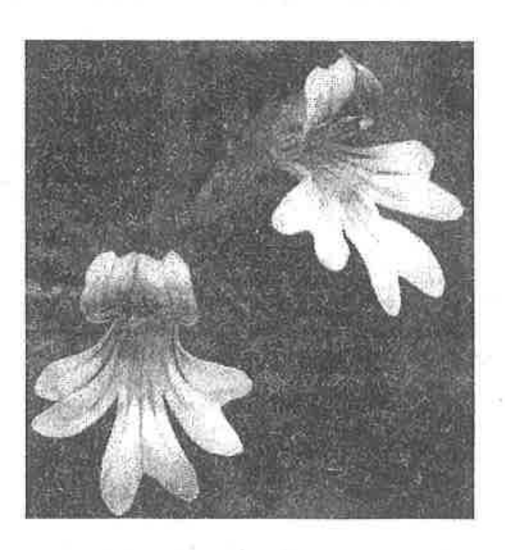
".. كل أبحاثي قادتني بعيداً عن فكرة الكون المادي الميّت الذي تتقاذفه القوى المختلفة هنا وهناك، نحو كون مفعم بالقوة والحياة والفكر وغيرها من أسماء نختارها لتوصيفه. كل ذرّة وجزيء ونبات وحيوان أو حتى كوكب يمثّل تكتّل من القوى المنظّمة المُثبّتة في مكانها بفعل قوى أكثر قدرة لكنها خفية، فيجعلها متماسكة لوقت معيّن. كل الحياة على كوكبنا تقبع على سطح هذا المحيط اللامحدود من القوى. الكون ليس نصف ميّت بل حيّ بالكامل.."

يحدق العلم اليوم إلى كون مفعم بالحياة. لم يقدّر بعد المعنى الكامل لما اكتشفه ولازال يحجب عن عيونه نور الحقيقة الباهرة. لقد خرج تواً من ظلمات الكهف المظلم لمفهوم "الكون الميّت" إلى النور الساطع لمفهوم "الكون الحيّ" والمفعم بالحياة ابتداءً من أكبر جرم سماوي حتى أصغر جزيء في المادة.

ابتداءً من الإنسان، أرقى أشكال الحياة المعروفة لدينا، سوف ننزل سريعاً عبر السلّم الحيواني ونرى إجراءات الحياة بكامل طاقتها عند كل درجة من درجات السلّم. نمرّ عبر مملكة الحيوان

إلى مملكة النبات ونرى أيضاً إجراءات الحياة بكامل طاقتها لكن بدرجة أقل من التعبير. سوف لن استرسل في الحديث عن النباتات ومدى ذكائها والوعي الذي أظهرته بصيغ وأشكال عديدة لأن هذا يتطلب مساحة كبيرة (تحدثت عنها بإسهاب في عدد من الإصدارات السابقة) لكن لا بد من أنه أصبح واضحاً للجميع أن هذه الكائنات مفعمة بالحياة والوعي الذي يمكن ملاحظته في كافة مراحل حياتها، ابتداءً من برعمة البذور ونشوء السيقان والأوراق وتفتح الأزهار واكتمال الثمر.. إلى آخره.. كما نلاحظ في هذه المراحل المختلفة تجسيد قوى وطاقات هائلة تعزّز عملية النمو والإثمار. يمكننا رؤية قوة الحياة المتأصلة في النبتة والتي تدفع دائماً إلى الأمام إبتداءً من برعمة البذرة ووصولاً إلى آخر إجراء حيوي عند مرحلة الشجرة كاملة النمو. فيما يلي اختصار لبعض الحقائق التي كشفت عنها التجارب والدراسات التي خضعت لها النباتات:

الحقيقة الأكثر أهمية هي أن النباتات تتفاعل مع عواطف البشر (وباقي الكائنات طبعاً)، والأمر الأكثر عجباً هو قدرتها على قراءة افكار الأشخاص ونواياهم. فمثلاً، إذا توجهت نحو نبتة وفي نيتك أذيتها (قصّها أو حرقها.. إلى آخره) فسوف تدرك النبتة مباشرة وتستجيب للأمر قبل أن يحصل. السؤال الكبير هو: كيف تستطيع النباتات أن تتفاعل مع عواطف الآخرين وقراءة افكارهم دون ان يكون لها أجهزة عصبية أو مقومات إدراكية مثل الأجهزة الحسية التي نألفها؟!



بالإضافة إلى ذلك هناك المزيد من الظواهر العجيبة التي كشفت عنها النباتات ويمكن استخلاصها فيما يلي:

ـ لديها القدرة على التواصل مع نباتات أخرى (تخاطرياً)

ـ تستطيع تمييز أفراد من عائلتها

ـ لديها القدرة على تذكر الأشياء

ـ تظهر علامات التعب والإرهاق بعد استثارتها بدرجة كبيرة

ـ تستجيب إلى كل أطوال الموجة ابتداءً من الموجات الطويلة الصادرة من الكواكب البعيدة وصولاً إلى الموجات السريعة جداً التابعة لحزمة الضوء فوق البنفسجي.

ـ يزداد نموها بعد استثارتها بالصوت.

ـ ازدياد ملحوظ في نموها قبل العاصفة الرعدية مباشرة.

لقد تبيّن بوضوح أن النباتات ليست مجرّد كائنات هامدة بل هي أكثر تعقيداً مما هو متوقع. بعد إخضاعاها لأبحاث عديدة تبين أن لها ذاكرة وقدرات تخطيطية وقدرات تعليمية وحتى الإدراك. وقد تبين أنها تتشارك مع الحيوانات بجوانب كثيرة من سلوكها، أهمها:

١ـ العملية الجنسية متشابهة بين النباتات والحيوانات.

٢ـ تطور النباتات وسائل مناعية مستخدمة إجراءات وآليات متشابهة مع تلك التي لدى الحيوانات.

٣ـ الحيوانات والنباتات تستخدم ذات الجزيئات والممرات الخلوية التي تدير ساعاتها البيولوجية.

٤ـ تمارس النباتات إجراءات معلوماتية معقّدة عبر التواصل الحاصل بين الخلايا.

٥ـ كافة الخلايا والأجزاء المكتلفة من النبتة تستجيب بنفس الطريقة للاستثارات الكهربائية، كما الحيوانات تماماً.

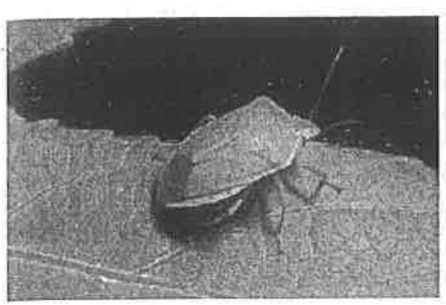
٦ـ تستطيع النباتات تذكّر تجارب مرهقة مرّت بها سابقاً ويمكنها استرجاع هذه الذكريات المؤلمة عندما تصنع قرارات حول نشاطات مستقبلية.

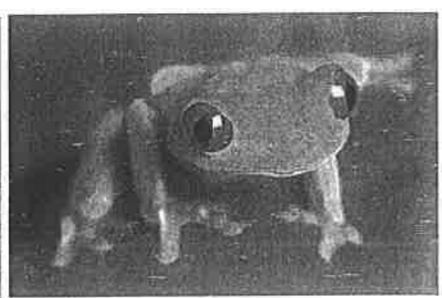
٧ـ تستطيع النباتات تمييز ذريتها.

٨ـ تستطيع النباتات أن تتوقع ظروف مستقبلية للبيئة المحيطة بها من خلال تقييم إشارات معينة تظهرها البيئة حالياً (أي بمعنى آخر، لديها القدرة على التنبؤ بالحالة المستقبلية للبيئة المحيطة بها، وهذه قدرة واضحة على تجاوز حاجز الزمن).

٩ـ لديها القدرة على صنع قرارات تستند على معطيات مختلفة تأتي من استجابتها لعوامل متنوعة مثل الجاذبية والضوء والرطوبة واللمس.. إلى آخره.

١٠ـ النباتات تتواصل مع كائنات أخرى وخصوصاً الحيوانات النباتية.

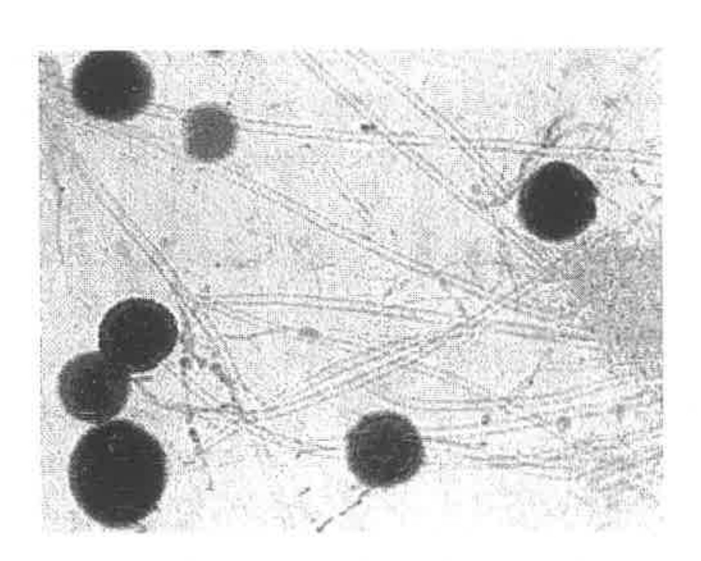




Vibrating the leaf to communicate Tree frog

يوجد علاقة حميمة ومصالح متبادلة بين النباتات والكائنات الأخرى

بالإضافة إلى الإجراءات الحيوية التي لوحظت في مراحل نمو وتطوّر النباتات أصبحنا على يقين بأن النباتات تمرض وتموت وتظهر جوانب كثيرة تؤكّد أنها كائنات ذكية وتتمتع بـالوعي. لكـن هناك اشكال حياة أخرى تدنو النباتات بدرجات كثيرة في سـلّم الحيـاة. هنـاك عـالم البكتريـا والميكروبات والنقاعيات، والخلايا الجماعية وكذلك الخلايا الفردية، نزولاً في سـلّم المجهريـات حتى مستوى "المينورا" Monera (بدائيات النواة) وهي مخلوقات مجهرية ادنـى مـن مـستوى أحاديات الخلية، وتعيش في الطينة المشكّلة لقاع البحار.



هذه المخلوقات الدقيقة جداً والتي بالكاد تُرى في المجهر، والخالية من الأعضاء، تبين أنها تمارس كل الإجراءات الحيوية كأي مخلوق عادي، مثل الحركة والتغذية والتوليد والاحساس والموت.

بعض هذه المخلوقات المجهرية تتخذ شكل المعدة، أي أن وظيفتها هو استيعاب الفرائس داخلها ثم تهضمها، وذلك دون أن يكون لها فم أو مجرى هضمي من أي نـوع، فهـي تحـيط بالفريـسة وتحضنها كما الصمغ فتصبح داخلها فتذوب وتتلاشى تدريجياً خلال هذه عملية. لقد تمكن العلماء من تقطيع هذه الكائنات الدقيقة إلى أجزاء عديدة، ورغم ذلك حافظ كل جزء على حياته كمخلوق منفصل، كما لو أن شيئاً لم يكن. حتى طريقة توالدها هو غريب وعجيب، إذ عندما تنمو إلى حجم معيّن تبدأ بالانشطار إلى أجزاء، أي تنشطر أولاً إلى جزئين ثم أربعـة ثـم ثمانيـة.. وهكـذا، وبسرعة خاطفة، وبعدها كل جزء يتخذ حياة خاصة به. لقد حاول العلماء جاهدين بأن يلاحظـوا أي عضو من أي نوع في جسم هذه الكائنات لكن دون جدوى. كامل جسدها يبـدو كمـا قطعـة الصمغ الصافية والخالية من أي شيء! هي بكل بساطة ".. عبارة عن كائنات عـضوية هلاميـة مجرّدة من الأعضاء.."!

إذا ألقينا نظرة تفحّصية إلى طريقة حياة هذا الكائن المجهري الذي يكاد يقبع بين مرحلة التجـسيد واللاتجسيد من شدة صغره، هذه القطرة الصمغية الدقيقة، هذا الكـائن العـضوي الخـالي مـن الأعضاء، سوف نلاحظ بأنه مجهّز بملكات ذهنية عديدة، مثل الإحساس بـالخوف مـثلاً حيـث يتراجع ويبتعد عن ما يمكن أن يعتبره خطراً، كما أنه يتقدم نحو ما يرغبه ويعتبره مفيداً. لديه إذاً غريزة الحماية والمحافظة على البقاء. هو يبحث عن فرائسه ويطاردهـا ويـصطادها ويبتلعهـا ويهضمها. هذه الكائنات تتكاثر عبر الانشطار الذاتي. كيف تفعل ذلك يا تُرى؟ ما الذي يرشـدها ويلهمها بما تفعله؟

مع تطور الأجهزة المجهرية أصبح عالم المجهريات مألوفاً لدينا، وقد اكتشف ظـواهر كثيـرة لا يمكن استيعابها من قبل الفرد لولا أنها متجلية أمام عينيه. تبيّن مؤخراً وجود كائنات أصغر مـن "الميونورا" بكثير، حيث تقبع في مستوى الطاقة أكثر من المستوى المادي. وهناك كائنات مجهرية تعرضت لتجفيف وتُركت لسنوات عديدة ثم تم إحياءها من جديد مجرّد أن تعرضت للرطوبة. هذه الكائنات تشبه حبات الغبار لكنها مفعمة بالحياة. بعـض أنـواع العـصيات المجهريـة bacilli تعرضت لدرجات حرارة عالية جداً ومنخفضة جداً لكنها بقيت محافظة على حيويتها.

أصبح معروف جيداً أن الخليّة هي عبارة عن حيوان مجهري عالي التنظيم والتخـصّص بحيـث يستطيع تحقيق عمليات معقّدة جداً لدرجة الإعجاز. بالإضافة إلى كونه شديد الـذكاء أيـضاً. إذا

نظرنا إلى أحد أنواع "الأميبة" amoeba مثلاً، هذا الحيبون المجهري غير مجهّز بآليات حيوية تمكنه من تصنيع النشاء ذاتياً (كبعض الخلايا الأخرى)، فبالتالي نراه يحمل معه مواد بناء معيّنة (يكون قد التقطها من هنا وهناك) يستطيع استخدامها لحماية حياته خلال الحالات الطارئة حيث يصنع من تلك المواد غطاء يشبه الدرع! بعض الأنواع الأخرى من الخلايا تحمل معها هيكل يُسمى "حجيرة حربائية" chromatophore (حبيبات انصباغية تتقبض وتنبسط) وتستخدم هذه الأداة لتتمكن من إنتاج النشاء من مواد موجودة في التربة أو الهواء أو الماء وذلك بمساعدة أشعة الشمس. أما الطريقة التي تصطاد فيها هذه الخلايا طعامها المخصّص، فتكفي لإثبات حقيقة أنها كائنات واعية وتتمتع بدرجة كبيرة من العقلانية. كل نوع من الخلايا له طعامه الخاص وبالتالي فإن عملية البحث عنه وانتقاءه من بين المواد الأخرى أو ملاحقته واصطياده (إذا كان كائن مجهري آخر) تكشف عن مدى ذكائها وحيويتها.

لقد كشفت هذه الكائنات المجهرية "أحادية الخلية" ليس فقط عن ذكاء بل عن درجة كبيرة من الحيلة الواسعة التي تصل حدّ الإبداع. لطالما عبّر الباحثون عن امبهارهم بما استعرضته هذه الكائنات المجهرية من حيلة واسعة. يكفي ذكر ظاهرة واحدة لإثبات هذا الأمر، وهي تلك التي وصفها الباحث الفرنسي "و.أنجلمان" W. Engelman منذ بدايات القرن الماضي والتي استعرضتها إحدى أنواع الخلايا المسماة "المتقيّضات" Arcella. كان يراقبها من خلال المجهر بينما هي متواجدة في قطرة ماء صغيرة على صفيحة زجاجية. كان بعض هذه الخلايا مستلقياً على ظهره المحدّب مما جعلها عاجزة عن الحركة لأن أرجلها الشعرية معلّقة في الهواء (كما يصيب بعض أنواع الصراصير). بعد فترة وجيزة بدأت تتشكّل فقاعات هوائية من إحدى الجوانب السفلية من تلك الكائنات، وهذا جعل أحد جوانبها أقلّ وزناً من الآخر، فانقلب جسم الكائن ومكّن أرجله الشعرية من أن تلمس الأرض الزجاجي.. بعدها مباشرة، راح هذا الكائن المجهري يمتصّ الفقاعات الغازية التي شكّلها فعادت واختفت إلى داخل جسمه، فاستطاع بعدها الحركة بحريّة. بعدها قرّر الباحث أن يقلب الصفيحة الزجاجية رأساً على عقب بحيث تصبح قطرة الماء معلّقة بالسطح الزجاجي من الأسفل، ثم حدّق في المجهر لمشاهدة ردّة فعل تلك الكائنات المجهرية. بفعل قوة الجاذبيّة، وجدت تلك الخلايا نفسها معلّقة في الوسيط المائي والسطح الزجاجي يقبع فوقها وليس في الأسفل كالمعتاد. بعد فترة من الحيرة والإرباك بحثاً عن نقطة استناد، قامت هذه الخلايا فجأة بإنتاج فقاعات غازية بحيث جعلتها أخفّ وزناً من الوسيط المائي، فارتفعت إلى أعلى والتصقت بالسطح الزجاجيّ وراحت تتحرّك عليه بحريّة. مهما حاول الباحث

أن يضع هذه الكائنات المجهرية في مواقع غير مناسبة أو وضعيات غير مريحة، كانت في كلّ مرّة تبتكر وسيلة مناسبة للخلاص منها والعودة إلى وضعية مريحة.

كافة أنواع الخلايا في الطبيعة تستعرض هذا النوع من الذكاء. أما بخصوص الخلايا التي يتألف منها جسمنا، فهنا تكمن المعجزة الحقيقية. لا يمكننا تصوّر مدى الإعجاز الذي استعرضته في سلوكها والذكاء الذي تبديه خلال قيامها بوظائفها المختلفة. لطالما اعتقد العلماء في السابق بأن الأعضاء المختلفة من الجسم هي عبارة عن كتل نسيجية كما تبدو للعين المجرّدة. لكن تبيّن أنها عبارة عن تجمعات خلوية فائقة التنظيم. أي أن الكبد مثلاً ليس كتلة نسيجية بل تجمّع خلوي فائق التنظيم! وكذلك الحال مع القلب والكليتين والمعدة والطحال وغيره من أعضاء. مثلاً، كان يُعتقد في السابق بأن عملية استيعاب الطعام وامتصاصه من قبل القناة المعوية تعتمد على قوانين فيزيوكيماوية مثل الانحلال والتناضح الداخلي. لكن تبيّن فيما بعد أن هذه النظرة الميكانيكية بعيدة كل البعد عن الواقع. تبيّن أن الأمعاء بكاملها تتألف من الخلايا، وكل من هذه الخلايا يشكّل كائن منفرد قائم بذاته، وهو ينتمي إلى مجموعة خاصة وكل مجموعة موكّلة بمهمات مختلفة عن المجموعة الأخرى. وهذه المهمات معقّدة بكل تأكيد. الخلايا التي تتألف منها جدران القناة المعوية تسمى "الخلايا الظاهرية" epithelium، هذه الخلايا هي التي تمتصّ المواد الغذائية من الطعام، وتقوم بذلك من خلال إجراء تقلّصات نشطة في أجسامها المجهرية. وهذه الخلايا مقسّمة أيضاً إلى مجموعات مختلفة، أي أن كل مجموعة تنتقي غذاءها الخاص وتصطاده بطريقة خاصة. هناك نوع من هذه الخلايا الذي يصطاد الحبيبات الدهنيّة، يمسكها ويمتصّ محتوياتها ومن ثم يتركها تكمل سيرها لكي تنتقل إلى القناة اللمفاوية. أما طريقة انتقال هذه الحبيبات الدهنية إلى القناة اللمفاوية فبقيت تمثّل لغزاً محيراً عانى منه الباحثون طويلاً. كان السؤال يطاردهم دائماً: كيف تختفي الحبيبات الدهنيّة من القناة المعوية لتظهر فجأة في القناة اللمفاوية. أي كيف كانت تخترق جدران الأمعاء وحواجز عضوية أخرى لتصل إلى مثواها الأخير؟ تبيّن أخيراً أن السرّ يكمن في ما لم يفطن به أحد.

تبين أن المسؤول عن نقل الحبيبات الدهنية إلى القناة اللمفاوية هو نوع من الخلايا اللمفاوية lymphatic cells التي تنطلق من أعشاشها الكامنة في الأنسجة الدهنيّة، فتحشر نفسها بين "الخلايا الظاهرية" على جدران القناة المعوية لتتمكن في النهاية من اختراقها والوصول إلى داخل القناة المعوية، فتلتقط الحبيبات الدهنيّة وتعود مسرعة نحو موطنها في القناة اللمفاوية. في

الوقت الذي تقوم فيه "الخلايا الظاهرية" بمنع أي جسم مجهري من اختراقها نراها تسمح فقط للخلايا اللمفاوية بأن تمرّ عبرها دون أي عائق.

لكن الأمر لا يتوقف عن مستوى الخلايا بل هناك أشكال حياة أدنى بكثير. هناك كائنات تُسمى "المشطورات" Diatoms أو الكريستالات الحيّة. هي أشكال هندسية صغيرة تتألف من نقطة بلازمية دقيقة تشبه الصمغ ومكسوة بقشرة سيليكونية رقيقة أو نوع من المادة الرملية. لا يمكن رؤيتها سوى بواسطة مجهر قوي، حيث هي دقيقة جداً لدرجة أن الآلاف منها لا تستطيع تغطية رأس دبوس. هي قريبة الشبه من الكريستالات الكيماوية لدرجة أن تميزها عنها يتطلب دقة وحذر. رغم ذلك كله فهي مفعمة بالحياة وتمارس كافة المجريات الحيوية الأساسية لبقاءها.

بعد ترك هذه الكائنات المجهرية وانتقالنا نزولاً إلى عالم البلوريات (كريستالات) بحثاً عن الحياة نجد ما يبهرنا فعلاً. بقدر ما هي العبارة التالية غريبة لكنها حقيقة واقعية: *"..البلورات هي كائنات حيّة!.."*. لقد استعرضت هذه الأشياء التي نعتبرها من عالم الجماد كل مقومات الحياة، حيث أنها تولد وتنمو وتعيش ويمكن أن تُقتل (بوسائط كيماوية أو كهربائية). لقد أوجد العلم منذ بدايات القرن الماضي فرع جديد يُسمى "علم البلازما" Plasmology ويهدف إلى دراسة حياة البلورات. لقد تقدم الباحثون كثيراً في هذا المجال لدرجة أنهم أثبتوا وجود عملية تزاوج بين البلورات! أي أن هناك بلورات أنثوية وبلورات ذكورية. لكن في جميع الأحوال، الأمر الواضح الذي لا يمكن نكرانه هو أن البلورات تولد وتنمو وتعيش كما أي كائن حيّ. أصبح العلماء على يقين بأن عمليات التبلور Crystallization الجارية في الطبيعة ليست عمليات تكتل ميكانيكي لذرات ميتة بل هي في الحقيقة عمليات تولد وتكاثر!

تتشكّل البلورات من سائل أمومي ثم تبدأ عملية بناء جسدها بشكل منظم ومضبوط وفقاً لخطة أو نمط واضح ومدروس، كما حالة أي جسد أو هيكل عظمي في عالم الحيوان، أو الخشب واللحاء في عالم النبات. بالإضافة إلى أنها تستطيع تصحيح وإصلاح أي تشوّه تتعرّض له. من الواضح أن الحياة تعمل بكل طاقتها خلال نمو البلورات. هذه البلورات لا تنمو فحسب بل تتكاثر عبر الانشطار، كما الكائنات المجهرية التي أسلفت ذكرها.

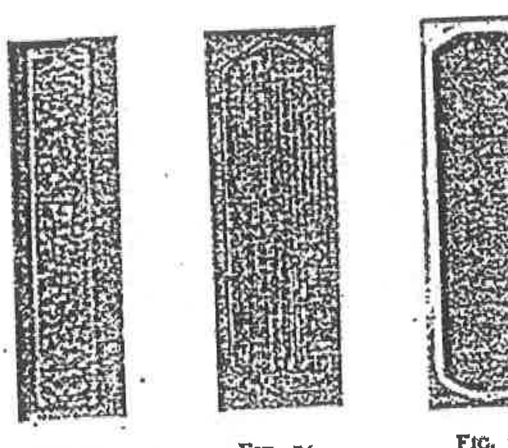
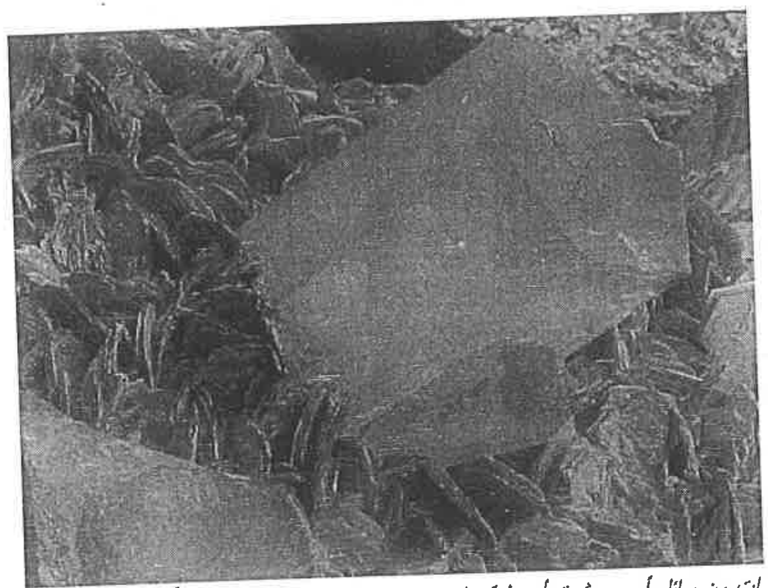


FIG. 33. FIG. 34. FIG. 35.

The three phases of the successive formation of a crystal.
(From the photographs of Professor Schrön.)

كما النباتات والحيوانات، تمرّ البلورات عبر مراحل متسلسلة قبل اكتمال نموها. الشكل السابق يبيّن المراحل الثلاثة الرئيسية: [1] المرحلة الحبيبية granular phase، أي ظهور حبيبات في الوسيط الذي على وشك التبلور (الـشكل 33). [2] المرحلة النسيجية fibrous phase، أي تبدأ الحبيبات بالتمدّد طولياً وتتخذ شكل نـسيجي (الـشكل 34). و[3] المرحلة المتجانسة homogenous phase، أي يبدأ المظهر النسيجي بالاختفاء وتتخذ البلورة هيئتها الـصافية تماماً (الشكل 35). هذه المراحل موجودة في كافة أنواع البلورات بما في ذلك البلورات المعدنية والعضوية.



تتشكّل البلورات من سائل أمومي ثم تبدأ عملية بناء جسدها بشكل منظم ومضبوط وفقاً لخطة أو نمط هندسي واضح ومدروس.





هذه البلورات لا تنمو فحسب بل تتكاثر عبر الانشطار، بالإضافة إلى أنها تستطيع تصحيح وإصلاح أي تشوّه تتعرّض له. من الواضح أن الحياة تعمل بكل طاقتها خلال نمو البلورات

كما باقي الكائنات الحيّة، يمكن أن تُصاب البلورات بالعقم بوسائل كيماوية أو كهربائية خاصة وبالتالي تعجز عن التكاثر. يمكن قتلها أيضاً حيث يتوقف نموها تماماً. هذه المظاهر تمثّل مظاهر حياة أليس كذلك؟ ومن أجل التأمّل بمدى أهمية هذه الحقيقة المتعلقة بـ"البلورات الحيّة"، ما علينا سوى تذكر حقيقة أن الحجارة والمعادن تتألف أصلاً من بلورات، وحتى التراب الذي ندوس عليه هو عبارة عن غبار حجارة مطحونة و... بلورات مفعمة بالحياة!

ليس هناك شيء ميّت في الكون. ليس هناك عمليات تحوّل من مادة ميتة إلى مادة حيّة ثم إلى مادة عضوية. حتى العناصر الكيماوية حيّة، وعملية التحوّل الكيماوي إلى جسد الإنسان هي عبارة عن تغيير متسلسل ومتواصل في شكل المادة الحيّة وهيئتها. إن تحلّل جسد الكائن الميّت هو عبارة عن تحوّل حيوي من حالة جسدية إلى حالة كيماوية، ثم تبدأ عملية التحوّل مجدداً بالاتجاه الآخر. كامل العملية هي في النهاية مجرّد تغييرات في الأشكال والهيئات.. هذا كل شيء.

توفر لنا الطبيعة الكثير من الأمثلة على وجود حياة في العالم غير العضوي. كل ما علينا هو النظر حولنا ونتحقق من مقولة أن "... كل شيء حيّ..". هناك ما يُعرف بـ"إجهاد اللدانة" fatigue of elasticity في المعادن. شفرات الحلاقة معرّضة للتعب مما يجعلها تتطلب الاستراحة. شوكات الرنين تفقد قوتها الذبذبية إلى درجة معيّنة فتتطلب فترة إجازة لترتاح. الآلات في المطاحن والمصانع المختلفة تحتاج إلى عطلة يوم كامل بين الحين والآخر. حتى المعادن تتعرّض للمرض والعدوى، وقد تم تسميمها ومن ثم استعادة عافيتها عبر ترياق معيّن. زجاج النوافذ، خصوصاً الملوّن منها، تتعرّض للمرض الذي ينتشر فيها من الجنب إلى الجنب.

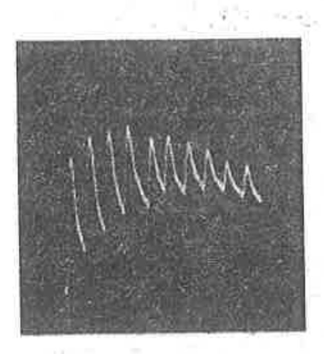
الأشخاص المعتادين على العمل باستمرار مع آلات وأدوات تتملكهم عادة الحديث عنها وكأنها كائنات حيّة. يبدو انهم أدركوا وجود "شعور" في هذه الآلات والأدوات ويرون بأن لها "شخصية" خاصة وجب احترامها أو ملاطفتها لكي تعمل بشكل جيّد. أفضل الدلائل بخصوص هذا الجانب والتي أثبتت نظرية القدماء حول ".. كليّة وجود العقل.." ظهرت في بدايات القرن الماضي على يد البروفيسور "جاغاديس تشاندرا بوس" Jagadis Chandra Bose، من جامعة كالكوتا في الهند. وهو هندي تعلّم في أرقى الجامعات البريطانية وعلى يد أفضل الأساتذة وكان يمثّل مرجع علمي محترم في العالم الغربي، وقدم للعالم الكثير من المعلومات العلمية القيّمة في هذا المجال بالذات، خصوصاً في كتابه الذي بعنوان "الاستجابة في الأحياء وغير الأحياء" Response in the Living and Nonliving، والذي أحدث ضجّة كبرى في العالم الأكاديمي وخلق تأثير كبير بين أعلى السلطات العلمية. تجاربه التي أجريت على الأشياء الجامدة (غير العضوية) جمعت الكثير من الدلائل الجازمة على وجود حياة فأحدثت ثورة حقيقية في نظريات العلم الحديث وفعلت الكثير بخصوص دعم الفكرة القائلة بأن الحياة موجودة في كل مكان وأنه لا يوجد شيء يُسمى مادة ميتة.

استندت أعماله على نظرية تقول بأن الاختبارات الأفضل والأكثر صحة لإثبات وجود حياة في المواد الجامدة هي تلك التي تدرس استجابتها لمنبهات خارجية. بعد عمله وفق هذه الفكرة الأولية، وعبر عدد كبير من التجارب التي أجريت على المواد الجامدة مثل المعادن والصخور وغيرها، تمكن أخيراً من إثبات حيوية هذه المواد وكانت استجابتها للمنبهات متشابهة تماماً مع تلك التي أبدتها المواد العضوية التابعة للنباتات والحيوانات والبشر.



كيف يمكن للرجل الذي قضى ثلاثين عام من العمل في مجال علمي ثوري ونُشرت كتبه عالمياً ويُعرف عنه، حتى بعد ثمانين عام، بأنه المخترع الحقيقي لمجال الراديو (قبل ماركوني بكثير)، ورغم ذلك لازال مجهولاً؟ القليل من الناس سمعوا عن السير بروفيسور "جاغاديس تشاندرا بوس" وإنجازاته العظيمة.

ابتكر أجهزة حساسة ودقيقة جداً لقياس استجابة المواد المختلفة لأنواع مختلفة من المنبهات الخارجية، وكانت النتائج تُسجّل على شكل إشارات متذبذبة تترك أثراً على اسطوانة دوارة. بعد إجراء عملية مقارنة، الإشارات التي يسجلها الجهاز لمعادن مثل القصدير كانت تبدو متشابهة تماماً مع إشارات مُسجّلة لعضلة كائن حيّ! من بين الاجهزة التي استخدمها هو جهاز غلفاني galvanometer دقيق جداً لدرجة أنه يستطيع تسجيل نبضة كهربائية متناهية الصغر. إذا تم وصله بنهاية عصب بشري وتم استثارته فسوف تتحرّك الإبرة وترسم إشارة على الشريط الورقي الدوار. اكتشف البروفيسور "تشاندرا بوس" أنه عندما يوصل الجهاز الغلفاني بقضبان معدنية مختلفة كانت استجابتها متشابهة إذا تعرضت للطرق أو اللوي بعنف. كلما كانت الاستثارة أكبر زاد معه حجم الاستجابة المسجلة من قبل الجهاز.



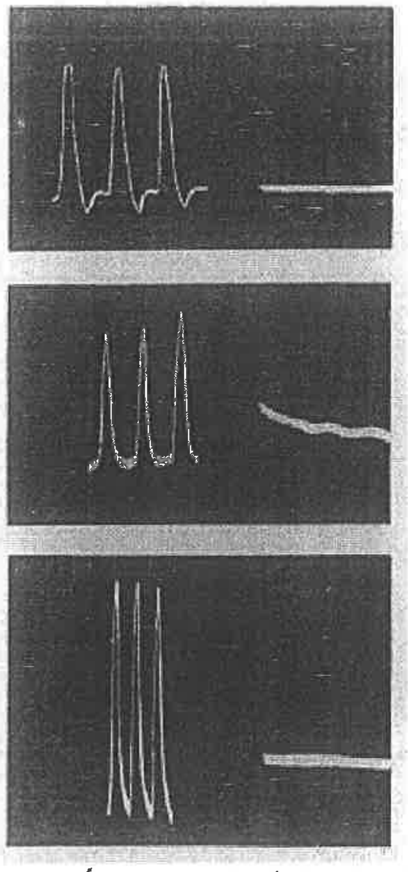
الأمر المذهل هو ذلك التشابه الكبير بين استجابة المعدن واستجابة العضلة الحيّة للاستثارة ذاتها. فمثلاً، الاستجابة التي تسجلها العضلة الحيّة أو المادة العصبية عندما تتعرّض للتعب هي مشابهة تماماً لاستجابة المعدن الذي يُبدي حالة تعب والتي تبيّنها الإبرة بوضوح من خلال رسم اهتزازات متصاغرة تدريجياً حتى تختفي تماماً. (الصورة المقابلة)

بعد فترة من الراحة تعود العضلة الحيّة إلى تسجيل اهتزازات عالية على الجهاز، والأمر ذاته يحصل مع المعدن الذي تكون استجابته قوية بعد ان يُترك لبعض الوقت ليرتاح من عملية الاستثارة.

كانت الأدوية تسبب ذات التأثيرات على الحيوانات والمعادن، حيث بعضها كان مثيراً والبعض محبطاً والبعض الآخر قاتل. بعض الكيماويات السامة كانت تقتل القطع المعدنية حيث لم يعد يُسجّل لها أي استجابة على الجهاز. وفي بعض الحالات كانت تُقدم أنواع من الترياق للمعادن الميتة فتعود وتحيا من جديد.

لقد أجرى تجارب على النباتات أيضاً وبنفس الطريقة الموصوفة سابقاً. كانت النباتات المختلفة تتعرّض لاستثارات مختلفة وتسجّل نفس حالات التعب والإثارة والإحباط والسمّ التي سجلها كل من المعدن والعضلة الحيوانية.

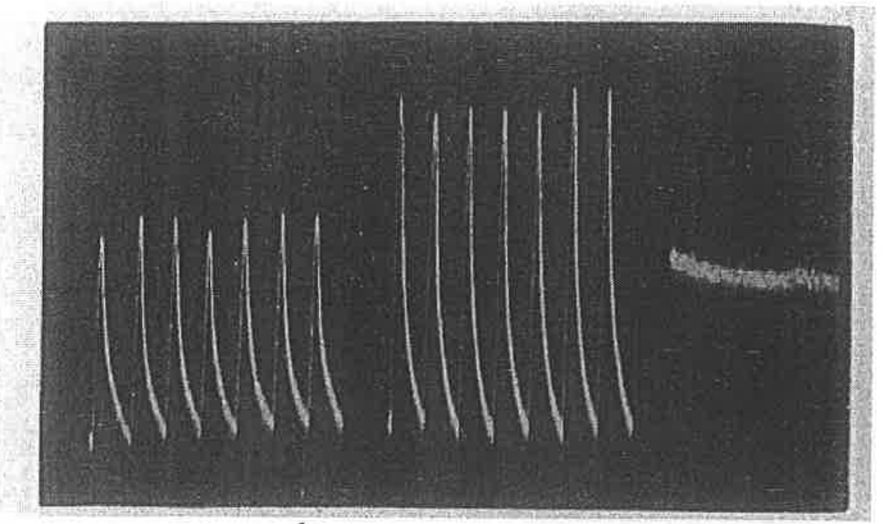
لقد استعرض البروفيسور "تشاندارا بوس" بكل وضوح كيف يتمتع قضيب معدني بنفس الحساسية التي يتصف بها جسم الإنسان، وأنه يمكن استثارته وتحفيزه بنفس الطريقة، وحتى أنه يمكن تسميمه وقتله بنفس الطريقة.



الاستجابة تجاه تأثير السمّ متشابهة تماماً في كل من: العضلة الحيّة (في الأعلى)، والنبات (في الوسط)، والمعدن (في الأسفل).

وفقاً لنظريته، والتي تتوافق تماماً مع أقدم التعاليم السريّة، فإن الحياة موجودة في كل جسم وشكل في الطبيعة، وكافة هذه الأجسام والأشكال تستجيب لمنبهات خارجية، وهذه الاستجابة تمثّل دليل قاطع على وجود حياة فيها. كتابه العظيم الذي ألفه مليء بالنتائج المذهلة للتجارب العديدة التي أجراها. لقد أثبت بأن المعادن تجسّد حالة النوم، ويمكن قتلها، وتبدي حالة خدر أو خمول، يمكنها

أن تتعب أو تتكاسل، يمكنها أن تستيقظ أو يتم تنشيطها، تحفيزها، تقويتها أو إضعافها، تعاني من شدّة البرد أو الحرارة، يمكن معالجتها بالأدوية أو تسميمها.. إلى آخره. بالإضافة إلى أن المعادن المختلفة تستجيب بطريقة متباينة مع أدوية معيّنة كما تتباين الاستجابة لها بين أشخاص مختلفين وحيوانات مختلفة. تُسجّل استجابة قطعة حديد معرضة لتأثير سمّ كيماوي اهتزازات متصاغرة تدريجياً حتى تختفي تماماً مشيرة إلى الموت، وهذا بالضبط ما يسجله الكائن الحيّ عندما يتعرّض لنفس عملية التسميم. وعندما يُعاد الإنعاش مع الوقت بواسطة ترياق خاص، يكون التعافي التدريجي متشابهاً عند كل من الحيوان والمعدن.

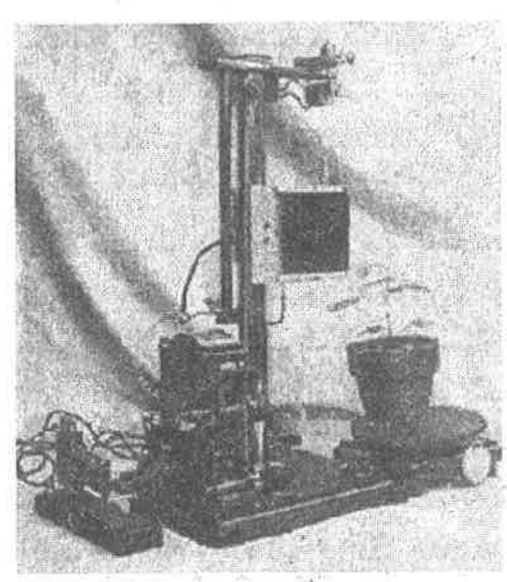


صورة اهتزازات مسجّلة لاستجابة المعدن بعد تعرّضه تدريجياً لكمية من السمّ. كلما زادت كمية السمّ اختلفت الاستجابة، إلى أن تُضاف أخيراً كمية كبيرة تسبب بموت المعدن.

هناك حقيقة مذهلة أخرى لاحظها "تشاندرا بوس" وهي أن السمّ الذي استعمله لقتل المعادن هو بذاته حيّ ويمكن قتله ايضاً وكذلك تخديره أو تحفيزه.. إلى آخره حيث يبدي ذات الاستجابة التي يبديها المعدن، مما يثبت وجود حياة بنفس الدرجة وجودها في المعادن والمواد العضوية التي يؤثر عليها.

طبعاً عندما تتعرض هذه المعادن للقتل فهذا لا يعني أنها قُتلت فعلاً، حيث الذرات والمبادئ الفيزيائية التي يتألف منها المعدن تبقى مفعمة بالحياة كما الحال مع الذرات التي يتألف منها جسم

الإنسان بعد أن تفارقه الروح، إذ يبقى الجسد بعد الوفاة حياً لدرجة معينة لكن النشاطات العضوية تتخذ منحى معاكس تماماً حيث تتوجه نحو الانحلال والتفكك بدلاً من النمو والبناء.



Magnetic crescograph

إحدى الأجهزة العجيبة التي ابتكرها "تشاندارا بوس" ليتمكن من إجراء تجاربه الاستثنائية، تُسمى "الكريسكوغراف" Crescograph، يستطيع قياس معدل نمو النباتات بدقة تصل إلى واحد على خمسة عشر مليون بوصة في الثانية! أي يستطيع الجهاز قياس أدق التفاصيل في أي حدث أو حالة تخضع للدراسة، وهكذا نوع من الأجهزة الدقيقة لم ولن يوجد مثيلاً له حتى في يومنا هذا. لا تستطيع عقولنا استيعاب هذه الدرجة الهائلة من التكبير، لكن يمكننا فعل ذلك عبر ذكر امثلة تشبيهية: يستطيع هذا الجهاز تسريع حركة الحلزونة ملايين المرات، وهذا معدل ليس له مثيل حتى بين أجهزة قياس سرعة المقذوفات في مجال الأسلحة. يستطيع هذا الجهاز تسريع حركة الحلزونة بمعدل يزيد عن سرعة مقذوفة المدفع بأربع وعشرين مرّة! هذه القدرة التكبيرية تجعل الفرد قادراً على دراسة أدقّ تفاصيل أي حالة أو ظاهرة تخضع للدرسة، فيستطيع مثلاً مشاهدة أدقّ التفاصيل في عملية نمو نبتة.

نسمع الكثير عن ادعاءات العلماء المنهجيين الذين يعلنون بين الفين والأخرى بأنهم على وشك التوصل إلى "خلق حياة" في المواد غير العضوية. هذه مجرّد ترهات، حيث الحياة لا يمكن أن

تأتي سوى من الحياة. خلق الحياة من اللاحياة هو أمر مستحيل والزعم بالقدرة على إنجازه هو أمر سخيف. كافة أشكال الحياة تأتي من الحياة الواحدة الكامنة وراء الكل. يمكن اعتبار مزاعم العلم المنهجي صحيحة بخصوص "خلق حياة" فقط إذا كانت العملية مجرّد تغيير شكل حياة إلى شكل آخر أكثر تطوراً، أي كما نطوّر نبتة من بذرة مهجّنة أو نطور ثمرة من نبتة مهجّنة. في هذه الحالة تكون الحياة موجودة أصلاً وكل ما فعلوه هو إحداث تغيير في شكلها وصيغتها.

لازال بعض العلماء المستقلّين يعملون جاهدين على مسألة توليد أشكال حياة من مواد غير عضوية لكن وفق مفهوم يختلف تماماً عن العلم المنهجي المحكوم بنظرية التطور. بعد إنحاء الفكرة القديمة القائلة بـ"الظهور التلقائي للحياء" لسنوات طويلة إلا أنها بدأت تعود للساحة مرة أخرى. لازالت نظرية التطوّر تُجبر أتباعها على القبول بفكرة أنه في إحدى الفترات في الماضي البعيد ظهرت أشكال الحياة فجأة وبالصدفة من المواد الجامدة لكن الظروف التي أدت إلى هذا الظهور التلقائي للحياة قد ولت دون رجعة. لكن الدلائل الآن تشير جميعاً إلى النظرة الأخرى القائلة بأن تلك المرحلة الأولى من عملية التطوّر لم تذهب دون رجعة بل لازالت قائمة حتى اليوم، كانت ولازالت تعمل وسوف تعمل إلى الأبد، وأن هناك أشكال جديدة للحياة تظهر وتتطور باستمرار من المواد العضوية وغير العضوية على حد سواء. لازالت عملية "الخلق" قائمة ومستمرة على الدوام.

هناك الكثير من العلماء البارزين الذين يناصرون فكرة "الظهور التلقائي للحياة" ولازالوا يتعرضون للإقصاء من قبل المنهج العلمي الآخذ بنظرية التطور. أشهر هؤلاء العلماء المستقلين هو الدكتور البريطاني "تشارلتون باستيان" Charlton Bastian الذي تعرّض في بدايات القرن الماضي لحملة استهزاء وسخرية من قبل أبرز العلماء المنهجيين في زمانه لكنه رغم ذلك استمرّ على ذات التوجه مقتنعاً بعمله وكانت كتبه التي ألفها تسقط كالقنابل على الساحة العلمية المنهجية. لقد التقط أكثر من خمسة آلاف صور مجهرية تُبيّن حقائق مذهلة بخصوص آلية توالد أشكال حياة من المواد غير العضوية. قال بأن المجهر أظهر عملية تطوّر تلقائي لنقاط دقيقة سوداء في وسيط سائل صافي، وهذه النقاط تطورت تدريجياً لتتحوّل فيما بعد إلى بكتريا، وهي أشكال حياة بدائية جداً. وبرز أيضاً في بدايات القرن الماضي البروفيسور "بورك" من جامعة كامبريدج الذي استعرض كيف يمكن إنتاج جسيمات حيّة دقيقة جداً من سائل خاص خاضع للتعقيم وأظهرت هذه الكائنات الدقيقة جداً قدرتها على النمو والتكاثر.

لازال العلم المنهجي يُجبر على التسليم بحقيقة أن أشكال حياة جديدة لازالت تبرز تلقائياً في عالمنا وبطريقة طبيعية، ولا يجب أن يكون هذا الأمر عجيباً طالما أن الحياة مستمرة. لازالت الاكتشافات الجديدة تزيد من حجم وعدد الأفكار العلمية التي تتوافق مع الحكمة القديمة القائلة بوجود الحياة في كل شيء، العضوي وغير العضوي، وأن تطوّر الحياة مستمر دائماً وأبداً. هذا يجعلنا نجزم بأن الحياة لا يمكن خلقها من العدم بل يمكن تطويرها من مستوى إلى آخر أو تحويلها من شكل إلى آخر، لأنها موجودة أصلاً.

يوفر العالم الكيماوي والمعدني الكثير من الأمثلة على نمو وتطور أشكال حياة قريبة الشبه بالنباتات. لقد ظهر في بدايات القرن الماضي الكثير من التوجهات العلمية العجيبة فعلاً، أشهرها هي تلك التي تُسمى "الزراعة المعدنية" metallic vegetation وهي عملية تنبيت المعادن. أشهر التجارب في هذا المضمار هي تلك التي تُسمى تجربة "شجرة الرصاص" lead tree والتي تُستخدم كمثال سهل على إثبات هذه الظاهرة. تتم التجربة عبر وضع محلول مُحمّض مؤلف من الرصاص المُخلّل داخل قارورة ثم تُغلق بواسطة فلينة متقوبة بحيث يمرّ عبرها سلك نحاس معلّق في نهايته قطعة من القصدير بحيث تتدلى داخل القارورة ومغمور بمحلول الرصاص المخلّل. مجرّد أن تم إغلاق القارورة تبدأ مباشرة عملية ظهور طحالب معدنية على السلك النحاسي وهذه الطحالب هي من معدن الرصاص. ثم بعد فترة يبرز من هذه الطحالب أغصان وسيقان تنمو تدريجياً حتى تتحول إلى أغصان مشابهة للشجر حيث تُملأ بالأوراق شبه النباتية، وأخيراً تتحوّل إلى شجيرة أو أجمة صغيرة مشابهة لتلك التي نراها في عالم النبات.

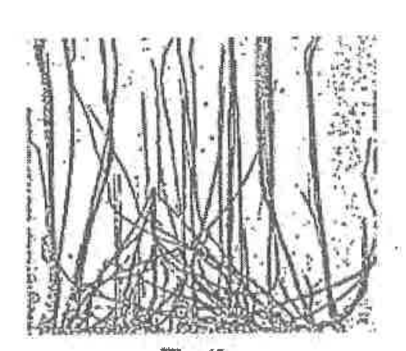
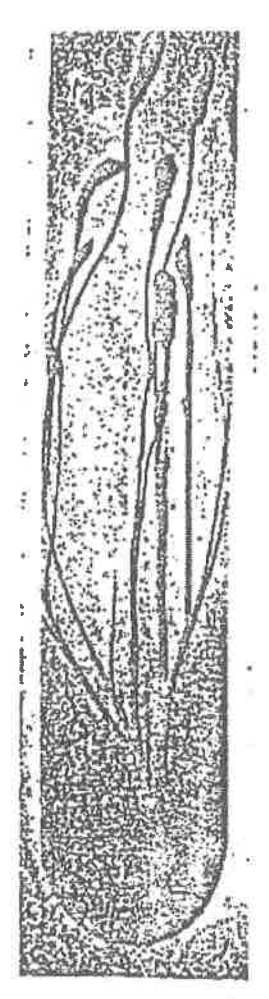


Fig. 42.

صورة مأخوذة من كتاب "تطور القوى" The Evolution of Forces (١٩٠٨) للباحث "غوستاف لوبون"، ويظهر فيها حصول نمو نباتي بعد وضع أملاح معدنية معيّنة في وسيط من مادة الجيلاتين.

يمكن إنتاج تنبيت معدني بواسطة محاليل معدنية مختلفة أخرى. جميعنا شاهدنا كيف تتشكل بلورات الجليد على النوافذ الزجاجية متخذة أشكال أوراق وأغصان وزهور وغيرها من سمات نباتية. عندما يتعرّض الملح الصخري إلى تأثير الضوء المُستقطب يتخذ أشكال قريبة الشبه بنبات السحلب. الطبيعة مليئة بهذه التشابهات النبتانية.



صورة أخرى مأخوذة من كتاب "تطور القوى" للباحث "غوستاف لوبون"، ويظهر فيها حصول نمو نبتاني للمعدن بعد وضع خلطات معدنية معيّنة في محلول خاص داخل أنبوب زجاجي، ويبدو واضحاً نمو سيقان وأوراق تشبه النباتات تماماً.

لقد تم إحراز نتائج مذهلة في هذا المضمار من خلال التجارب على الأملاح المعدنية المختلفة. في أحد هذه التجارب، تم تعريض أحد أنواع هذه الأملاح لتيار كهربائي بسيط (تيار غلفاني) فبدأت الأملاح تتكتّل حول القطب السالب من البطارية ثم راحت تنمو وتتخذ شكل مشابه للفطر الصغير، لها ساق وقبة في الأعلى. كان لحبات الفطر هذه في البداية لون شفاف لكنها بدأ يكسوها تدريجياً لون أحمر فاتح في السطح العلوي من القبة ولون زهري باهت في السطح السفلي للقبة، والساق اتخذ لون أصفر باهت. الأمر المثير والأكثر أهمية في هذه التجربة هو اكتشاف وجود عروق دقيقة تتخلّل ساق الفطر وهذا يشير إلى وجود عملية تغذية أو عملية نقل مواد أساسية عبر الأوردة لاستكمال نمو هذا الفطر المعدني أي كما الحال تماماً مع الفطر النباتي الحقيقي. كل هذه المظاهر تدلّ بوضوح على حقيقة أن هذه النمو المعدني النبتاني تمثّل نوع من أشكال الحياة البدائية.

لكن البحث عن الحياة لا يتوقف عند مستوى المعادن كما نعرفه. لقد قسّم العلم المادة إلى أجزاء أصغر بكثير نسميها ذرات وجزيئات وجسيمات. وبعد أن اكتشفنا وجود حياة في أشكال مادية مؤلفة من عدد لا يُحصى من هذه الجسيمات سوف يراودنا السؤال البديهي التالي: هل يمكن إيجاد حياة في الجسيمات ذاتها؟

لا يمكن للحياة أن تأتي من لا حياة، وإذا لم يوجد حياة في الجسيمات الذرية فهـذا يعنـي زوال نظرية "كليّة وجود الحياة" في الطبيعة. لهذا السبب علينا ان نبحث ما وراء شكل وهيئة المعـدن، وذلك من خلال تقسيمه إلى أجزاء دقيقة ثم نتفحّص بعدها تلك الأجزاء الدقيقة بحثاً عـن معـالم حياة.

يقول لنا العلم بأن كافة اشكال المادة مؤلفة من جسيمات دقيقة تُـسمى "جزيئـات" molecules. يُعتبر الجزيء أصغر جسيم ممكن للمادة، هذا إذا أردنا أن تحافظ المادة على شكلها وهيئتهـا لأن الجزيء يمثّل تكتل مجموعة من الذرات الكيماوية المختلفة وإذا حصل انشطار للجزيء وتناثرت ذراته فسوف تتلاشى المادة وتتحول إلى غاز أو طاقة حسب نوع الانشطار. فمـثلاً، إذا أخـذنا قطرة ماء وقمنا بتقسيم هذه القطرة مرّة بعد مرّة حتى نتوصل إلى أصغر جسيم تتألف منه قطرة الماء، هذا الجسيم هو في الحقيقة جزيء مائي. لا نستطيع تقسيم هـذا الجـزيء المـائي لأنـه سينشطر إلى ذرات هيدروجين وذرت أوكسيجين فتتطاير في الهواء على شكل غاز، وبالتالي لـم يعد هناك ماء إطلاقاً.

بالعودة إلى موضوع الجزيئات، نلاحظ بأنها تجسّد ما يسمونه حالة انجذاب لبعضها البعض. هي تجذب جزيئات اخرى من نفس النوع. هذا القانون الذي يحكم عملية الجذب هو المـسؤول عـن تشكّل كتلة المادة مهما كان نوع هذه الكتلة، إن كانت لجبال من الصخور أو قطرة ماء أو حجـم غازي معيّن. كافة الكتل المادية هي مؤلفة من تجمعات جزيئات، متماسكة بفعل قانون الجـذب. يُعبر عن قانون الجذب في هذه الحالة بعملية "الالتحام" Cohesion. هذا الالتحام الجـاذبي لـيس مجرّد قوى ميكانيكية بل هو استعراض لعملية حيوية، حيـث يُظهـر وجـود حالـة "حـب" أو "استلطاف" بين الجزيئات الملتحمة ببعضها. وعندما تبدأ الطاقات الحيوية بالتجسيد فـي مـستوى معيّن ثم تباشر بقولبة الجزيئات إلى بلورات، نبدا حينها بإدراك الحقيقة بوضوح: أن هناك شـيئاً ما يعمل على إدارة عملية بناء هذه والجارية أمامنا.

مهما كانت الظاهرة السابقة عجيبة بالنسبة لنا فسوف نرى ما هو أعجب عندما نتنـاول دراسـة الذرات. الذرة هي وحدة كيماوية منفردة بذاتها، لكن بعد التحامها مع ذرات اخرى سوف تـشكّل الجزيء. مثلاً، إذا أخذنا ذرتين من غاز الهيـدروجين وذرّة واحـدة مـن غـاز الأوكـسيجين ووضعناها بالقرب من بعضها البعض سوف تتسارع باتجاه بعضها البعض وتشكّل شراكة، هـذه

الشراكة تُسمى جزيء مائي. هكذا الحال مع باقي الذرات الأخرى. جميعها تصنع شراكات مختلفة ومتنوعة باستمرار، أو تلغي هذه الشراكة أيضاً إذا توفرت الظروف المؤدية لذلك. الزواج والطلاق أمر مألوف جيداً على المستوى الذري. هذه الحالات المختلفة من الجذب والنفر بين الذرات نالت اهتمام الباحثين من بدايات القرن الماضي، وأظهرت ما لا يمكن استيعابه في البداية لكن بنفس الوقت لا يمكن نكرانه، وهو وجود حياة ونشاطات حيوية حتى بين أصغر الجسيمات في المادة.

تظهر الذرات خواص حيوية خلال تجاذبها وتنافرها. هي تتصرّف وفق اتجاه تجاذبها وتشكّل تزاوجات وبعد التحامها تشكّل المواد التي نألفها. تذكر انه عندما تلتحم مع بعضها لا تفقد فردانيتها وتذوب بين محتويات المادة، بل تكتفي بعملية الإلتصاق مع بعضها وتحافظ على تميّزها عن بعضها. إذا تم تدمير عملية الاتحام هذه بفعل كيماوي أو كهربائي معيّن تتناثر الذرات وتعود إلى حياتها الفردية مرة أخرى، وتبقى الحال كذلك حتى تلتقي بذرات أخرى تكن لها ألفة خاصة فتشكّل معها شراكة أو زواج. خلال تفاعلات كيماوية كثيرة تطلّق الذرات بعضها، فتهجر كل ذرة شريكها أو شركائها وتبدأ بالسعي بحثاً عن شريك جديد تكن له الألفة أو ملائم لها. غالباً ما تتصف الذرات بعدم الإخلاص أو التقلّب حيث يمكنها في أي لحضة أن تتخلى عن شك أقل جاذبية في سبيل شريك أكثر جاذبية.

هذه الظاهرة ليست خيال أو مجرّد حكاية علمية مجازية، بل هي حقيقة علمية واقعية. الذرات تتصرف بطرق حيوية وغالباً ما تبدي شيئاً من العقلانية في تصرفاتها. كتب البيولوجي الألماني الشهير "أرنست هايكل" Ernst Haeckel يقول: *".. لا أستطيع تصوّر أبسط إجراء كيماوي أو فيزيائي دون إنساب حركة الجسيمات المادية إلى احتياجات حسيّة لاواعية.. تتمثّل فكرة المصاهرة الكيماوية Chemical Affinity بحقيقة أن العناصر الكيماوية المختلفة تدرك الاختلاف في نوعية العناصر الأخرى، وتختبر حالة المتعة أو الاشمئزاز عند اتصالها معها، فتتصرف بناء على ردود فعلها هذه.."* ، ويضيف قائلاً: *".. يمكننا إنساب الشعور بالمتعة أو الألم (الرضا أو عدم الرضا) إلى كل أنواع الذرات، وبالتالي إنساب عمليات المصاهرة الاختيارية في مجال الكيمياء إلى التجاذب الحاصل بين الذرات المتحابة والتنافر الحاصل بين الذرات المتباغضة.."* ، ويقول أيضاً: *".. الحواس في كل من الحيوانات والنباتات موصولة عبر سلسلة*

طويلة من المراحل التطورية مع أشكال حسيّة بسيطة موجودة في العناصر غير العضوية والتي هي ظاهرة بوضوح في عمليات المصاهرة الكيماوية..".

من أيام العالم البيولوجي "أرنست هايكل" حتى الآن صرّح الكثير من العلماء المنهجيين بأقوال كثيرة يمكنها ملئ كتاب من الحجم الكبير وجميعها تثبت صحة الحكمة القديمة القائلة بـ"كليّة وجود الحياة". بدأ العلم يتوجه نحو موقع جديد تماماً تاركاً وراءه تلك الفكرة القائلة بـ"المادة الميتة". حتى النظريات المتعلقة بالإلكترون والنيوترون وغيرها من جسيمات كهربائية يُزعم بأنها تشكّل بنية الذرة لا تغيّر شيئاً من فكرة "كلية وجود الحياة" حيث حتى هذه الجسيمات الأخيرة تجسّد حالة جاذبية ونفور وتستجيب لها حسب الحالة، كما أنها تستطيع التكتل لتشكّل مجموعات فتتكوّن الذرة. وحتى لو تجاوزنا هذه الجسيمات إلى مستوى أصغر ولم نجد شيء سوى المحتوى الأثيري الذي يفترض بأنه المادة الأولية لكل شيء في الوجود، وجب علينا الجزم بأنها مفعمة بالحياة أيضاً.

كل شيء في الوجود لديه ما يكفيه من الطاقة الحيوية لتمكنه من الاستمرار بعمله. ومع نمو وتطور هذا الشيء إلى مستوى أعلى سوف يتجسّد فيه المزيد من الطاقة الحيوية المناسبة لمستواه الجديد. كلما تقدمت عملية بناء آلته الجسدية زادت قدرته على تجسيد المزيد من الحياة ومستوى أعلى من العقل. ليس هناك حد فاصل بين مستوى حياة متدنية ومستوى حياة أرقى، هذا مستحيل، بل يوجد حياة واحدة فقط. الأمر يشبه التيار الكهربائي الذي يستطيع تشغيل أكثر الآلات تعقيداً لكنه بنفس الوقت يمكنه تشغيل أداة بسيطة مثل المصباح الكهربائي.

التيار الكهربائي واحد لكن الأدوات التي يتجسّد عبرها تختلف من حيث النوعية ومستوى التعقيد. الأمر ذاته ينطبق على عنصر الحياة، فهي تتجسّد في أي آلية عضوية، وإذا كانت هذه الآلية العضوية بسيطة سوف تتجسّد الحياة بدرجة صغيرة بينما إذا كانت معقّدة فسوف تتجسّد بدرجة أكبر. هذا هو السبب وراء تنوع الحياة من حولنا وظهورها بتعبيرات مختلفة حيث يمكن أن نرى تجسيدها بمستويات بسيطة وبليدة أو بمستويات راقية وأكثر حيوية، كل هذا يعتمد على درجة تعقيد الآلية الجسدية أو المستوى العقلي الذين تتجسّد عبرهما. ليس هناك سوى حياة واحد، تتجسّد بأشكال وصيغ وهيئات ودرجات مختلفة. حياة واحدة تكمن وراء الكل في رحاب "الكل".

ابتداءً من أعلى مستوى لأشكال الحياة نزولاً إلى عالم الحيوان والنبات والمعادن نرى الحياة حاضرة في كل مكان. الموت هو مجرّد وهم. وراء كل أشكال الحياة المادية المرئية تكمن بدايات حياة متجددة وتدفع إلى الأمام سعياً للتعبير والتجسيد. وراء كل هذه الأشياء تكمن روح الحياة التي تتوق وتكافح وتشعر وتتصرّف. في كل من المحيطات والجبال، في الزهرة والشجرة، في شروق الشمس وغروبها، في الكواكب والنجوم.. كلها مفعمة بالحياة، تجسيدات مختلفة لحياة واحدة. كل شيء حيّ، تحرّكه طاقات وقوى حيوية، مفعم بالحياة، ينبض بالمشاعر، مليء بالنشاط. كل شيء منبثق من حياة واحدة وبالتالي فهو مفعم بالحياة. ليس هناك مادة ميتة في الكون. لا يمكن أن يكون هناك مادة ميتة إذ لا يمكن للحياة أن تموت. الكل حيّ.. والحياة موجود في الكل.

القوة الحيوية العاقلة

هل سبق ونبشت نبتة بطاطا ورأيت كيف تتعلق حبات البطاطا تحتها كالعناقيد؟ ما مدى الذكاء برأيك الذي تتمتع به نبتة البطاطا هذه؟ هل تعتقد بأنها تعلم شيئاً عن علم الكيمياء أو الجيولوجيا أو البيولوجيا؟ هل لديها المعرفة الكافية لجمع غاز الكربون من الجو، والماء والمغذيات المناسبة من التربة لتحويلها إلى سكّر ونشاء وكحول؟ لا يستطيع أي كيميائي على وجه الأرض معرفة ذلك أبداً. كيف إذاً تستطيع نبتة البطاطا معرفة ذلك؟ هي لا تعلم طبعاً، لكنها تحقق كل هذه الأشياء. إنها تستخدم النشاء لخلق الخلايا، والخلايا لخلق الجذور والأغصان والأوراق والمزيد والمزيد من حبات البطاطا.

طبعاً، كما هي العادة دائماً، سوف نقول بأنها إحدى معجزات "الطبيعة الأم". نقولها بشكل عابر وكأنها أمر عادي. لكن هل تريّث أحدنا ودقق النظر في هذه الفكرة؟ لا بدّ من أن "للطبيعة الأم" ذكاء مذهل لكي تتمكن من فهم كامل مجريات هذه العملية والتي يعجز عنها أي عالِم بشري. لا بدّ من وجود عقل كليّ الوجود كامن في هذه "الطبيعة الأم". عقل يقف وراء تجلّي الحياة في كوكبنا أصلاً، والذي طوّر كل شكل من أشكال الحياة بما فيها من نبات وحيوان بطريقة ذكية جعلها تناسب بيئتها المحيطة. ويبدو أن هذا العقل قوي جداً وحكيم جداً مما يجعله يدير كافة المجريات الجوية والجيولوجية والكيماوية والبيولوجية.. إلى آخره، وبتنسيق وتناغم مذهلين. نبتة

البطاطا هي مجرّد تجسيد جزئي صغير لهذا العقل العظيم المنتشر في كل مكان. كافة أشكال الحياة بما فيها من نبات وحيوان وإنسان هي مجرّد أجزاء صغيرة في المشهد الشامل للطبيعة.

أعلم أنه في داخلك وداخل كل إنسان تكمن هذه القوة الهائلة التي لا تُقاوم، والتي يمكنك بواسطتها تحقيق كل ما يمكنه إبهار تفكيرك المنطقي وإذهال خيالك الجامح. يقبع في داخلك دائماً وأبداً عقل كليّ الحكمة، كليّ القدرة، وكليّ الوجود. هو عقل مختلف تماماً عن العقل العادي الذي تستخدمه في حياتك اليومية، مع أنه يمثّل امتداد له.

هل أنت على علم بتلك المعجزات التي تحصل كل يوم وكل ساعة وكل ثانية في أجسامنا والتي هي من إنجازات هذا الكيان العقلي العجيب والذي يتحدّ مع القوة الحيوية ليتجليان في النهاية بهيئة كيان واحد.

عندما تجرح أصبعك، من هو المسؤول عن عملية تخثّر الدم التي تتبع الجرح مباشرة؟ من هو المسؤول عن توقّف النزيف، وحياكة جلد جديد مكان القديم؟ من أمر تلك الكائنات المجهرية التي تُسمى خلايا بيضاء بأن تتقاطر إلى مكان الجرح والبدء بمعركة شرسة ضدّ الجراثيم والأجسام المجهرية الدخيلة؟ طبعاً وبكل تأكيد، هذا ليس العقل الواعي لديك. لأنك قد لا تعلم بوجود هكذا معارك تنشب في جسمك كل يوم وكل ساعة وكل دقيقة. حتى أن عقلك الواعي الذي يمثّلك لا يعلم شيئاً عن علاج الجروح أصلاً. إذا لم يكن عقلك الواعي هو المسؤول عن إدارة هذه العملية، فمن هو مسؤول إذاً؟ من أين جاءت كل تلك العبقرية التي تستطيع إدارة عملية معقّدة كهذه؟ من أين سوى ذلك الكيان العقلي العجيب الذي يدير مجريات جسمك بكل تعقيداتها دون أن يكون لديك أدنى اهتمام بذلك. هو الذي ينظّم وتيرة ضربات القلب وحركة الرئتين ويضبط وتيرة أداء الكبد والكليتين ويدير سيمفونية الإفرازات الهرمونية المتنوعة وكذلك تصرفات الخلايا المختلفة، الدموية والعضوية،.. وغيرها من مجريات لا متناهية تحصل في الجسم.

هل تستطيع التحديد بدقّة كم هي كمية الماء وكمية الملح وكميات العناصر المختلفة الأخرى التي وجب أن تتواجد في الدم لكي يحافظ على معدّل جاذبيّة معيّن إذا كنت تمضي معظم وقتك جالساً على الكرسي أمام التلفاز أو خلف طاولة المكتب؟ كم مرّة وجب تغيير هذه المعايير وما هي سرعة تغييرها إذا أردت أن تلعب كرة القدم مثلاً، أو تذهب في رحلة صيد، أو تركب الدراجة؟

هل تعلم كم هي كمية الماء التي وجب عليك شربها لكي تبطل تأثير زيادة الملح في إحدى المأكولات التي تناولتها؟ كم تفقد من الماء خلال عملية التنفّس؟ هل تعلم كم من الماء وكم من الملح وكم من العناصر المختلفة في طعامك وجب امتصاصها من قبل الدم يومياً لكي تحافظ على الصحّة السليمة؟ هل تعلم كم كمية السكّر الذي وجب تحويله إلى الدم في الكبد خلال كل دقيقة لكي يحافظ الجسم على حرارته العادية أثناء جلوسك دون حراك أمام جهاز الكمبيوتر، وكم سيتحوّل من السكّر إلى دم لكي يحافظ الجسم على حرارته العادية أثناء جريك ذهاباً وإياباً في لعبة كرة قدم، وكم سيتحوّل من السكّر إلى دم لكي يحافظ الجسم على حرارته العادية خلال وجودك خارج المنزل في أحد أيام فصل الشتاء البارد جداً؟

أنت لا تعلم بكل تأكيد. لكن لا تقلق، لأنه لا أحد يعلم أيضاً. حتى أعظم الفيزيائيين والكيميائيين والرياضياتيين يجهلون. لكن ذلك الكيان العقلي العجيب الكامن بداخلك يعلم كل هذه الأمور وأكثر. وهو ليس مضطرّاً لأن يتوقف ولو لبرهة لكي يحسبها طرحاً وجمعاً، بل يقوم بها تلقائياً. وهذه ليست سوى إحدى آلاف العجائب التي ينجزها خلال كل دقيقة. أعظم رياضياتي في العالم، وكذلك أعظم كيميائي، لو منحناهما سنة كاملة من الوقت، سوف يعجزان عن حلّ مسألة واحدة من المسائل التي يحلّها هذا الكيان العقلي العجيب في دقيقة واحدة.

لا يهمّ إذا درست أو لم تدرس الرياضيات أو الكيمياء أو أي من العلوم الأخرى. منذ ولادتك يبدأ هذا الكيان العقلي الخفي بمعالجة كل تلك المسائل الطارئة في جسمك دون حاجة لأن تلقي لها بال أصلاً. خلال خوضك معترك الحياة اليومية دون اهتمام لما يجري في جسمك، يكون هو مشغولاً بمعالجة المسائل التي يصعب على العقل العادي استيعاب مدى تعقيدها. إنه يشرف على كافة المجريات المعقّدة المتعلقة بعملية الهضم والامتصاص والطرح، وكذلك عملية الإفرازات الغددية التي تفوق تداخلاتها وتفاعلاتها الكيماوية مستوى العلم المخبري البشري. إنه المسؤول عن تصميم وبناء جسمك منذ الولادة حتى الآن، كما أنه يجري صيانته وإصلاحه بشكل دوري ومتكرر. بالإضافة إلى إدارته الشاملة له بكل ما فيه من أعضاء وأنظمة وإجراءات.

يشيرون إلى هذا الكيان العقلي العجيب بالعقل الباطن أو العقل اللاواعي أو العقل الخفي أو غيرها من أسماء ومصطلحات مختلفة تمثّل الشيء ذاته، لكنه في الحقيقة أعظم بكثير مما تمثله هذه المصطلحات. سبق وذكرت بأنه عبارة اتحاد وثيق بين كيان عقلي كليّ المعرفة وقوّة حيوية كليّة

القدرة، فيتجليان في النهاية بهيئة كيان واحد كليّ المعرفة وكليّ القدرة. إن وجوده واضح وجلي في كينونتنا، ويحتلّ كامل الجسم البشري ويسيطر على كافة الوظائف والإجراءات والحالات والأحاسيس الجسدية. في الوقت الذي يسيطر فيه العقل الواعي على الوظائف والحركات الإرادية، نجد أن هذا الكيان الخفي مسيطر على كافة الوظائف اللاإرادية الظاهرة والخفيّة في الجسم. التغذية وطرح الفضلات والإفرازات وسلوك القلب ومنظومة الدورة الدموية وجهاز التنفّس ونظام الخلايا بما يشمله من تطوّر الخلايا وتحوّلها، وغيرها من مهمات تخضع جميعاً لسيطرة هذا الكيان الخفي.

بالإضافة إلى ذلك، فإنه كليّ الإدراك، حيث يكشف لنا عن أشياء يعجز العقل العادي عن استشعرها إلا بعد تجليها ضمن مجال الإدراك العادي. كما أنه يستطيع رؤية أشياء كثيرة يعجز البصر العادي رؤيتها. هو يستشعر الأخطار المحدقة ويحذّر منها قبل تجليها ضمن مجال الإدراك العادي. هو يعلم بأشياء كثيرة لا يمكن إيجادها في الكتب. هو لا ينام، لا يتعب، يعمل باستمرار دون كلل أو ملل. هو باختصار أعظم قوّة في الحياة، وإذا تم التعامل معه بطريقة صحيحة سوف يمثّل القوة الأكثر فائدة لنا.

الصيدلية في جسمك

في الوقت الذي تبحث فيه عن قارورة دواء أو كبسولة تعالج علّتك، هل تعلم أن الجسم لديك يستطيع إفراز (وبشكل طبيعي) أي مادة كيماوية مركّبة تُباع اليوم في الصيدلية، بالإضافة إلى أن هذه العملية الإفرازية الطبيعية تكون مناسبة (من حيث الكم والنوع) لإجراءات الشفاء التلقائي التي يجريها الجسم؟ حتى مسكنات الآلام والفاليوم، يستطيع الجسم إفرازها بكميات وفيرة وبكثافات تتناسب تماماً مع جسمك.

عندما يُذكر أمامنا اسم "الأنسولين Insulin " أوّل ما يطرأ في الذهن صورة الدواء المشهور المرتبط بمرض السكّري والذي يعالج ارتفاع السكّر في الدم. معظمنا لازال يظنّ بأن المصدر الوحيد لهذا المركّب الدوائي هو الصيدلية بينما الحقيقة هي أنه يُصنع طبيعياً في الجسم وذلك من قبل خلايا خاصة موجودة في البنكرياس. الأمر ذاته ينطبق على الكورتيزون cortisone الذي نظنّ بأنه مركّب دوائي أيضاً مصدره الصيدلية بينما يُصنّع طبيعياً في الجسم وذلك من قبل خلايا

خاصة موجودة في الغدة الكضرية. هناك المئات من المركّبات الدوائية الأخرى التي تُباع في الصيدلية ونظنّ بأنها تُصنّع مخبرياً لكنها في الحقيقة عبارة عن إفرازات هرمونية تُصنّع طبيعياً في الجسم. لكن تم صنع مركّبات كيماوية مثيلة لها مخبرياً لتعويض نقصانها في الجسم.

المصدر الرئيسي لهذه الإفرازات هو أنواع مختلفة من الخلايا المخصّصة والمتواجدة في الغدد الصماء endocrine glands التي هي مجموعة من الغدد الموزّعة في أماكن مختلفة من الجسم وعملها هو ضبط وتنظيم الإجراءات الجسدية عبر إفرازاتها الكيماوية المسماة "هرمونات" hormones، والتي تنقلها المجاري الدموية إلى الأعضاء المستهدفة. يتم إدارة وتيرة الإفراز إما عبر ضوابط معيّنة في الغدة ذاتها والتي تستشعر بطريقة ما حصول ارتفاع أو انخفاض في مادة كيماوية معيّنة في الجسم، فتصدر الأوامر لكبح أو تحفيز عملية الإفراز حسب الحالة، أو هناك آلية خفيّة أخرى لإدارة هذه العملية لازالت مجهولة لدى العلماء، لكنهم يعلموا بأنها تتصرّف وفق أوامر عصبيّة صادرة من "تحت المهاد" hypothalamus الموجود في الدماغ. لكن السؤال هو: ما هو ذلك الشيء الذي يحفّز "تحت المهاد" على إصدار الأوامر العصبية؟

أستطيع الحديث طويلاً عن المزيد من العجائب والمعجزات التي تحصل في أجسادنا يومياً وفي كل ساعة ودقيقة وثانية لكن أعتقد بأن الفكرة اصبحت واضحة وضوح الشمس: ".. لا بد لقوة الحياة التي تتغلغل في كل ذرّة من العالم المادي أن تكون عاقلة.." العقل هو أساس العالم المادي، وبعد جمعه مع عنصري المحتوى والحركة نكون قد توصلنا إلى الثالوث الذهبي الذي تتألف منه الحياة.

ربما يظنّ البعض أن الإجراءات العقلية فائقة التعقيد الموصوفة سابقاً لا يمكن أن تتجلى سوى في الكائن البشري لأنه يمثّل شكل من أشكال الحياة المتطورة. إذا كان هذا رأيك فعليك تذكّر أن المعجزات الموصوفة سابقاً والحاصلة في جسد الإنسان هي ذاتها التي تحصل في جسد الحيوان وكذلك عند النباتات أيضاً.. لكن الأمر لا يتوقف عند هذا الحد. لازلنا نتكلم ضمن نطاق أشكال الحياة المنتمية إلى مستوى واحد ولم نتجاوزها إلى مستوى أعلى وننظر من زاوية أشمل. العقل لا يتجلى في مستوى واحد بل مستويات عدّة. هناك تراتبية للحياة العاقلة في الطبيعة. لقد بدأنا في بداية هذا الموضوع من مستوى الإنسان ونزولاً إلى مستوى الذرة، لكن يمكننا الآن الصعود في مستوى تجسيد الحياة العاقلة على مستوى الكوكب ككل ومنه صعوداً إلى مستويات تتجاوز

المجرّة بكثير. ونجد في جميع هذه المستويات عقل حكيم يدير الطبيعة على مستوى أشمل وأوسع وأكثر تعقيداً. دعونا نتعرف على إحدى النظريات العصرية التي تناولت هذا المستوى الحيوي/العقلي الشمولي.

نظرية غايا

في العام ١٩٦٩م، تقدم العالِم الإنكليزي "جيمز لوفلوك" James Lovelock وهو أستاذ في العلوم الجويّة بنظرية تقول أن كل المواد الحيّة في كامل الكوكب تعمل بتنسيق وتعاون لاإرادي يجعلها تبدو ككائن عضوي واحد يتمتع بتنظيم ذاتي وغريزة بقاء خاصة به. وأطلق على هذه المنظومة الحيوية الشمولية اسم "غايا" Gaia تيمناً بالإلهة الإغريقية. تعتمد نظرية غايا على فكرة أن الكرة الأرضية هي كائن بايولوجي كامل متكامل.. كائن حي قائم بذاته.. يدرك ويتصرف حسب الحالة والظرف. يقول العالم "جيمس لوفلوك" في نظريته الغريبة هذه:

".. الكرة الأرضية هي عبارة عن نظام بيولوجي كامل متكامل يدخل في تركيبته جميع الكائنات الحية والجامدة على السواء، لكنها تبدو ككيان واعي يتصرّف بطريقة عاقلة تجاه الظروف والأحوال المختلفة..".

أورد "لوفلوك" الكثير من الحقائق التي تثبت هذه الفكرة، كالحقيقة التي تتجلى بظاهرة استقرار درجة حرارة الأرض رغم الارتفاع المتقلّب لدرجة حرارة الشمس. فقد اكتشف خلال دراساته المتعدّدة (مستخدماً حسابات كمبيوترية دقيقة) السبب وراء هذه الظاهرة العجيبة. جميعنا نعلم أن الألوان الفاتحة تكون أكثر برودة من الألوان القاتمة، لأنها تقوم بعكس الضوء الذي تتعرّض له، بينما اللون القاتم يقوم بامتصاصه مما يؤدي إلى ارتفاع في درجة الحرارة. يقول "لوفلوك" إن الكرة الأرضية تعمل بنفس المبدأ تلقائياً! فعندما تتعرّض لموجات شمسية ذات حرارة زائدة عن المعدّل يصبح لونها فاتح أكثر، وعندما ينقص معدّل الحرارة يصبح لونها غامق!

لكن السؤال الكبير هو: كيف تستطيع الأرض أن تقوم بهذه التغييرات في ألوانها؟.. الجواب يكمن في الكائنات الحية! النباتات والحيوانات! اكتشف "لوفلوك" أنه خلال السنوات التي ترتفع فيها الحرارة التي تتعرض لها الأرض تزداد أعداد الزهور البيضاء بينما تنخفض أعداد الزهور

القاتمة. وكذلك الحيوانات، كالحمام والأرانب والكلاب والخيول وغيرهـا، حيث تزيد أعداد الكائنات التي تحمل اللون الفاتح بينما تقل أعداد التي تحمل اللون القاتم، وحتى أوراق النباتات تصبح أكثر فتوحة! أي أن البياض يتغلّب على السواد في الطبيعة جمعاء! وإذا نظرت إلى الأرض بشكل شامل سوف تلاحظ هذا التغيير بوضوح!

الأمر لا يتوقف عند ظاهرة استقرار درجة الحرارة لكوكب الأرض رغم التقلبات الحرارية التي تتعرّض لها من تأثير الشمس بالإضافة إلى التزايد المستمر لدرجة حرارة الأرض عبر العصور، بل تتجاوز ذلك لتشمل ظاهرة ثبات نِسب مكونات الغلاف الجوي رغم أن المنطق يفرض عدم ثباتها. كما أن درجة ملوحة المحيطات تبقى ثابتة رغم أن المنطق يفرض غير ذلك.

يزعم العلم المنهجي، بعد إجراء حسابات إحصائية خاصة، بأنه منذ بدئ الحياة على كوكب الأرض زادت نسبة الطاقة التي توفرها الشمس ٢٥%، لكن رغم ذلك بقيت درجة حرارة سطح الكوكب ثابتة دون تغيير، هذا بعد قياسها على مستوى الكوكب ككلّ. بالإضافة إلى ذلك، نِسب مكونات الغلاف الجوي للأرض هي ثابتة دون أي تغيير، مع العلم أن الغلاف الجوي يحتوي على نسبة ٧٩% من النيتروجين و٢٠,٧% من الأوكسيجين و٠,٠٣% من ثاني أوكسيد الكربون. وفق المنطق العلمي، وجب أن تكون نِسب هذه المكونات متقلبة وغير مستقرة، وبالتالي لا بد من وجود منظومة حيوية شمولية تضبط أعداد الكائنات الحيّة على مستوى الكوكب، أي تعمل على خفض وتيرة تكاثر الكائنات أو زيادتها، لكن كيف تفعل ذلك؟! أما ملوحة المحيطات فلازال معدلها ثابت، أي بنسبة ٣,٤%، وذلك لفترة طويلة عبر العصور. إن ثبات الملوحة مهم جداً حيث تتطلب معظم الخلايا درجة مستقرة من الملوحة ولا يمكنها تحمّل معدلات أعلى من ٥%. يتم التحكم بمعدل الملوحة عبر عملية التبخّر والتي غالباً ما تتم في الأهوار.

هذه مجرّد أمثلة على تلك الظاهرة المليئة بالإجراءات والعمليات الحيوية المعقدة التي تجري على مستوى الكرة الأرضية من أجل المحافظة على بيئة مناسبة لعيش الكائنات الحية بطريقة صحية وسليمة. لكن هذه الأمثلة تكفي لتجعلنا نفطن لأمور كثيرة لم نتوقع وجودها أصلاً، وتدفعنا إلى طرح أسئلة كثيرة: ما الذي يحافظ على ثبات نِسب مكونات الغلاف الجوي؟ ما الذي ينظّم مستوى الملوحة في البحار؟ ما الذي يحافظ على استقرار درجة الحرارة لكوكب الأرض؟ ما الذي يتحكم بأعداد الكائنات (زيادة أو نقصان وتيرة التكاثر) توافقاً مع أي حالة تطرأ على النظام البيولوجي

لكوكب الأرض؟ كيف يتم تنظيم هذه العملية؟.. كيف يتم التنسيق بين جميع كائنات الأرض وجعلها تنسجم مع سمفونية التغيير التي تشمل الجميع؟! يزعم "لوفلوك" وجود نظام تحكم أوتوماتيكي على مستوى الكوكب ككل، وهو المسؤول عن هذا الاستقرار والثبات في مجريته الحيوية المختلفة والمتنوعة. لكن السؤال هو: ما هو هذا الشيء الذي يدير نظام التحكم الأوتوماتيكي الذي تحدث عنه "لوفلوك"؟ يقول لوفلوك مستنتجاً:

".. إن النظر إلى الكرة الأرضية على أنها كائن حي هي طريقة ملائمة في التعامل مع الحقائق العلمية التي تخص البيئة والمجريات البيولوجية التي تظهرها الطبيعة. رغم أن هذه النظرة شاذة عن المفهوم العلمي السائد إلا أنني منحاز لها تماماً. وقد عشت مع هذه الفكرة منذ خمسة وعشرين عاماً، لكن ليس بنفس الطريقة التي نظر بها القدماء لها (نظروا إليها كأنها تدار من قبل آلهة عاقلة متجسدة بصورة امرأة سموها غايا)، أنا أنظر إليها كما الشجرة، شجرة مفعمة بالحياة.. تمضي حياتها بهدوء.. لا يمكنها الحركة إلا إذا هبّت عليها نسمة هواء.. فتتمايل بهدوء مع النسيم.. لكنها تعيش على ضوء الشمس والتربة والهواء.. فتنمو وتكبر وتعطي الثمار وتتكاثر..".



كوكب *الأرض هو كائن حيّ قائم بذاته*

لم تكن فكرة "الأرض الحيّة" جديدة على الإنسان، فهي قديمة قدم التاريخ السحيق. كتب أفلاطون يقول: "*.. الكون هو أقرب من أي شيء آخر إلى الكائن الحي.. كائنٌ مستقلٌ بذاته.. أكثر جمالاً وكمالاً من أي شيء في الوجود..*"

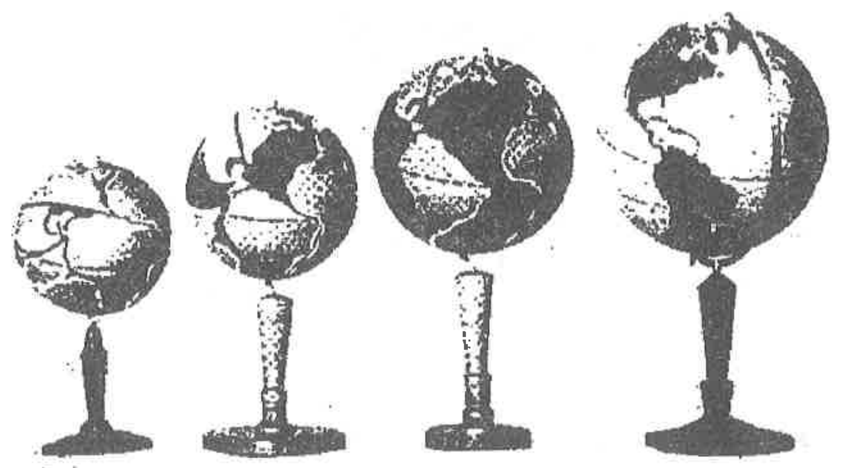
ظهرت عبر مراحل التاريخ المختلفة الكثير من المصطلحات التي تشير إلى هذا المفهوم. كالإلهة غايا، إلهة الخصوبة التي تحكم الطبيعة، المفعمة بالأمومة والحنان (منها جاءت تسمية نظرية

غايا). وقد ظهر مفهوم الروح الكونية. هذا المفهوم جاء من فكرة أنه يوجد روح لكلّ شيء في الوجود.. وجميع هذه الأرواح المختلفة تجتمع في النهاية لتشكل روحاً واحدة عظيمة...

كوكب الأرض هو عبارة عن كائن حيّ ينمو تدريجياً!

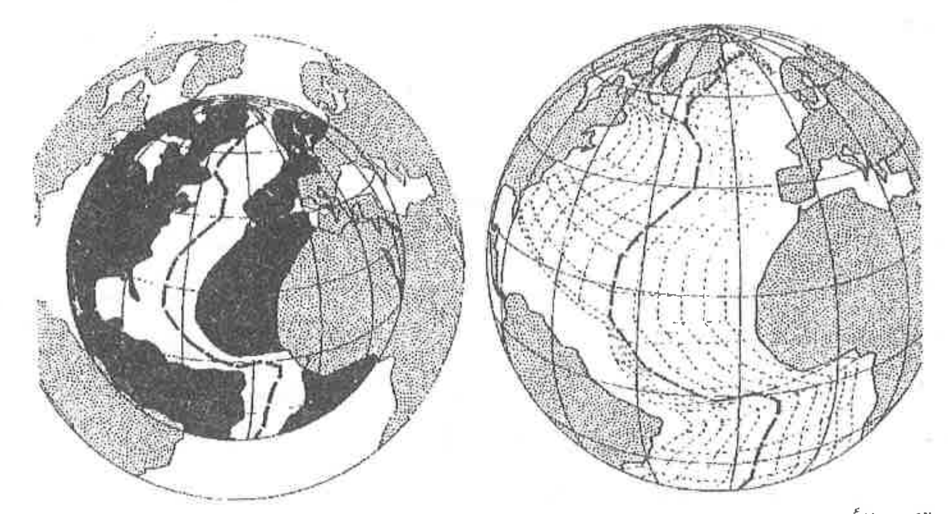
خلال الحديث عن تكاثر البلورات الصخرية والمعدنية التي تشكّل في النهاية نسبة كبيرة من جسد الكرة الأرضية ربما لم نفطن لذلك الجانب الغامض المتعلق بنمو الأرض بشموليتها. طالما أن البلورات الصخرية والمعدنية تتوالد وتتكاثر، ما الذي يمنع ازدياد حجم كوكب الأرض؟! لقد ظهر الجواب على هذا التساؤل منذ ثلثينات القرن الماضي. فقد تم الإثبات بشكل جازم أن كوكب الأرض في حالة نمو تدريجي ومستمر.

في العام ١٩٣٣م، خرج الباحث الألماني "كريستوفر أوتو هيلغنبيرغ" Christopher Otto Hilgenberg بنظريته القائلة بأن كوكب الأرض في حالة نمو تدريجي دائم ومستمر، وشرح الفكرة من خلال تصوير نموذج للكوكب بعد تقليص حجمه بنسبة ٥٥ إلى ٦٠ بالمئة، فتبيّن أن جميع القارات المتباعدة تتداخل ببعضها بطريقة مناسبة تماماً (أنظر في الشكل التالي). تقدم باقتراحه الجريء القائل بأنه لا يمكن لهذا أن يحصل سوى في حالة واحدة فقط: تمدد حجم الكوكب. هذه الفكرة الجديدة تناقظ تماماً نظرية انجراف القارات.



كوكب الأرض بعد تقليص حجمه بنسبة ٥٥ إلى ٦٠ بالمئة

طبعاً هذا النموذج الجديد ليس موجوداً في الكتب المدرسية لكنه لازال يكتسب شعبية واسعة عبر السنوات، والسبب بكل بساطة هو لأنه التفسير المنطقي الوحيد لتباعد القارات عن بعضها. في العام ١٩٨١م تم عقد مؤتمر في سيدني بأستراليا تحت عنوان "ندوة الأرض المتوسّعة" Expanding Earth Symposium. بالإضافة إلى أن مؤسسة "سميثسونيان" Smithsonian Institution في الولايات المتحدة استضافت اجتماع تناول ذات الموضوع في العام ١٩٨٩م وحضره علماء بارزين في مجال الجيولوجيا ومجالات علمية أخرى تتعلّق بالموضوع.



الكرة الأرضية بعد تقليص حجمها بنسبة ٦٠%، أي العودة بعمرها ملايين السنين إلى الوراء، تداخلت حدود القارات ببعضها تماماً وكأنها قطعة واحدة.

السؤال هو: ما الذي ينظّم هذا النمو التدريجي البطيء لكوكب الأرض ويحافظ على دائرية شكله وتماسك بنيته واعتدال توازنه خلال مسيرة فتله حول نفسه ودورانه حول الشمس؟!

العلمانية المادية وثالوث المادة

يُعتبر البيولوجي الألماني الشهير "أرنست هايكل" Ernst Haeckel من أبرز المناصرين المتشددين للعلمانية المادية وأعماله تُعتبر متطرفة وراديكالية إلى أبعد الحدود ويجسّد فيها النظريات المتقدمة للمذهب الفكري المادي materialism. لا يعترف "هايكل" بأي شيء أعلى من المادة، ويؤمن بأن الكون قد خُلق ذاتياً وبالصدفة ودون أي سبب عقلاني أو منطقي. لكن رغم ذلك، في أعماله إشارات عديدة تلمّح إلى أن العلم الحديث بدأ يبتعد تدريجياً عن تلك الفكرة المادية القديمة المتمحورة حول مفهوم "المادة الميتة" أو الماة الصرفة.

في كتابه الشهير الذي بعنوان "عجائب الحياة" *The Wonders of Life* يستعرض "هايكل" فلسفته الجديدة المتعلقة بوحدانية الكون Monism (أي انه من جوهر وأصل واحد) والتي تتمحور حول ثالوث المادة، وقد عبر عنها بالاقتراحات الثلاثة التالية: [١] ليس هناك مادة دون قوة ودون إحساس sensation. [٢] ليس هناك قوة دون مادة ودون إحساس. [٣] ليس هناك إحساس دون مادة ودون قوة. ويُتابع معلقاً على الاقتراحات السابقة: *".. هذه الخصائص الأساسية متواجدة بشكل متحد وغير منفصل في جميع أنحاء الكون، في كل ذرّة وكل جزيء.."*. يمكن اعتبار هذا اعتراف كبير يتقدم به أحد قادة (إن لم نقل القائد العام) الفكر المادي العصري. لكن لا يستطيع تقدير مدى أهميته سوى المطلعين على الفلسفة السريّة التي تتحدث عن ثالوث الحياة (العقل، الحركة، المحتوى) والتي تبدو اقتراحات "هايكل" قريبة جداً منها.

خلال تناوله المظهر الثلاثي للمادة، يقول "هايكل" أن المادة هي محتوى منتشر ليحتلّ كل الفضاء، وهي حالة ثابتة أبدياً وغير متغيّرة. أما الطاقة أو القوة فهي أبدية ايضاً، نشطة دائماً وأبداً، وغير متغيّرة في مجموعها وذلك وفقاً لقانون "مصونية الطاقة" conservation of energy. أما الإحساس، فبعد اجتماعه مع المادة والطاقة كخاصية ثالثة للمادة، فوجب ان يشمله قانون الديمومة أيضاً وبالتالي فعلى الإحساس أن يكون أبدياً وغير متغيّر بكميته ومجموعه. يقول "هايكل" بأن حالة التغيير في الإحساس هي كما حالة التغيير في المادة والطاقة، أي مجرّد تغيير من شكل إلى آخر.

لكن السؤال هو: ماذا يقصد "هايكل" بكلمة "إحساس"؟ ألا يعني بكلامه عنصر "العقل"؟ لقد ذكر في شروحاته بأن: *".. كامل الحياة العقلية للإنسانية لها جذورها في أحاسيس كل فرد.."*، وقد صادق على تعليق أحد المفكرين البارزين ("ناجيلي" Nageli) القائل: *".. عقل الإنسان هو أعلى تطوير للإجراءات الروحية التي تحيّي كل الطبيعة.."*. حاول ان تتأمل بهذه الأقوال الصادرة من أعتى المتشددين في الفكر المادي. أليس الأمر واضحاً وضوح الشمس؟ إنهم بكل بساطة يتحدثون عن الطبيعة الثلاثية للحياة لكن بطريقة ملتوية وذات نكهة مادية.

تعلّم الفلسفة السريّة بوجود واقع كوني واحد، المطلق [جلّ جلاله] والذي تتجسّد هيئته المطلقة على شكل ثلاثة جوانب نسبية: [١] "المحتوى" (المادة)، [٢] "النشاط" (الطاقة)، [٣] "العقل" (الوعي). هذه التجسيدات الثلاثة هي في الحقيقة عبارة عن ثلاثة جوانب أو مظاهر لتجسيد واحد عظيم، وتتدرّج نحو التجسيد المادي عبر مستويات عديدة ابتداءً من مستوى نقي وصافي وصولاً إلى مستوى كثيف وصلب. خلال مسيرة التجسيد نزولاً من الأعلى إلى الأدنى تتداخل هذه المظاهر الثلاثة ببعضها البعض وتتفاوت بين بعضها البعض وهذا ما يجعل التنوع كبيراً في مظاهر الكون. كافة أنواع هذه التجسيدات الثلاثة تنبعث من المطلق [جلّ وعلا] ويمكنها أن تعود إليه مرة أخرى، إذ هي نسبية له، أو يمكننا القول بأنه ليس لها وجود حقيقي أصلاً، أي ليس هناك وجود غير المطلق [جلّ جلاله]. هو كل ما يمكن أن يكون، أي أنه موجود بذاته، ذاتي الوجود، لا يعتمد على شيء، ليس له مسبب، بل هو السبب الاول.

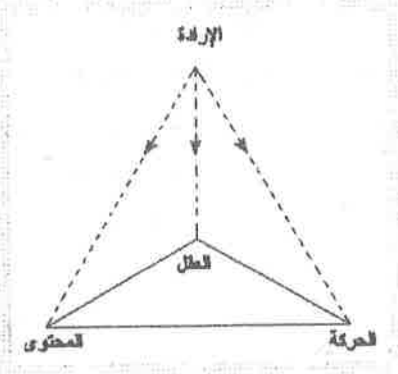
يقول مذهب "الوحدانية" Monism المتفرّع من المدرسة العلمية المادية بأنه لا وجود سوى للمادة، ومنحوها ثلاثة خصائص: [١] المادة، [٢] الطاقة، و[٣] الإحساس. تُعتبر المادة بأنها الخاصية التي تحتل الفضاء، والطاقة هي الخاصية المتحركة، والإحساس هو الخاصية الشعورية (أي الفكرية بمعنى ما). يعتبرون المادة بأنها ذاتية الوجود، أبدية، لانهائية، غير متغيّرة في الكمية والمجموع رغم تغيرها في الشكل والنوع.

تعلّم الفلسفة السريّة بوجود الروح، ذلك الحضور "للمطلق" [جلّ جلاله] خارج تجسيداته المادية، بينما مذهب "الوحدانية" Monism ليس لديه ما يقوله بخصوص الروح، فهو لا يعترف بوجودها أصلاً، إذ لا يرى سوى المادة التي تشكّل الأساس مع جوانبها الثلاثة (المادة، الطاقة، الإحساس). لازال هذا المذهب يتمسّك بفكرة أن الكون ذاتي الوجود، أي أنه لا يوجد سبب أوّل للوجود، لا

يوجد إله أعلى أو كائن مطلق. وبكل تأكيد، هذا المذهب المادي لا يعترف بأبدية الوعي وبقائه بعد موت الجسد، أو خلود الذات وجلالتها، إذ يقول بأن الذات هي شيء مادي وجسدي بحت، مجرّد تطوّر من حالة "الإحساس". بينما بالنسبة للفلسفة السرّية فإن للذات تعريف آخر:

تعتبر الذات بأنها مركز الوعي. تحتوي على الشرارة الإلهية المحبوسة ضمن أغلفة كل من [١] العقل (بدرجاته وأشكاله المختلفة)، و[٢] الطاقة، و[٣] المادة. المادة هي الشيء الذي تستخدمه الذات لتكسو نفسها، والطاقة هي الشيء الذي تستخدمه لتتصرّف، والعقل هو الشيء الذي تستخدمه لتفكّر.

القوة الكامنة وراء ثالوث العقل والحركة والمحتوى



من خلال الاطلاع على الموضوع السابق الذي يتحدث عن تجلّي "العقل" في كل مكان في الطبيعة، لا بد من أن يراودنا السؤال المهم: طالما أن كل شيء في الطبيعة هو عبارة عن "محتوي عقلي متحرك" (أي يتألف من ثالوث العقل والحركة والمحتوى) ما هو ذلك الشيء الذي يحرّك هذا المحتوى العقلي؟ وكيف تتم العملية؟ لا بد من وجود دافع أو محفّز خفي يقبع خلف كل هذا النشاط الجاري في الكون. وبما أن هذا النشاط هو منظّم وليس عشوائياً فلا بد من وجود خطة حكيمة وبالتالي فإن هذا الدافع الخفي الذي يحفّز الحركة يمتثل لإرادة ذكية وليس قوة عمياء. لقد أشارت التعاليم السرية إليها بالإرادة الإلهية الخلاقة.

الإرادة الإلهية الخلاّقة

القوة الكامنة وراء ثالوث العقل والحركة والمحتوى

تحدثت في الصفحات السابقة عن الجوانب الثلاثة لآلية تجسيد المطلق [جلّ جلاله] للكون المادي وهي: [١] "المحتوى" (المادة)، [٢] "الحركة" (الطاقة)، [٣] "العقل" (الوعي). هذه التجسيدات الثلاثة هي في الحقيقة عبارة عن ثلاثة جوانب أو مظاهر لتجسيد واحد عظيم، وتتدرّج نحو التجسيد المادي عبر مستويات عديدة ابتداءً من مستوى لطيف وصافي وصولاً إلى مستوى كثيف وصلب. لم يعد هناك مفرّ من التسليم بأن المطلق [عزّ وجلّ] هو مصدر القوة التي تقف وراء كل التجليات والتجسيدات المختلفة في الكون.. هو منبع كل القوى والطاقات الموجودة والتي وجدت والتي سوف توجد في الكون. الأمر لا يتوقف عند حقيقة أن ".. قوة الواحد الأحد تفوق كل القوى الأخرى في الكون.." بل تتجاوزها إلى حقيقة أكثر سمواً وهي أنه ".. لا يمكن أن يكون هناك أي قوة أخرى غير قوته..". وبالتالي فإن كل التجسيدات المختلفة والمتنوعة من القوة والطاقة والجهد لا بد من أن تكون جزء من القوة العُظمى المنبعثة من "الكلّ" العظيم.

ليس هناك أي مفرّ من هذا الاستنتاج مهما بدى مذهلاً وحتى رهيب بالنسبة لعقول الذين لم يعتادوا على هذه الحقيقة. إذا وُجدت قوة ليس من "الكلّ" العظيم فمن أين إذاً جاءت هذه القوة، حيث ليس هناك شيء خارج نطاق "الكلّ"؟ من أو ماذا يوجد خارج "الكلّ" يستطيع تجسيد أقلّ درجة قوة من أي نوع؟ كل الطاقات والقوى جاءت من المطلق [جلّ وعلا] وبالتالي لا بدّ من أن تكون ذات طبيعة واحدة. لقد توصل العلم الحديث إلى هذه الحقيقة وأحد مبادئه الأساسية يعترف بوحدة الطاقة ويتمثل بالنظرية العلمية القائلة بأن كافة أشكال الطاقة هي في النهاية ذات طبيعة واحدة. يؤكد العلم بأن كافة أشكال الطاقة هي متبادلة فيما بينها ومن هذه الفكرة نشأت نظرية "مصونية الطاقة" Conservation of Energy أو "العلاقة المتبادلة بين القوى" Correlation of Force. يقول العلم بأن كل تجسيد للطاقة أو القوة أو الجهد ابتداءً من قانون الجاذبية وانتهاءً بأعلى أشكال القوة العقلية المرهفة تمثل جميعاً في النهاية طاقة كونية واحدة.

ما هي الطاقة بطبيعتها الجوهرية؟ العلم المنهجي لا يعرف. لقد وضع الكثير من النظريات لكنه لم يقدم أي منها كقانون ثابت. يتحدث العلم عن الطاقة اللانهائية واللامحدودة التي تنبعث منها كل الأشياء، لكنه يجهل تماماً طبيعتها الجوهرية. راح بعض العلماء منذ بدايات القرن الماضي

يغوصون في أدبيات التعاليم التجاوزية وبدؤوا يتحدثون عن الطاقة الكونية بأنها أكثر من مجرّد طاقة ميكانيكية. بدؤوا يتحدثون عنها بمصطلحات تتعلق بمجال العقل والوعي. عالم النفس الشهير "ولهالم وندت" Wilhelm Wundt الذي أوجد مدرسة "النزعة الاختيارية" voluntarism في مجال علم النفس يعتبر القوة الدافعة للطاقة بأنه شيء يمكن تسميته "إرادة". وحتى في العام ١٧٤٤ قال المفكر "كروسيوس" Crusius بأن الإرادة هي القوة الطاغية في العالم. و"شوبنهاور" Schopenhauer أسس فلسفته ونظرته الميتافيزيقية على مبدأ يتناول شكل نشط للطاقة سماه "إرادة الحياة" واعتبرها شيئاً قائماً بذاته أو يمثل المطلق. ذهب البعض إلى الحديث عن شيء مشابه للإرادة الإلهية لكن علمانيتهم المادية تفرض عليهم استخدام مصطلحات إتفاقية، فوصفوا قوة شمولية محرّكة للكون وهذه القوة في حالة نشاط دائم وشمولي إذ نراها تبني وتفكّك وتصلّح وتستبدل وتغيّر.. دون كلل أو ملل. تناولها الفلاسفة العصريين بأسماء مختلفة وبصيغ عديدة لكن القيود الأكاديمية منعتهم من الذهاب بعيداً عن حضيرة المفاهيم العلمانية المادية وهذا ما جعلهم عاجزين عن إصابة الهدف خلال سعيهم وراء الحقيقة.

تتحدث التعاليم السرية عن إرادة كونية خلاقة منبعثة من المطلق [جلّ جلاله] ومفعمة بقوته وتتصرف وفق القوانين الكونية الراسخة والمسؤولة عن إدارة عملية الخلق. هذه الإرادة الخلاقة لا تشبه تلك التي وصفها العلماء والفلاسفة العصريين، حيث هي ليست شيء قائم بذاته ولا هي مجرّد إرادة حياة او غيرها من مفاهيم نسبية، بل هي أداة المطلق [جلّ وعلا]. هي انبعاث من عقل المطلق... أو تجلّي نشط لإرادته. هذه الإرادة هي منتوج عقلي وليس منتوج مادي، وهي بكل تأكيد مفعمة بالطاقة الحيوية لباعثها الأول. هذه الإرادة الخلاقة ليست مجرّد طاقة أو قوة ميكانيكية عمياء بل تتجاوز ذلك كثيراً. لا يمكننا شرحها إلا عبر الأمثلة، ولا تستطيع فهم هذه الأمثلة إلا إذا اختبرتها بنفسك. مثلاً، مجرّد أن أردت تحريك يدك فسوف تتحرك. قد تبدو هذه الحركة للوهلة الأولى بأنها مدفوعة بقوة ميكانيكية، لكن ماذا يقبع خلف هذه القوة؟ ما هو جوهر هذه القوة؟ الجواب هو: "الإرادة". كل تجليات الطاقة.. كل تجليات الحركة.. كل القوى هي أشكال مختلفة لنشاط إرادة "الكلّ". هي إرادة خلاقة تتصرف ضمن قوانين طبيعية موضوعة من قبل "الكلّ"، وهي في حالة دائمة من الحركة والنشاط والضغط والتحفيز والدفع والقيادة. أنا لا أقصد بأن أي تصرف بسيط من قبلنا هو ناتج مباشر من تفكير المطلق [جل جلاله] مما حفّز إرادته لإخضاعنا لتلك الفكرة. الأمر ليس كذلك إطلاقاً. لقد تحفّزت الإرادة الإلهية بشكل شمولي على مستوى الكون وتتضمن قوانين وقيود تحكم تصرفاتها، وسلوكها وفق صيغة معيّنة توافقاً مع خطة

الخالق أنتج ما نسميه قوانين الطبيعة أو القوى الطبيعية أو غيرها من عوامل تنظّم مجريات الطبيعة. لكن وجب عدم افتراض أن هذه الإرادة تتجلى فقط بصيغة ميكانيكية كما تبدو ظاهرياً في بعض القوى مثل الكهرباء والجاذبية والتصاهر الكيماوي.. إلى آخره، بل هي أكثر من ذلك بكثير، إذ نراها تعمل بكامل نشاطها في كافة أشكال الحياة. هي موجودة في كل مكان. خلف كل أشكال الحركة والنشاط نجد دافع أو ضغط معيّن. هذا الدافع يقبع خلف ما نسميها القوى الميكانيكية وكذلك القوى الحيوية على حد سواء. هذا الدافع الذي نلاحظه قابعاً وراء كافة أشكال الحركة في الوجود هو ذاته الإرادة الخلاقة.. إرادة "الكلّ" التي تنفّذ خطته العظمى للحياة.

أنظر أينما كان بين الأشكال الحيّة وسوف تكتشف حضور طاقة خلاقة في حالة عمل مستمر، تقولب وتوجّه وتفكّك وتستبدل.. إلى آخره.. تكافح دائماً إلى خلق الحياة وتعزيزها والمحافظة عليها. هذه الطاقة الخلاقة المرئية هي ما تسميها الفلسفة السريّة "الإرادة الخلاقة" التي تمثّل جوهر موضوعنا. الإرادة الخلاقة هي ذلك المجهود التطوّري الذي في حالة دائمة من السعي والكفاح والتوق والدفع إلى الأمام والتجلّي والتقدم الذي نلاحظه في كافة أشكال الحياة في الطبيعة. يمكن تمييز هذا النشاط الدائم والمستمر في أدنى أشكال الحياة وأرقاها، الجهد والطاقة والضغط الموجّه دائماً وأبداً نحو الخلق والبقاء والتغذية وتحسين والتجدّد. الإرادة الخلاقة هي ذلك الشيء الذي نقصده عندما نتحدث عن عمل قوى الطبيعة في نمو النباتات وأداء الحيوانات. كل ما عليك فعله هو استحضار فكرة "الطبيعة" في ذهنك وسوف تتمكن بعدها من تكوين تصوّر واضح لمفهوم الإرادة الخلاقة، لأن هذه الاخيرة هي ذاتها ذلك الشيء الذي طالما أشرت إليه سابقاً في أحاديثك بعبارة "عمل الطبيعة" خلال شرح آلية نمو النباتات وإنتاش البذور وتخصيب الأزهار.. إلى آخره. لا بد من أنك رأيت أداء هذه الإرادة إذا راقبت نمو الأشياء في الطبيعة من حولك.

نسمي هذه الطاقة "الإرادة الخلاقة" لأنها تمثّل التجلّي الموضوعي للطاقة الخلاقة للمطلق [جلّ جلاله]، إنها إرادته القادمة من العالم التجاوزي لتتجسّد في العالم المادي. إنها إرادة فعالة بنفس درجة الإرادة التي تسببت في حركة يدك تجاوباً لقوتها. إنها ليست عامل صدفة ولا قانون ميكانيكي، بل هي نشاط حيوي في حالة دائمة من الفعالية. هذه الإرادة الخلاقة لا تسبب الحركة الإرادية في الحياة الفردية فحسب، بل كل الحركات والنشاطات في الحياة الكامنة خارج نطاق الإرادة الفردية. كل الظواهر المتعلقة باللاوعي والعقل الباطن تخضع لها بشكل مباشر. هي التي تسبب بنمو الجسم وتعتني بأدق تفاصيل مجرياته المعقّدة مثل التغذية والامتصاص والهضم

والطرح والمناعة وغيرها. إنها مسؤولة عن بناء الأجسام والأعضاء والأجزاء المختلفة وتبقيها في حالة عمل سليم وبتناغم كامل.

الإرادة الخلاقة موجّهة نحو التعبير الخارجي للحياة، أي نحو التجسيد المادي منها. إذا شئت يمكنك تسمية هذه الطاقة بـ"الطاقة الحيوية الكونية" لكن بالنسبة لمن يعرفونها جيداً فهي "الإرادة"، إرادة حيّة ونشطة وفي حالة دائمة من القوة والحضور، تدفع إلى الأمام نحو التجلّي في الحياة المادية. يبدو أن الإرادة الخلاقة يتملكها دائماً رغبة قوية في للتجلي. إنها تتوق إلى التعبير عن نفسها، وتمنح الولادة لأشكال مختلفة من النشاطات. تكمن الرغبة خلف وضمن كافة أشكال تجلياتها. هذه الرغبة الحاضرة دائماً في الإرادة الخلاقة تدفع أشكال الحياة البسيطة للتطور إلى أشكال معقّدة، وهي في الحقيقة القوة الأساسية وراء عملية التطور، بل هي ذاته الحافز التطوّري الذي يصيح دائماً على تجلياته: ".. تقدم إلى الأمام.. تقدم إلى الأعلى.."!

هناك الكثير من الأمثلة على تأثير الرغبة والإرادة في أشكال الحياة ووظيفتها ومظهرها. جميع هذه الأشكال تخضع لعامل الرغبة والحاجة، كما حالة الزرافة التي طوّرت رقبة طويلة لكي تطال أعالي أغصان الأشجار، وكذلك طول رقبة وسيقان ومنقار طائر الغرنوق وأبو منجل واللقلق (وغيرها من الطيور صيادة السمك) لتساعدها على صيد فرائسها في بيئة مائية. عندما تجتمع الرغبة مع الإرادة سوف لن تتوانى الإرادة الخلاقة عن تلبية الطلب، فهي التي استطاعت خلق الشموس ونظمت دوران الكواكب حولها وفق قانون، وبالتالي لا تعجز عن شيء. هي تلبي الرغبة المدفوعةَ بالحاجة الملحّة دون تواني. بعض الكائنات رغبت في الطيران فنشأت لها أجنحة تدريجياً وأصبح لدينا طيور. بعض الكائنات رغبت في الغور إلى باطن الأرض، وبشكل تدريجي أصبح لدينا حيوان الخلد والسنجاب والأفاعي.. إلى آخره. عملية التطوّر هي أكثر بكثير من مجرّد صراع البقاء والبقاء للأنسب وغيرها من أفكار، فهذه مجرّد أدوات ووسائل، إذ يقبع خلفها ذلك التوق المصرّ، تلك الرغبة الملحّة دائماً، تلك الإرادة الخلاقة النشطة دائماً وأبداً. كان علم الطبيعة الفرنسي "لامارك" Lamarck أقرب إلى الحقيقة من "داروين" عندما زعم بأن الرغبة تقبع خلفها جميعاً، هي تسبق الوظيفة والشكل. الرغبة طلبت الوظيفة والشكل فتجسّدت بفضل نشاط الإرادة الخلاقة التي هي حاضرة دائماً وأبداً لتلبية الطلب.

تتصرف الإرادة الخلاقة كقوة حيّة، وهكذا هي بالفعل، لكنها لا تتصرف كشيء عقلي أو فكري وبدلاً من ذلك هي تجسّد ذلك القسم من العقل الذي يتعلق بالشعور والحاجة والتوق والغريزة، أي مشابهة لتلك التي نجدها في طبيعتنا الفردية. الإرادة إذاً تتصرف في القسم الغريزي. تبيّن لنا عملية التطوّر كيف تدفع الحياة بشكل مستمر إلى الأمام وصعوداً نحو أشكال أرقى من التعبير الحيوي. الدفع يكون دائماً إلى الأمام والأعلى. صحيح أن بعض الفصائل تختفي من مسرح الحياة بعد إنجاز دورها (إنقراض)، لكن يتبعها دائماً فصائل جديدة تكون أكثر انسجاماً مع البيئة الجديدة وحاجات الزمن الحاضر. الأمر مشابه لبعض الحضارات البشرية التي تندثر دون أن تترك أثر، فتبرز مكانها حضارات أخرى. هذه الحالة تتعلق بظاهرة أخرى مختلفة سوف أتناولها لاحقاً وتسمى "الإيقاع" الصاعد والهابط لمسيرة الحياة.

الإرادة الخلاقة هي شيء مختلف عن العقل والفكر لكنها تكمن خلفهما. في أشكال الحياة المتدنية والتي يكون فيها العقل شبه حاضر تكون الإرادة في قمة نشاطها تتجلى في سلوكيات حيوية غريزية أوتوماتيكية. هي لا تعتمد هنا على أدمغة لكي تتجلى لأن أشكال الحياة المتدنية هذه لا تملك أدمغة أصلاً، لكن مع ذلك نرى الإرادة تفعل فعلها في كل جزء من اجزاء جسمها. هناك عدد لا نهائي من الأدلة على عمل الإرادة الخلاقة باستقلالية عن الأدمغة في عالم الحيوان والنبات، خصوصاً إذا تفحصنا السلوكيات الحيوية لأشكال الحياة المتدنية. تقول لنا شهادات الباحثين في مجال تطور الأحياء بأن مبدأ الحياة كان حاضراً في أشكال الحياة البدائية لمدة ملايين السنين قبل ظهور الأدمغة. يخبرنا "هايكل" Haekel بأنه خلال تلك الفترة الزمنية المديدة التي سبقت ظهور الحياة العضوية لم يكن هناك وجود لأي حيوان يملك دماغ. لقد تطورت الأدمغة في الكون تجاوباً لقانون الرغبة والحاجة، وذلك توافقاً مع الخطة الكونية العظمى طبعاً، لكن في تلك الفترة السابقة لم تكن الأدمغة حاجة ضرورية لإكمال عملية الخلق العجيبة للأشكال الحيّة. حتى الآن هي لا تمثّل حاجة ضرورية في بعض الحالات. مثلاً، الطفل الصغير أو الأبله المعتوه لا يستطيعان التفكير بشكل جيّد لكن مع ذلك نرى الوظائف الحيوية لجسمهما تجري بشكل منتظم ووفقاً لقانون الطبيعة رغم غياب الأدمغة المفكرة لديهما. الحال ذاته ينطبق على الإجراءات الحيوية للنباتات والأشكال المتدنية من الحياة الحيوانية. هذا الشيء العجيب الذي نسميه "الغريزة" هو تسمية أخرى لتجلّي الإرادة الخلاقة التي تنبعث من الحياة الكليّة، المطلق [جلّ جلاله].

حتى في أدنى درجات سلّم الحياة نجد كائنات مجهرية مثل الـ"مينورا" Monera (بدائيات النواة) يمكننا رؤية الإرادة الخلاقة في قمة أداءها. كما ذكرت في فصل سابق، الـ"مينورا" هي مخلوقات مجهرية دقيقة جداً بالكاد تُرى في المجهر، وتبدو كأنها نقاط صمغية شفافة خالية من الأعضاء، لكنها رغم ذلك تمارس كل الإجراءات الحيوية كأي مخلوق عادي كالحركة والتغذية والإحساس والتناسل وغيرها من تصرفات مترابطة بكائن عضوي نموذجي. هذه المخلوقات تعجز عن التفكير بنفسها لكن ظاهرة حياتها تعود بالفضل إلى عمل الإرادة من خلالها. يمكن رؤية هذا الدافع الغريزي في كل مكان، يتجلى صعوداً عبر درجات سلّم الحياة، مع تقدم عملية بناء أشكال عضوية أكثر تطوراً.

لقد استخدم العلماء مصطلح "النزعة الغريزية" Appetency للإشارة إلى نزعة الأعضاء الحية إلى القيام بأعمال وتصرفات معيّنة. أي مثلاً، "نزعة" الجسم إلى السعي نحو إيجاد ما يلبي حاجات أعضاءه المختلفة. لكن السؤال هو: ما هي هذه "النزعة" فعلياً؟ لا يمكن أن تمثّل مجهود فكري، إذ أن أشكال الحياة البسيطة لا تملك أداة لتفكر. ومن المستحيل طبعاً أن نتحدث عن "النزعة الهادفة" في غياب القوة الذهنية من أي نوع، وأين تكمن هذه القوة الذهنية أصلاً إذا افترضنا وجودها في هذه الكائنات المجرّدة من أدوات الذهن الأساسية مثل الدماغ؟ عندما نسلم بأن الإرادة هي التي تعمل داخل ومن خلال كافة أشكال الحياة، من الأدنى حتى الأعلى، من الـ"مينورا" حتى الإنسان، نستطيع مباشرة تمييز مصدر القوة والنشاط، إنه مبدأ الحياة العظيم.. الإرادة الخلاقة التي تتجلّى عبر كل الأشياء.

من الأفضل تكوين فكرة أوضح عن الإرادة الخلاقة من خلال الإشارة إلى جانبي نشاطها الداخلي والخارجي. نحن لا نستطيع رؤية الإرادة بذاتها، أي حالة الدفع والتحفيز، لكننا نستطيع رؤية مفعولها عبر الأشكال الحيّة. كما حالة عدم قدرتنا على رؤية الرجل الواقف وراء الستار لكننا مع ذلك نستطيع إدراكه عملياً من خلال حركات جسمه الذي يضغط على الستارة مؤلفاً تجاعيد متوافقة مع هيئته العامة، الحال ذاتها مع الإرادة التي يمكن إدراكها عملياً من خلال الستار الحيوي لأشكال الحياة المختلفة. هذا ما يمكننا فعله عندما نراقب أفعال الإرادة الخلاقة في الطبيعة والتي لا تدع أي مكان للشكّ من وجودها. يمكننا رؤية تصرفاتها بوضوح وراء ستار أشكال الحياة المتجلية في الطبيعة. يمكننا رؤيتها تضغط وتحفّز هنا وتتراجع هناك، تبنى هنا وتغيّر

سلوكها هناك..، هي في حالة عامل دائم ومستمر، حركة مستمرّة، كفاح مستمرّ، توق مستمرّ إلى تحقيق رغباتها. دعونا الآن نلقي نظرة على بعض أعمال هذه الإرادة المتحرّكة وراء الستار.

ابتداءً من ظاهرة تشكّل البلورات كما اسلفنا شرحها سابقاً يمكننا العودة إليها للتعرّف على إحدى تجليات الإرادة الخلاقة خلال تشكل الكريستالات. لقد اهتم العلماء منذ بدايات القرن الماضي بظاهرة تشكّل البلورات وأخضعوها لتجارب ودراسات عديدة. في إحدى هذه الدراسات المتعلقة بتشكّل البلورات لوحظ بأن بعض المكونات العضوية للبلورات، بدلاً من التشكّل بطريقة متناظرة، أي كما هو مألوف في عملية تشكّل البلورات، أظهرت أنها مناوئة لبعضها البعض، أي هناك مكونات يسارية ومكونات يمينية، أي كما حالة الأحذية أو القفازات. هذه المكونات البلورية لا يمكن إيجادها وحدها، أي بالمفرد، بل أزواجاً فقط. ألا ترى الإرادة وراء الستار هنا؟

دعونا الآن نبحث عن الإرادة في حياة النباتات وبعض أشكال تجليها في ذلك العالم الصامت. يمكننا أن نبدأ من الدلائل التي توفرها ظاهرة التخصيب عند النباتات والتي تلعب الحشرات دور رئيسي فيه، إذ غالباً ما يكون شكل الزهرة مناسباً تماماً لدخول حشرات محددة (تختلف الحشرة حسب نوع النبتة) إذ تلعب دور الناقل لحبات الطلع. فكر في المسألة قليلاً وتأمّل في الجهة التي تقف وراء تنظيم هذه العلاقة المتبادلة بين النبات والحشرات والتي ينتج منها عملية توزيع منظّم لحبات الطلع.

الأشجار المثمرة تحيط بذورها بغلاف حلو المذاق (جميع أنواع الفواكه عموماً) فتجذب إليها أنواع مختلفة من الحشرات والحيوانات فتأكل الفاكهة وبنفس الوقت تنقل البذور في جوفها إلى أماكن بعيدة حيث تطرحها مع الفضلات. بعض تلك البذور لها غلاف قاسي وصلب من أجل حماية البذرة من سقيع البرد القارص خلال فصل الشتاء لكن هذا الغلاف يذبل ويذوي بسبب هطول أمطار الربيع مما يسمح للبذرة أن تنتش وتنمو في موعدها. بعض البذور تكون محاطة بمادة صوفية بحيث يمكن للريح أن يحملها هنا وهناك ويمنحها فرصة لكي تجد موطن مناسب. بعض الأشجار تحوز على نظام شبع مدفعي، أي تقبع بذورها داخل أنابيب تشبع سبطانة المدفع، وعندما يحين الوقت المناسب طلق بذورها إلى مسافة عدة أمتار أو عشرات الأمتار حسب نوع النبتة أو الشجرة. بعض النباتات لها بذور بكسوة بشعيرات شوكية لاصقة مما يمكنها من الالتصاق أو التعلّق بفروة أي كائن يمرّ بجانبها كالأغنام أو الذئاب أو الدببة.. إلى آخره، فتبقى

معلّقة لمسافة بعيدا عن مصدرها قبل أن يُقدر لها أن تسقط في موطن جديد، وبذلك يكون الهدف قد أنجز تماماً بالنسبة للنبتة إذ تم انتشار ذريّتها في أوسع دائرة ممكنة. بعض النباتات تظهر قدرة عجيبة على تخطيط وتنظيم عملية انتشار بذورها في مواطن جديدة مناسبة لنموها. إن ما استعرضته هذه النباتات خلال تنظيم عملية انتشار بذورها لا يمكن أن نوصفه بأقلّ من شيء مبدع وبارع إذا كنا نتعامل مع كائن عاقل. هناك أنواع من النباتات الشائكة التي تزوّد بذورها بلواصق شعرية من كل الجهات بحيث أنه أي تلامس مع حيوان يمرّ من هناك كافي لأن يجعلها تتعلّق به. في نهاية كل شعيرة لاصقة يوجد خطاف صغير كما صنارة السمك، هذه الخطافات الصغيرة تتكمّش بفروة الحيوان أو ثياب الإنسان أو غيرها بحيث يستحيل إفلاتها بالقوة، وقد عُرف عن هذه النبتة تحديداً بأنها بهذه الطريقة انتشرت حول العالم أجمع.

بعض النباتات الشائكة الأخرى تزوّد بذورها بما يشبه أجنحة ملساء بحيث يحملها الريح بعيداً إلى مناطق جديدة. معروف عن بعض البذور بأن لديها القدرة الذاتية على الدحرجة والشقلبة إلى مسافات بعيدة! تذكر أنها تقوم بذلك بنفسها وليس نتيجة أي تاثير خارجي كالرياح أو المياه أو غيرها، فالأمر يتعلّق بتكوينها الخاص بحيث زوّدت بسيقان صغيرة تشبه سيقان الحشرات. هناك أشجار مثل شجرة القيقب زوّدت بذورها بما يشبه مروحة الطائرة إذ مجرّد أن هبّ الريح تنطلق بشكل دوّار وتحافظ على تسارعها لمسافة مئات الأمتار قبل أن تسقط في موطنها الجديد. بعض البذور مزوّدة بشعيرات تشبه تلك التي تتحرّك تلقائياً كالحشرات لكنها في هذه الحالة مجهّزة بهدف السباحة. هناك أنواع كثيرة من البذور المجهّزة بآلية تساعدها على الطوف فوق سطح الماء لكن الأمر العجيب هو تلك المجهّزة بآلية تلقائية تساعدها على السباحة نحو موطنها الجديد. الباحثون الذين راقبوا هذه البذرة السباحة يؤكدون بأنه يستحيل تفريقها عن الحشرة خلال حركتها رغم أنها مجرّد بذرة.

يوجد أنواع كثير من النباتات الصائدة للحشرات، وبعضها يكون لاحماً أيضاً إذ تأكل الحيوانات الصغيرة مثل الضفادع، أحد أنواعها هي نبتة "فينوس" التي تطبق أوراقها على الفريسة التي تنجذب إلى عصائرها حلوة المذاق، فتحبسها وتقيّد حركتها وتبدأ بإفراز سوائل مذيبة تساعد على هضم الفريسة. وقد وصفوا نوع من النباتات اللاحمة الخطيرة على ضفاف بحيرة نيكاراغوا ومعروفة لدى السكان المحليين باسم "شرك الشيطان". أحد المستكشفين كتب عن هذه النبتة في مذكراته واصفاً كيف كادت أن تقضي على كلبه المسكين بعد سقوطه في شركها. وجد الكلب

مشبوك حوله أشرطة سوداء لاصقة وتقبض على جسمه بقوّة لدرجة أنها سببت النزيف في بعض الأماكن. هذه الأشرطة السوداء هي عبارة عن أغصان تعود لتلك النبتة القاتلة والتي تشبه الأخطبوط، هذه الأغصان مرنة جداً وتتحرّك بحريّة وكأنها تعود لحيوان وليس نبات، كما أنها تفرز سوائل سامة ومذيبة تساعد على قتل الفريسة وسهولة هضمها.

لابد من أنك سمعت يوماً (أو شاهدت) أزهار تغلق بعد أن تلمسها مباشرة. وهناك أزهار تغلق عند غياب الشمس، والنبات الأشهر هو ميّال الشمس الذي يدور مع حركة الشمس في السماء ويتابع مسيرتها كالمغناطيس حتى تغيب في الأفق. لكن هذه مظاهر بسيطة بالمقارنة مع أخرى عجيبة أبدتها النباتات. هناك نوع من نبات السحلبيّة orchid الذي له ساق طويلة مفلطحة ورفيعة تعمل عمل الخرطوم. يبقى هذا الخرطوم في الحالة العادية ملفوفاً حول نفسه بجانب النبتة كما لو انه غصن، لكن عندما تحتاج النبتة إلى ماء يبدأ الخرطوم الملفوف بحلحلة نفسه والتمدّد باتجاه الماء (الذي غالباً يكون في المستنقع القريب من النبتة) ويغطس فيه وتبدأ عملية الامتصاص كما يفعل الفيل، بعد امتلاءه بالماء يعود باتجاه النبتة ويزرق الماء عليها أو على جذورها كما يفعل الفيل تماماً! وتستمر عملية نقل الماء بهذه الطريقة حتى ترتوي النبتة. لكن عندما يكون الماء بعيداً عن موقع هذه النبتة يبدأ خرطومها بالتمدّد والنمو بعيداً باتجاه موقع الماء، فيذهب يميناً ويساراً وبسارات متعرّجة بين كافة العقبات المتنوعة حتى يصل إلى هدفه المنشود. وإذا قام أحدهم بلمس هذا الخرطوم خلال تمدده نحو الماء فسوف يستجيب بشكل خاطف ويعود ملفوفاً إلى جانب النبتة بسرعة البرق. السؤال هو: ما الذي سبب ردة الفعل الحيوية هذه؟ تذكّر أنه ليس للنبات أي دماغ أو جهاز عصبي أو منظومة عقلية تستجيب بسرعة خاطفة للمنبهات الطارئة. الجواب بسيط: إنه عمل الإرادة القابعة وراء الستار. هي إرادة الحياة التي تحفّز النباتات على التصرف بهذه الطريقة أو تلك بهدف المحافظة على بقاءها.

هذا هو المحفّز ذاته الذي يدفع حبات البطاطا المخزّنة في أقبية تحت أرضية إلى إرسال جذور أو براعم لمسافة عشرات الأمتار للوصول إلى الضوء. الكثير من النباتات أرسلت جذورها عبر مسافة مئات الأمتار حتى تصل الماء. الأمر العجيب هو أنها تحدد جهة الماء والضوء بدقة كبيرة ثم تطلق جذورها نحوها. حوالق النبتة (الجزء اللولبي الرفيع في أطراف سيقانها) تعرف جيداً موقع الخيط أو العمود المناسب لتتسلّق عليه، فتتوجّه نحوه مباشرة وتتعمشق به. كيف تفعل ذلك بالرغم من أنها مجرّدة من عيون أو أي عضو حسّي يمكنها من ذلك؟ إذا قمت بفكّ التفافها حول

العمود ونقل هذا الأخير إلى موقع آخر سوف تكتشف في اليوم التالي (أو عدة أيام) بأنها بـدأت تتوجّه نحو موقعه الجديد وبعد فترة تجدها متعربشة عليه. النباتات الآكلـة للحـشرات تـستطيع التمييز بين الحشرات المناسبة للأكل وتلك الغير مناسبة فترفضها. حتى أنها تتقبل أطعمة تحتوي على عناصر غذائية مشابهة لتلك التي تحويها الحشرات المناسبة، مثل الجبنة، رغم أنها مختلفـة تماماً عن الحشرة من حيث الشكل والملمس ووالمظهر والرائحة والطعم وغيرها.

هناك عدد لا يُحصى من الحالات والظواهر التي تبيّن عمل الإرادة فـي حيـاة النباتـات. لكـن المظاهر الأكثر عجباً لعمل هذه الإرادة وراء الستار هي تلك التي تتجلّى خلال مراحل نمو النبتة. تصوّر مثلاً بذرة صغيرة وأنظر كيف تبرعم وتسحب إليها التغذية من الماء والهـواء والـضوء والتربة، ثم تتابع نموها إلى الأعلى حتى تصبح شجرة كبيرة مؤلفة من لحاء وجذوع وأغـصان وأوراق وأزهار وثمار وغيرها. تأمّل بهذه المعجزة وفكّر في قوّة وطبيعـة الإرادة التـي تقـف وراءها.

النبتة النامية تجسّد قوة كافية لشقّ الصخور ورفع بلاطات إسمنتية كبيرة كما نلاحظها عادةً فـي الأرصفة بجانب الطريق. لطاما نشرت في الجرائد اليومية أخبار عجيبة تتحدث عن هكذا حالات، مثل ذلك الخبر الذي يتحدث عن أربعة من نبتات الفطر العملاقة رفعت بلاطة إسمنتية في أحـد الشوراع المزدحمة بين يوم وضحاه. فكّر في هذه الصيغة من استعراض القوّة والطاقة الهائلـة. هذه الصيغة من بذل الجهد والحركة والطاقة هي أحد المظاهر الأساسية للإرادة القابعـة خلـف الستار. كل تغيير أو نمو هو نتيجة حركة، والحركة تتجلّى نتيجة دافـع أو ضـاغط، وبالتـالي السؤال هو: من يقف وراء كل دافع وجهد وقوة وطاقة تتجلى في الطبيعة؟ الجواب أصبح واضحاً وضوح الشمس: "الإرادة الخلاقة" الكامنة وراء الستار.

في كل مكان من حولنا يمكننا رؤية هذا الدافع الملحّ المستمر والثابت وراء القوى الحيّة وكـذلك الأشكال غير العضوية، تجلّي دائم ومستمر للطاقة والقوة. وكل هذه القـوة تكمـن فـي الإرادة، والإرادة هي عبارة عن تجلّي للقوّة الكليّة.. المطلق [جلّ جلاله]. تذكّر هذا دائماً. هـذه القـوة لا تجسّد نفسها فقط في موضوع النمو والحركات العادية، بل أيضاً في طرق أخرى تبدو غامـضة حتى بالنسبة للعلم الحديث. كيف تستطيع بعض الطيور أن تطير مباشرة في وجه الرياح القويـة دون أي حركة لأجنحتها؟ كيف يستطيع الصقر الجرّاح أن يطوف في الهواء وينطلق مسرعاً في

طيرانه دون أن يبدي أي حركة في جناحيه؟ ما هو تفسير حركة بعـض الكائنـات المجهريـة المجرّدة من أي أعضاء حركية؟ كيف يستطيع متعدد الكيسيات Polycystid مثلاً (وهـو كـائن مجهري) أن يتحرّك بحرية إلى الأعلى والأسفل واليمين واليسار والأمام والخلف وبسرعة وببطء دون أن يكون لديه أي عضو حركي، وحتى أنه لا يظهر أي حركة في جسمه. إنه يتحرّك هكـذا وبكل بساطة. كيف؟

وصولاً إلى مستوى أعلى من الكائنات الحيّة أوّل ما يلفت نظرنا هو ظاهرة تطوّر البيضة إلـى دجاجة. ما هي القوّة الكامنة في بزرة البيضة التي تحوّلها إلى كائن حيّ ينـبض بالحيـاة؟ هـل تستطيع هذه البزرة التفكير او التخطيط أو الحركة أو النمو إلى دجاجة كاملة لوحدها؟ أم ان كامل العملية هي بفضل الإرادة؟ والجواب الصحيح في هذه الحالة ينطبق على ظاهرة ولادة ونمو كامل أنواع الحيوانات التي تنشأ أصلاً من بزرة وحيدة الخلية. كيف يحصل هذا، ولماذا؟



هناك طاقة عقلية تقبع في خلية البزرة، ما من شكّ في ذلك. والطاقة العقلية هذه مدفوعة من قبل الإرادة الخلاقة المتجلية دائماً وأبداً في الطبيعة. بفضل هذه القوة الدافعة تتجلى المعجزات في كل لحظة وثانية في الوجود، وهي ظاهرة شائعة في الطبيعة من حولنا لدرجة اننا نعتبرها عادية ولم نعيرها أي اهتمام.

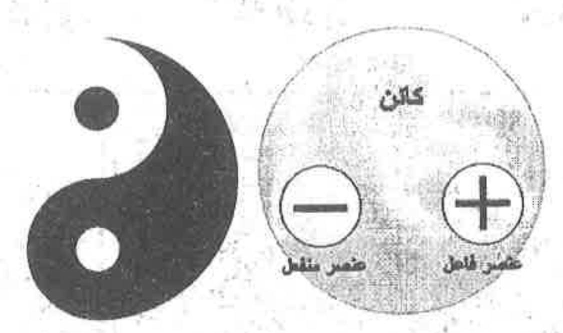
إذا التفتنا إلى أجسامنا وتساءلنا، هل الإرادة تفعل فعلها هنا أيضاً؟ الجواب هو: بكل تأكيد. ما الذي أدار عملية بناء جسمك من مرحلة أحداي الخلية إلى مرحلة البلوغ الكامل؟ هل أنت من أنجز كل هذا العمل مستخدماً ذكائك الخاص؟ أليس كل مرحلة من مراحل هذا الإنجاز العظيم تم دون أي وعي أو إدراك منك؟ أنت لا تفطن بوجود أي من الأعضاء الداخلية إلا عندما تصاب بعطب أو علّة معيّنة، ورغم تجاهلك لوجود المعدة والكبد والقلب وغيرها من أعضاء فهي تبقى قائمة بوظيفتها على أكمل وجه، ليلاً نهاراً، دون كلل أو ملل، تبنى وتصلح وتغذّي وتنمّي وغيرها من الإجراءات التي تحولك إلى إنسان بالغ وتحافظ على نشاطك وقوتك. هل أنت تفعل ذلك بمجهودك الخاص وبتفكيرك الخاص وبإرادتك الخاصة؟ كلا، إنها الإرادة الكونية العظيمة، إنها التعبير عن غاية الواحد الأحد والتي تعمل من خلالك. إنها الحياة الواحدة المتجلية فيك عبر الإرادة الخلاقة. وهذا ليس كل شيء، فالإرادة الخلاقة موجودة في كل مكان حولنا، في كل قوة وطاقة ومبدأ إحيائي. الظاهرة التي نسميها القدرة العقلية الخارقة هي ذاته مبدأ الإرادة الخلاقة لكنه موجّه من قبل عقولنا الفردية. هنا يكمن السرّ العظيم وراء ما نسميها القدرات الخارقة، لكن لازال الأمر مبكراً الحديث عن هذا الموضوع الأخير بالتفصيل وآلية ربطه مع مبدأ الإرادة الخلاقة. لكن كل ما يمكن قوله هنا هو أن قوة هذه الإرادة الكونية بكل أشكالها وصيغها، من الطاقة الكهربائية إلى الطاقة العقلية، هي دائماً تحت تصرّف الإنسان لكن ضمن حدود معيّنة وتخضع للقوانين الخاصة بالإرادة الكونية الخلاقة. وكل من يحوز على الفهم الصحيح لقوانين أي قوة من القوى سيتمكن من استخدامها وتسخيرها حسب إرادته. وأي قوّة يمكن استخدامها بشكل مستقيم أو ملتوي. وكلما اقتربنا من الفهم الصحيح والشامل لمبدأ الحياة الواحدة والقوة الواحدة كلما زادت قوتنا لأننا نكون قد اقتربنا إلى المصدر الأساسي لكل القوّة.

هناك في الكون قوة واحدة، طاقة واحدة، جهد واحد. وهذه القوة هي تجلّي الحياة الواحدة. لا يمكن أن يكون هناك قوة أخرى، حيث لا يمكن أن يكون هناك "واحد" آخر تصدر منه قوة أخرى. ولا يمكن ان يكون هناك أي تجلّي لقوة غير قوة "الواحد" حيث ليس هناك أي قوة أخرى في الوجود. قوة "الواحد" مرئية بالنسبة لنا في تجلياتها بهيئة القوانين الطبيعية وقوى الطبيعة والتي تندرج جميعاً تحت عنوان واحد: الإرادة الخلاقة. هذه الإرادة الخلاقة هي القوة أو الدافع أو المحفّز الضمني الذي يكمن خلف كافة أشكال الحياة. في الذرّة وفي الجزيء وفي الميحاد وفي الخليّة وفي النبات والسمك والحيوان والإنسان.. إلى آخره. هذه الإرادة الخلاقة، أو مبدأ الحياة، هي في حالة دائمة من العمل المستمر، حيث هي تخلق الحياة وتحافظ عليها بكل مظاهرها

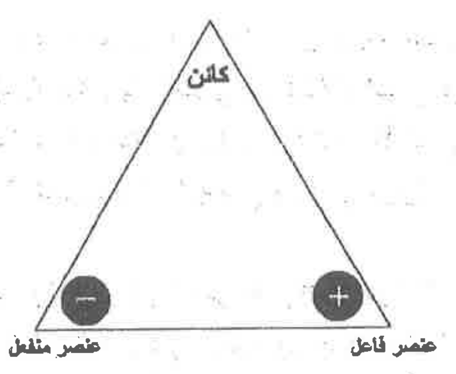
المختلفة. يمكننا تسمية هذه العملية بـ"الغريزة" أو "عمل الطبيعة" لكنها الإرادة الخلاقة على أي حال. هذه الإرادة تكمن خلف كل القوى والطاقات والجهود، إن كانت جسدية أو ميكانيكية أو عقلية. كل القوى التي نستخدمها، بوعي أو غير وعي، تأتي من مصدر واحد عظيم للقوة. إذا كنا نستطيع الرؤية بوضوح سوف ندرك حقيقة أننا مدعومون من قبل قوة كونية عظمى تكمن خلفنا، وتنتظر استخدامنا الذكي والعقلاني لها. ليس هناك شيء نخاف منه إذ نحن تجليات الحياة الواحدة التي انبعثت منها كل القوة، والذات الحقيقية هي فوق قانون السببية لأنها جزء من السبب. لكن في النهاية، فوق وتحت وأمام وخلف كل كينونة ومادة وطاقة وقوة يكمن "المطلق" [جلّ وعلا] بسكونه الدائم وسلامه الدائم واطمئنانه الدائم. بمعرفة هذه الحقيقة، كل ما علينا فعله هو إظهار روح الإيمان والثقة بالخير المطلق والعدالة المطلقة التي يتسم بهما ذلك الذي يمثّل الحقيقة الواقعية الوحيدة في الوجود.

مبدأ الثالوث

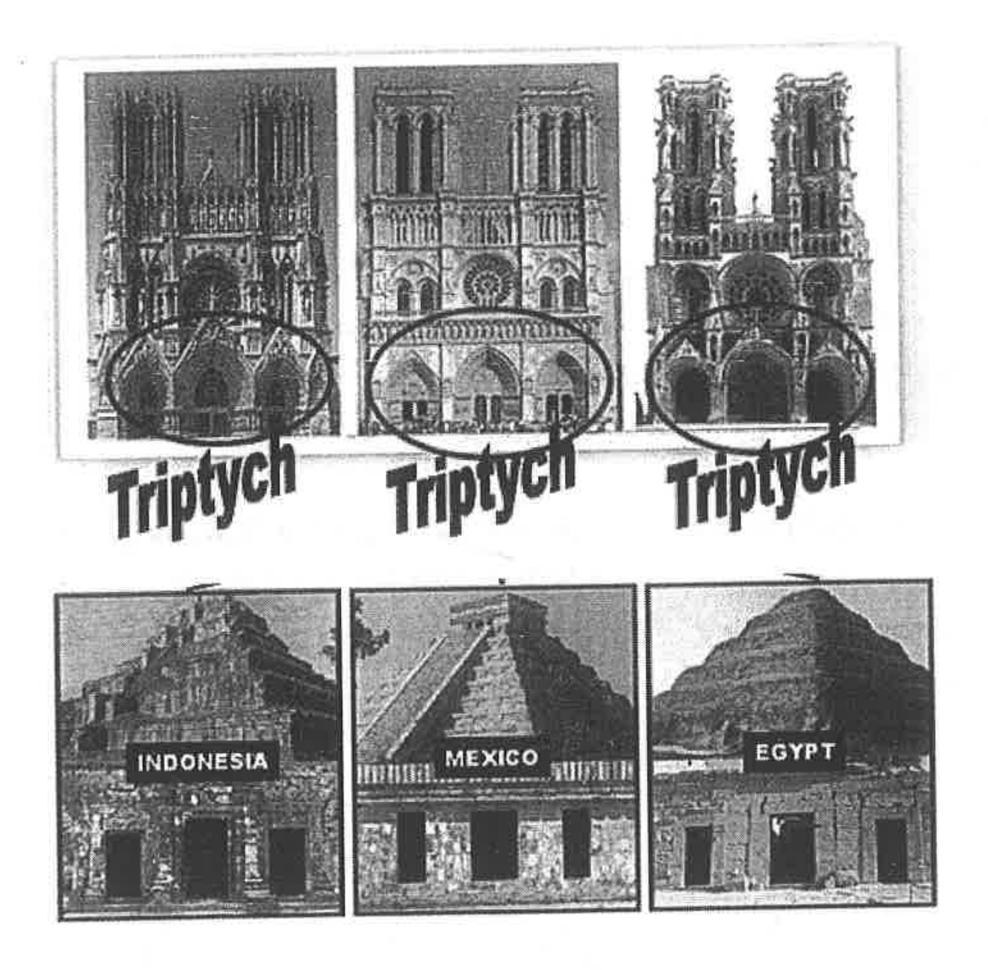
يمثّل المفهوم الثلاثي أو الثالوث أو المثلث أو الرقم ثلاثة جوهر كل الفلسفات والأنظمة الصوفية والدينية حول العالم، لكن ورد ذكره وفق صيغ مختلفة كمجموعة ثلاثية أو وحدة ثلاثية أو ثلاثة في واحد أو غيره من أوصاف تتناول ثنائي يشملهما جوهر مشترك، فمثلاً: العالم الروحي والعالم المادي يمثلان أصلاً قطبين متناقضين لكيان واحد يشملهما وهو العالم عموماً، أو مبدأ الذكر والأنثى يمثّل وجهان مختلفان للشيء ذاته وهو الخلق، وهكذا نرى أزواجاً مختلفة ذات قطبيات متناقضة لكيان واحد يشملهما.



الثالوث هو عبارة عن: [١] كائن، وقطبيه المؤلفان من [٢] عنصر فاعل و[٣] عنصر مفعول.
هذا بالضبط ما يعنيه رمز الـ[ين/يانغ] في التعاليم الطاوية والذي يمثل كيان واحد يسمى "تايجي"

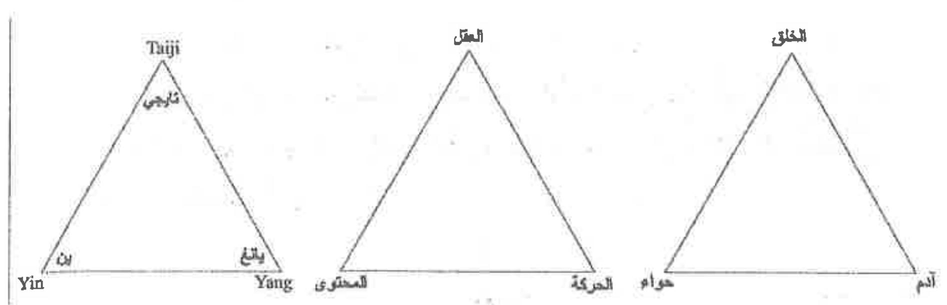


غالباً ما يُصوّر الثالوث هندسياً على شكل مثلث ويقبع على قمته اسم الكائن المراد دراسته ويحتل زاويتيه الدنيويتين العنصرين القطبيين الذين يشملهما، ويُعتبران من مكوناته الأساسية.



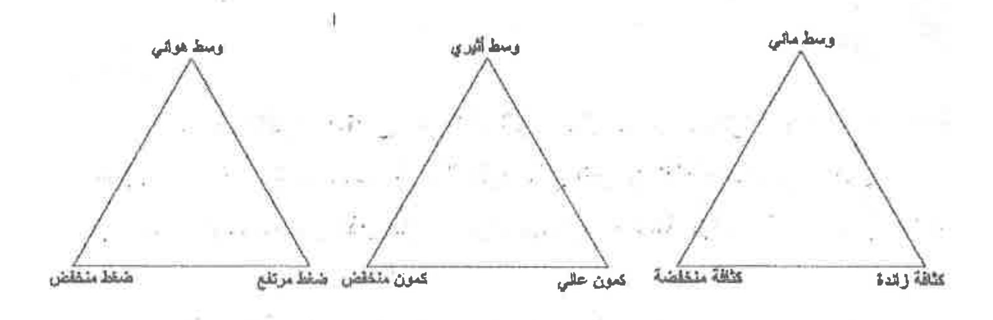
لقد عبّرت الحضارات القديمة عن هذا المبدأ بأكثر من طريقة، أشهرها "الواجهة الثلاثية" Triptych، وهي واجهة مدخل بناء تحتوي على ثلاثة أبواب (رمز الثالوث المقدّس). وقد عبّرت الجمعيات السرية النافذة عن إلمامها بهذا المبدأ الأساسي من خلال واجهات الكاتيدرائيات القوطية التي بنوها في أوروبا.

جميع بوابات ومداخل المدن والقصور في العصر القديم تتألف من ثلاثة أبواب، خصوصاً في العصر الروماني، وكذلك أقواس النصر التي شيدتها دول عديدة حول العالم تمجيداً لانتصاراتها.. جميعها تعبّر عن هذا المبدأ الثلاثي الأساسي. نلاحظ أنه في جميع تلك المداخل أو البوابات الباب الأوسط هو أكبر حجماً من البابين الآخرين.



أمثلة على ثواليث مختلفة وردت في سياق مواضيع وأدبيات متفرقة: المثلث الأول يتألف من ثالوث (الخلق ــ آدم ــ حواء)، والمثلث الثاني يتألف من ثالوث (العقل ــ الحركة ــ المحتوى)، والمثلث الثالث يتألف من ثالوث (تايجي ــ يانغ ــ ين).

نلاحظ من خلال الامثلة السابقة كيف أن كل ثالوث يمثّل ثلاثة عناصر ثابتة: [١] عنصر فاعل، وهو العنصر المتحرّك أو المتوسّع أو الباعث او الناشط او غيرها من سمات تجعله يمثّل المبدأ الذكري. [٢] عنصر منفعل، وهو عنصر هامد أو متقلّص او متلقي أو منطوي وغيرها من سمات تجعله يمثّل المبدأ الأنثوي. [٣] عنصر محايد يشمل العنصرين السابقين ويمثّل صلة وصل بينهما. يمكننا تطبيق هذا المبدأ الثلاثي على أي ظاهرة أو حدث في الطبيعة، كالأمثلة التالية:



المثلث الأوّل على اليمين يمثّل ثالوث يحتوي على العناصر الأساسية التي تخلق ظاهرة التيارات المائية، وهي: [١] وسط مائي، [٢] كثافة زائدة، [٣] كثافة منخفضة. بينما المثلث الثاني يتكون من العناصر الأساسية التي تخلق ظاهرة الجهد الكهربائي، وهي: [١] الوسط الأثيري، [٢] كمون عالي، [٣] كمون منخفض. والمثلث الثالث يتكون من العناصر الأساسية التي تخلق ظاهرة الرياح، وهي: [١] وسط هوائي، [٢] ضغط مرتفع، [٣] ضغط منخفض.

يمكن إيجاد هذه الصيغة من الثالوث في كافة الأديان لأنها تمثّل أساس الفقه اللاهوتي والفلسفي الذي تستند عليه، حتى لو لم يبدو ظاهرياً عند بعض الأديان التي لا تسلّم بهذا المبدأ، كأتباع الدين الإسلامي الحنيف الذين لا يأخذون بفكرة الثالوث لكنه موجود بشكل واضح في أدبياته رغم أنها بصيغة باطنية، كالمثال التالي:

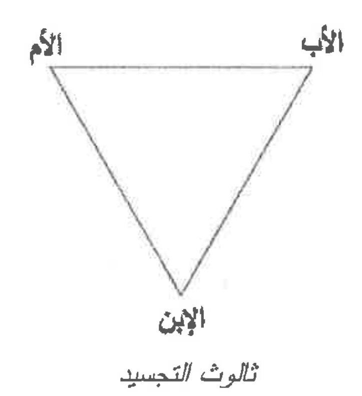


يفسرون الرحمن الرحيم بأن الكلمة الأولى تعني الرحمة بينما الثانية تؤكّد على هذه الرحمة. لكن لا اعتقد بأن هذا المقصود في الكتاب المبين بل شيء آخر يختلف تماماً. كلمة الرحمان تعني المتوسّع، الرحب، الغير محدود وغيرها من معاني تجعلها تمثّل الحركة والنشاط وبالتالي العنصر الفاعل. بينما كلمة الرحيم تعني المستوعب، الحاضن، وغيرها من معاني تجعلها تمثّل احتواء للحركة أو النشاط وبالتالي العنصر المنفعل.

ثالوث آخر

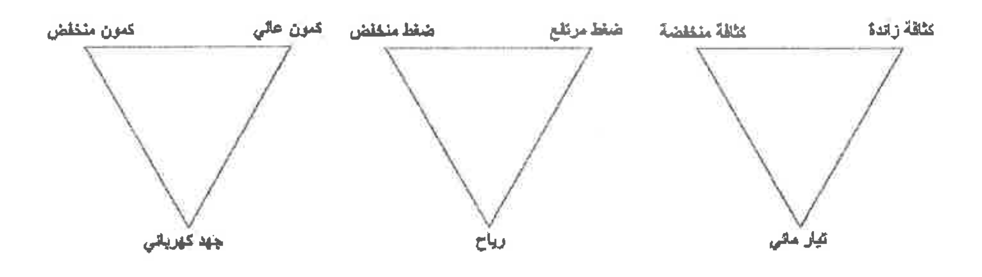
هناك صيغة أخرى للثالوث المقدس وهي تلك التي تجعل العامل المشترك بين الثنائي (الفاعل والمفعول) ليس الكائن الذي يشملهما بل المولود الذي نتج من تفاعلهما. أي ثلاثي الأب والأم والابن. وهو الثالوث المقدس الذي كان معروف في أديان مختلفة حول العالم في عهود سابقة.

يمكن تصور ثالوث الأب الأم والإبن على شكل مثلث مقلوب لتمييزه عن الثالوث الأول، وتجنباً للخلط بين الثالوثين قمت بالتمييز بينهما من خلال الإشارة إليهما باسماء مختلفة: ثالوث التجلي (الموجّه رأسه للأعلى) والذي أسلفت ذكره، وثالوث التجسيد (الموجّه رأسه للأسفل) كالمبيّن في الشكل التالي:



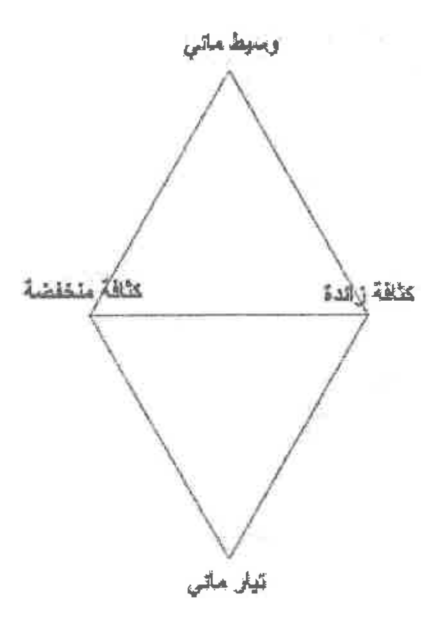
ثالوث التجسيد

من أجل فهم هذه الصيغة من الثالوث يمكننا العودة إلى الظواهر الثلاثة السابقة (التيـــار المـــائي والهوائي والكهربائي) ونسقطها عليها:



تزاوج الكثافة الزائدة (مبدأ ذكري) مع الكثافة المنخفضة (مبدأ أنثوي) في وسط مائي يولد تيـــار مائي (الإبن). تزاوج الضغط المرتفع (مبدأ ذكري) مع الضغط المنخفض (مبدأ أنثوي) في وسط هوائي يولد رياح (الإبن). تزاوج الكمون العالي (مبدأ ذكري) مع الكمون المنخفض (مبدأ أنثوي) في وسط أثيري يولد جهد كهربائي (الإبن).

بعد دمج الصيغتين المختلفتين للثالوث يصبح لدينا أربعة عناصر بدلاً من ثلاثة، أي أن الابن يمثّل تجسيد ناتج من تفاعل عناصر الثالوث الأساسي. إذا أسقطنا هذه الحالة النهائية على ثالوث التيار المائي مثلاً نجده يتخذ الشكل التالي:

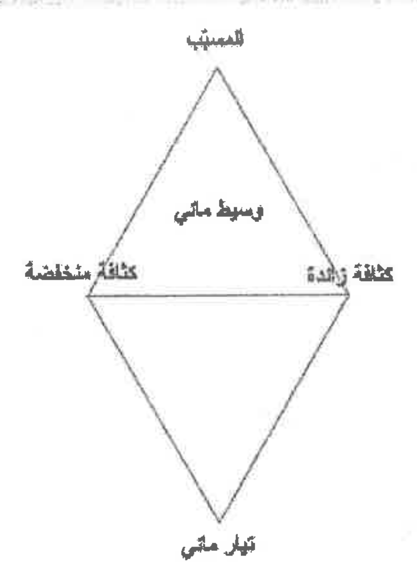


إندماج ثالوث التجلي مع ثالوث التجسيد يشكّل أربع عناصر

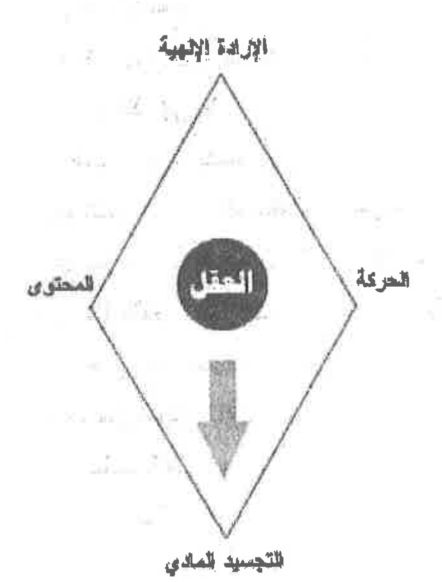
الإشكالية السببية

وفقاً لقانون "العلة والمعلول"، أي ظاهرة تحصل في الكون مهما كان مستواها في سلم التجسيد لا بد من أن لها مسبَّب. وهذا المسبَّب لا بد من أنه يمثل أيضاً ظاهرة قائمة بذاتها قبل أن أنتجت الظاهرة التي تلتها، وهذا المسبب الذي يمثّل ظاهرة قائمة بذاتها لا بد من أنه حصل نتيجة مسبب أيضاً.. وهكذا إلى لا نهاية. نحن نتكلم هنا عن سلسلة سببية طويلة ولانهائية. (أنظر في موضوع "مبدأ السببية" في الفلسفة الهرمزية المذكورة في الجزء السابق). لهذا السبب كان الحكماء القدامى أذكياء للتنبه إلى هذه المسألة، وبالتالي عندما يصفون حدث معيّن أو ظاهرة معيّنة (أي ثالوث قائم بذاته) يجعلونه مؤلف من ثلاثة مكونات ثم يعلوه كلمة "سابق" ويدنوه كلمة "تالي" إذ يمكن أن يكون هذا الثالوث الذي يتحدثون عنه مسبوق بثالوث وسابق لثالوث وبالتالي فإن المصطلحين الذين اختاروهما مناسبان في كل الحالات. لكن إذا كان هناك مربّع تجسيد (كالشكل السابق المؤلف من ثالوثي التجلي والتجسيد معاً) يخصصون الزاوية العليا دائماً لكلمة إرادة إلهية والتي هي المسبّب الأول للسلسلة السببية الطويلة التي تلعب دور المحفّز على إحداث ظاهرة، وبالتالي فإن وجود كلمة إرادة في قمة الثالوث (مهما كان موقع الثالوث في سلم التجسيد) لا يسبب مشكلة

من الناحية الفلسفية. بعد إسقاط هذه الفكرة على المثال السابق المتعلق بظاهرة التيار المائي سوف يبدو على الشكل التالي:

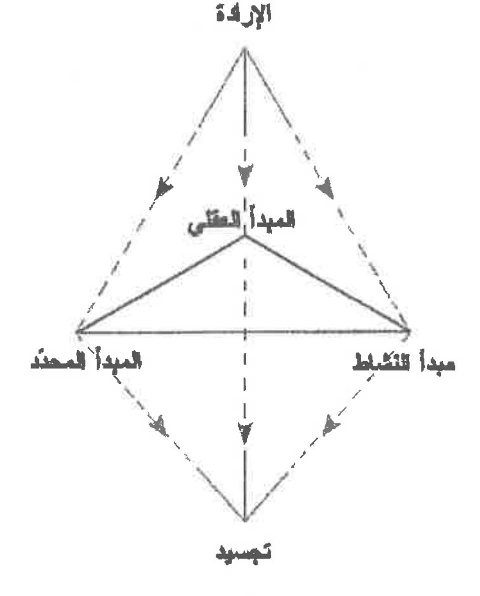


بعد إدخال عنصر المسبب في معادلة تجسيد الظاهرة سوف يصبح لدينا خمسة عناصر ناتجة من جمع ثالوث التجلي مع ثالوث التجسيد.



عندما يتعلق الأمر بعملية التجسيد على مستوى الكون سوف تختلف المسألة حيث سيدخل المسبّب الأوّل لظاهرة الخلق في المعادلة، وهو عنصر الإرادة الإلهية، وبالتالي يصبح لدينا خمسة عناصر ناتجة من جمع ثالوث التجلي مع ثالوث التجسيد. (الشكل المقابل):

أصبح لدينا مخطط عام لأي ظاهرة يمكن أن تحصل في الوجود. يقبع ثالوث المبدأ العقلي، ومبدأ النشاط، والمبدأ المحدّد في الوسط (وهي العناصر الأساسية التي تتألف منها أي ظاهرة)، ويدنو هذا الثالوث عنصر التجسيد الذي ينتج من تفاعل عناصره، بينما الإرادة (المسبب) تقبع في القمة.



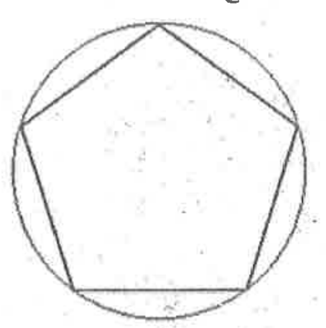
يتم أحياناً استبدال كلمة الإرادة بكلمة [السابق] كإشارة إلى ثالوث سابق ولّد الثالوث الحالي. كما يتم استبدال كلمة تجسيد بكلمة [التالي] كإشارة إلى ثالوث تالي ولّده الثالوث الحالي.

هذا الشكل السابق يمثّل الفكرة الأساسية التي يرمز لها الصليب. حيث يقبع مبدأ العقل في الوسط على شكل دائرة، والأذرع الأربعة تمثّل: الإرادة (في القمة)، ومبدأ النشاط (على اليمين)، والمبدأ المحدّد (على اليسار)، والتجسيد المادي (في الأدنى). حتى أنهم ميّزوا هذا العنصر الأخير عن طريق زيادة طول الذراع الأدنى وذلك لإبعاده عن عناصر الثالوث الأساسية.

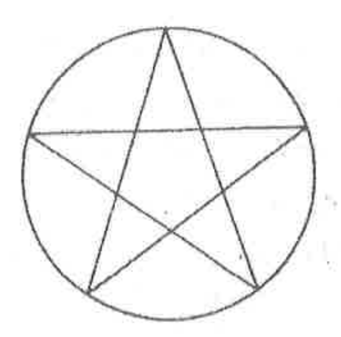


لقد فضّل الفلاسفة القدامى تمثيل عملية التجسيد بالمجسّم الخماسي أو النجمة الخماسية. خاصة فيثاغورث الذي كرّم هذا الشكل الهندسي كثيراً لأنه يمثّل المبادئ الأساسية الخمسة لتجلّي الكون، وزعم بأنه من يفهم هذا المفتاح الخماسي يفهم آلية تجسيد العالم المادي. كما كرّم الرقم خمسة بصفته رقم "الحياة". قال بأنه هناك أربع عناصر أساسية بخصوص التكوين المادي، لكن هذه العناصر الأربعة غير كافية لخلق هذا التكوين المادي حيث يحتاج الأمر إلى خمسة عناصر لتحقيق ذلك. العناصر الأربعة تمثّل التحفة الفنيّة (التمثال مثلاً) لكننا بحاجة إلى خمسة عناصر

لخلق هذه التحفة الفنيّة من حالة العدم وإفعامها بالحياة. لقد تم تقديس هذا الرمز في الكثير من الثقافات عبر العصور. وكان للنجمة الخماسية مكانة جليلة لدى المصريين القدامى أيضاً. أعتقد بأن السبب أصبح واضحاً الآن.

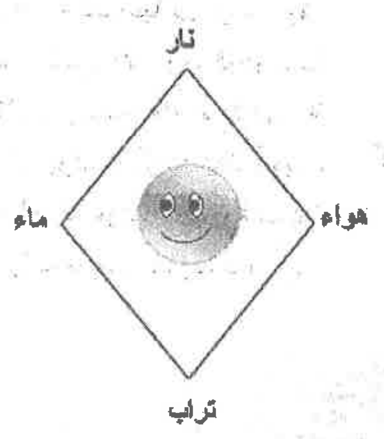


خماسي الأضلاع



النجمة الخماسية

لقد شرحت هذه المسألة في أكثر من مكان في الكتاب، لكن الأمر المهم الذي يتعلق بهذه المعادلة هو أنها تمثّل الأساس الذي انطلق منه مفهوم العناصر الأربعة.

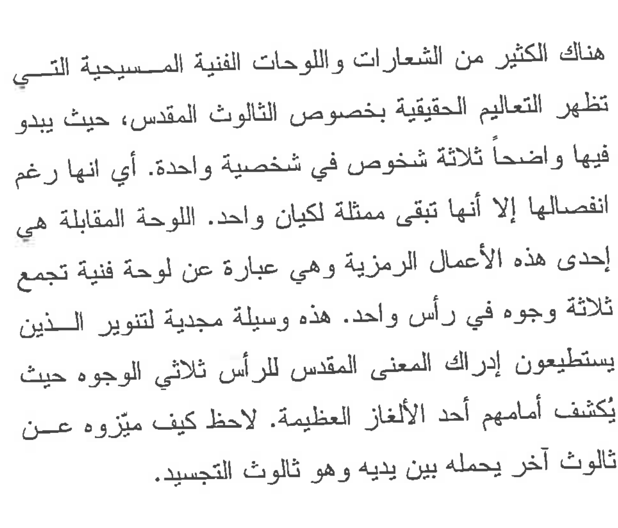


العناصر الأربعة، والمبدأ العقلي (العنصر الخامس) يقبع في الوسط

سوف أتحدث عن موضوع العناصر الأربعة بالتفصيل في الجزء التالي.

الثالوث المقدّس في فنون الثقافات المختلفة

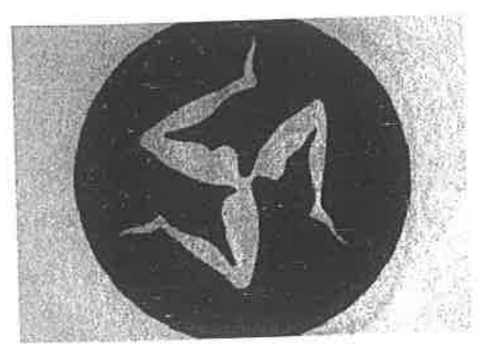




هناك الكثير من الشعارات واللوحات الفنية المسيحية التي تظهر التعاليم الحقيقية بخصوص الثالوث المقدس، حيث يبدو فيها واضحاً ثلاثة شخوص في شخصية واحدة. أي انها رغم انفصالها إلا أنها تبقى ممثلة لكيان واحد. اللوحة المقابلة هي إحدى هذه الأعمال الرمزية وهي عبارة عن لوحة فنية تجمع ثلاثة وجوه في رأس واحد. هذه وسيلة مجدية لتنوير الذين يستطيعون إدراك المعنى المقدس للرأس ثلاثي الوجوه حيث يُكشف أمامهم أحد الألغاز العظيمة. لاحظ كيف ميّزوه عن ثالوث آخر يحمله بين يديه وهو ثالوث التجسيد.



الأمر لا يقتصر على الفنون الدينية المسيحية بل هو مألوف في عقائد وفلسفات عديدة حول العالم، اشهرها الهندوسية التي تحفل فنونها الدينية بالكثير من الشعارات المشابهة، إذ غالباً ما يصورون الإله الأعلى [براهما] بأن له ثلاثة رؤوس أو ثلاثة وجوه أو حتى ثلاثة أجساد احياناً، كالصورة المقابلة التي تمثّل ذات الفكرة المسيحية بخصوص الثالوث المقدس.



التريسكليون Triskelion وهو رمز ثالوثي إغريقي.

٦ـ البيضة الكونية تقبع في موقع متجاوز للزمان والمكان، لكن مجرّد أن حصل حركة عبر المحتوى الكوني ولد الزمان والمكان. في البداية وُلد عامل الزمان وبعدها مباشرة تبعه عامل المكان.

٧ـ مع ولادة عامل الزمان، راحت عملية التكاثف في المركز تتكرّر على الدوام، كما الشريط السينمائي الذي يعيد نفسه باستمرار. هذه الحالة الحاصلة داخل الكرة الكونية خلقت بيئة وشروط مناسبة لنشوء دوامتين متقابلتين ومتعاكستين قطبياً، الأولى علوية والثانية سفلية، تلتقي نهايتهما عند الكتلة المتكاثفة في المركز.

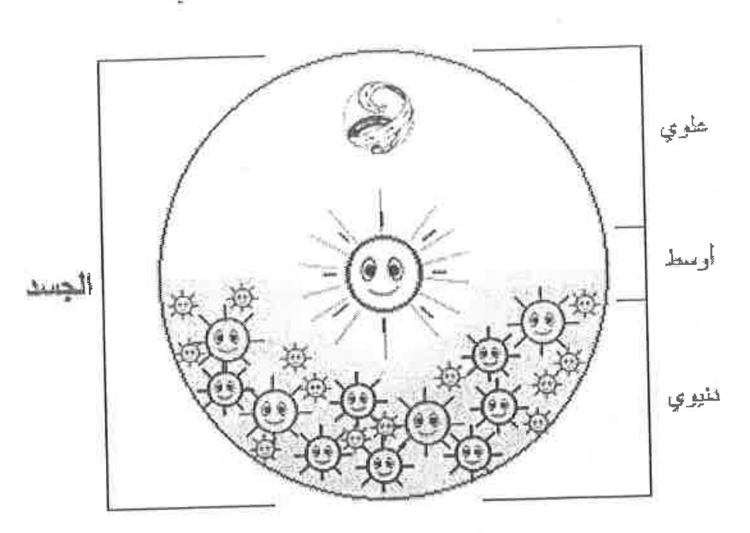
٨ـ التأثير المتناوب للدوامتين المتعاكستين على النقطة المتكاثفة في المركز أدى إلى خلق حالة نبض. هذه النقطة النابضة أصبحت الشمس المركزية. الإبن المقدس.

٩ـ مع ولادة عامل المكان، والتحاقه بعامل الزمان، اجتمع العاملين معاً فنشأ ما نسميه <u>الزمكان</u>. وبالتالي، بالإضافة إلى التكرار المستمر لعملية التكاثف في المركز (بسبب ولادة عامل الزمن)، راحت هذه العملية تتكرر باستمرار في كل مكان وكل زمان، وبكل الأحجام وعلى كافة المستويات الوجودية.

١٠ـ بسبب الطبيعة التراكبية للوجود (أي الهولوغرافية) حيث الكل متطابق مع الجزء والجزء متطابق مع الكل، أصبح بإمكاننا مشاهدة كافة الإحداثيات التي حصلت خلال عملية الخلق الأولى تتجلّى في كل مكان وزمان، كالحركة اللولبية مثلاً والتي نلاحظ وجودها بصيغ مختلفة في كل مكان في الطبيعة من حولنا وعلى كافة المستويات، من مستوى المجرّة إلى مستوى الذرّة. والأمر ذاته ينطبق على كافة المبادئ الأخرى التي نشأت خلال عملية الخلق (التكاثف في المركز).

١١ـ لكن هذه الطبيعة التراكبية لا يقتصر تجليها عند هذا الحد بل هناك المزيد. كل كائن فردي مكوّن من نفس العناصر الذي يتكون منه الكون، بالإضافة إلى أنه مؤلف من نفس التقسيمات والمستويات الوجودية. أهم هذه التقسيمات والمستويات هي ذات صيغة ثلاثية.

١٢ـ فيما يلي تعريفات وأوصاف نهائية تم استنتاجها من كل ما تعرفنا عليه في هـذا الكتـاب بخصوص عناصر الثالوث. يتألف الكون (العالم الأكبر) أو أي كائن فردي (العالم الأصغر) مـن ثلاثة أقسام رئيسية تمثّل المكونات الأساسية لكيانه المتجسّد مادياً، وهي:



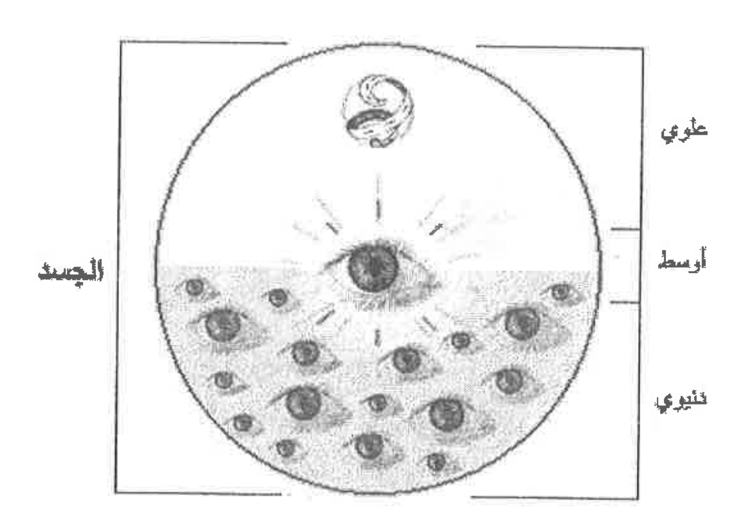
[١] القسم العلوي: هو القسم المتجاوز للزمان والمكان، وبالتالي كل ما يحصل في هذا المستوى الوجودي يمثّل نمط أوّلي أو مبدأ عام قابل لأن يحصل في كل زمان وكل مكان. في هذا القسم تم تحفيز المحتوى العقلي لينتفض ناشطاً. هو القسم العلوي في البيضة الكونية (الممثلة لكـل كـائن فرداني في الكون). بما أنه متجاوز للزمكان فهذا يجعله ممثلاً للواحد أحد (غير متعدد) والخالـد السرمدي (ليس له نهاية ولا بداية).

[٢] القسم الأوسط: هو القسم المحكوم بعامل الزمن، بالتالي هو يمثّل كل ما يتكرر على الـدوام. هو الشمس المركزية النابضة. هو القسم النشط والمتحرّك. هو الوعي الذي نـشأ بعـد حركـة المحتوى العقلي. هو الذات في كل كائن حيّ. هو الابن في الثالوث المقدس. العين القابعـة فـي مركز الدائرة والتي ترمز إلى الصحوة والإحياء والحيوية المستدامة.

[٣] القسم الدنيوي: هو المحتوى الذي عطّل حركة العقل. هو تكـاثف المحتـوى. هـو القـسم المحكوم بعامل الزمان والمكان، وبالتالي هو القسم الولاد الذي تتكرر فيه عملية الخلق فـي كـل زمان ومكان، أي فيه تحصل عملية التكاثر والنمو والتعدد والتنوع. هذا القسم هو مـسؤول عـن

زيادة الكتلة والحجم أو انقاصهما. هو الذي يحدّد الهيئة الخارجية للجسد، أو يؤطّر التفاعل الحاصل بين مكونات الأشياء.

كما ذكرت سابقاً، كل كائن حي أو جامد في الكون يتألف من هذه المكونات الثلاثة، ولهذا السبب رمزوا إلى المادة الملموسة بدائرة تحتوي بداخلها على ثلاثة دوائر تمثّل هذه المكونات.



هذه صيغة أخرى للتقسيم الثلاثي للكائن. إذا تصورنا بأن العيون المتعددة (المتوالدة ذاتياً) في القسم الدنيوي بأنها خلايا أو ذرات فسوف تتوضح الصورة جيداً لدينا. القسم الدنيوي مسؤول عن الكتلة الجسمية لأن فيه يحصل التوالد. والنمو والتكاثر وبالتالي زيادة الكتلة والحجم.

فيما يلي بعض التطبيقات المتنوعة لمبدأ الثالوث في العلوم والمفاهيم المختلفة التي سادت العالم القديم. هذا يجعلنا نكوّن صورة عن طريقة تفكير القدماء في الماضي، وكيف توصلوا إلى إنجازاتهم العلمية والفلسفية والروحية العظيمة.

مفهوم القوى الثلاثة

كل شيء في الوجود، كل التجسيدات والتجليات، كافة الطاقات والقوى والظواهر والسلوكيات، إن كانت على المستوى الكوني أو المستوى البشري، إن كانت على المستوى الظاهري أو الباطني، تتألف جميعاً من ثلاثة مكونات أو ثلاثة قوى متأصلة في طبيعة الكون. يُشار إلى هذه القوى الثلاثة بأسماء مختلفة لكن الأنسب هي: [١] القوة الفاعلة و[٢] القوة المنفعلة و[٣] القوة الحيادية.

وجب العلم بأنها لا تختلف عن بعضها من ناحية الفعالية، أي أن القوة المنفعلة مثلاً هي نشيطة بنفس مستوى القوة الفاعلة إذ أنها تمثّل قوة بحد ذاتها لكن تختلف صيغة فعاليتها عن صيغة القوة الفاعلة، وهذا الاختلاف في صيغة نشاط القوى الثلاثة هو الذي سبب كل التنوع في تجسيد الأشياء المختلفة الموجودة في العالم.

هذه القوى الثلاثة هي ذاتها المبادئ الثلاثة المتمثلة بـ: [١] مبدأ العقل، [٢] مبدأ النشاط، و[٣] مبدأ المحتوى، ويمكن أن نراها متجلية بطريقة مجرّدة في كل مكان وكل شيء وفي أي حال من الأحوال وبطرق مختلفة. أحد تجليات هذا الثالوث هو ثالوث: [١] الوعي، [٢] الجهد [٣] الإطار، حيث يتم تناوله دائماً في الأدبيات التجاوزية. الجهد يمثّل القوة الفاعلة، والإطار يمثّل القوة المنفعلة التي تستوعب الجهد، والوعي يمثّل القوة الحيادية. في الموضوع التالي سوف أستخدم هذا الثالوث الأخير لتوضيح فكرة القوى الثلاثة.

في جوهر نظرة الفلسفة السريّة للكون، يوجد ثلاثة مبادئ أساسية تمثّل نقطة انطلاق طبيعية لفهم أسرار الوجود. هذه المبادئ الثلاثة هي: [١] الوعي، [٢] الجهد [٣] الإطار، وفيما يلي بعض الأمثلة المختلفة لتوضيح الفكرة:

ـ البخار المضغوط في اسطوانة الآلة البخارية يمثّل [جهداً]، لكن الآلة تمثّل [الإطار] الذي يقيّد ذلك الجهد ويجعله يجري بطريقة محددة.

ـ يجري النهر نزولاً من قمة الجبل بفعل الجاذبية (جهد)، لكن حوض النهر يمثّل [الإطار] الذي يقيّد مياه النهر ويجعلها تجري ضمن مسار محدد.

ــ أحدهم يريد أن ينتقل من مكان إلى آخر في المدينة، لكنه لا يستطيع السير نحو هدفه مباشرةً وفق خط مستقيم، فالأبنية والأسوار والشوارع تمثّل [الإطار] الذي يقيّد [مجهود] هذا الشخص ضمن مسار محدّد ويمنعه من السير كما يرغب إلى المكان المنشود.

ــ المحرّك يوفّر [الجهد] الذي يدفع القارب إلى الأمام، لكن الدفّة تقيّد مسيرته ضمن اتجاه معيّن (تضع إطار محدّد لحركته).

ــ السياسي يرغب في تغيير بعض القوانين في البلاد، لكن البنية التشريعية للبلاد تمثّل [الإطار] الذي وجب السير ضمنه لتحقيق هذا [المجهود] نحو التغيير.

ــ الماء يقبع داخل الوعاء، وقوة الجاذبية (جهد) تدفع الماء للأسفل، لكن الوعاء يمثّل [الإطار] الذي يمنع ذلك، بالإضافة إلى فرض شكله على الماء.

ــ الحجر يقع على الأرض بفعل قوة الجاذبية (جهد)، لكن تسارع هذا الحجر خلال سقوطه هو مقيّد بقانون يسوّيه مع القوة مقسومة على كتلة الحجر (هذا القانون الذي يحكم طريقة سقوط الحجر يمثّل [الإطار] الذي يحدّد طريقة السقوط).

ــ أنا أرغب في الفوز بلعبة الشطرنج، لكن رغبتي (جهد) بالفوز هي مقيّدة بقوانين لعبة الشطرنج (إطار).

ــ المادة المتفجّرة تتفجّر داخل سبطانة البندقية فتنتج قوة دفع كبيرة للرصاصة (جهد)، لكن كل من الرصاصة والغاز الناتج من التفجير مقيّدان [بإطار] السبطانة.

ــ أرى شيئاً يعجبني في واجهة محل تجاري وأرغب بالحصول عليه، لكنني مقيّد بشروط البيع (هل لدي المال الكافي، أو هل هناك تنزيلات بالأسعار..). مجهودي نحو تحقيق رغبتي مقيّد بإطار شروط البيع التي تحدّد طريقة تحقيق رغبتي.

ـ أريد أن أحصل على جواز سفر، لكن الحكومة لن تمنحني واحداً قبل أن أملأ الكثير من الاستمارات وبالطريقة الصحيحة. [مجهودي] نحو الحصول على جواز سفر مقيّد [بإطار] الروتين البيروقراطي.

ـ أريد الحصول على شهادة جامعية، لكن إدارة الجامعة لن تمنحني إياها إلا إذا التزمت بحضور المحاضرات ونجحت في الفحوصات المقرّرة. إرادتي الموجّهة نحو الحصول على شهادة مقيّدة بالإطار القانوني للجامعة.

في كافة هذه الأمثلة السابقة نلاحظ وجود شيء يدفع نحو إحداث تغيير (جهد) وشيء آخر يجعل هذا التغيير أن يحصل بطريقة محدّدة (إطار). ومن خلال الأمثلة السابقة يمكن ملاحظة نوعين من الحالات (رغم وجود أنواع كثيرة منها عموماً):

١ـ حالات متجلية في مجريات فيزيائية طبيعية (مثل الحجر الساقط على الأرض) حيث يمثّل فيها [الجهد] إحدى قوى الطبيعة المعروفة فيزيائياً (الجاذبية)، بينما [الإطار] يمثّل مجموعة من القوانين الفيزيائية التي تقيّد هذا [الجهد] وتجعله يتصرّف بطريقة محدّدة.

٢ـ حالات متجلية في تصرفات البشر، حيث رأينا أمثلة على أشخاص يريدون أشياء، و[الجهد] هنا يمثّل الرغبة أو الإرادة أو الدافع، بينما [الإطار] يمثّل القيود التي تحدّد هذه النزعات (مثل قواعد لعبة الشطرنج، أو القوانين، أو آداب التصرّف، أو شروط البيع .. إلى آخره).

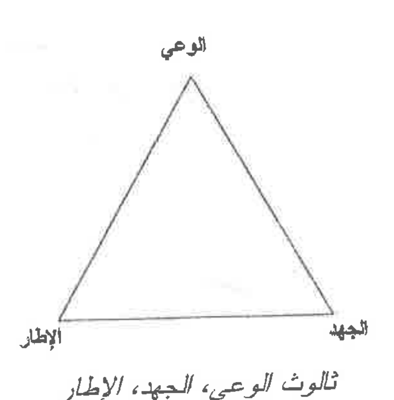
بالرغم من أن الحالتين المختلفتين السابقتين متشابهتين مجازياً فحسب، لكن الفلاسفة التجاوزيين لا يرون أي اختلاف بينهما. بالنسبة للفيلسوف التجاوزي، هناك جهود تحدث تغييرات في عالم الطبيعة، وهناك أيضاً جهود نفسية مشابهة تدفعنا إلى تغيير العالم وتغيير أنفسنا. ومهما كانت هذه الجهود، طبيعية أو نفسية، فهي متجذّرة في نفس المكان: <<< الوعي >>>. وبشكل مماثل، هناك أطر يبدو أن الأجزاء المكوّنة للعالم المادي تمتثل لها (أي قوانين الطبيعة)، وهناك أيضاً أطر اعتباطية تماماً نخلقها نحن خلال عيش حياتنا اليومية (أي قوانين الألعاب، أشكال الكؤوس، تصاميم المحركات، إعراب اللغة..) وكافة هذه الأطر متأصّلة أيضاً في نفس المكان: <<<الوعي>>>.

إحدى الحِكم الأساسية للفلسفة التجاوزية تقول بأنه هناك "سبب أول" يقف وراء، ويعــزّز، كافــة التجليات المختلفة لثنائي "الجهد" و"الإطار" في العالمين الطبيعي والنفسي، وقد أطلق الفلاسفة عبر العصور على هذا "السبب الأول" أسماء كثيرة مثل "الإرادة"، الــدافع الأول"، "المحــرّك الأول".. وغيرها، كلّ حسب مدرسته ومذهبه الفلسفي، لكن لا يمكن فهم المعنى الحقيقــي لهــذه الأســماء الظاهرية قبل استيعاب الفكرة الجوهرية التي تمثلها وتوحّدها جميعاً ضمن معنى باطني واحد.

في الحقيقة، إذا أردنا تعريف "الوعي" فسوف نعجز عن ذلك. إنه عصيّ عن التعريف. نحن نعلم بأننا واعين بطرق مختلفة وبأوقات مختلفة، حيث نشعر أحياناً بأننا أحرار وسعداء بينما نشعر في أحيان أخرى بأننا محبوسون ومربكون، ونشعر أحياناً بالغضب والانفعال بينمــا أحيــان أخــرى نشعر بالبرودة والتقييد، لكن كافة هذه الكلمات تمثّل أوصاف للتجليــات المختلفــة لمــا يُــسمى "الوعي". نستطيع إذاً تعريف التجليات المختلفة للوعي ووفق مصطلحات تتعلق بتجليات الــوعي، أي كأننا نوصف البحر من خلال استخدام مصطلحات تتعلق بالأمواج والرغوة وغيرها من أشياء ظاهرة على سطحه وليس لها علاقة بما يكمن في أعماقه. إن أي شخص يــسعى إلــى تعريــف "الوعي" بذاته سوف يخرج من نفس الباب الذي دخل منه دون أن يتوصل إلى نتيجة. لدينا الكثير من الكلمات المتعلقة بظواهر "الوعي"، مثل: التفكير، الشعور، الاعتقاد، الرغبة، العاطفة، الدافع، وهكذا إلى آخره، لكن لا نملك سوى القليل من الكلمات المتعلقة بحالات "الوعي" التي تؤدي إلــى بروز هذه الظواهر أصلاً. هذا الأمر يشبه تماماً حوزتنا على كلمات كثيرة لوصف سطح البحــر بينما الكلمات التي توصف أعماقه هي قليلة جداً.

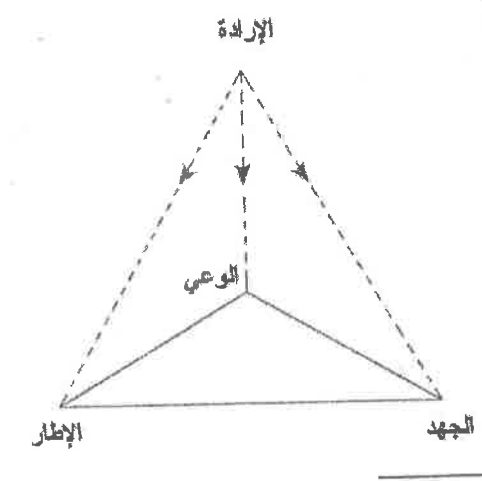
توفّر الفلسفة التجاوزية عدد كبير من المفردات للإشارة إلى حالات "الوعي" الكامنة وراء ظواهر "الوعي". لكن الطريقة الوحيدة لفهم معاني هذه المفردات هي عبر اختبار أو إحراز حالات "وعي" مختلفة وبطريقة موضوعية ومدروسة، وطبعاً التعاليم السرية توفّر الكثير من الوســائل العمليــة لتحقيق ذلك. الحجّة الأساسية التي تسلّم بها الفلسفة التجاوزية خلال نظرتها للواقع هي وجود حالة أوّلية ونقية (يتعذّر وصفها) من "الوعي"، والتي تتجلّى على شكل تفاعل متبــادل بــين "الجهــد" (حركة، نشاط) و"الإطار" (شكل، صيغة، قيود..). هذا يمثّل جوهر نظرة الفلسفة التجاوزية تجــاه الأشياء، وكل ما تشاهدونه أو تختبرونه في الحياة يستند أساساً على هذا الثــالوث المؤلــف مــن [الوعي، الجهد، والإطار].

كما رأينا سابقاً، "الوعي" يأتي أولاً، لكن يخفي في طياته ثنائية فطرية، أو قطبين متناقضين لكنهما متفاعلان على الدوام. هناك نوع من القوة المرتبطة بهذا الوعي والتي تسبب التغيير (جهد)، كما أن هذا الوعي يحوز على استطاعة كامنة تجعله قادراً على استيعاب أو كبح أو قولبة تلك القوة فتجعلها تتجلى بطريقة محددة وواضحة المعالم (إطار).



ثالوث الوعي، الجهد، الإطار

ليس هناك جهد دون إطار ولا إطار دون جهد. لا نستطيع الفصل بين هذا الثنائي أبداً. بالإضافة إلى أنهما يمثلان قطبين متناقضين للشيء ذاته: <<< الوعي>>>. والذي يقرّر سلوك أو حالة هذا الأخير هو وجود <<< إرادة عُليا>>>، وبالتالي يُعرّف الحكماء الأوائل هذا العالم المادي بأنه تجلّي "وعي" يُعبّر عن "إرادة عليا" من خلال توازن غير مستقرّ (لكنه متصاعد) بين الجهد والإطار. ويُعبرون عن هذه الحالة بالشكل التالي:



العناصر المكوّنة للعالم المادي، تُصوّر على شكل هرم قاعدته تمثّل ثالوث الوعي، الجهد، الإطار، وقمته تمثّل الإرادة

القوى الثلاثة في حياتنا اليومية

ذكرت سابقاً أن القوى الثلاثة هي عبارة عن عنصر فاعل (جهد) وعنصر منفعل (إطار) وعنصر حيادي (وعي)، وهي تتفاعل معاً وفق صيغ مختلفة وفي كل من هذه الصيغ تكون الغلبة لأحد هذه العناصر. أي القوة التي تكون نشطة الآن قد تكون خاملة أو حيادية في وقت آخر وذلك حسب نوع التركيبة الثلاثية التي تحكم عليها. عندما تجتمع هذه القوى الثلاثة تحدث الأشياء، لكن إن لم تجتمع سوية سوف لن يحصل شيئاً.

في الحالة الطبيعية نظن بأنه لا يوجد سوى قوتين فقط، أي الفعل والمقاومة، أو السالب والموجب، أو الين واليانغ، وهكذا. لكن في المستوى الحالي من الوعي الذي نتمتع به لا نستطيع إدراك حقيقة وجود ثلاثة قوى في كل ظاهرة أو كل حدث أو غيرها حيث فقط حضور الثلاثة معاً تتمّ الظاهرة أو الحدث، بينما قوتين فقط لا تستطيعان إحداث شيئاً، حيث سوف تدوران وتدوران حول بعضهما البعض دون حصول شيء. الأمر يتطلب وقت طويل قبل اعتيادنا على رؤية ثلاثة قوى في الأشياء. لسبب ما، نحن معميين عن رؤية القوة الثالثة، رغم أننا نراها بوضوح في التفاعلات الكيماوية وبعض الظواهر البيولوجية. حتى لو أننا على يقين بوجوب حضور القوى الثلاث لإتمام أي حدث أو ظاهرة إلا أننا ننسى مع الوقت هذه الحقيقة لأننا لم نألفها في حياتنا اليومية. حتى أننا أحياناً لا نرى قوتين في ظاهرة معيّنة ونتوقع من قوة واحدة فقط أن تفي بالغرض. نادراً ما نحسب حساب للقوة الثانية (المقاومة) فما بالك بالقوة الثالثة التي لا نفطن بوجودها أصلاً. لكن وجب العلم بأنه خلال حساب أي سلوك أو ظاهرة أو حدث علينا الأخذ بعين الاعتبار القوى الثلاثة مجتمعة، هذا إذا أردنا الخروج بنتيجة مجدية. خلف كل الأشياء تكمن قوانين كونية، وأنت لا تستطيع فهم لماذا تحصل الأشياء بطريقة أو بأخرى إلا إذا كان لديك فكرة معيّنة عن تلك القوانين.

المنهج العلمي السائد لا يميّز سوى وجود قوتين فقط ويسلّم بضرورة توفرها لإحداث ظاهرة، فيتحدث مثلاً عن القوة والمقاومة وعن الكهرباء الموجبة والسالبة وعن الجذب والنفر المغناطيسي، وعن الخلايا الذكرية والأنثوية وهكذا إلى آخره.. حتى أن هذا العلم المنهجي لا يرى قوتين في بعض الأحيان بل يكتفي بتمييز قوة واحدة. لم يُطرح أي تساؤل حتى الآن بخصوص القوة الثالثة، وحتى لو طُرح هكذا موضوع فلم يجد آذان صاغية. وفقاً للعلم التجاوزي

الذي هو علم حقيقي ودقيق، لا يمكن لقوة أو قوتين ان تحـدثان أي ظـاهرة مـن أي نـوع. إن حضور قوة ثالثة ضروري، حيث بمساعدتها فقط تتمكن القوتين الآخرتين من إحداث ظاهرة.

التعاليم المتعلقة بهذه القوى الثلاثة تمثّل أساس كافة الأنظمة الفلسفية القديمة. لكن الأمـر الـذي جعلنا نعجز عن فهمها هو أن القوة الثالثة ليست سهلة الاستيعاب بالنسبة لنا. السبب هو محدودية الإدراك البشري وكذلك محدودية وظائفه العقلية والنفسية عندما يكون في حالة الوعي العادية. أي أنه في هذه الحالة العادية للوعي سوف يكون إدراكه للقوة الثالثة مستحيلاً كما استحالة قدرته على إدراك البُعد الرابع. لكن من خلال استكشاف نفسه عبر خوض تجارب حياتية معيّنـة يمكنـه أن يتعلم كيف يرى القوى الثلاثة تتجلى بداخله ومن خلاله.

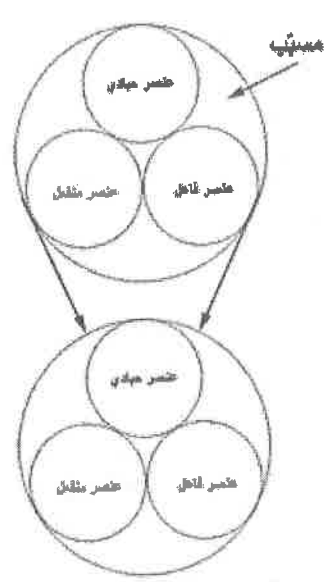
دعونا نفترض بأن الفرد يرغب في العمل على نفسه في سبيل إحـداث تغييـرات فـي بعـض خصائص شخصيته بهدف إحراز درجة معيّنة من الارتقاء الروحي. رغبته في التغيير تمثّل القوة الفاعلة. أما القوة المنفعلة (أي القوة الكابحة) فتمثّل حالته النفسية غير المناسـبة بالإضـافة إلـى بعض العادات التي تعيق سبيله. عندما يحصل تفاعل بين هاتين القوتين إما أنهمـا تتعـادلان أو إحداهما تتغلّب على الأخرى، لكن بنفس الوقت سوف تصبح هذه القوة المنتصرة ضـعيفة جـداً لإكمال نشاطها. بالتالي سوف تبقى القوتان في حالة دوران حول بعضهما دون إحداث أي نتيجة. ربما تبقى الحال كذلك لمدة عام أو أكثر، أو حتى العمر كله. قد يشعر الفرد برغبة أو دافع معيّن، لكن هذه الرغبة سوف تتلاشي خلال المراحل الأولى من مواجهة المقاومة التـي تبـديها القـوة الكابحة (الممثلة بعاداته والظروف المعيقة لتحقيق رغبته) وبالتالي لم يعد هناك طاقة كافية لتعزيز القوة الفاعلة في توجهها نحو تحقيق الهدف. يبقى الأمر كذلك حتى تظهر أخيراً القـوة الثالثـة، ويمكن أن يكون ظهورها على شكل علم جديد يطلع عليه الفرد فيشجعه على إكمال مسيرته نحو تطوير نفسه. هذه الحالة الجديدة تعمل لصالح القوة الفاعلة فتعززها وتمنحها دفعة جديـدة إلـى الأمام، فتستطيع بعدها أن تتغلّب على القوة الكابحة فيتابع الفرد مسيرته نحـو تحقيـق الهـدف بسهولة ويُسر دون عقبات من أي نوع.

يمكن استكشاف سلوكيات القوى الثلاثة وفترات تدخّل القوة الثالة فـي كافـة تجـسيدات حياتنـا النفسية، وكذلك في كافة الظواهر المتعلقة بحياة المجتمعات البشرية والإنسانية ككل، وبالإضـافة إلى كل الطبيعة من حولنا. لكن يكفي في البداية فهم المبدأ العام: كل ظاهرة في الوجـود، مهمـا

كان حجمها أو مستواها التجسيدي، مؤلفة من ثلاثة قوى. لا تستطيع قوة أو اثنين خلق ظاهرة، وعندما نلاحظ حصول توقف في مجرى حدث ما علينا الاستنتاج مباشرة بأنه في تلك النقطة بالذات هناك غياب للقوة الثالثة. وجب علينا أيضاً تذكّر أن الناس لا يرون الظاهرة بأنها مكونة من ثلاثة قوى والسبب هو أن الإنسان العادي لا يستطيع إدراك العالم التجاوزي وهو في حالة الوعي العادية. ففي هذه الحالة الدنيوية من الوعي لا يمكن إدراك سوى قوتين فقط. إذا كنا نستطيع رؤية القوى الثلاثة في كل الظواهر من حولنا فهذا يعني أننا نستطيع رؤية العالم على حقيقته وهذا مستحيل حيث ما نراه هو الجانب الظاهر من العالم بينما الجانب الباطن يبقى متجاوزاً لإدراكنا ولهذا السبب نسميه العالم التجاوزي.

القوة الثالثة هي ذاتها المكوّن المحايد في الثالوث، وهذا المكون الثالث مرتبط بثالوث سابق له، لكن هذا الثالوث السابق يقبع في موقع متجاوز لإدراكنا العادي ولهذا السبب لا نشعر بوجود قوة ثالثة أصلاً، مع أنه في الحقيقة هذا العنصر المحايد هو العنصر المهيمن على العنصرين الآخرين وهذا ما سوف نتعرف عليه لاحقاً مع تقدمنا في تسلسل المواضيع.

كل ظاهرة أو حدث أو حالة تتألف من ثلاثة مكونات، ما نسميه العنصر الحيادي هو الذي يقرّر كيف تجري العلاقة بين العنصر فاعل والمفعول، وبالتالي تقرر المظهر النهائي للظاهرة، أي العنصر الحيادي هو المهيمن على العنصرين الآخرين. وهذه الهيمنة تعود إلى اتصال العنصر المحايد بمسبب أعلى منه في سلّم التجلّي (كما في الشكل التالي)، هذا ما يفرضه قانون السببية.



ظاهرة أو حدث أو حالة معيّنة

قد يكون هذا المسبب السابق ثالوث قائم بذاته. أي مؤلف من عنصر فاعل وعنصر مفعول وعنصر حيادي، وهذا العنصر الأخير موصول بمسبب أعلى منه أيضاً،... وهكذا إلى لا نهاية. هذا ما يفرضه قانون السببية.

وجب العلم أيضاً أن الظاهرة التي تبدو بأنها بسيطة قد تكون في الحقيقة معقّدة جداً، أي قد تتألف من تركيبة معقّدة من الثواليث المختلفة (سلسلة طويلة من السببية). لكننا نعلم بأننـــا لا نـــستطيع رؤية العالم كما هو على حقيقته وهذا يجعلنا نفهم السبب وراء عجزنا عن إدراك القوة الثالثة. هذه القوة تنتمي للعالم الحقيقي، بينما عالمنا الحالي هو مجرّد نصف حقيقة أو دعونـــا نعتبـــره غيـــر كامل.

القوى الثلاثة وعلم الخيمياء

علم الخيميا هو تقليد فلسفي عريق له تأثير نافذ على النفوس، حيث زعم ممارسوه الأوائل قدرتهم على تحقيق الكثير من المعجزات الكيماوية والروحية معاً. يمكن وصف هذا العلم بأنه فن سحري محجوب وراء رموز كيماوية. ربما لم يحتاج الخيميائيون القدامى إلى حجب علمهم الجليل خلف الرموز لأن المنطق العام في أيامهم كان يسلّم بواقعية إنجازاته العظيمة وبالتالي كانت مألوفة جيداً. يسعى علم الخيمياء إلى تحقيق الوحدة النهائية الكامنة وراء التعدد. لذلك من بين أهدافه الرئيسية هو صناعة المادة المتجانسة الأولى التي اشتُقت منها كل العناصر. زعم الخيميائيون بأنه يمكن الحصول على الذهب النقي من معادن رخيصة وذلك عبر تطهيرها من الشوائب ومن ثم إدخالها في تكوين السبيكة التي يُصنع منها هذا المعدن الثمين. اهتم الخيميائيون أيضاً بأكسير الحياة الذي يشفي من كل العلل والأمراض. لكن هناك جانب آخر لهذا العلم السحري وهو الجانب الروحي. بالإضافة إلى إجراءاته الكيماوية التي تؤدي إلى نتائج مادية نجد أن هناك إجراءات نفسية تؤدي إلى نتائج روحية. يمكن اعتبار المعادن الرخيصة بأنها رغبات وعواطف دنيوية والذهب الخالص يُعتبر الحكمة السامية التي هي من ملاك أعلى مستويات العقل. لهذا يمكن النظر إلى الأدبيات الخيميائية بأنها ثنائية الجانب.

الذي يهمنا في الموضوع هو أن المنطق الخيميائي سلّم بفكرة التركيبة الثلاثية للأشياء. يقول بأن كافة المواد في الكون، مهما كان مستواها العقلي أو كثافتها المادية، تتألف من ثلاثة أساسيات جوهرية. وبواسطة المعرفة الصحيحة بهذا الفن يستطيع الفرد اختراق لبّ الموضوع المعني وإظهار هذه الأساسيات بصيغتها المرئية والملموسة.

من بين الأسماء المستخدمة للإشارة إلى هذه الأساسيات هي: الجسد، النفس، والروح. أو الملح، الكبريت، والزئبق. طبعاً وبكل تأكيد، لا يمكننا أخذ هذا الثالوث الأخير على محمل الجدّ ونظن بأن حجر الكبريت ومعدن الزئبق وملح الطعام تمثّل أحجار البناء الأساسية للحياة في الكون، بل وجب التعمّق أكثر في المعاني الباطنية التي ترمز إليها وبعدها نكشف السرّ المحجوب. من خلال تفحّص الأوصاف الظاهرية وكذلك تلك التي وردت في الحكايا الرمزية والرموز التي مثلتها في الأدبيات الخيميائية وحينها نستطيع تكوين فكرة واضحة عن معناها الحقيقي.

لقد كُتب الكثير عن هذه الأساسيات الخيميائية الثلاثة، لكن رغم ذلك لازال يكسوها غمامة سميكة من الغموض، وهذه الحالة الغامضة ليست حديثة بل كانت سائدة منذ عصور غابرة. السبب الرئيسي وراء هذه الحالة المربكة هو سوء تفسير الرموز التي طالما مثلت ألغازاً محيّرة بالنسبة لكل من دخل هذا المجال. من الصعب جداً محاولة تفسير تلك التي تتجاوز الكلمات والتي لا يمكن إدراكها سوى بواسطة الشعور والحدس أكثر من الفكر العادي.

لاحظ علماء المعادن القدامى وجود خاصيتين في المعادن: النقاوة والتلوّث. أثناء تكرير خامة المعدن يخرج منه معدن صافي من جهة وشوائب من جهة ثانية. عند تسخينه وإذابته يسيل المعدن الصافي كالماء، بينما الشوائب كانت تحترق وتنتج الدخان. بسبب هاتين الخاصيتين اعتبروا القسم النقي من المعدن بأنه سائل متأصّل في المعادن عموماً، ولهذا أشاروا إليه بمصطلح "الزئبق" (المعدن السيولي). لهذا السبب عُرف الزئبق بأنه "أم كل المعادن". أما القسم الملوّث فأشاروا إليه بمصطلح "الكبريت" لأنه كان يحترق مثله وينتج الدخان.

هذه الأفكار السابقة امتدت لتشمل كافة الظواهر في الوجود. لأن الزئبق كان بنظر الخيميائيين جوهر المعادن استخدموا هذا المصطلح للإشارة إلى جوهر كل الأشياء في الطبيعة. هذا الجوهر هو الذي منح كل مخلوق نوعيته وخواصه ومظهره. كانوا يقولون مثلاً، تختلف نوعيات "الزئبق" باختلاف نوعيات الأشياء. عندما تتعفّن المواد العضوية وتتفسّخ كان يخرج منها سوائل، وهذه الأخيرة كانت تُكرّر وتُصفّى بحيث أن هذه العملية اعتُبرت بأنها عملية عزل الزئبق.

أما الكبريت فكان يُعتبر العنصر القابل للاحتراق في كافة المواد العضوية وغير العضوية. كافة الأشياء التي تحترق أو تطلق الطاقة تحتوي على الكبريت. لهذا كان الكبريت متصلاً بشكل أساسي بالزيوت والدهون لأنها كانت تحترق. كانوا يوصفون الدهون قائلين: كل نوع من الدهون هو عبارة عن كبريت لكنه متواجد بصيغة مختلفة عن النوع الآخر. اعتبر الخيميائيون المواد العضوية بأنها غنية بالكبريت لأنها سهلة التجفيف والاحتراق. بينما على الجانب الآخر اعتبروا المعادن غنية بالزئبق. حتى القوة الحيوية ذاتها، أي تلك التي تُحيي الكائن العضوي يُشار إليها لدى الخميائيين بالكبريت.

هناك عنصر ثالث تناوله الخيميائيون في أدبياتهم وهو الملح. إذا عدنا إلى مجال صناعة المعادن سوف نجد بأنه بعد تسخين المعدن الخام ويسيل منه المعدن النقي (الزئبق) وتحترق منه الشوائب (الكبريت) سيبقى أخيراً فضلات في الأرضية على شكل رماد، ويبدو واضحاً أن هذا القسم لا ينتمي إلى أي من المكونين السابقين. أطلقوا على هذا المكون الثالث بمصطلح الملح. إذاً، الذي يحترق هو الكبريت، والذي يتبخر ويسيل هو الزئبق، والذي يبقى على شكل رماد هو الملح.

إذاً، الكبريت والزئبق والملح الذي تحدث عنه الخيميائيون لا تمثّل الكبريت والزئبق والملح الذي نألفه اليوم. كانوا يستخدمون هذه المصطلحات مجازياً للتعبير عن أشياء اخرى مختلفة تماماً. كان الخيميائيون القدامى فلاسفة حقيقيون وبالتالي لا يمكن أن يشرحوا علومهم بصيغة واضحة بل لا بد من التشفير وراء حجاب كثيف من الرموز والاستعارات. لهذا السبب يسمون هذا العلم "الهرمزية الخيميائية" alchemical hermeticism. هذه العناصر الثلاثة تدخل في تكوين كافة الأشياء. وتفاوت معايير هذه العناصر الثلاثة هو السبب في تنوع الأشياء واختلاف تكاوينها.

إن إدخال هذه المكونات الأساسية على مجال الكيمياء لم يجردها من معانيها الفلسفية والروحية. فخلال الحديث عن ثالوث الزئبق والكبريت والملح في مجال الخيمياء، نكون في الحقيقة نتحدث عن العنصر الفاعل (كبريت) العنصر المنفعل (ملح) والعنصر الحيادي (الزئبق). هذه العناصر متواجدة على كافة المستويات الروحية والمادية. وبالتالي في مجال الفلسفة نرى أن الزئبق يمثّل الروح، أي النمط الأولي للشيء، أي جوهره الباطني المسؤول عن تكوينه الخارجي. صحيح انه يُعتبر حيادي لكنه في الحقيقة العنصر المهيمن، هو ذاته القوة الثالثة التي تحدثنا عنها في الصفحات السابقة والتي تقبع في مستوى متجاوز لإدراكنا العادي. أما الكبريت فيمثّل النفس، والقصد هنا العامل الحيوي الذي يحرك الجسم ويمنحه الحيوية. أما الملح فيمثّل الجسد وهو العنصر المنفعل الذي يستوعب العنصر الفاعل ويقيّد جموحه.

القوى الثلاثة في مجال الطب

ذكرت سابقاً أنه من الناحية الفلسفية الزئبق يمثّل الروح، والكبريت يمثّل النفس (أي العنصر الحيوي)، والملح يمثّل الجسد. لكن يبدو أن هذه المكونات الثلاثة تدخل في جوهر المجريات الجسدية أيضاً، وقد استُخدمت ذات الأسماء (زئبق، كبريت، ملح) لوصف هذه المجريات والتقسيمات الجسدية. يقول المنطق الطبي الهرمزي الذي ساد في أوروبا في أواخر العصور الوسطى (خصوصاً على يد باراسلزوس) بأن كل جسد عضوي مؤلف من ثلاثة مكونات: الكبريت، الزئبق، والملح. وهذه المكونات الثلاثة هي المسؤولة عن الصحة وبالتالي فإن أي خلل في توازنها يؤدي إلى حصول خلل في توازن الصحة الجسدية.

مبدأ الزئبق يمثّل المخطط الأوّلي الذي بُني وفقه الجسم. هو يوفر النموذج الاوّلي الذي يحافظ على الهيكل البنيوي للأشياء. تعتبر عملية الهضم، المسؤولة عن تفكيك الزئبق العائد للأشياء الغريبة المهضومة، بأنها القاعدة الأساسية لمبدأ الزئبق الموجود في الكائن العضوي. كذلك الحال مع عملية الامتصاص الهضمي التي تجمع زئبق الأشياء المهضومة وفق صيغة جديدة. على المستوى الفكري، الزئبق مسؤول عن هوية الفرد وبالتالي عن عقله ودماغه.

مبدأ الكبريت يُعتبر أساس المجريات الطاقية أو عملية الاستقلاب في الجسم. تّعتبر عود كبريت الجسم حيث تسبب بحرق الأشياء والتخلّص من الفضلات وتعزيز النشاط. لأنه يمثّل أساس عملية الاستقلاب، يقبع مبدأ الكبريت في منتصف الجسم، أي في القناة الهضمية.

مبدأ الملح يدير ويضبط المواد الصلبة والسائلة في الجسم، فيمكّن الأعضاء من إخراج وإدخال المواد من وإلى الأنسجة والأنظمة ككل. الملح يسهّل عملية التغذية والتطهير وإزالة الفضلات. بسبب ارتباطه الوثيق بعملية التنظيف والتخلّص من الفضلات، يقبع مبدأ الملح في الكليتين والقناة البولية والقسم الأدنى من الجسم عموماً.

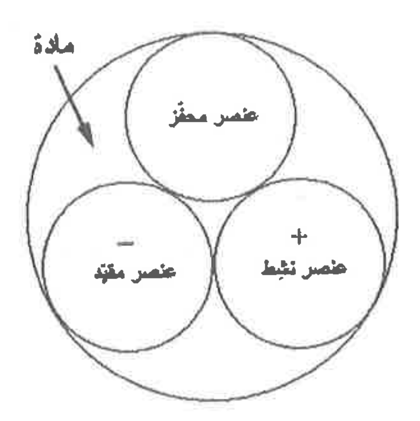
بالإضافة إلى أن كل من هذه المبادئ الأساسية الثلاثة ينتج نوعه الخاص من الأمراض والعلل. مبدأ الزئبق مسؤول عن المجريات التحجّرية. المرض الرئيسي لمبدأ الزئبق هو السفلس (الزهري) وما يصحبه من تحجّر وتآكل وتفكّك المواد القاسية. على المستوى الذهني، يسبب

مرض السفلس بتدمير الشخصية ويفكّك ترابطها. لأنه يُعزل عن طريق التقطير، يتصاعد مبدأ الزئبق إلى الأعلى (أي نحو الرأس وكذلك نحو الجلد) مسبباً اختلالات عقلية ومشاكل عصبية والسكتة الدماغية بالإضافة إلى تقرّح وتفسّخ كل من الجلد والغدد والعظام. أما مبدأ الكبريت فيتجلى في الاختلالات الاستقلابية. تتراكم الفضلات والمواد غير المحترقة فتسبب التلوث والطفح الجلدي وارتفاع الحرارة أو اختلالها عموماً. أما مبدأ الملح، فيتصل بتوازن وضبط السوائل والمواد الصلبة في الجسم. إذا زاد ترسّب المواد الصلبة في السوائل سوف يحصل حالة تمعدن وتجلّب. من بين العلل الرئيسية المتصلة بهذا المبدأ نجد التهاب المفاصل وتشكل البحصة في الكلى. إذا انخفضت نسبة المواد الصلبة أو زادت نسبة السوائل يصبح الجسم سيولياً جداً فينتج من ذلك مرض البول السكري.

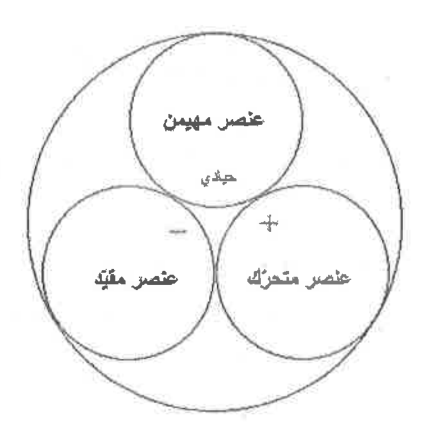
حتى الفضلات المترسبة في الجسم مقسومة وفقاً للخصائص المتعلقة بأحد المكونات الثلاثة. الرواسب القريبة لمبدأ الزئبق هي البلغم أو الماء القذرة. والرواسب القريبة لمبدأ الكبريت هي الراتين او المواد غير المحترقة بشكل كامل. والرواسب القريبة من مبدأ الملح هي الطرطير أو ترسبات ملحية. عندما لا يتفكّك الطعام جيداً في الجهاز الهضمي لن يمتصه الجسم وبالتالي سوف يتجمّع ويترسب كما رواسب النبيذ في قاع البرميل. الرواسب في الجسم تشكّل الطرطير على الأسنان والبحصة في الكليتين والمرارة، ويحدث التصلب الرومتزمي والتقيّح حول العظام. يتم إزالة الرواسب الرئيسية الثلاثة من الجسم عبر تعرّق الأنسجة. طالما بقيت عملية تعرّق الأعضاء المختلفة قائمة سوف لن تتمكن السوائل الصمغية ولا الطرطير ولا الراتين من الالتصاق على جدرانها. لكن إذا كانت قوة التعرّق ضعيفة سوف تنتشر هذه اللرواسب على كامل الأعضاء.

القوى الثلاثة وعلم الفيزياء

خلال الحديث عن تجلّي مبدأ الثالوث بطريقة متراكبة (في موضوع "الطبيعة التراكبية للكـون"، صفحة ١٦٤) وضّحت كيف أنه بعد الأطوار الثلاثة للحركة (اندفاع، حركة، عطالة) يأتي طـور التوقّف، وبالتالي الحالة التي تنتج من تفاعل العنصر المحفّز مع العنصر النشِط والعنصر المقيّـد هي حالة جمود. أي بمعنى آخر، المادة (التي تمثّل العقل في حالة جمود) تتألف من ثلاثة مكونات رئيسية: [١] عنصر محفّز، [٢] عنصر نشِط، و[٣] عنصر مقيّد. وقد صورت هذه الحالة بأنهـا دائرة كبيرة تشمل ثلاثة دوائر وكل دائرة تمثّل أحد العناصر الرئيسية الثلاثة، كما فـي الـشكل التالي:



هذه الفكرة السابقة لا تختلف كثيراً عن المفهوم الذي اتبعه الحكمـاء القـدامى خـلال معالجـة المواضيع الفيزيائية. حتى أن طريقة وصف تجسيد العقل عبر ثلاثة مراحـل (العقـل، الـوعي، الكينونة) يعبّر عن مبدأ فيزيائي مهم جداً. إذا أردنا وصف المسألة السابقة بطريقة فيزيائية بحتـة سوف تبدو على الشكل التالي. كل مادة، مهما كان نوعها، ومهما كان مستواها (ذري أو جزيئـي إلى آخره) تتألف من ثلاثة عناصر أو مكونات أساسية تحدد نوعها وشكلها ومفعولها ونـشاطها، وهي: [١] عنصر مهيمن (حيادي)، [٢] عنصر نشِط أو متحرّك (موجب)، و[٣] عنـصر مقيّـد (سالب).



كل مادة، مهما كان نوعها تتألف من ثلاثة قوى أو مكونات أساسية تحدد نوعها وشكلها ومفعولها ونشاطها: عنصر مهيمن، عنصر متحرّك، عنصر مقيّد.

المادة إذاً، مهما كان نوعها، تتألف من ثلاثة مكونات أساسية: [١] العنصر المهيمن، ويُعتبر العنصر المحفّز لكنه ذو قطبية حيادية. [٢] عنصر نشط، ويُعتبر العنصر الفاعل وبالتالي يمثّل القطبية الموجبة (+). [٣] عنصر مقيّد، وهو العنصر المنفعل أو المؤطّر للفعل المبذول، وبالتالي يمثّل القطبية السالبة (−). فيما يلي بعض الأمثلة على التجليات المختلفة لهذه المكونات الثالوثية في المادة:

١ــ المكوّن المهيمن: يمكن أن يكون محفز، طاغي، خلاق، محرّك أوّل، موجّه، مُطلق.. إلى آخره. وهو ذو طبيعة حيادية لكنه طاغي على المكونين الآخرين (المتنافرين في القطبية).

٢ــ المكوّن النشط: هو موجب القطبية وبالتالي يمكن أن يلعب دور الدافع، المتمدّد، الضاغط، المشعّ، المتحرّك،.. إلى آخره.

٣ــ المكوّن المقيّد: هو سالب القطبية وبالتالي يمكن أن يلعب دور الساحب، المُستقطب، الجاذب، البؤري، العطالة،.. إلى آخره.

لكن رغم هذا كله، لم نفهم بعد سبب الاختلاف الكبير بين أشكال ومظاهر المواد في الطبيعة من حولنا. كيف حصل هذا الاختلاف طالما أن كل من هذه المواد المختلفة مؤلفة من ذات المكونات

الثلاثة الموصوفة سابقاً؟ الجواب بسيط: لقد تعرّفنا على هذه المكونات الثلاثية خلال تصوّرنا للمادة في حالة نموذجية، أي عندما تكون المكونات متعادلة في القوّة، لكن الواقع يختلف تماماً، حيث ما من مادة في الوجود تتعادل فيها قوة هذه المكونات. دائماً ما تكون المكونات الثلاثية متفاوتة في الشدّة وبالتالي تختلف معايير كل مادة بالمقارنة مع الأخرى. إذاً، السبب الذي يجعلنا نرى كل هذا التنوع في الكون يعود إلى اختلاف في معايير تفاعل مكونات المادة مع بعضها. أي اختلاف تفاعل العناصر الثلاثة يؤدي إلى اختلاف بنية المادة ومظهرها ولونها وغيرها من خواص وسمات.

يمكن توضيح هذه الفكرة من خلال العودة إلى مثال الكرة. كلما ركلت الكرة سوف لن تتوقف بنفس الطريقة والوضعية التي توقفت بها في المرة السابقة. لا بد من وجود اختلاف في قوة الدفع (الركلة)، أو قوة الزخم، أو قوة العطالة.

محفز	متحرك	مثبط	الحالة النهائية
٦٠%	٢٦%	٣٤%	

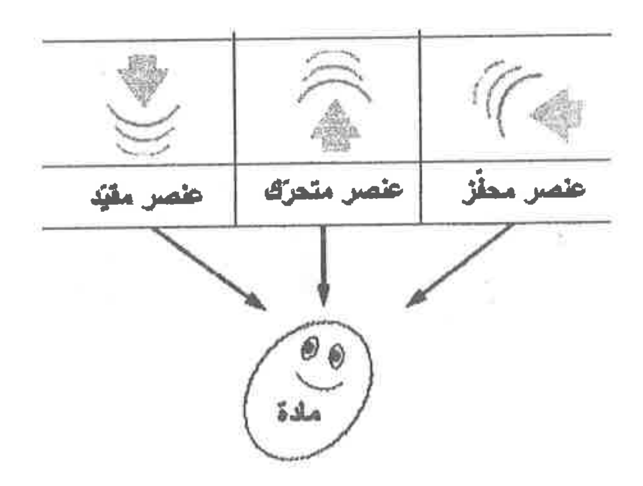
محفز	متحرك	مثبط	الحالة النهائية
٣٢%	١١%	٥٧%	

محفز	متحرّك	مقيّد	الحالة النهائية
٥٠ ٪	١٥ ٪	٣٥ ٪	

محفز	متحرّك	مقيّد	الحالة النهائية
٢١ ٪	٦٧ ٪	١٢ ٪	

لاحظ كيف أن الاختلاف في معدّلات قوّة العناصر الثلاثة (الممثلة في خانات الصورة السابقة) يحدد طريقة وصول الكرة إلى الخانة الرابعة. الأمر ذاته ينطبق على الاختلاف بين المواد من حيث الشكل والبنية واللون وغيرها من سمات مختلفة، إذ أن الفرق يكمن في اختلاف معايير المكونات الثلاثية لهذه المواد.

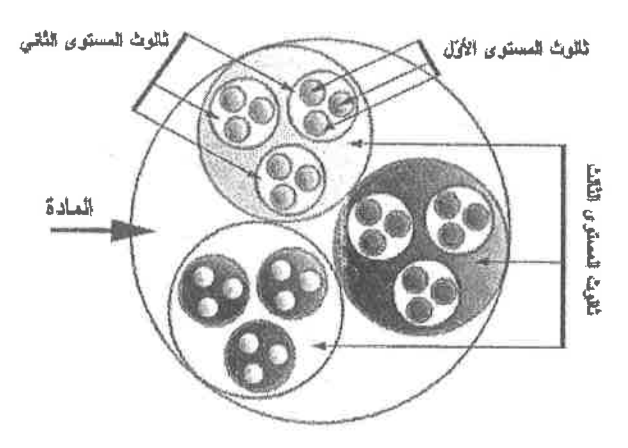
يمكن تشبيه العملية باختلاط الألوان الرئيسية الثلاثة، الأحمر والأزرق والأخضر. مجرّد أن طغى أحد هذه الألوان على اللونين الآخرين، حتى لو بدرجة واحد، سوف يحصل تغيير في اللون الناتج من اجتماعها. هذه المسألة الأخيرة تتطلّب شرح مستفيض سوف أتناوله لاحقاً، لكن خلاصة الفكرة هي أن المادة التي يمثّل [العنصر المحفّز] ٦٠% من مكوناتها، و[العنصر المتحرّك] يمثّل ١٥%، و[العنصر المقيّد] ٢٥%، سوف يختلف مظهرها من حيث الشكل والبنية والأداء الإشعاعي بالمقارنة مع مادة أخرى يمثّل فيها [العنصر المحفّز] ٣٠% و[العنصر المتحرّك] ٥٠% و[العنصر المقيّد] ٢٠%.



تُحدّد سمات المادة (شكلها، مادتها، خواصها... إلى آخره) وفقاً لدرجة شدة العنصر المتحرّك ودرجة مرونة العنصر المقيّد، وقوة دفع العنصر المحفّز.

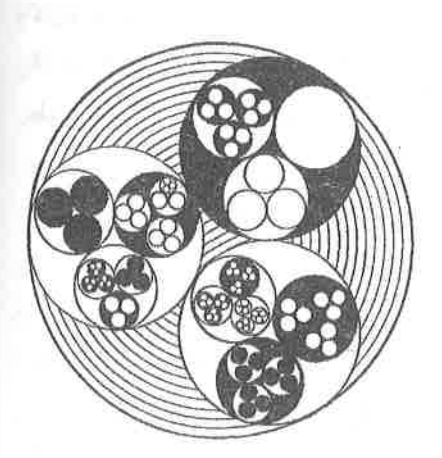
هكذا كان يتعامل علماء الخيمياء مع المادة في العصور القديمة، وكانوا يستخدمون مصطلحات [النار] (عنصر محفّز) و[الهواء] (عنصر متحرك) و[الماء] (عنصر مقيّد) و[التراب] (مجموع تفاعل العناصر الثلاثة السابقة في المادة أو الكائن). وهذه المصطلحات (نار، هواء، ماء، تراب) لازلنا نألفها جميعاً رغم جهلنا الكامل لمضمونها العلمي الحقيقي. بالإضافة إلى أن الفلاسفة القدامى استخدموا نفس المعادلة التفاعلية بين هذه العناصر (لكن على مستوى الوعي) لتحليل طبائع الأشخاص وأمزجتهم. واستخدمها الأطباء أيضاً لتحليل نوع الأمراض، حيث هي ذاتها التي يسمونها أخلاط وأمزجة، وتعني حرفياً مجموع امتزاج أو تخالط العناصر الأربعة في الكيان (الجسدي أو العقلي حسب الحالة). سوف نتعرّف على كل هذه الأمور بالتفصيل في الجزء التالي.

بالإضافة إلى ذلك، فإن المادة تتجسّد بصيغتها المادية بعد مرورها عبر ثلاثة مستويات متدرّجة من التكاثف. وكل من هذه المستويات الثلاثة المتدرّجة تتألف أيضاً من ثلاثة عناصر أو مكونات أساسية: [١] عنصر مهيمن، [٢] عنصر متحرّك، [٣] عنصر مقيّد. ويمكن تصوّر هذه الحالة كما في الشكل التالي:



يتألف التجسيد المادي من ثلاثة مكونات أساسية، وكل من هذه المكونات يتألف بدوره من ثلاثة مكونات، وكل من هذه المكونات تتألف أيضاً من ثلاثة مكونات.. ويستمرّ هذا التدرّج صعوداً حتى نصل إلى مستوى المطلق.

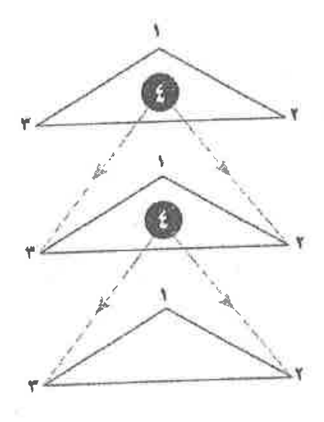
ملاحظة: هذه هي الطريقة التي اتبعها المخترع "جون وريل كيلي" خلال وصفه للمادة. و الذي أوجد ما يُسمى "فيزياء الذبذبة المتجانسة" sympathetic Vibratory Physics. وبناء على هذا المبدأ الفيزيائي استطاع تحقيق كافة إنجازاته المذهلة مثل رفع الأشياء في الهواء بقوة الذبذبة. (أنظر في موضوع جون كيلي في الجزء التالي).



من الواضح أن هذه الطريقة في تصوير تكوينات التجسيد المادي معقّدة جداً حيث يصعب على الباحث التعامل معها. فما كان على القدماء سوى إتباع طريقة أسهل وأكثر كفاءة في شرح أفكارها. لقد أوجدوا ما نسميه مخطط شجرة الحياة وهو يمثّل فكرة مطابقة تماماً للفكرة السابقة لكن بصيغة أكثر بساطة ومرونة في الشرح.

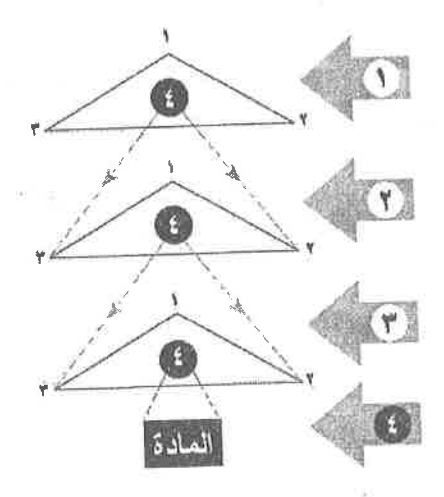
خلال شرح هذه الفكرة السابقة وفقاً لمنظومة تعاليم شجرة الحياة، نلاحظ بأن كل ثالوث هو عبارة عن منتوج تفاعل عناصر الثالوث الذي يسبقه. أي أن كل ثالوث يُنتج مرحلة رابعة وهذه المرحلة

الرابعة تمثّل ثالوث قائم بذاته (الشكل التالي). وكلما ولد ثالوث جديد كلما اقتربت مسيرة التجسيد إلى العالم المادي، والذي يكون المحتوى الكوني فيه أكثر كثافة وصلابة.



كل ثالوث هو عبارة عن منتوج تفاعل عناصر الثالوث الذي يسبقه، أي يمثّل المرحلة الرابعة للمراحل الحركية في الثالوث السابق

وفقاً لمبدأ الحركة ثلاثية المراحل (انطلاق، حركة، عطالة)، يتألف سلّم التجسيد من ثلاثة ثواليث رئيسية، ويُعتبر كل مثلّث بأنه يشكّل مرحلة حركية قائمة بذاتها، وهذه المراحل الثلاثة متبوعة بمرحلة رابعة هي مرحلة التوقف ونسميها المادة (كما في الشكل التالي):



الثالوث الأول يمثّل حالة الانطلاق، الثالوث الثاني يمثّل حالة التحرّك، والثالوث الثالث يمثل حالة الكبح، والمادة تمثّل حالة التوقف.

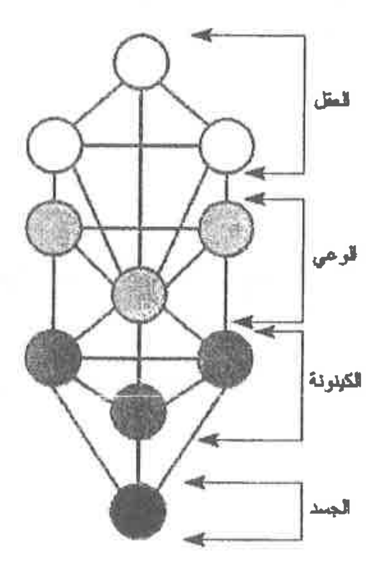
بهذه الطريقة الأخيرة تكون فكرة التكوين الثلاثي للمادة قد توضحت أكثر.

مبدأ الثالوث والتعاليم الروحية

الوصف النهائي الذي توصلنا إليه بخصوص الكون المتجلّي هو أنه عبارة تجسيد مادي ناتج من تفاعل مجموعة من المكونات السببية المتسلسلة، وهذه المكونات تخضع للمبدأ الثلاثي المتراكب، أي المكونات الثلاثية تتألف أصلاً من ثلاثة مكونات.

هذا الوصف ذاته ينطبق على الإنسان (وأي كائن متجلّي في الوجود)، ولهذا السبب يعرف الإنسان بأنه يمثّل صورة مصغّرة للكون، بحيث كل ما تجده على المستوى الكوني تراه موجوداً بدرجة أصغر في الإنسان، ومن هنا أشاروا إلى الإنسان بـ"العالم الأصغر" microcosm الذي يمثّل صورة مطابقة لـ"العالم الأكبر" macrocosm.

وفقاً للشروحات التي توصف الكون المتجلّي، وأي شيء مادي، نستنتج بأن جسد الإنسان هو عبارة عن منتوج تفاعل ثلاثة مكونات رئيسية:



[١] عنصر روحي يقبع في المستوى التجاوزي أشرت إليه باسم "العقل".

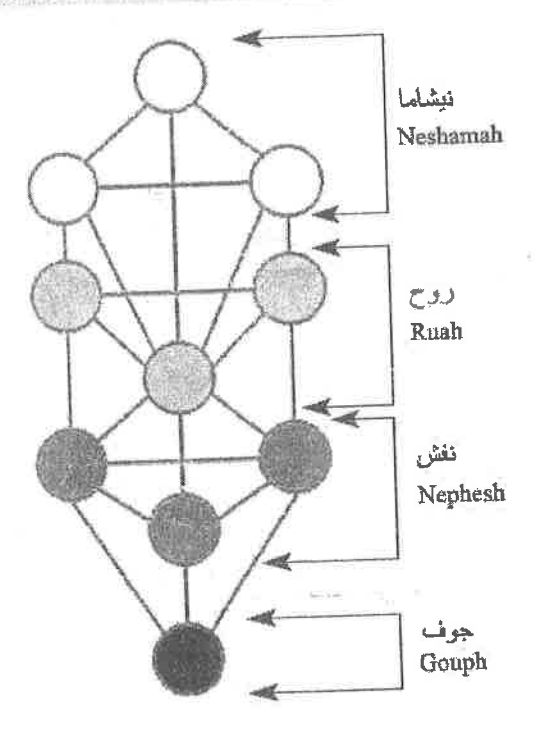
[٢] عنصر مادي يمثّل المحتوى الجسدي وليس الجسد الفيزيائي الصلب، اشرت إليه باسم "الكينونة".

[٣] عنصر نشط يتحرّك بين المكونين الآخرين سميته "الوعي".

[٤] أما الجسد المادي فيمثّل ناتج اجتماع المكونات الثلاثة السابقة.

في الحقيقة، فإن المصطلحات العربية التي تشير إلى أقسام الشجرة هي متنوعة ومتناقضة حسب المرجع، حيث ورد في هذه المراجع أسماء مثل "النفس" و"الروح" و"الحياة" وغيرها من كلمات عربية لكنها لا تتناسب مع مواقعها في الشجرة. وبالتالي هناك سبب وجيه لقيامي بإيجاد مصطلحات جديدة للإشارة إلى

هذه المكونات الثلاثية للإنسان، وتتناسب مع المفاهيم العصرية. إذا كنت مطلعاً على المراجع الباطنية لا بد من أنك لاحظت بأن معظم المصطلحات العربية التي نستخدمها مثل "روح" و"نفس" وغيرها، هي مقتبسة أصلاً من أدبيات القبالة العبرية. لكن يبدو أنها اتخذت معاني مختلفة مع مرور الزمن بحيث بعضها أصبح يُستخدم للإشارة إلى أشياء مختلفة تماماً. ربما حصل هذا التحريف نتيجة سوء الترجمة أو التفسير. لا أعلم. يمكننا فهم هذه المسألة بسهولة من خلال إلقاء نظرة سريعة على مخطط شجرة الحياة وفق تعاليم القبالة العبرية ورؤية الأسماء الممنوحة لأقسام الشجرة.



[١] المثلث الأعلى يُسمى "نيشاما" Neshamah، ويمثّل العنصر المحفّز في كيان الإنسان. هو مقعد الأفكار الأولية، هنا يكمن العقل الأول، هو مصدر كل الإلهامات والرؤى والإرادة العليا. إن لهذه الكلمة العبرية مرادف باللغة العربية (نشمة) وتعني "البدء" أو "الهبّة"، وهذا يناسب موقع المثلث في الشجرة إذ نال صفة "التحفيز" أو "الدفع". لكن بعض المراجع العربية جعلته موقع المستوى الروحي.

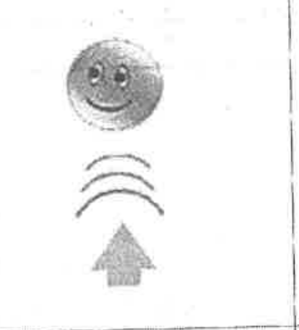
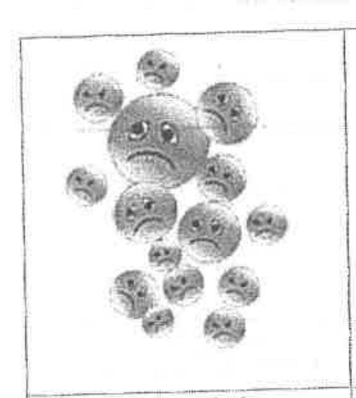
[٢] المثلث الأوسط يُسمى "روح" Ruah، ويمثّل العنصر المتحرّك في كيان الإنسان. هنا يقبع ما يمكن تعريفه بالأنا (الذات) لدى الإنسان، أي بمعنى آخر، ذهنه المتوقّد والصاحي (الوعي). هذا

القسم يتوق دائماً إلى الوجود الحسّي، كما ينزع دائماً إلى صناعة شخصية لـه. لـذلك نـرى أن جذور الشخصية الوهمية التي يصنعها الشخص في حياته الأرضية تنبت من هذا القسم. إن لهـذه الكلمة العبرية مرادف باللغة العربية وهي "روح" التي جاءت من راح يروح. وهناك معنى آخـر يعني "التوسّع"، ومن بين معاني كلمة "راح" نجد "نشط"، وهذا يناسب موقع المثلث فـي الـشجرة الذي منحته صفة "الحركة" أو "التوسّع" أو "النشاط". بعض المراجع العربية منحته اسم "الـنفس"، لكن هذه الأخيرة لا تناسب هذا الموقع إذ يشير معناها الحقيقي إلى شيء آخر مختلف تماماً.

[٣] المثلث الأدنى يُسمى "نفش" Nephesh، وتوصفها تعاليم القبالة بأنها الذات الحيوانية (الـذات الدنيا) هي العنصر الذي يحي الجسد (يمنحه حيويته). أحياناً يوصفونها بالجسم الأثيري الذي يلفّ الجسم المادي، وأحياناً يعتبرونه الجسم الطاقي الذي يغذي الجسد بالطاقة اللازمة لتماسكه وبقائه. هذا القسم مسؤول عن العواطف والغرائز والشهوات الدنيوية. رأينا سابقاً في هذا الكتاب كيف أن هذا القسم من الشجرة يمثّل العنصر المقيّد في كيان الإنسان. التقييد هنا يعني إخماد زخم الحركة نتيجة تشتت قوتها، أي بعثرتها. إن لهذه الكلمة العبرية مرادف باللغة العربية وتعني "الانتشار" أو "البعثرة" أو "التكاثر"، وهذا يناسب هذا الموقع من الشجرة الذي منحته صفة "التقييد" أو "العطالـة" التي القصد منها تباطؤ زخم الحركة نتيجة بعثرة قوتها. و"البعثرة" هنا تتوافق تمامـاً مـع مبـدأ التعددية الذي ولد في هذا الطور من عملية الخلق نتيجة ولادة الزمان والمكـان. فمـثلاً ظـاهرة انشطار الخلايا خلال تكاثرها أثناء نمو كتلة الكائن تعتمد على هذا المبدأ.

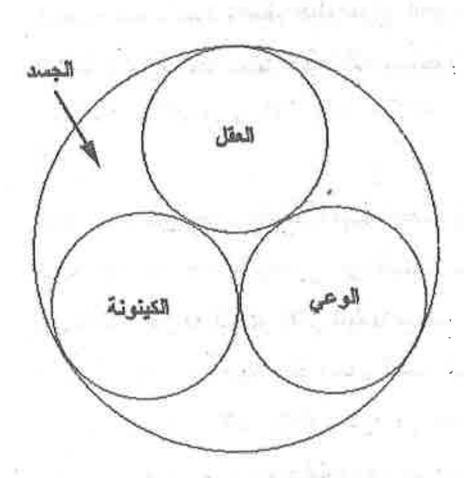
[٤] الدائرة المنفردة في أسفل الشجرة سميت "جوف" Gouph، ويمثّـل الجـسد الفيزيـائي، أو المستوى المادي الملموس. ولهذه الكلمة العبرية مرادف باللغة العربية وتعني الشيء "المجوّف" أو "الفارغ" وهناك كلمة "جيفة" وتُستخدم للإشارة إلى جسم الحيوان النافق، أي الذي خلا جسده مـن الحياة.

كما رأينا في الشرح السابق لأقسام الشجرة، يبدو واضحاً أن وصف تعاليم القبالة لمعاني الأقسام متـشابه إلى حد بعيد مع الشرح الذي أوردته في هذا الكتاب، ومن أجل دعم هذا الاستنتاج توصلت إلـى المعنـى الفعلي لهذه الأقسام بالاعتماد على معاني المصطلحات ومرادفاتها بين لغتين (العربيـة والعبريـة). فـي الحقيقة، حتى تعاليم القبالة موبوءة بالكثير من الأخطاء والتحريفات الناتجة ربما من سوء الشرح والتفسير، لكن وفقاً لأطوار الحركة التي مرّ بها العقل خلال مسيرة تجسيده المادي، نجد أن هذه المصطلحات العبرية مناسبة تماماً مع الشرح الذي أسلفت ذكره، والشكل التالي يوضح الفكرة:

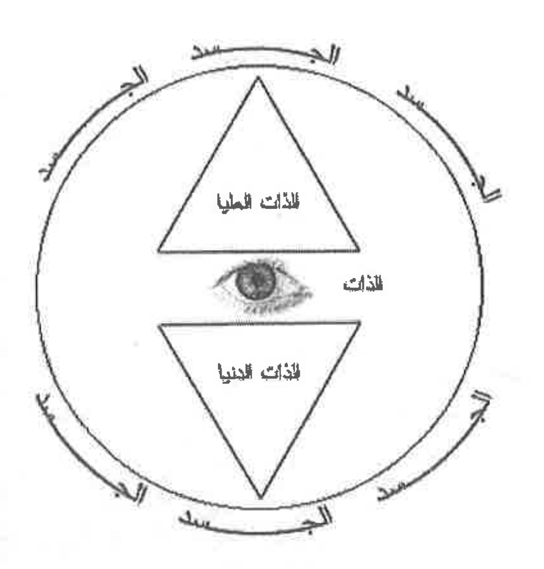
		
نَشَمَ العقل: أي انطلق، أو هبّ، أو تحفّز. وهذه حالة العقل في المستوى المتجاوز للزمان والمكان.	***راح العقل:*** أي تحرّك، أو توسّع، أو نشط، وهذه الحالة خلقت "الوعي" وعامل "الزمان".	***نَفَشَ العقل:*** أي تبعثر، أو تعدّد، أو انتشر، وهذه الحالة خلقت "الكينونة" وعامل " الزمان/المكان"

لا يمكننا استخدام المصطلحات العربية المألوفة للإشارة إلى أقسام الشجرة، لأنها أصبحت عمومية أكثر من كونها مخصّصة لقسم معيّن أو وظيفة معيّنة في مخطط شجرة الحياة، فهي بكل بساطة اتخذت معاني مختلفة تماماً. فكلمة "روح" مثلاً أصبحت تعني الشيء غير المادي أو المستوى التجاوزي أو المستوى الطاقي.. إلى آخره. وكلمة "نفس" (التي جاءت من الكلمة العبرية "نفش") أصبحت تتخذ معاني عديدة من بينها "الذات" وقد اعتمدت هذه الكلمة الأخيرة لكونها أنسب. لكنني مع ذلك سوف أستمر في استخدام هذه المصطلحات العربية عموماً للإشارة إلى الأشياء التي تمثلها وفق المفاهيم العربية المألوفة.

إذاً، مع استخدام المصطلحات الجديدة التي أوجدتها في هذا الكتاب واعتمدت على مفهوم تعاليم القبالة، أقول: نَشَمَ العقل (أي اندفع)، ثم راح (أي تحرّك) فنشأ الوعي، وهذا الأخير نَفَشَ (تعدّد أو تكاثر) فولّد الكينونة. هذه هي الأطوار الثلاثة للعقل قبل التجسّيد المادي والتي يمكن التعبير عنها جميعاً في الكائن كما في الشكل المقابل.



بالإضافة إلى الطريقة السابقة، ذكرت أيضاً طريقة أخرى لوصف هذا التكوين الثلاثي وهي التالية:

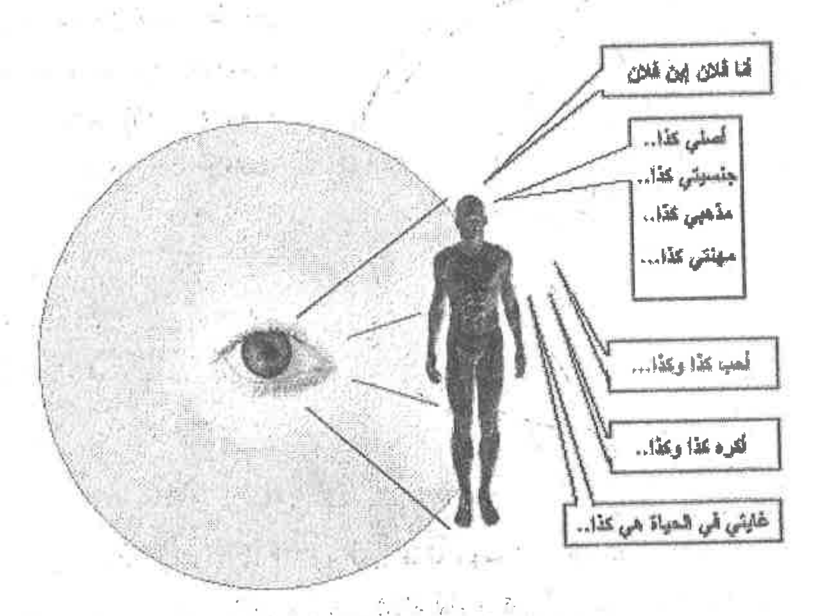


كيان الإنسان مؤلف من قسم علوي تجاوزي وقسم دنيوي متجلّي، ويتوسطهما قسم نشط (الشمس). وقد أشاروا إلى هذه المكونات الثلاثة بمصطلحات رمزية هي: [١] الذات العليا، [٢] الذات الدنيا، [٣] الذات الوسطى. و[٤] ما نعرفه بالجسد المادي وهو منتوج تفاعل المكونات الثلاثة السابقة. وبالتالي فهو يشملها جميعاً.

وفقاً للمنطق الذي تعرفنا عليه في هذا الكتاب، أوّل حقيقة مهمة نستنتجها تقول بأن جسد الإنسان هو تجسيد مادي للمحتوى الإلهي الذي يمرّ عبر ثلاثة أطوار قبل أن ينتهي به المطاف متبلوراً بحالة مرئية وملموسة. هذا يجعل الإنسان أكثر بكثير مما يبدو عليه ظاهرياً لكنه لا يدرك هذه الحقيقة لأنه مأخوذ بالعالم الظواهري الذي يشغل تفكيره. الذات الحقيقية للإنسان هي الشمس القابعة بداخله، لكنه يجهل ذلك لأنه مستحوذ عليه كلياً من قبل الشخصية الوهمية التي خلقها لنفسه نتيجة تأثير بيئته الدنيوية/الاجتماعية/الثقافية التي نشأ وسطها وخضع لسطوتها التي لا تُقاوم.

هناك فرق كبير بين الذات الحقيقية لديك والشخصية الوهمية التي تظن بأنها تمثّلك فعلاً. تتألف شخصيتك من عدد لا يُحصى من الخصائص والميزات والميول والعادات والنوازع والناتجة جميعاً من طريقة التفكير التي تتبعها بسبب التربية التي نشأت عليها لكن ليس لها أي علاقة بـ"الذات" الحقيقية لديك. لقد سعت الذات إلى إنشاء هذه الشخصية الوهمية نتيجة خضوعها للبرمجة المستمرة التي يتلقاها الفرد في بدايات العمر، وبما أن الذات طيّعة إلى درجة كبيرة، نجدها مستغرقة تماماً بهذه الشخصية الوهمية لدرجة أنها تتقمصها فعلاً. الأمر يشبه عملية التنويم المغناطيسي.

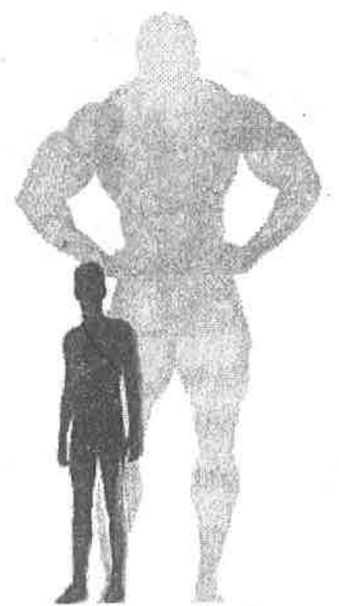
لهذا السبب، فإن الإشارة إلى هذا الشيء الذي صنعته الذات بـ"الشخصية الوهمية" لا يكفي لوصف الحالة بشكل كامل ودقيق، فالأمر أكثر من ذلك بكثير. يمكن القول بأن هذه "الشخصية الوهمية" تمثّل نوع من "الوعي الديناميكي" الذي تخلقه الذات، ويحمل كافة المزايا والسمات التي تبرمجت عليها الذات خلال نشأتها. يمكن التعبير عن هذه الفكرة من خلال الشكل التالي:



الذات مستغرقة تماماً بالشخصية الوهمية التي خلقتها كما تستحوذ علينا الشاشة السينمائية أو التلفزيون خلال تفاعلنا مع فيلم، وبالتالي تنسى الذات أصلها تماماً

"الذات" الحقيقية لديك لا تمثّل الجسم المادي، فهذا الأخير هو مجرّد أداة تستخدمها "الذات" لإنجاز غاياتها المختلفة في العالم المادي. كما أن "الذات" لا تمثّل المنظومة العقلية، إذ هذه الأخيرة هي مجرّد أداة تستخدمها "الذات" لتفكّر وتستنتج وتخطط. إذاً، لا بد من أن "الذات" تمثّل شيء يسيطر على كل من الجسم والعقل. شيء يقرّر ماذا عليهما فعله وكيف سيتصرفان. عندما تتوصل إلى الطبيعة الحقيقية لهذه "الذات" سوف تتمتع بإحساس بالقوة لم يراودك مثله من قبل. إن معرفة هذه الحقيقة وحدها تكفي لنبني عليها كم هائل من التطبيقات والأفكار الرائعة، فما بالك المزيد من الحقائق الأخرى التي سنتعرف عليها بخصوص الإنسان.

عندما تقول ".. أنا أفكّر.."، الذات هي التي تقول للعقل ماذا يفكّر. عندما تقول ".. أنا أذهب.."، الذات هي التي تقول للجسم المادي أين يذهب. لكن في الحالة العادية، هذه الذات تخضع لإملاءات وأوامر الشخصية الوهمية التي تقرر بناء على نوازع دنيوية بحتة. لهذا السبب لا نرى الكثير من المعجزات في هذا العالم حيث الذات لا تعبّر عن طبيعتها الحقيقية بل عن أهواء صعلوك دنيوي مقيت اسمه "الشخصية الوهمية". الطبيعة الحقيقية لهذه "الذات" هي روحية وبالتالي هي مصدر القوّة الحقيقية التي تأتي إلى الرجال والنساء الذين يتوصلون إلى معرفة طبيعتهم الحقيقية. طالما لم تتوصل إلى معرفة طبيعتك الحقيقية سوف تبقى الذات لديك خاضعة لأهواء ونوازع شخصيتك الوهمية التي هي من صنعها أصلاً. وهذه خسارة كبيرة لو أنكم تعلمون.



هناك عملاق خفي وراء كيانك المتجلّي ومستعدّ لتنفيذ كل ما تريد، لكنك تجهل هذه الحقيقة

القوة الأعظم والأكثر روعة التي مُنحت لهذه "الذات" هي قوة التفكير، وعندما أقول تفكير أعني بذلك عملية خلق! ربما كونت فكرة عن هذا الموضوع في الجزء الخامس من هذه المجموعة (الوعي الديناميكي). لكن القليل من الناس يعرفون كيف يفكرون بطريقة بناءة أو بشكل صحيح، ذلك بسبب خضوعهم للاستحواذ الكامل من قبل شخصيتهم الوهمية، وبالتالي نجد الأغلبية غارقة في بحر من الهموم والمآسي والإحباطات. هذه نتيجة حتمية لسماح الناس لأفكارهم أن تلاحق

غايات أنانية وواهية تفرضها عليهم شخصيتهم الوهمية. الحلّ الوحيد لهذه المسألة المستعصية هو العمل على إيقاظ الذات من سباتها العميق، الذي يشبه تماماً التنويم المغناطيسي، واستعادة حريتها من قيود الشخصية الوهمية وبعدها فقط تستطيع إدراك حقيقة نفسها. لكن الواقع المؤلم هو أن معظم الناس يجهلون تماماً هذه الحقيقة الرائعة. أجيال بكاملها تأتي إلى هذه الدنيا وتذهب.. ويأتي غيرها ويذهب.. دون أي محاولة منهم للتعرّف على حقيقة أنفسهم.. عن الهدف الحقيقي من الحياة.. عن حقيقة "الذات" الكامنة وراء القشرة الخارجية لكل إنسان. هذه القشرة الخارجية، هذا المظهر الخارجي هو المستوى الوحيد الذي تتمحور حوله اهتمامات الإنسان العصري. أما الجوهر فيبقى مجهولاً وكأنه غير موجود..

إذا طُلب منك التعريف عن نفسك، فكيف تفعل ذلك؟.. ماذا تقول؟.. هل ستذكر التعريفات والمواصفات الشخصية ذاتها التي يحفظونها لك في إدارة النفوس الحكومية؟ أو التعريف الذي تملي به طلب أو استمارة رسمية؟..هل أنت محمود؟.. لا يا سيدي... فهذا مجرّد اسم أطلقوه كوسيلة سهلة للإشارة إليك. هل أنت نجّار؟.. لا... فهذه مهنة تعتاش منها من أجل البقاء في هذا العالم المادي المقيت.. هل أنت طويل؟.. قصير؟.. عينيك زرقاوان؟.. عسليتان؟.. لا.. فهذه عبارة عن مواصفات جسدك الفيزيائي.. القشرة الخارجية التي تقبع أنت داخلها. هل أنت فرنسي؟.. هندي؟.. صيني؟.. لا... فهذه جنسيتك السياسية.. أو القومية..

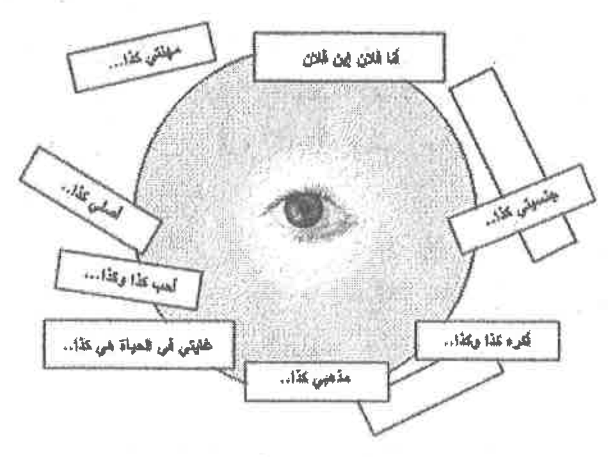
إن لم نقم بتبديل صيغة الأسئلة، فسوف نبقى على هذه الحال إلى الأبد دون التوصل إلى نتيجة. لأننا سنبقى في المستوى الخارجي، عند مستوى "الشخصية الوهمية". إذاً أنت تعرّف نفسك بالاعتماد على ما تعتقده، وما تفكر به، وما تأكله، وما تبدو عليه، وماذا تفعله،... وهكذا. جميعها تعريفات متعلقة بمظهرك الخارجي الذي اكتسبته خلال وجودك في هذه الحياة الدنيوية. فالشخصية بتعريفنا العام هي طريقة التفكير والسلوك والاعتقاد الذي نشأنا عليه نتيجة سنوات طويلة من التأثيرات البيئية المتكررة بالإضافة إلى المؤثرات الاجتماعية الممثلة بعلاقتنا مع المحيطين بنا وتجاوبنا مع الظروف الحياتية التي نشأنا وسطها. كل هذه العوامل تولّد انطباعات محددة لدينا، ونعتمد عليها في النظر إلى الحياة من جهة وإلى أنفسنا من جهة أخرى.

إذا جلبنا قطعة مغناطيس صغيرة، وعرّضناها لقطع معدنية مختلفة، فسوف تجذبها في الحال. وستلاحظ أن هذا المغناطيس لا يفرّق بين القطع الصدئة والمهترئة، وبين القطع الجديدة البراقة.

إنها بكل بساطة تجتذب كل شيء! حالتنا مشابهة تماماً لقطعة المغناطيس. وإذا نظرنا إلى المرآة، سوف لن نرى قطعة المغناطيس الذي يمثّل جوهرنا، بل القطع المعدنية التي تكسوه بالكامل مـن الخارج، وهي التي تمثّل الصفات والمواصفات المكتسبة من حياتنا الدنيوية. دعونا نقوم بإزالـة هذه القطع العالقة التي تكسو جوهرنا الحقيقي حيث تمنعنا من إدراكه... لنجرّد أنفسنا من أسماءنا وجنسياتنا ومظهرنا واعتقاداتنا و.. و.. غيرها. فماذا نكتشف؟!..



"الذات" الحقيقية لدى الإنسان مدفونة تحت عدد كبير من الصفات المختلفة التي أغدقتها عليه بيئته الاجتماعية التي ولد فيها وهي مكونات شخصيته الدنيوية



لا يمكن إيجاد "الذات" الحقيقية إلى بعد إزالة كامل الصفات التي تراكمت فوقها

هناك سبب وجيه وراء حياة كل إنسان، هناك غاية محددة. الطبيعة لا تنتج أشياء غير ضرورية، ليس نية الطبيعة جعل بعض الناس ينجحون والبعض الآخر يفشل... الطبيعة لا تعمل بهذه الطريقة الاعتباطية... كل كائن حيّ يمثّل جزء من خطة شمولية.. وقد تم شخصنة هذه الخطة الشمولية بالنسبة للإنسان بحيث كل فرد جاء إلى هذه الحياة لهدف.

لماذا يجهل معظم الناس غاية وجودهم في الحياة. أعتقد بأن الجواب يكمن في حقيقة أن الإنسان العادي مربك بسبب عوامل خارجية أثرت على طريقة تفكيره. أول ما يأتي إلى هذه الحياة يكون في حينها بأعلى مستويات الذكاء، يكون أكثر حكمة من أي وقت آخر في حياته. يمكن ملاحظة العمق في التفكير التي تبدو على الأطفال حديثي الولادة. يبدو على وجوههم تأمّل عميق أكثر من المألوف.

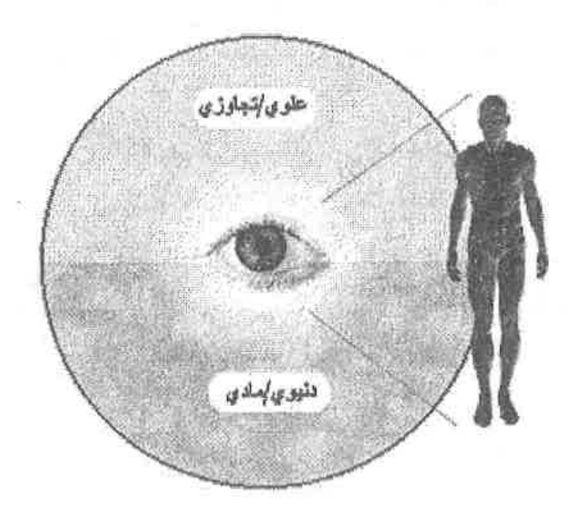
منذ لحظة ولادة الطفل تبدأ مأساته، إذ يُعتبر ملكاً حصرياً لذويه، وبالتالي هم أحرار في التصرف به كما يشاؤون. بعد فترة من اعتباره لعبة مسلية بحيث كل فرد من العائلة نال حصته منه في اللعب والتسلية، تبدأ مرحلة التكييف بحيث الجميع يريد لهذا الطفل أن ينجح في الحياة، وربما قبل أن يحققوا هذه الرغبة الأنانية يكون الفتى قد دُفع عنوة إلى دوامة من الضياع والفشل.

خلال الاجتهاد للافتراض بأن هذا العالم المادي الذي نأتي إليه لبعض السنوات هو أهم مكان في الوجود، والهدف الأعظم هو تحقيق بعض النجاحات المؤقتة هنا، تبدأ عملية تكييف الشخصية وفق أنماط تقليدية تطبق على الطفل المسكين. يُقال له ما يؤمن به وكيف يؤمن به. إذا نشأ في عائلة متديّنة يقولون له من يعبد، وأي معبد هو الأنسب له. وعندما يلتحق بالمدرسة يلتقي بزملاء مكيفين مثله أكثر أو أقلّ. جميعهم أطفال خضعوا لنفس التأثيرات مثله، وقد تم تدمير أرواحهم قبل أن يصلوا صفوف الابتدائية. لقد تعرّض الواقع الحقيقي الكامن في جوهرهم إلى الصد والكبت بشكل دائم ومستمرّ.

بعد فترة، يبدأ هذا الولد المتنامي تدريجياً، والخاضع باستمرار لجميع أنواع التكييف، بالافتراض بأن قبول العالم له هو الأمر الأكثر أهمية، عليه أن يكافح من أجل البقاء، فيرى مثلاً أنه عليه إتمام تعليمه لكي يستطيع أن يصنع لنفسه مكانة في هذه الحياة ومورد رزق يعتاش منه. فتبدأ

رحلة العذاب محاولاً إحراز نتيجة مجدية في مجال قد لا يناسبه إطلاقاً، المهم أن ينال رضى الجميع، المهم أن يشعر بقبول المجتمع له. لقد دُفع بأن يكون مهووس دائماً بالنجاح في هذه الدنيا.

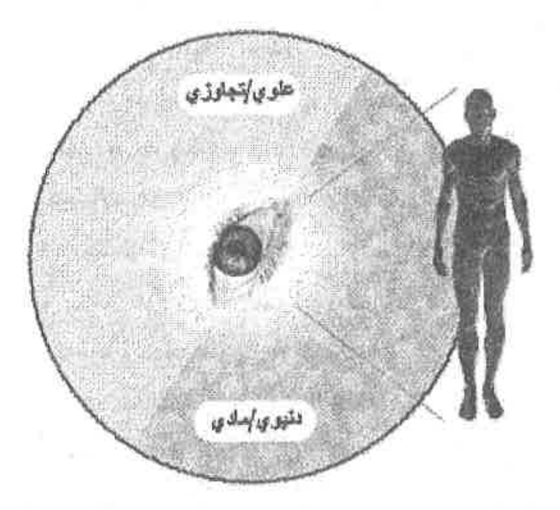
لم يُشجّع الفرد أبداً على الاعتماد على موارده الداخلية التي ولدت معه طبيعياً. لم يفطن أبداً بأنه خلف هذه الضغوطات التي تنهال عليه يوجد شيء آخر يمكن أن نسميه الحياة الأبدية.. الواقع الحقيقي الذي هو أعمق وأكثر أهمية من القشور الزائفة التي ألقيت عليه وحجبت طبيعته الأصيلة. بما أنه لم تُتح له أي فرصة لكي يتعرّف على طبيعته الحقيقية فهذا يجعله جاهلاً تماماً لذلك الواقع العميق القابع في الخفاء، والذي يشيرون إليه بالذات العليا.. التربية التقليدية التي يخضع لها الفرد تنشّط الذات الدنيوية على حساب الذات العلوية، وهذا يؤدي إلى خلق أرض خصبة لطغيان الطبيعة الحيوانية. وعندما أقول طبيعة حيوانية فهذا يعني سيطرة العقل الغريزي الجماعي. وإذا اجتمعت القوتان معاً، أي الميول الدنيوية (التي كرّستها التربية الاجتماعية والثقافية السائدة) والطبيعة الحيوانية (التي هي نشطة أصلاً نتيجة تحفيز اللاعوي الجماعي) سوف يؤدي ذلك إلى خلق وحش.



في الحالة المثالية، وجب أن يكون هناك توازن في نظرة الذات تجاه الشخصية الوهمية، أي إدخال المكوّن العلوي/تجاوزي إلى المعادلة بنفس درجة المكوّن الدنيوي/المادي.

الطبيعة الحيوانية بحالتها العادية ليست شريرة إذ هكذا هي طبيعة الكون. الفصيلة البشرية هي مماثلة لأي فصيلة حيوانية أخرى. هي تخضع لعقل غريزي جماعي يعمل على ضبط وتنظيم

وتوجيه سلوكها وتطوّر أفرادها في العالم المادي. ما يفعله العقل الجماعي لكل فصيلة حيوانية هو تنظيم مجرياتها الحياتية عموماً مثل ضبط عملية التناسل، توجيه التغييرات والتكييفات المختلفة، يجلب أوقات التزاوج،.. إلى آخره. بما أنه ينتمي إلى مملكة الحيوان، الإنسان ليس مستثنى من طغيان هذه القوة التوجيهية التي تتحكم وتسيطر وترشد وتشرف على فصيلته. لكنها في النهاية تمثّل عقل جماعي يعمل على إخماد الفكر الفردي.



التربية التي يتلقاها الفرد منذ طفولته تتجاهل المكوّن العلوي/تجاوزي وترجّح المكوّن الدنيوي/مادي.

يسمون هذا العقل العام اليوم بـ"اللاوعي الجماعي"، لكن المصطلح الأنسب هو "العقل الجماعي الحيواني". إن فهم واستيعاب هذا الموضوع يعني رؤية أهم أساسيات الحياة البشرية، حيث اجتماع الميول الدنيوية (نتيجة سوء التربية والتوجيه) مع الغريزة الحيوانية (العقل الجماعي) ينتج دافع حيواني متوحّش. وهذا الدافع الحيواني الوحشي لازال يمثّل المحفّز الرئيسي وراء تصرفات الإنسان العادي.

حتى الشخصية التي نعتبرها فردية تبقى مجرّد انعكاس لهذا العقل الجماعي الحيواني الذي يصقل الحالة النفسية للفرد بقوة كبيرة. الشخصية هي مجرّد إنبعاث من المخزون العام للعقل الجماعي الحيواني، وبالتالي مهما حاول الإنسان تكوين شخصية خاصة به وتكون متحررة من العقل الجماعي الحيواني سوف ينتهي به المطاف مكوناً لنفسه "عقل شخصي حيواني". ليس هناك أي

مفرّ من هذه الشبكة العقلية الأخطبوطية، والسبب هو التشجيع على ترجيح النوازع الدنيوية على حساب النوازع العلوية (الروحية).

كما أسلفت سابقاً، يعتبر العقل الجماعي الحيواني بالحالة العادية شيئاً ضرورياً لبقاء الفصيلة، لكن إذا تلقت الطبيعة الحيوانية في الفرد المزيد من الدعم والتعزيز نتيجة التربية المشجّعة على ترجيح النوازع الدنيوية سوف ينتج من ذلك وحشاً خطيراً. وبكل تأكيد، هو أكثر شراسة من الوحوش المفترسة في عالم الحيوان. يوجد أمثلة كثيرة على أن الحيوان يتمتع بدرجة أخلاق أعلى بكثير من الإنسان الدنيوي. فمثلاً، الرأفة والوداد الذي تبديه بعض الحيوانات لبعضها أو للحيوانات الأخرى غير موجودة عند الإنسان الدنيوي. جميع الحيوانات دون استثناء، لا تقترب من أناثها بنيّة الجماع خلال فترة حملها أو مرضها. بينما نجد الإنسان الدنيوي لم يكتفي بالاغتصاب دون النظر في حالة الضحية بل بقر بطون الحوامل هو شائع جداً في تاريخ البشر! الحيوانات المفترسة، مهما كانت متوحّشة، لا تقترب من فرائسها عندما تكون مكتفية غذائياً. هناك الكثير من القصص التي تروي كيف يهرب الاسد ذليلاً أمام الإنسان خلال التقائهما وجهاً لوجه، والسبب طبعاً هو لأنه شبعان وبالتالي لم يجد داعي للقتل. الأمر ذاته ينطبق على الذئب وغيره من الوحوش. حتى الأفاعي والعقارب لا تؤذي الإنسان سوى في حالة الدفاع عن النفس. أما الإنسان الدنيوي فهو مستعد للقتل في أي لحظة ولأي سبب. يمكننا إجراء المقارنات إلى لانهاية لكن أعتقد بأن الصورة توضحت الآن. إذاً، الطبيعة الحيوانية وحدها لا تمثّل أي مشكلة في الإنسان، لكنها تتحول إلى كارثة خطيرة بعد اجتماعها مع التربية الاجتماعية التي ترجّح النوازع الدنيوية.

منذ ولادته في هذه الدنيا، يتلقى الفرد من والديه وراثة جينية وجسدية تجعله خاضعاً بالفطرة للغريزة الحيوانية، لكن بالإضافة إلى ذلك فهو يتلقى تربية دنيوية بحتة، حتى لو اتخذت طابع ديني (بسبب النفاق الذي تتسم به المجتمعات البشرية الدنيوية)، فأصبح ذكاءه الذي تميّز به موجهاً للمحافظة على الذات الدنيوية وتطويرها في الحياة إلى أقصى درجة ممكنة ومهما كان الثمن. وفق هذه الظروف يصبح من الصعب جداً على الفرد أن يتغلب على هذه الدوافع الطاغية لينجح في تشكيل شخصية مستقلة عن الحشود. عليه أن يستقيل من مشاركة القدر ذاته مع باقي البشر وهذا طبعاً شبه مستحيل، إلا إذا كان محظوظ بما يكفي ليجد إحدى المدارس السرية التي تساعده في هذا المسعى.

تشدّد الفلسفة السرية على أنه لا يمكن أن يحصل أي تقدم روحي أو أخلاقي إذا لم يقطع الإنسان الحبل السرّي الذي يوصله بالعقل الجماعي الحيواني المسيطر على الفصيلة البشرية والذي يعمل على تغذية وتعزيز الطبيعة الحيوانية المتوحّشة في الإنسان. هذا الحدث المهم (قطع الحبل) له أثر كبير لا رجوع فيه ويحصل فقط في صفوف المدارس السريّة الأصيلة. هناك الكثير من المدارس الصوفية والباطنية حول العالم، لكنها لا تتعامل بأي طريقة من الطرق مع العقل الجماعي الحيواني الذي يسيطر على كيان المريد أو التلميذ، فعمل هذه المدارس محصور ضمن تلقين تعاليم صوفية معيّنة لا تقدم ولا تؤخّر في نفس الفرد، بل بالعكس حيث قد تعمل أحياناً كثيرة على زيادة درجة الوحشية في كيانه العقلي.

أصبحت عملية وحشنة الكيان العقلي مألوفة في هذا العصر، حيث كلما زاد ذكاء الفرد زادت قوة الوحش في داخله، وسوف يستخدم الوحش هذا الذكاء لإشباع غرائزه ونزواته الدنيوية الخاصة دون اعتبار لأي شيء آخر.

العقل الجماعي الحيواني يحفّز على المنافسة الشرسة غير الإنسانية، ويدفع الفرد إلى القتل من أجل أن يأكل أو يعيش بترف ورخاء. هناك أشكال عديدة للموت، والموت الجسدي هو أسهلها وأبسطها، حيث هناك أشكل أبشع وأكثر إيلاماً، مثل الموت البطيء الناتج من تدمير التوق الداخلي للفرد. يمكننا أن نقتل الآخرين من خلال تحطيم إرادتهم أو استغلالهم دون شفقة، أو ردّ الشرّ بالشرّ، أو تدمير محبتهم أو صحتهم العقلية أو سعادتهم أو سلامهم الداخلي، وقد يكون ذلك عبر الافتراء عليهم أو إهانتهم أو التمتع بقساوة القلب أو برودة العاطفة تجاه مآسيهم ومشاكلهم.

لا يبدو مستقبل الإنسانية واعداً، حيث التقدم المتسارع لتطوير ذكاء بارد وغير إنساني، وتفكير مجرّد من الحب والمحتوى الروحي. التقدم الذي تشهده الحضارة البشرية يخلق عمالقة فكريين لكن أقزام روحيين، تجرّد شبه كامل من الضمير والإنسانية. السبب هو انه منذ لحظة ولادتنا تسعى التربية التقليدية إلى حجب الذات الحقيقية في جوهرنا، فتنشط الذات الدنيوية وتسمح للطبيعة الحيوانية أن تسيطر علينا كلياً.

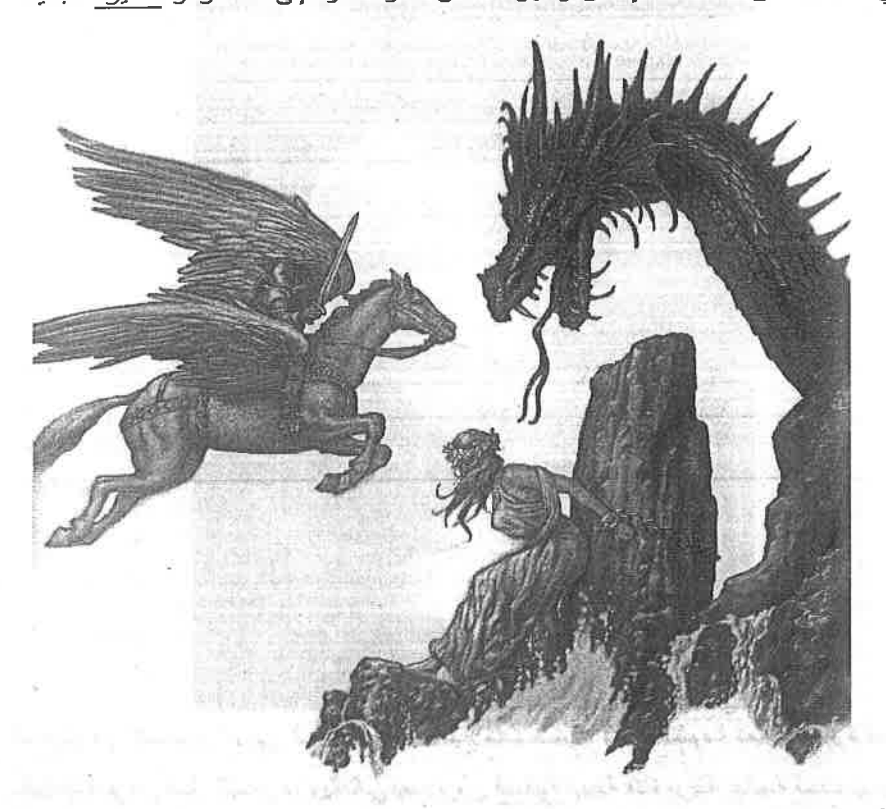
الإمكانية الوحيدة للخلاص هي التعرّف على التركيبة الحقيقية للإنسان، والتصرّف بناء على هذا الأساس. لقد كان الحكماء القدامى على إلمام كامل بهذه التركيبة الباطنية للإنسان. عرفوا بأن ما

يقبع في المركز هو الأصيل بينما ما يقبع في القشرة الخارجية هو مزيّف. لكنهم عرفوا أمور كثيرة اخرى تتجاوز إدراك الإنسان العادي بحيث لم يفطن له أبداً. لقد تعرفوا على القوى التي تمنعه من الوصول إلى ذاته الحقيقية، وهذه هي الغاية الأسمى لدى كافة الأديان والمذاهب الفلسفية والباطنية. أما القوى التي تسيطر على كيانه وتمنعه من إدراك نفسه فهي كثيرة ومتعددة، وطالما مثلوها في الأساطير على شكل وحوش ومسوخ جبارة وجب على البطل أن يصارعها حتى الموت لكي ينال الجائزة الأبدية (سوف أشرحها جميعاً بالتفصيل في الجزء التالي) لكن قبل أن يبدأ المريد في مشواره الطويل إلى إحراز ذاته الحقيقية، وتخليص نفسه من براثن الوحش، عليه القضاء على شخصيته الوهمية التي يصورونها على شكل أسد. وهذا ما فعله شمشون (رجل الشمس) وهرقل وغيرهما من أبطال الأساطير.



البطل يقتل الأسد.. أي المريد يقتل شخصيته الوهمية.. هذه الشخصية الأنانية المستعدة لاقتراف اي عمل مشين من اجل تحقيق طموحاتها الدنيوية. هذا الوحش الذي خلقته بيئته الاجتماعية الدنيوية، والذي راح يصول ويجول باحثاً عن الارتقاء والمكانة البارزة والتميز على حساب عذاب الآخرين تاركاً بهذا المسعى الأناني دمار كبير في محيطه وضحايا لا تعد ولا تحصى...

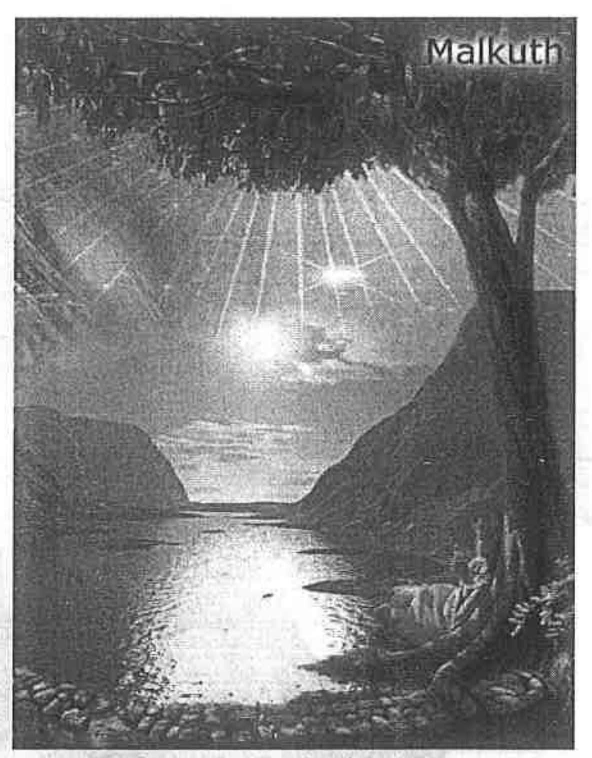
أشهر السيناريوهات التي تناولتها أساطير المدارس السرية المختلفة حول العالم هي تلـك التـي تتحدث عن التنين الذي يخطف الأميرة الجميلة وعلى البطل (الذات) أن يخلـصها مـن سـجنها الأبدي. لقد عرفنا ما يمثله البطل في الأسطورة، وكذلك التنين الذي يرمز إلى المغريات الدنيوية التي تسيطر على انفعالات الإنسان وشهواته. لكن السؤال هو: إلى ماذا ترمز الأميرة الجميلة؟



غالباً ما تتحدث الأساطير عن أميرة جميلة يخطفها الوحش (الذي يكون غالباً بهيئة تنين).. وعلى الفارس الشجاع أن يكافح إلى تخليص الأميرة

ترمز الأميرة الجميلة إلى المبدأ الأنثوي، أي هي تشمل المحتوى الإلهي الذي يقبـع فـي القـسم الدنيوي، أو المثلث الأخير في شجرة الحياة، أي الكينونة. لكن تعاليم القبالة تتحدث عن شيء آخر هو "السكينة" Shekinah التي تقبع عند قاعدة الشجرة، أي في المادة. كما تعلم فإن المادة ليـست بهذه الدرجة من الصلابة التي نراها، بل هي مجموعة تفاعلات للمحتوى الإلهي المتذبذب علـى الدوام. أي أن المادة في النهاية هي المحتوى الإلهي الذي أصبح في درجة معيّنة من الـصلابة.

السكينة هنا هي المحتوى الإلهي الذي تبلور واصبح مادياً في كينونة الإنسان، وهي التي يستحوذ عليها الشيطان أو التنين.

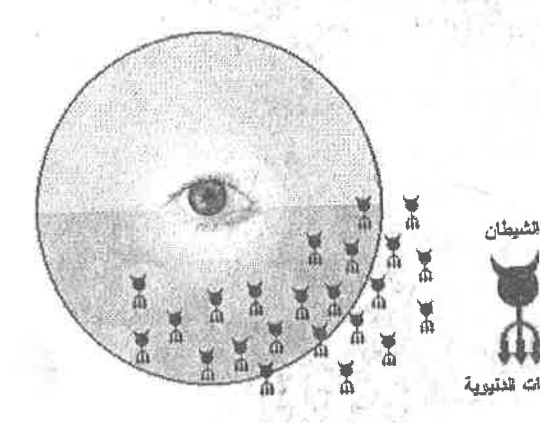


السكينة هي المحتوى الإلهي الذي تبلور وأصبح مادة صلبة، وفي منظومة تعاليم شجرة الحياة، المادة تقبع في أسفل الشجرة، وبالتالي يصورون السكينة بهيئة فتاة بريئة جالسة تحت شجرة.

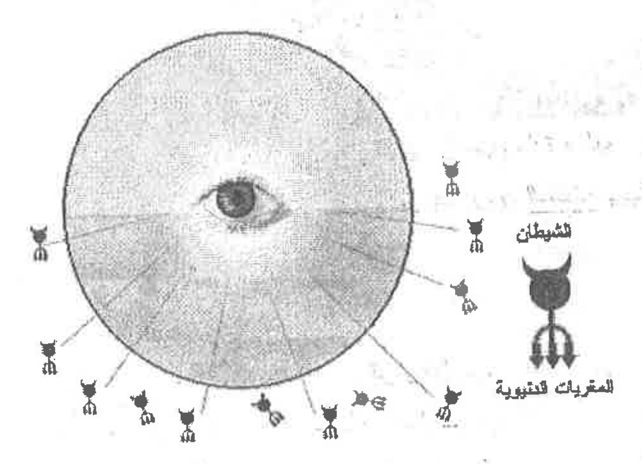


السكينة، أو المبدأ الأنثوي، أو المحتوى الإلهي، الذي تبلور وأصبح مادة، تصورها إحدى اللوحات الفنية على شكل حورية مجنّحة محبوسة داخل تابوت زجاجي (المادة الميتة).

في أسطورة أوزيريس وإيزيس المصرية، يصورون كيف يخطف الشيطان إيزيس (المبدأ الأنثوي) بعد قتل أوزيريس (المبدأ الذكري). فيظهر حورس الابن المقدس، ويخلّص إيزيس بعد قتل الشيطان. (سوف أتناول هذه الأسطورة في الجزء القادم، كما أني سأزيد من توضيح فكرة المبدأ الأنثوي ودوره الجوهري). هذا السيناريو يشبه تماماً قصة الأميرة والتنين. تخليص الأميرة (المبدأ الأنثوي) من التنين يعني تطهير النفس المدنّسة بالمغريات الدنيوية، ويمكن التعبير عن هذه الفكرة بالصور التالية.



الصورة المقابلة تبيّن الكينونة موبوئة بالمغريات الدنيوية مما يمنعها من التعبير عن ذاتها.



الصورة المقابلة تبيّن كيف قامت "الذات" بتخليص الكينونة من المغريات الدنيوية.

من هنا جاء مفهوم "محاربة التنين او الأفعى" والذي ساد في كل الثقافات القديمة، فهذه المهمة ليست سهلة، حيث مقاومة المغريات الدنيوية تتطلب الكثير من البأس والحزم والجلَد والشجاعة.

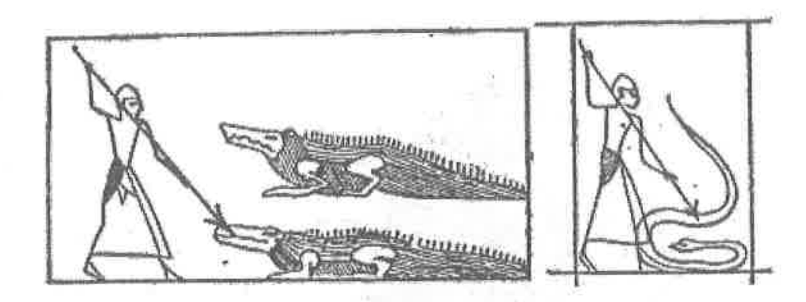
مصارعة الأفعى أو التنين

كانت الأفعى العظيمة، التي ترمز للقوة المحرّكة للكون، معبودة من قبل كافة الحضارات القديمة حول العالم، بابل ومصر وبلاد فارس والهند والصين والمكسيك وبريطانيا واسكنديناڤيا وإيطاليا واليونان وآسيا الصغرى وفينيقيا وافريقيا وغيرها وغيرها.. جميعها زينت معابدها بصور ولوحات فنية تمثل الأفعى العظيمة (كما رأينا سابقاً في هذا الكتاب). لكن مع ذلك، بالإضافة إلى كونها تمثّل بالنسبة لهم الإرادة الإلهية التي حرّكت الكون، نجد أنها في نفس الوقت ترمز للقوة الدنيوية الماحقة التي تقيّد الإنسان بأغلال المسرات الدنيوية فتعميه عن الحقيقة وتمنعه من التطور الروحي. فنرى في نفس الحضارات المذكورة ظهور أساطير تتحدث عن الإله البطل الذي انتصر على الأفعى الشريرة. فقرأنا مثلاً عن "أبولو" الذي ذبح الأفعى "بايثون"، و"هرقل" الذي قتل التنين، وكريشنا الذي قتل "كاليا" ملكة الأفاعي، و"ثور" الذي قضى على الأفعى التي رميت في البحر، والملاك ميخائيل الذي ذبح التنين الاحمر، والقديس جرجوس الذي تغلب على التنين وكذلك الخضر في التراث الإسلامي الذي ذبح التنين، وتحدثت الأساطير القديمة عن بعل الذي قضى على التنين، وحورس الذي قتل الأفعى.. وهكذا إلى آخره.



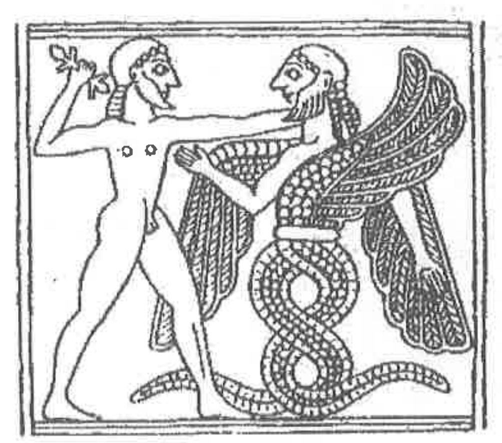
كريشنا يصارع الأفعى الشريرة (الطبيعة الدنيوية التي تسيطر على الإنسان)

الصورة الأولى تبيّن كريشنا مقيّد من قبل الأفعى "كاليا" التي تلتفّ حوله وتعضّ قدمه، وهو ينتظر مساعدة "إندرا" ليتمكن بعدها من التغلب على العدو. الصورة الثانية تبيّن كريشنا منتصراً على "كاليا" من خلال القبض عليها بيديه وتحطيم رأسها تحت قدمه.

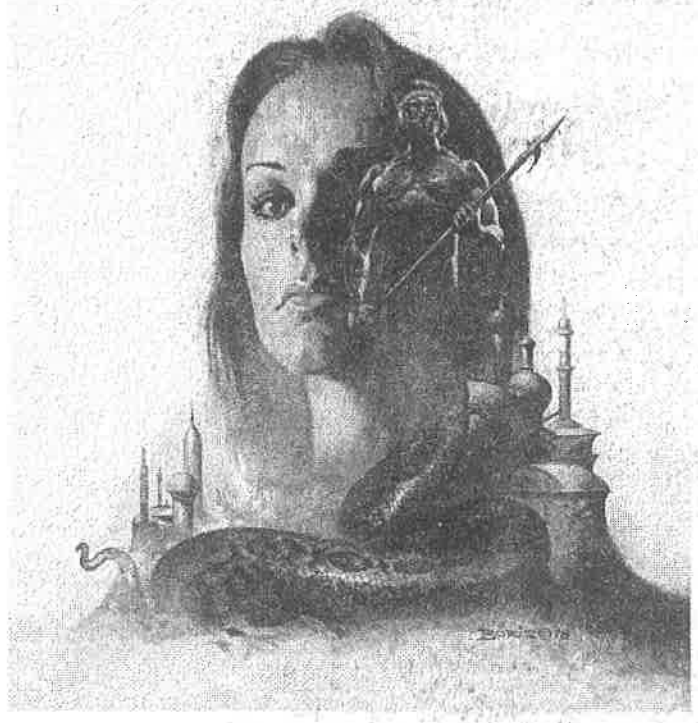




صور مختلفة من الفنون المصرية التي تبيّن عملية صراع مع الأفعى أو التمساح (وأنواع مختلفة من الزواحف). غالباً ما كان المصريون القدامى يرمزون إلى "شط"(الشيطان) بالتمساح الذي يُعتبر حيوان دنيوي شكلاً ومزاجاً، لهذا السبب نراهم أحياناً يصورونه مكان الأفعى.



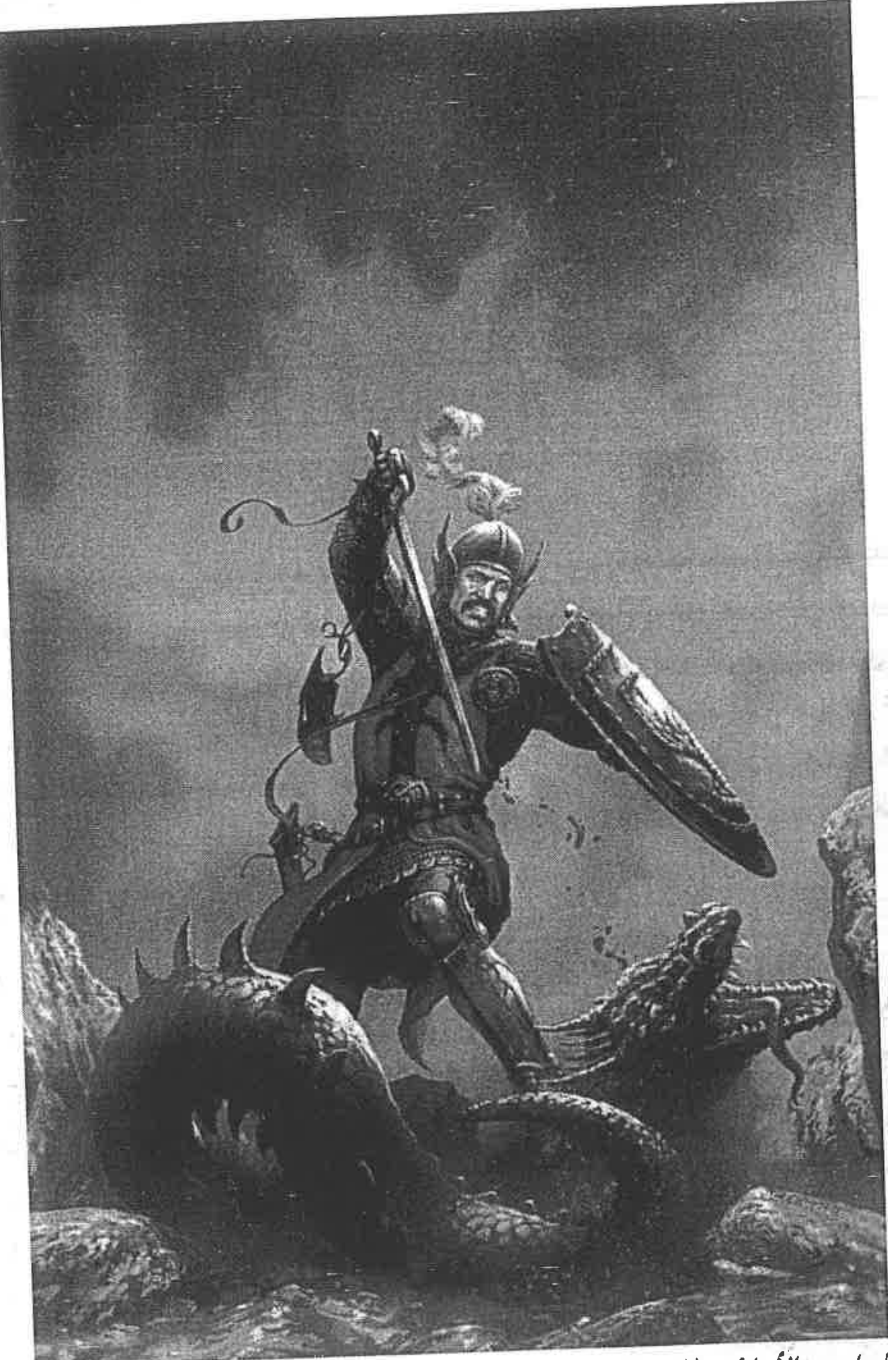
زيوس يحارب تايفون (الشيطان) الذي يتخذ شكل أفعى



المغريات الأرضية التي تقيّد الإنسان بأغلال المسرات الدنيوية فتعميه عن الحقيقة وتمنعه من التطور الروحي غالباً ما يصورونها على شكل تنين أو أفعى تختطف الأميرة الجميلة التي تمثّل المبدأ الأنثوي لدى الفرد

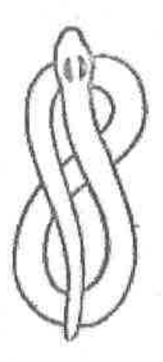


مشهد آخر يتكرر في الأساطير، مقارعة الفارس للتنين الذي لا يُقهر بسهولة. مهمة الفرد ليست سهلة للتحرّر من طغيان شهواته الدنيوية بل يتطلب الأمر الكثير من الكفاح والشجاعة والعزم.



بطل إحدى الأساطير (التي يتكرر ذكرها بين كل الشعوب) يقتل الأفعى العملاقة (أو التنين) لتخليص الأمير (المبدأ الأنثوي) من الأسر.

أفعى الحكمة والقوى الخفية



خلال الانتساب إلى المدرسة السرية، على الفرد المتنور أن يواجه انفعالاته وشهواته الدنيوية والتي مثلوها بوحش مخيف (غالباً تنين أو أفعى شرسة وضخمة) وعلى الفرد أن يكون إما ضحيته أو متغلباً عليه. إذا انتصر عليه سوف يصبح هذا الوحش داخل الفرد روحانياً أي كما ورد ذكره بصفته "تنين الحكمة". أي يصبح سيّد القوى الخفية. هذه العملية هي ذاتها التي تمثّل عملية "الولادة من جديد" المألوفة جيداً بين المنتسبين إلى المدارس السرية، إذ أن المنتسب الجديد، بعد فترة من التدريب وتهذيب النفس، يبدّل شخصيته القديمة بشخصية جديدة تماماً، أي كأنه مات وولد من جديد.

تحدثت المخطوطات السنسكريتية عن "ناغا" Naga، رمز الخلود والحكمة، وكذلك عن تجدّد الولادات وعن المعرفة السرية. وعندما تصوّر الأفعى بأنها تعض ذيلها فهذا رمز الأبدية. الـ"ناغاس" أو أفاعي الحكمة هم ذاتهم المنتسبين إلى المدارس السرية.. الذين أصبحوا أكثر حكمة من الأفاعي، لانهم أبناء الإرادة واليوغا، وقد ارتقوا إلى ما هو أعلى من المستوى الذي حصل فيه انفصال بين الجنسين، ولدوا وتكوّنوا في البيوض التي خلقتها قوة الحكماء القدامى (التعاليم السرية). هؤلاء الـ"ناغاس" هم الحكماء الأوائل للإنسانية جمعاء والذين رمزوا لهم بالأفاعي والتنانين (جمع تنين)، ولازال الصينيون يشيرون إليهم بـ"تنانين الحكمة".

تعني كلمة "ناغوال" nagual في المكسيك الساحر أو الطبيب، وهذا قد يشير إلى أن هؤلاء يمثلون أحفاد الـ"ناغا" الأوائل، أفاعي الحكمة، الذين لجؤوا إلى أمريكا الجنوبية أيام أطلنطس.

وهناك مصطلح عبري قريب الصلة وهو "ناهاش" الذي يعني السحر. على أي حال، فإن القصد من مفهوم "أفاعي الحكمة" في جميع الثقافات هو إشارة إلى الذين أصبحوا قادرين على إيقاض قوى تجاوزية هائلة بجوهرهم (كما حالة الكونداليني مثلاً) والتحكم بها كما شاؤوا، بالإضافة إلى حوزتهم على الحكمة التجاوزية (العرفانية).



التنين Dragon يمثل المظهر الشرس لرمزية الأفعى، الحركة العنيفة للقوى الكونية

يمكن مساواة الـ"ناغا" بـ"أنانتا سيشا"، أفعة "براهما" الخالدة (أو "فيشنو" أحياناً) ذات الرؤوس الخمسة (أو السبعة أحياناً)، وكذلك إلى التنين العظيم الذي يعض ذيله (الهامد) بواسطة رأسه (النشط) والذي انطلقت من إشعاعاته العوالم والكائنات والأشياء.

لكن هناك اسم آخر استخدمته التعاليم الهندوسية للإشارة إلى الأفعى وهو المصطلح "ساربا" sarpa. هناك فرق كبير بين الاسمين "ساربا" و"ناغا" رغم انهما يُستخدمان حالياً بشكل اعتباطي ودون أي تفريق. الكلمة السنسكريتية "ساربا" تعني السلّ أو الزحف خلسة. بينما أفاعي الـ"الناغا" لا تزحف أو تسلّ بل تمشي وتركض وتقاتل. هذا التمييز بين نوعين مختلفين للأفعى يدلّ على

وجود قوتين في الكون: قوة دنيوية ظلامية تمثلها أفعى الـــ"ساربا" وقوة علوية نورانيـــة تمثلهـــا افعى الـــ"ناغا".

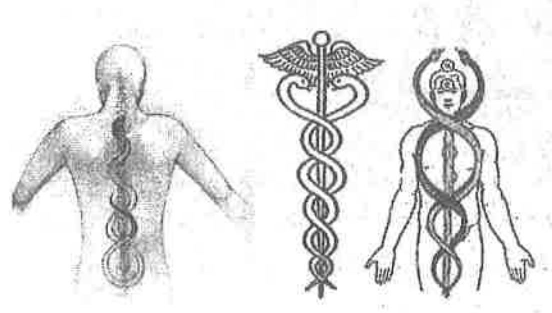


هنا يظهر الفرق الواضح بين الأفعة السماوية والأفعى الدنيوية. لاحظ كيف يدوس براهما على الأفعى السوداء تحت قدميه، بينما تحلّق فوق رأسه الأفعى خماسية الرؤوس (أحياناً يكون عددها في الصور سبعة) هي العناصر الخمسة التي أحيت الكون المتجسّد.




يُعتبر التنين أحد المظاهر العنيفة لرمزية الأفعى، فهو حارس الكنوز المقدسة، وهو أيضاً المدمّر الشرس لكل من حاول الحوزة بالقوة على الكنوز التي لا يستحقها. من أجل النجاح في الحوزة على المعرفة علينا أولاً تدجين الأفعى التي تحكم العالم الدنيوي، مثل رفض الخضوع للنزوات الدنيوية والممثلة بامتناع المسيح (أو حورس أو ميثرا..) عن الخضوع للشيطان.

يصورون في التعاليم كيف الكواكب السبعة أو المبادئ الكونية السبعة تشكّل قوام أفعى، وهذه رمزية لا يمكن أن نفهمها إلا بعد الاطلاع على قصة الخلق في هذا الكتاب، لكن مختصرها هو أن المبادئ السبعة التي تشكلت أثناء عملية الخلق (كما وصفتها في هذا الكتاب) يتم إحياءها بفعل حركة الأفعى وهذه الحركة بدورها أصبحت تتألف من سبعة قوى تتبادل على الدوام. إحدى التجسيدات السباعية لهذه الطاقة الدوامية الواعية في الإنسان هي تلك التي تُسمى "كونداليني ساكتي" أي القوى الأفعوية، والتي تقبع ساكنة في الإنسان العادي حيث تكاد تدير الإجراءات الحيوية الروتينية في جسده، لكن مجرّد ان تم إيقاضها من سباتها سوف تنتفض كما ضربة الرعد وترقى بالفرد إلى مستويات عالية من القوى الروحية.



الأفعى المزدوجة وفق مفهوم الكونداليني، ويبدو على اليسار طاقة الأفعى الكامنة في أسفل العمود الفقري والتي تتسلّل ببطئ إلى الأعلى مع تقدم الفرد في التدريبات.

الكادوكوس

Caduceus

رمز الصولجان والأفعتين



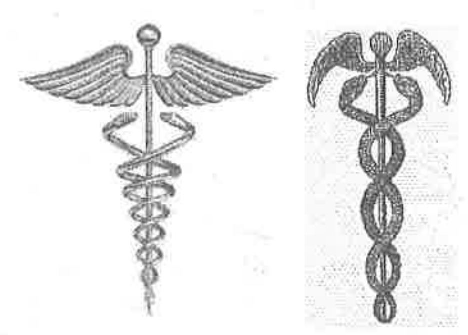
العصى أو الصولجان الملفوف حوله أفعى يرمز إلى كامل قصة الخلق العظيمة، فالصولجان يمثّل المظهر البنيوي للكون (وهو في الحقيقة يرمز لشجرة الحياة التي هي أيضاً تمثّل مخطط تفصيلي لبنية الكون) بينما الأفعى تمثّل قوى الخلق التي تحيي هذه البنية الهيكلية للكون.



عصى مع أفعى واحدة

غالباً ما أضافوا بعض التفاصيل الأخرى لرمز الصولجان كما هي الحال مع صولجان هرمز الملفوف حوله أفعتان، مما يرمز إلى المظهر المزدوج للأفعى. في بداية الخلق نتج قطبين متناقضين في الكرة الكونية هما الروح والمادة، وبدأ على الفور يحصل تفاعل بين القوى السفلية والقوى العلوية للكرة. لهذا السبب نظّر الحكماء بأن لكل شيء مظهرين متناقضين، فهرمز مثلاً،

والذي يمثّل مبدأ الذكاء الكوني، يمكنه أن يكون حكيماً أو يكون لصاً. يمكن لهذا المفهوم الأفعوي (ذو قطبين) أن يتجلى في كافة مستويات الكون. الإرادة المنحرفة للإنسان قد تجعله يستثمر القوى الطبيعية نحو غايات شريرة، لهذا السبب نتكلم عن الأفعى الخيّرة والأفعى الشريرة، أي عن "أغاثوديمون" أو "كاكوديمون"، أو عن "أوفيس" و"أوفيومورفوس". هذه الازدواجية في تصنيف الأفعى تدلّ على إمكانيتها أن تكون حكيمة أو مشعوذة.



صولجان "الكادوكوس" Caduceus والأفعتين الممثلتين لازدواجية القطبية

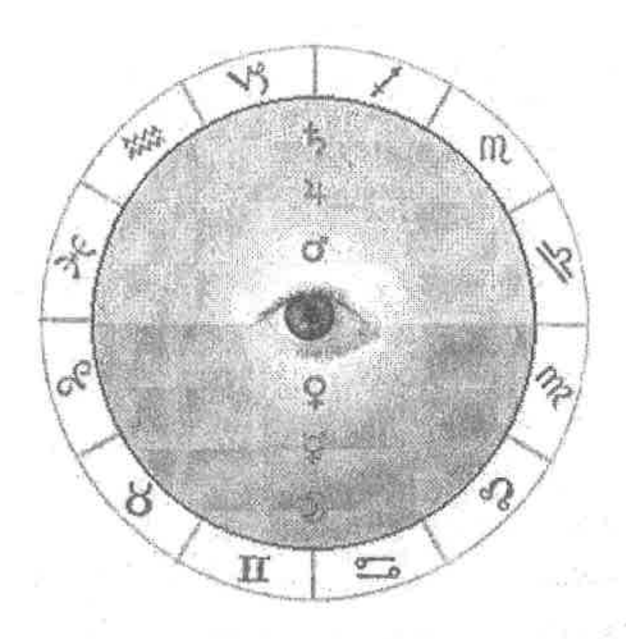
"الكادوكوس" Caduceus تعني صولجان الرسول، ويقصد بها صولجان هرمز (أو عطارد، تيهوتي أو غيره من اسماء حسب الحضارة) رسول الآلهة وإله الحكمة. تتألف من صولجان (يرمز لشجرة الحياة) ملفوف حوله أفعتان (الروح والمادة) باتجاهات متعاكسة بينما ذيلهما تلتقيان في الأسفل ورأسيهما تتقابلان في الأعلى. في أعلى الصولجان يوجد كوكب أو عقدة كروية الشكل (البيضة الكونية) ويبرز من جانبيه جناحان.



شعار "البيضة المجنحة والأفعى" متشابه في أماكن مختلفة حول العالم. من اليمين: في معبد الأقصر في مصر، ومعبد "نقش رستم" في إيران، ومعبد قديم في "أغوسينغو" في المكسيك.

المنطقة العلوية للصولجان حيث وجود الجناحين يمثّل العالم التجاوزي الذي تمت فيه عملية الخلق إذ نشأت القوتين المتناقضتين، ثم تتدرّج العملية عبر المستويات المختلفة للتجلّي، والممثّلة بالتفاف الأفعتين نزولاً عبر الصولجان، حتى مستوى التجسيد المادي حيث تلتقي ذيول الأفعتين. هذا

التشبيه المجازي موجود في كافة روايات خلق الكون في الحضارات القديمة، حيث تشرح كيف بدأ الخلق من دائرة أو كرة أو بيضة عذراء ثم تنشأ التجليات الأولى للروح والمادة وتتدرّج عبر سلّم التجسيد، والقوى الإيجابية والسلبية تتفاعل بطريقة مختلفة عند كل مستوى، وصولاً إلى التجسيد المادي.

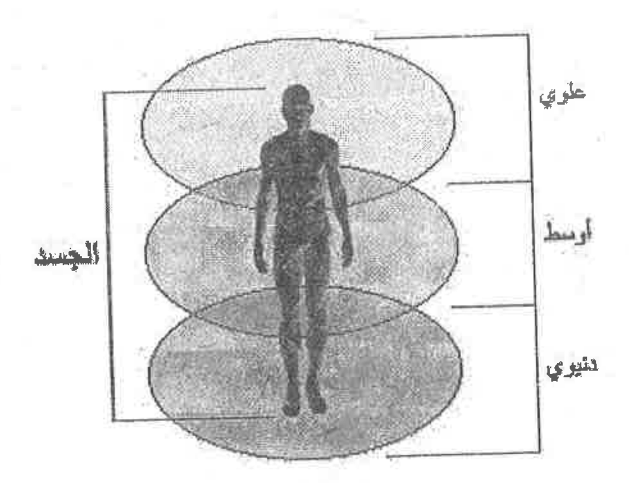


من أجل أن ينجح لإنسان في الخلاص من قيود العالم المادي، عليه التعرف على القوى والطاقات الكونية التي تحبسه في العالم المادي وتمنعه من معرفة نفسه والتعبير عن ذاته.

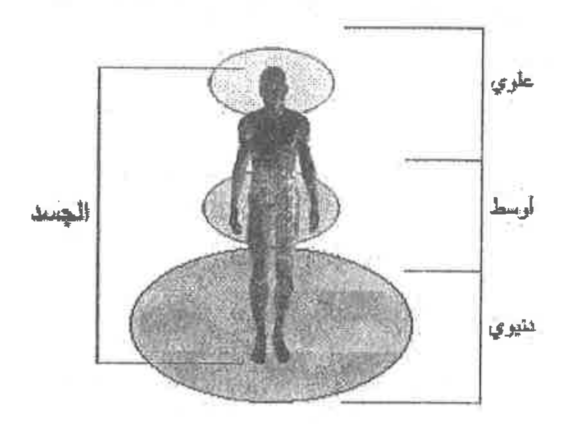
من يعلم جيداً طريقة عمل هذه القوى وطبيعتها الفعلية سوف يستطيع التعامل معها بطريقة مناسبة تمكنه من النجاح في مسعاه نحو إحراز المستوى التجاوزي.

خلاصة عمل التعاليم الروحية وفق مبدأ التكوين الثلاثي للإنسان

قلنا بأن الإنسان مؤلف من ثلاثة مكونات رئيسية: [١] المستوى التجاوزي (أي الذات العليا)، [٢] مستوى الوعي (الذات الوسطى)، [٣] مستوى الكينونة (الذات الدنيا). في الحالة العادية تكون هذه المكونات متوازنة بحيث كل منها يلعب دوره على أكمل وجه، إذ تنال [الذات الوسطى] من [القسم العلوي] خصائصه التجاوزية، ومع اندماجها مع [القسم الدنيوي] تصبح [الذات الوسطى] عرضة لمحدوديات العالم المادي المحسوس وتخضع لقوانينه المقيّدة. فالإنسان إذاً ينهل من الوفرة غير المحدودة للقسم العلوي من جهة ويُجسّد تلك الوفرة دنيوياً من جهة أخرى عبر مبادئ التراتب والتناغم والجمال. يمكن تصوير هذه المكونات الثلاثة في حالة توازنها على الشكل التالي:

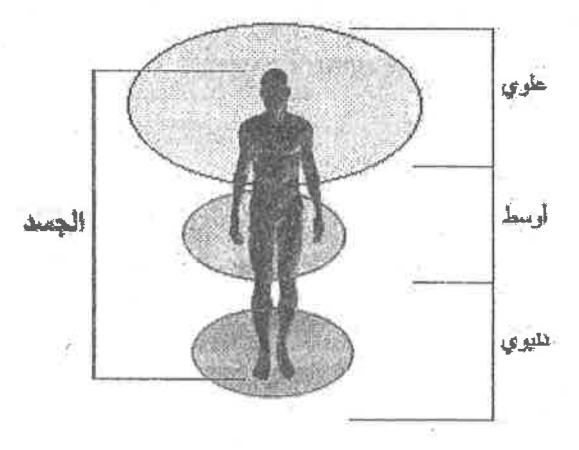


لكن هذا الدور الذي تلعبه [الذات الوسطى] هو في الحالة النموذجية فقط، بينما في الحقيقة نجد أن دورها يكاد يغيب تماماً عند الإنسان بسبب طغيان القسم الدنيوي وراح يتعامل مع بيئته عبر شخصية وهمية مأخوذة بالعالم الظواهري ومغرياته. يمكن تصوير هذه الحالة المنحرفة في مكونات الإنسان على الشكل التالي:

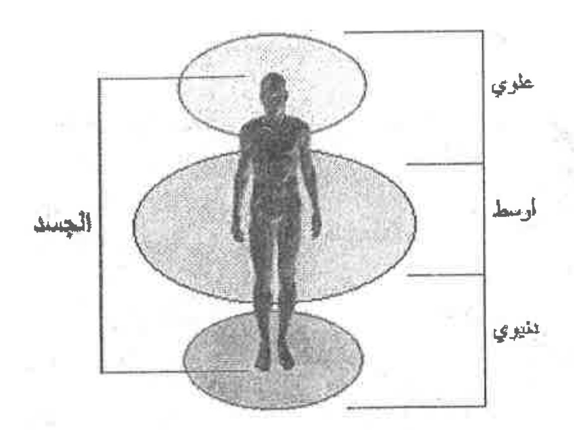


هنا يدخل دور التعاليم السرية التي مهمتها إعادة الذات إلى مكانتها الحقيقية، أي إعادة التوازن إلى المكونات الثلاثة في الإنسان. لكن الأمر لا يتوقف عن هذا الحد إذ هناك خيارات أخرى تتجاوز مستوى التوازن الطبيعي لهذه المكونات. يمكن تقسيم هذه الخيارات إلى صنفين منفصلين:

١ــ يمكن تغليب القسم العلوي (التجاوزي) على القسمين الأوسط والدنيوي، وهذا ما يّسمى عموماً بمذهب الرهبنة أو التنسك. يمكن تصوير هذه الحالة على الشكل التالي:



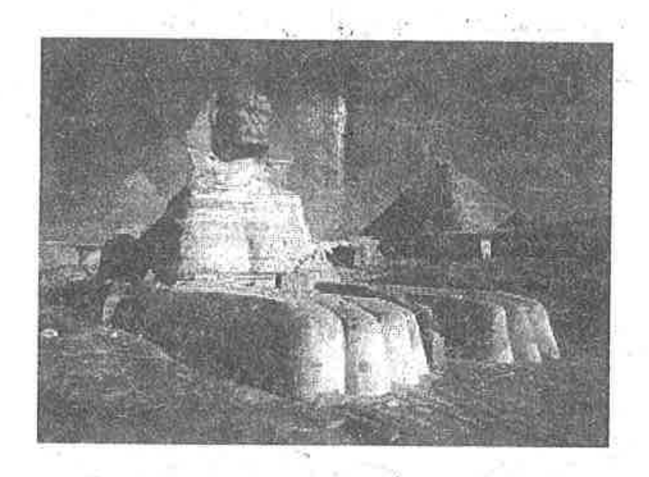
٢ــ يمكن تغليب القسم الأوسط (الوعي) على القسمين العلوي والدنيوي، وهذا يُسمى عموماً مذهب السحر أو الكهنوتية أو أي مصطلح أو لقب يعني السيادة على قوى الطبيعة، والراجا يوغا في الهند ينتمي إلى هذا المذهب تحديداً. يمكن تصوير هذه الحالة على الشكل التالي:



لكن هذه المهمة ليست سهلة إطلاقاً إذ صوّروها بأنها تشبه مصارعة الوحش أو التنين (مغريات العالم المادي). وكل مذهب له وحوشه الخاصة (تحديات خاصة) التي وجب على المريد مواجهتها والتغلب عليها قبل أن يحرز المرتبة التي يسعى إليها. (سأتناولها بالتفصيل عبر الأجزاء القادمة).

هذا بالضبط ما كان يجري في الجامعة العالمية في الجيزة بمصر.. هذا المكان الجليل الذي شهد ذروة مجده قبل عشرة آلاف سنة على الأقل، والذي أصبح يُعتبر اليوم مجرّد مدفن لملك دنيوي وضيع! مجمع الأهرامات في الجيزة كان يمثّل جامعة عالمية يتوافد إليها المريدون من كل جهة وصوب في العالم القديم. دخلوا إليها كبشر، ثم خرجوا منها كآلهة. كان هذا المكان يُعتبر موقع "الولادة الثانية"، حيث يولد الشخص من جديد. إنه رحم التعاليم السرية، الذي مكثت فيه الحكمة كما يمكث الله في قلوب البشر!

الجامعة العالمية التي خرّجت الآلهة



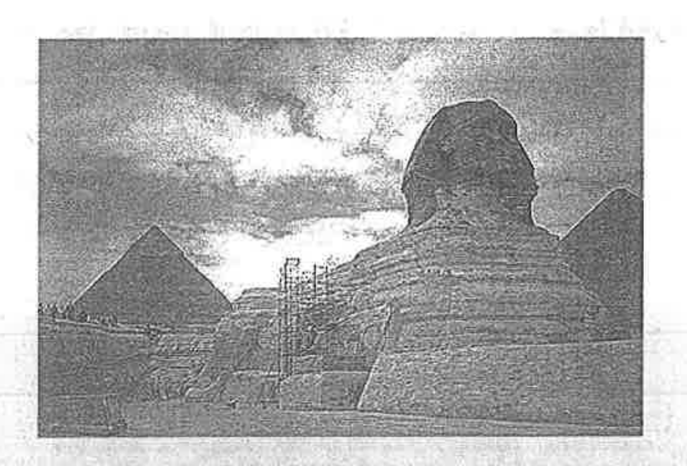
".. عبر الممرات والحجرات السرية في الهرم الأكبر، سار المتنوّرون في العالم القديم. دخلوا إليه كبشر، ثم خرجوا منه كآلهة. كان هذا المكان يُعتبر موقع "الولادة الثانية"، حيث يولد الشخص من جديد. إنه رحم التعاليم السرية، الذي مكثت فيه الحكمة كما يمكث الله في قلوب البشر.."

في الوقت الذي نرى فيه اليوم من يتباهى بتخرجه من جامعة أوكسفورد أو يال أو غيرهـا مـن الجامعات العالمية المحترمة، ننسى مسألة مهمة جداً، هذه المؤسسات التعليمية الراقيـة لا تهـتم سوى بتعليم الطالب كيف ينجح في الحياة الدنيوية.. العالم الأكاديمي اليوم يخرّج عمالقة فكـريين لكن أقزام روحيين.. هذا هو الفرق بين المؤسسات التعليمية الحالية وتلك التي كانت قائمـة فـي الماضي البعيد والتي نعتبرها اليوم مجرّد معابد وثنية بالغ القدماء في تمجيدها.

رغم أن العالم الحديث عرف أكثر من مليون سرّ، إلا أن العالم القديم عرف سرّ واحـد فقـط... وهذا الواحد هو أعظم من المليون. فالمليون سرّ يولّد الموت، الكوارث، البؤس، الحزن، الأنانية، الشهوة، الجشع... لكن السرّ الواحد منح الحياة، النور، والحقيقة. سوف يأتي الوقت عندما تسيطر فيه من جديد الحكمة السريّة على النزعات الدينية والفلسفية المشوّهة التي تسود العالم اليوم.

عند انتسابه إلى إحدى تلك المؤسسات التعليمية التي ازدهرت يوماً بكامل مجـدها فـي إحـدى العصور الغابرة، كان على الفرد الساعي إلى التنوّر أن يواجه انفعالاته وشهواته الدنيويـة التـي

مثلوها بوحش مخيف، وبالتالي على المريد أن يكون إما ضحيته أو متغلباً عليه. إذا انتصر عليه سوف يصبح هذا الوحش مروّضاً داخل الفرد، أي يصبح الفرد سيّده وبالتالي سيداً للقوى الكونية. هذه العملية هي ذاتها التي تمثّل عملية "الولادة من جديد" المألوفة جيداً بين المنتسبين إلى المدارس السرية، إذ أن المنتسب الجديد، بعد فترة من التدريب وتهذيب النفس، يبدّل شخصيته القديمة بشخصية جديدة تماماً، أي كأنه مات وولد من جديد.



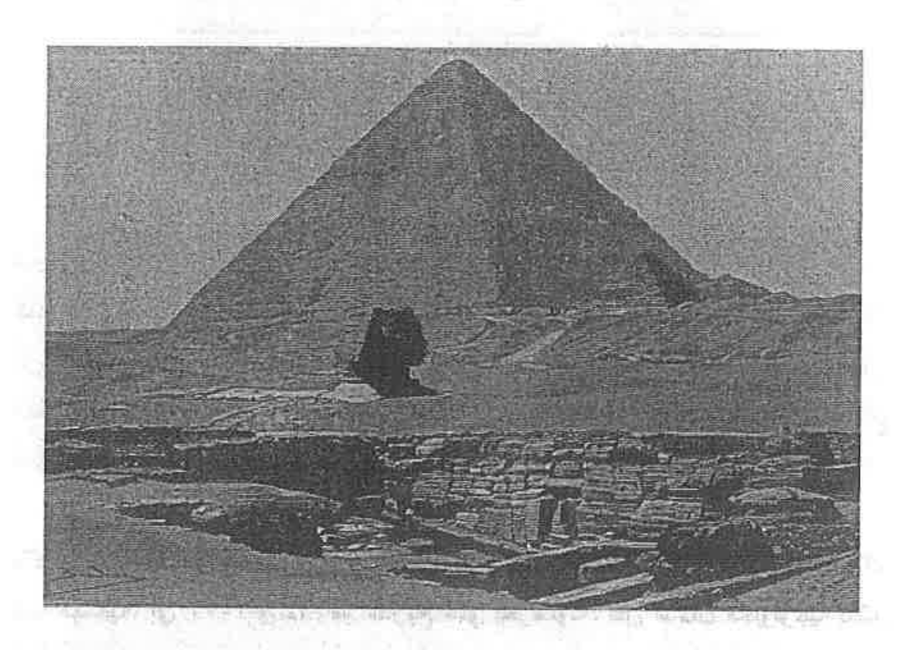
ليس هناك أي مؤسسة أخرى نجحت في إرضاء الاحتياجات الدينية للإنسانية. حيث منذ دمار المدارس السرية لم يعد هناك أي تشريع ديني يمكن لأفلاطون أن يؤيده. إن تجلي الطبيعة الروحية للإنسان يمثل علماً قائماً بذاته كما الحال مع علوم الفلك والطب والتشريع. من أجل تحقيق هذه الغاية تأسست الأديان أولاً، ومن الأديان انبثقت العلوم والفلسفة والمنطق كوسائل تساهم في تحقيق الغاية المقدسة الأولى.

يدّعي العلم المنهجي بأن الأهرامات قد بُنيت بواسطة أدوات بدائية ووسائل متوفرة في تلك الأيام شبه الهمجية، أي ٢٥٠٠ ق.م، وهو التاريخ الذي يفترضونه. لكن الدلائل الجيولوجية تكشف عن قصة مختلفة تماماً إذ تثبت حقيقة أن عمر أبو الهول يزيد عن ما يدعيه العلم المنهجي بمرتين على الأقلّ (أي لا يقل عن ٩٠٠٠ سنة) وقد عُرفت هذه القضية بـ"مناظرة التعرية المائية".

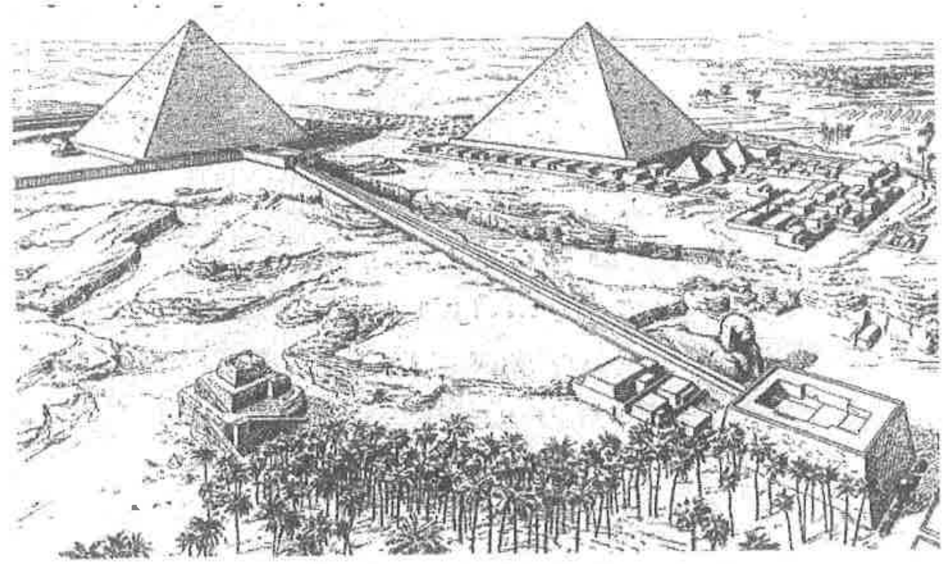
لماذا يجاهد علماء الآثار المنهجيين في إخفاء الحقيقة وتجنّب أي اختبار تجريبي لإثبات فرضيتهم؟ هم يعرفون في قرارة أنفسهم أن نظريتهم زائفة وليس لها علاقة بالواقع. هل يمكن

لعالِم محترف ومثقف أن يصدّق أن ٢,٣ مليون طن من الحجارة، وبعض هذه الحجارة يزن ٧٠ طن، تم نقلها ورفعها بواسطة وسائل بدائية؟

في الحقيقة، إن دوافعهم واضحة وجلية، إذا أُثبت بأن المصريين القدامى لم يبنوا الهرم الأكبر في العام ٢٥٠٠ ق.م مستخدمين وسائل بدائية، وأن تاريخ أبو الهول يعود لأكثر من ٩٠٠٠ ق.م، فسوف تتساقط أحجار الدومينو الواحد تلو الآخر! سوف ينهار كل شيء! النظرة التقليدية لتطوّر الحضارات تستند أساساً على تأريخ الحضارات التي انبثقت من سومر حوالي ٤٠٠٠ ق.م. وهذه النظرة الرسمية لنشوء الحضارات الأولية لا تسمح بوجود حضارات متطورة تسبق ذلك التاريخ. هذا كل ما في الأمر. علم التاريخ وعلم الآثار سيتجردان من أي معنى دون وجود خط زمني ثابت تستند عليه كمرجع عام يلتزم به الجميع.



لم تعُد تُسمع تراتيل الصلوات وهي تصدح في ممرات وحجرات ذلك الصرح العظيم. لم يعُد المنتسبون الجدد يمرّون عبر عناصر ومتاهات النجوم السبع. لم يعد المُرشّح يستلم "كلمة الحياة" من شفاه "السيّد الأبدي". لم يبقى الآن أمام العين سوى الهيكل الفارغ، الرمز الخارجي لحقيقة داخلية.. وأصبح الناس يشيرون إلى بيت الله على أنه مجرّد قبر!

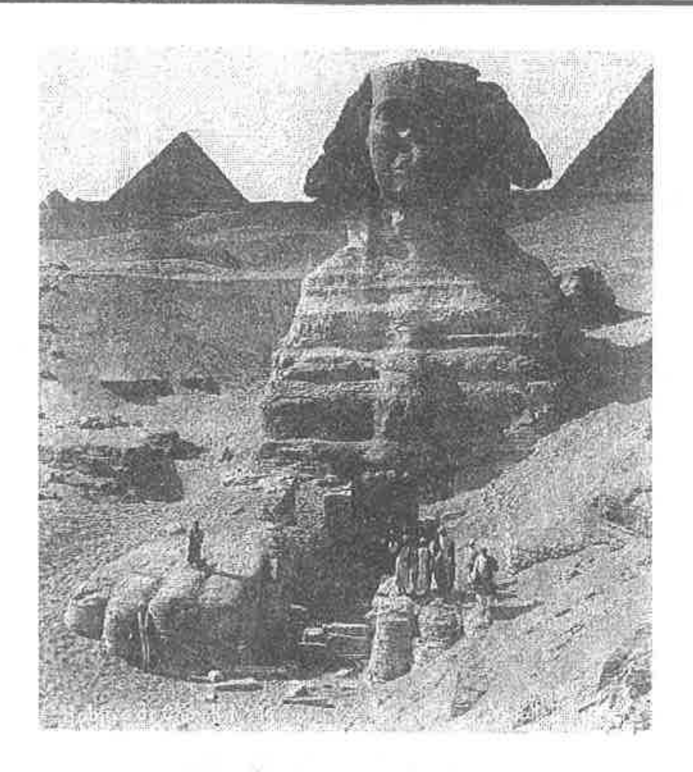


معبد "حور إي ماخو" كما تصورها أحد الرسامين

أين جناحيك يا حور إي ماخو...؟؟

يُشار إليه اليوم باسم "أبو الهول"، تمثال حجري يصوّر الرجل الأسد المتّكئ الذي حفروه من قطعة صخرية واحدة، كان يمثّل شعار المريد المتأهّب لخوض التدريب الضروري لتحويله إلى إله. لهذا كان اسمه "حور إي ماخو"، أي "حورس في الأفق". حورس يمثّل الذات الحقيقية في داخلنا، هو الابن المقدس، الذي يلوح في الأفق مستعداً للموت والولادة من جديد.

بينما تقوم رمال الزمن بدفن الحضارات الواحدة تلو الأخرى تحت أثقالها، سوف يبقى الهرم قائماً كميثاق مرئي وملموس بين الحكمة الأبدية والعالم. قد يأتي الوقت الذي تُسمع فيه من جديد تراتيل المتنورين في ممراته القديمة، وسيّد البيت الخفي الماكث في ذلك المكان الصامت سوف ينتظر مجيء المنتسب الجديد الذي تخلى عن سفسطة ومغالطات العقائد والمعتقدات السائدة في العالم ليبحث عن الحقيقة البسيطة، وسوف يكون راضياً بها، وليس غيرها من بدائل مزوّرة.."



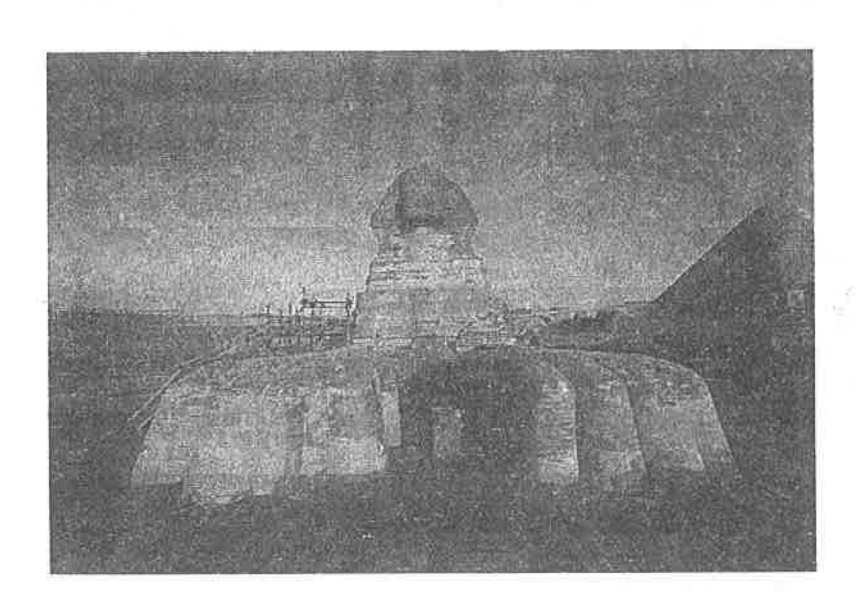
"حور إي ماخو"، أو "أبو الهول"، يخفي سرّ عميق لا يُكشف سوى للمؤهلين لمعرفته. هو يمثّل أحد الرموز التي صيغت بعدما وقعت البشرية كلياً في شباك المادية الدنيوية (عندما سقطت الارض في أيدي الأبالسة) وبالتالي كان على المعرفة المقدسة أن تُسحب من التداول الشعبي خوفاً من التدنيس وسوء الاستخدام.

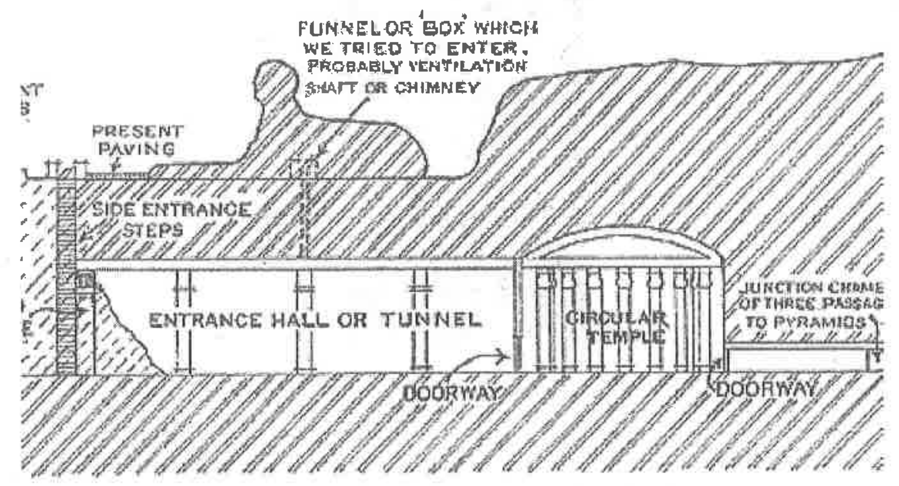
كان مألوفاً في القِدم صياغة رموز على شكل مخلوقات بشرية/حيوانية. بهذه الطريقة صيغت رموز الأبراج الفلكية، أو القنطور الإغريقي والرجل الثور الآشوري. هذه طريقة مجدية للإشارة إلى الطبيعة المركّبة للإنسان، إذ هو مؤلف من مكونات ونوازع وطبائع متنوعة. رجل الثور الآشوري الذي يملك جناحي النسر ورأس بشري يذكرنا بحقيقة أن الطبيعة الخفية للإنسان لديها أجنحة الإله، وعقل إنساني، وجسد حيواني.



عُرف عن القدماء بصياغة صور لكائنات مركّبة، أي تتألف من مكونات إنسانية وحيوانية معاً، وهذه المكونات تمثّل رموز لها معاني محددة، ومجموعها يحمل رسالة أو دلالة معيّنة

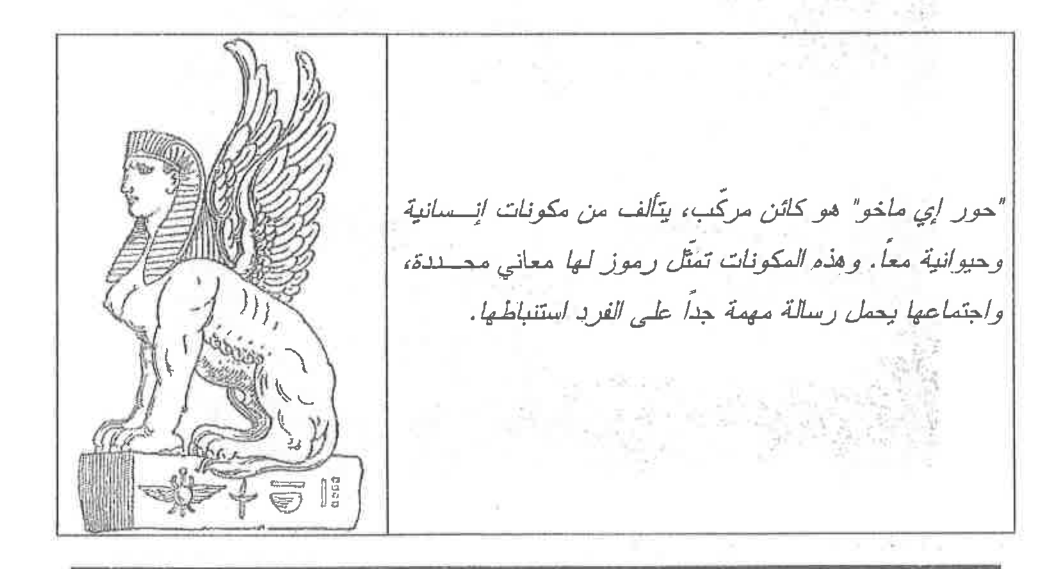
المفهوم ذاته ينطبق على "حور إي ماخو" (أبو الهول)، الحارس المتأهّب للتعاليم السريّة، إذ نـراه رابضاً عند بوابة المعبد (الجامعة) مانعاً دخول الدنيويين. لهذا السبب استُخدم هذا الرمـز ليمثّـل العقيدة السريّة بذاتها. كان المنتسيب الجديد يدخل حرم المعبد (الجامعة) بين مخالب هذا الـصرح الحجري المخيف الذي يحرس المدخل، فينزل عبر النفق تحت الأرضي المؤدي إلـى صـالات الحرم، وتبدأ رحلته المضنية في خوض سلسلة من الاختبارات القاسية إذ لا ينال شرف القبول إلا إذا نجح بتجاوزها جميعاً.





صورة مخطط هندسي للصالات القابعة تحت تمثال أبو الهول، وتثبت صحة مزاعم المراجع التاريخية التي تحدثت عنه كمدخل رئيسي إلى حرم الحكمة السرية

في لحظة قبوله في مدرسة المعبد، يكون الفرد قد ودّع حياته العادية (الدنيوية) وحضّر نفسه للدخول إلى حياة تجاوزية مختلفة تماماً. حينها يترتب عليه العيش بطريقة مختلفة ويتلقى العلوم والمعارف بطريقة مختلفة والقيام بالأعمال بطريقة مختلفة. لكن هناك مواصفات محدّدة وجب على المريد أن يتحلّى بها لكي يتمكن من النجاح في اجتياز الاختبارات، وهذه المواصفات مُبطنة على شكل رموز تمثّلها المكونات التي يتألف منها تمثال "حور إي ماخو" (أبو الهول).



"حور إي ماخو" هو كائن مركّب، يتألف من مكونات إنسانية وحيوانية معاً. وهذه المكونات تمثّل رموز لها معاني محددة، واجتماعها يحمل رسالة مهمة جداً على الفرد استنباطها.

لقد شغل هذا الرمز فلاسفة اليونان، وتفكّروا به كثيراً ومديداً حيث مثّل دائماً بالنسبة لهم لغزاً غامضاً عصيّ عن التفسير، وأصبح يُعرف عموماً بـ"لغز أبو الهول" The Riddle of the Sphinx. هذا المصطلح كان سائداً بقوة بين مثقفي العالم القديم. يمكننا ملاحظة ورود "لغز أبو الهول" في العديد من المراجع والموسوعات القديمة والأعمال التاريخية المختلفة. أشهر المراجع التي ذكرت هذا اللغز هي تلك التي تناولت أسطورة "أوديبيوس" Oedipus.

تصف الأسطورة كائن مجنّح له جسم أسد ورأس امرأة يقبع على جرف صخري بالقرب من الطريق المؤدية إلى "طيبة"، وهي إحى المدن الرئيسية في مصر القديمة. كلما يمرّ مسافراً بالقرب من عرين هذا التمثال يتحداه أبو الهول بالإجابة على أحجية وإلا سيفترسه. تقول الأحجية ما يلي: ".. ما هو الحيوان الذي في الصباح يسير على أربع أقدام، وفي الظهيرة على قدمين، وفي المساء على ثلاثة؟..".

تقول الأسطورة بأن "أوديبيوس" وجد الحلّ المناسب للأحجية، إذ قال: ".. هذا الحيوان هو الإنسان الذي في صباح حياته، أي في طفولته، يدبدب على أربعة، وفي ظهيرة حياته يسير على قدمين، وفي مساء حياته يسير على قدميه مستنجداً بعصى مما يجعلها ثلاثة. بعد سماع الإجابة على أحجيته وثب أبو الهول من الجرف الصخري وتحطّم.

في الحقيقة، "أوديبيوس" لم يحلّ "لغز أبو الهول" بل قام بتدنيسه. لقد تم بهذه الطريقة تدنيس الكثير من الرموز المقدسة ذات المغاني العميقة. ربما تكون هذه الأسطورة مجرّد حكاية رمزية تحمل معاني أكثر عمقاً. لطالما كان الإغريق مبهورين بالثقافة المصرية، وقد أُرغموا على الاعتراف بحقيقة أن العلوم والإنجازات المصرية التي تناولت مجال الرياضيات والهندسة والفلك وغيرها تتجاوز مستوى الإنجازات والعلوم الإغريقية بدرجات عديدة. ربما خلال تواصلهم مع مصر وكهنتها العظماء (الذين كانوا في فترة أفول وتدهور) نقلوا منهم البذور الأولى لأساطيرهم وفلسفتهم التي أغنت الثقافة اليونانية ومنحتها دفعة قوية مما جعلها تبلغ أوجّها بعد عدة عقود فقط. وإحدى الأشياء التي نقلوها هي تلك التي أصبحت تُعرف بـ"لغز أبو الهول".

بعد التعرف على طريقة تفكير الحكماء القدامى، لا أعتقد أن الأمر بهذه الدرجة من التعقيد. لطالما التزم الحكماء بالبساطة في صياغة رموزهم وبالتالي لا داعي للمبالغة والحديث عن

الأحجيات والألغاز. المهم أن يكون الفرد على إلمام جيّد بمعاني الرموز المألوفة في أيامهم. إذا نظرت إلى تمثال "حور إي ماخو" (أبو الهول) سوف تجده مؤلفاً من رأس إنسان (غالباً مؤنث)، الساقين الخلفيين يمثلان رجلي الثور، الساقين الأماميين يمثلان يدي الأسد، والأجنحة (التي تم تحطيمها في إحدى العصور الماضية) تعود لطير النسر.

١ــ رأس الإنسان يرمز إلى الذكاء البشري الذي يساعد الفرد على حيازة المعرفة الصحيحة التي تشير إلى الهدف وتنير الدرب المؤدي إليه. العنصر الأنثوي مهم جداً في هذه العملية إذ هو القسم الخلاق في كينونة الإنسان وبالتالي زرع البذور الفكرية الصحيحة يولّد ذريّة فكرية صحيحة. (سوف أشرح المبدأ الأنثوي بالتفصيل في الجزء القادم).

٢ــ أرجل الثور ترمز إلى الصبر على العمل الشاق والقاسي، وبالتالي على المريد أن يتحلّى بالجَلَد والصلابة خلال خوضه مسيرة التحوّل إلى إنسان جديد.

٣ــ يدي الأسد ترمز إلى الشجاعة والإقدام الذي على المريد التحلّي به حيث عليه الدفاع عن نفسه عند مواجهة أي قوة دنيوية تحاول السيطرة عليه، كالشهوات التي تثير غرائزه.

٤ــ أجنحة النسر ترمز إلى العالم التجاوزي الذي يسعى إليه المريد من خلال ارتقاءه عبر المراحل التدريبية المتتالية بالتسلسل نحو هذه الغاية النهائية السامية.

هذه هي المعاني التي يرمز إليها "حور إي ماخو" الرابض عند مدخل الجامعة العالمية. هي الشروط التي وجب أن يستوفيها المريد قبل الدخول إلى الحرم الجامعي. لم يكن انتماءه الفكري أو الديني أو العرقي أو القومي أو القبلي أو غيره.. يمثّل أي عائق أمام قبول انتسابه، ولا حتى مؤهلاته العلمية تؤخذ في الحسبان. فقط هذه الشروط الواضحة والبسيطة. هل أنت مؤهل للدخول إلى الحرم؟ هل أنت مستعدّ لمواجهة الوحش الذي ينتظرك هناك في الداخل؟ هل أنت قادر على ترويض التنين الهائج داخلك بشراسة مرعبة؟ إذا كنت كذلك، فلنلتقي في الجزء التالي.



المراجع

-Electro Fractal Universe WebVersion-Colin Hill- 2006
-The Secret Teaching Of All Ages- Manly P. Hall [1927]
-The Lost Keys Of Freemasonry- Manly P. Hall
-The Secret Doctrine- Helena Petrovna Blavatsky [1888]
- Isis Unveiled - Helena Petrovna Blavatsky [1877]
-The Biggest Secret- David Icke [1999]
-Ra Un Nefer Amen (1990). Metu Neter, vol. 1: The Great Oracle of Tehuti, and the EgyptianSystem of Spiritual Cultivation.
-Ra Un Nefer Amen (1996). Tree of Life Meditation System (T.O.L.M)
-A Cyclical History of the World- Stephen E. Franklin
-Atkinson, William Walker: *Advanced course in yogi philosophy and Oriental occultism* - The Yogi publication society, [c1937]
-Atkinson, William Walker: *A series of lessons in Gnani yoga : (the yoga of wisdom* - The Yogi publication society, [c1917]
-Atkinson, William Walker: *Fourteen lessons in Yogi philosophy and Oriental occultism* - The Yogi publication society, [c1904]
-The Divine Cosmos - A Breathtaking New View of Reality by David Wilcock - 2002
- THE SCIENCE OF ONENESS - A DISCLOSURE OF EXTRATERRESTRIAL PHYSICS AND SPIRITUALITY- 2003

الفهرس